

البحث عن الذات

قصة حياتى

أنا أنور السادات فلاح نشأ وتربى على ضفاف النيل حيث شهد الإنسان مولد الزمان – أهدى هذا الكتاب إلى القارئ فى كل مكان . .

إنها قصة حياتى التى هى فى نفس الوقت قصة حياة مصر منذ ١٩١٨ . . هكذا شاء القدر .

فقد واكبت أحداث حياتى الأحداث التى عاشتها مصر فى تلك الفترة من تاريخها . . ولذلك فانا أروى القصة كاملة لا كرئيس لجمهورية مصر العربية . . . بل كمصرى ارتبطت حياته بحياة مصر ارتباطاً عضوياً منذ بدايتى إلى الآن . .

وحياتى . . مثل قصة حياة أى منا . . ليست فى الواقع إلا رحلة بحث عن الذات .

فكل خطوة خطوتها عبر السنين إنما كانت وما زالت من أجل مصر والحق والحرية والسلام .

هذه هى الصورة التى رسمتها لنفسى منذ الطفولة . . . والآن وأنا أنظر إلى بانوراما حياتى وحياة مصر تمتد أمام عينى بكل ما شهدته وما صاحبها من أحاسيس . . هل أستطيع أن أرى صورتى لنفسى وقد التقت بصورة مصر كما كنت أحلم بها من فوق سطح الفرن فى قريتى ميت أبو الكوم وأنا ما زلت صبياً فى العاشرة من عمره ؟

وهل يمكن أن أقول إن هذه الصورة قد تحققت أو على الأقل أصبح فى الإمكان التعرف عليها ؟

هذا ما أتركه للقارئ ليراه بنفسه .

السادات

مطابع الأهرام التجارية

٢٥ قرشاً

أنور السادات

البحث عن الذات

قصة حياتي

المكتب المصري الحديث

الطبعة الأولى إبريل ١٩٧٨

الطبعة الثانية أكتوبر ١٩٧٨

الطبعة الثالثة أكتوبر ١٩٧٩

هذا الكتاب نشر باللغات التالية :

الإنجليزية – الألمانية – الفرنسية – البرتغالية – السويدية – الهولندية – الإيطالية – النرويجية – العبرية – الفنلندية – الدانماركية – الأسبانية – اليابانية .

كما نشرت أجزاء وفصول من الكتاب في الصحف والمجلات التالية :

الأهـــرام	
مجلة التايم الأمريكية	Time Magazine
« باري ماتش الفرنسية	Paris Match
« بانوراما الإيطالية	Panorama
« لاريبوبليكا الإيطالية	La Republica
الأوبزرفر البريطانية	The Observer
نادي الكتاب (كتاب الشهر) بأمريكا	Book Club
بوك ديجست بأمريكا	Book Digest
مجلة دير شبيجل الألمانية	Der Spiegel

الناشر : المكتب المصري الحديث
٢ شارع شريف عمارة اللواء بالقاهرة تليفون ٧٥٤١٢٧
٧ شارع نوبار باشا الإسكندرية تليفون ٢٦٩٠٢

طبعة خاصة

بمناسبة العيد التاسع لثورة ١٥ مايو وقد ساهم السيد الرئيس بجانب من التكلفة الفعلية بالإضافة إلى تنازله عن حقوق التأليف لهذه الطبعة ،،

الناشر : أحمد يحيى
٢ ش شريف عمارة اللواء ـ القاهرة
تليفون ٧٥٤١٢٧ — ٨٠١٠٨٠

من أجل السلام

البحث عن الذات
قصة حياتى

أنا أنور السادات فلاح نشأ وتربى على ضفاف النيل حيث شهد الإنسان مولد الزمان – أهدى هذا الكتاب إلى القارئ فى كل مكان ..

إنها قصة حياتى التى هى فى نفس الوقت قصة حياة مصر منذ ١٩١٨ .. هكذا شاء القدر .

فقد واكبت أحداث حياتى الأحداث التى عاشتها مصر فى تلك الفترة من تاريخها .. ولذلك فأنا أروى القصة كاملة لا كرئيس لجمهورية مصر العربية .. بل كمصرى ارتبطت حياته بحياة مصر ارتباطاً عضوياً منذ بدايتى إلى الآن ..

وحياتى .. مثل قصة حياة أى منا .. ليست فى الواقع إلا رحلة بحث عن الذات .

فكل خطوة خطوتها عبر السنين إنما كانت وما زالت من أجل مصر والحق والحرية والسلام .

هذه هى الصورة التى رسمتها لنفسى منذ الطفولة .. والآن وأنا أنظر إلى بانوراما حياتى وحياة مصر تمتد أمام عينى بكل ما شهدته وما صاحبها من أحاسيس .. هل أستطيع أن أرى صورتى لنفسى وقد التقت بصورة مصر كما كنت أحلم بها من فوق سطح الفرن فى قريتى ميت أبو الكوم وأنا ما زلت صبياً فى العاشرة من عمره ؟

وهل يمكن أن أقول إن هذه الصورة قد تحققت أو على الأقل أصبح فى الإمكان التعرف عليها ؟

هذا ما أتركه للقارئ ليراه بنفسه



الفصل الأول

١

من ميت أبو الكوم إلى سجن الأجانب

العسل وصل . . يعلن المنادى فى أزقة وساحات القرية . . وتهرع جدتى وأنا أمسك بيدها وأسير إلى جوارها نحو الترعة حيث رست مركب العسل القادمة إلى (كفر زرقان) المجاورة لنا . .

ليس الطريق طويلا . . ولكن كل خطوة نخطوها تملأ قلبى فرحاً وفخاراً . . فالرجال على طول الطريق تقف تحية لجدتى — هذه المرأة التى لا تعرف القراءة والكتابة ومع ذلك كنت أرى الجميع يلجأون إليها لتحل مشاكلهم ولتشفيهم مما قد يصيبهم من أمراض بوصفات وأعشاب الطب العربى القديم التى لم يكن فى قريتنا أو فى القرى المجاورة من يتقنها مثلها . .

ونشترى زلعة العسل الأسود ونعود إلى دارنا . . أسير خلف جدتى صبيا أسمر ضئيل الجسم حافى القدمين يرتدى جلباباً تحته قميص أبيض من البفتة . . لا تفارق عينيه زلعة العسل .. ذلك الكنز الذى استطعنا الحصول عليه أخيراً . .

كم كان شهياً عندما نخلطه باللبن الرايب (الزبادى) . .

وكم كان يسعدنى كما لا يسعدنى أى شيء آخر . .

كل شيء فى القرية كان فى الحقيقة مصدر سعادة لى لا تماثلها سعادة أخرى . .

عندما نخرج لنشترى الجزر لا من بائع الجزر . . بل من الأرض نفسها . . عندما أضع بصلة فى محمى الفرن وهم يخبزون العيش ثم أعود آخر النهار فأخرج البصلة وآكلها . .

وحينما كنت ألعب مع أقرانى فى القرية فى ليالى القمر أو نسهر على المصطبة نحن والطبيعة من حولنا والسماء فوقنا لا فاصل بيننا . .

وشروق الشمس .. عندما كنت أسير مع عشرات الصبية والفتية والرجال أصحب الدواب والبهائم فى موكب خروج الفلاحين للعمل وسط خضرة لا يحدها البصر وبسطة الأرض التى تبدو كأن لا أرض بعدها .

كل شىء كان يسعدنى فى ميت أبو الكوم قريتى الوديعة القابعة فى أحضان دلتا النيل . . حتى برودة الماء فى الشتاء عندما كنت أخرج فى الفجر لأن الترعة قد امتلأت بالمياه ولكن لفترة لا تتعدى الخمسة عشر يوماً هى (النوبة) أو نصيب قريتنا من الرى . . ولذلك كان الإسراع بالعمل والمشاركة فيه أمراً ضرورياً فنحن كل يوم فى أرض واحد منا نرويها بطنبوره أو بطنبور غيره لا يهم . . المهم أنه بانتهاء النوبة تكون أرض القرية كلها قد ارتوت . .

هذا العمل الجماعى مع الغير ومن أجل الغير دون أن أنتظر منه ربحاً أو فائدة لى جعلنى أشعر أنى لا أنتمى إلى أسرتى الصغيرة فى دارنا أو أسرتى الكبيرة فى قريتنا . . بل إلى شىء أكبر وأهم هو الأرض . .

ولذلك فى رحلة العودة مع الغروب والدخان ينبعث من البيوت مؤذناً بعشاء شهى بعده اليوم فى القرية . . والهدوء يخيم على الجميع والسلام يعمر قلوبنا . . كنت أتأمل الشجر والزرع وأحس برباط خفى من الحب والصداقة يربطنى بكل ما حولى . .

فهذه الشجرة الوارفة من صنع الله . . أراد لها أن تكون فكانت . . وهذا الزرع اليانع الخضرة قد زرعنا حباته بأيدينا ولكن لولا إرادة الله ما كان . . وهذه الأرض التى أمشى فوقها . . ومياه الترعة تنساب بين ضفتيها . . كل شىء حولى من صنع إله كبير يرعاه ويتولاه . . وكذلك أنا . .

الشجرة والحبة والثمرة كلهن إذن زميلاتى فى الكون . . ألسنا جميعاً من نبت الأرض وبدونها لا نكون ؟ .

والأرض قوية صلبة . . وكل من ينتمى إليها لا بد أن يكون مثلها . . وإذ كانت هذه الخواطر تمر برأسى الصغير كنت أستعيد قول جدتى :

« لا شىء يساوى أنك ابن الأرض . . فالأرض هى الخلود لأن الله أودعها كل سره . . »

كم كنت أحب هذه السيدة . . كانت شخصية فى غاية القوة بالإضافة إلى الحكمة . . حكمة الفطرة . . والتجربة . . والحياة . . وطوال فترة نشأتى فى القرية كانت هى رأس العائلة ، فقد كان والدى يعمل مع الجيش فى السودان . . وكانت هى ترعانا وتخرج وراء الأنفار كأى رجل تتعهد الفدانين والنصف التى اقتناها والدى . .

أم الأفندى . . هكذا كانوا يطلقون عليها فى القرية . . ولهذا قصة . .

كان منتهى أمل القروى عندنا أن يدخل الأزهر . . ولكن جدى الذى كان يعرف الكتابة والقراءة وهو أمر نادر فى وقته . . أراد أن يشق لأبى طريقاً آخر . . فأدخله التعليم العام حيث حصل على الشهادة الإبتدائية . . وكانت فى ذلك الوقت تعتبر مؤهلا هاماً . . فالإحتلال البريطانى كان فى أول مراحله . . وجميع المواد كانت تدرس باللغة الإنجليزية . .

كان والدى أول من حصل على الشهادة الإبتدائية فى قريتنا . . ولذلك رغم أن بقريتنا الآن مهندسين وأطباء وأساتذة جامعات إلا أنه عندما يأتى ذكر الأفندى وأولاد الأفندى يعرف كل إنسان أنه والدى وأبناؤه . .

ويبدو أن جدتى أرادت لى أن أسير فى نفس الطريق الذى سار فيه والدى فأدخلتنى كتاب القرية حيث تعلمت الكتابة والقراءة وحفظت القرآن ثم نقلتنى إلى مدرسة الأقباط بطوخ حيث يوجد دير قديم مشهور مطرانه هو نفس مطران دير وادى النطرون . .

لم تكن المدرسة تبعد عن قريتنا بأكثر من كيلو واحد ورغم أننى لم أستمر بها طويلا إلا أننى ما زلت أذكر بوضوح مسيو (مينا) المدرس الذى كان يعلمنا كل شىء والذى كنا نخشاه ونحبه فى نفس الوقت . . وما زالت ترن فى أذنى دقات الجرس الكبير تعلن بدء اليوم الدراسى فيدق معها قلبى رهبة واحتراماً للعلم . .

أما كتاب القرية فما زلت أراه بعين الخيال وكأننى فارقته بالأمس . . العريف الطيب الشيخ عبد الحميد رحمه الله الذى شيعت جنازته منذ فترة

غير بعيدة . . وكنت أدين له بالكثير فهو أول من فتح لى أبواب المعـرفة والإيمـان . .

وأقرانى فى الكتاب وأنا أجلس بينهم على الأرض أحمل اللوح (الصفيح) والقلم البسط . . كل عدتى فى تلقى العلم . . وجيب جلابيتى الفضفاض الذى كنت أحشوه فى الصباح بالجبن الناشف المخلـوط بكسر الخبز التهمـه حفنة بعد حفنة أثناء الدروس وما بينها . .

كان إقبالى على العلم يتزايد يوماً بعـد يوم ولكنه لم يشغلنى يوماً عن القرية . .

كانت حياتى بها بهجة تتلوها بهجة . . فكل يوم يأتى بشىء جديد . . موسم الزرع . . موسم الرى . . موسم حصاد القمح . . الاحتفال بموسم الحصاد . . وأفراح القرية وصوانى الكنافة التى كنا نلتهمها فى نهم . . وموسم حصاد القطن الذى كان يأتى دائما مع البلح . . وكيف كنت أغترف القطن وأضعه فى عبى ثم أهرع إلى بائعة البلح وأعطيه لها فتعطينى ما يقابله من البلح .

وعندما كنت آخذ البهائم إلى الترعة لتشرب . . أو أجلس على النورج لدرس القمح . . أو أشترك مع غيرى من الصبية فى جمع القطن . كنت أحس فى كل مرة أنى أفعل هذا لأول مرة . . فقد كانت حياتى بالقرية اكتشافات تعقبها اكتشافات . . وكأنها ساقية تدور على بحر كل ما به دائماً جديد .

هذا الإحساس بأن كل شىء أفعله أو أراه جديد لم يفارقنى أبداً طوال فترة نشأتى بالقرية . . وكان مصدراً لا ينضب من مصادر سعادتى .

حتى القصص التى كانت تحكيها لى أمى أحياناً وجدتى أحياناً أخرى كل ليلة . . كنت فى كل مرة أستمتع بها وكأنها جديدة وكأننى لم أسمعها من قبل مع أنها هى هى نفس القصص لم تتغير .

ولم تكن هذه القصص حواديت الشاطر أو بطولات أبو زيد الهلالى . . بل كانت أقرب إلينا وألصق بحياتنا من تلك الأساطير البعيدة .

كانت إحدى هذه القصص تروى كيف دس الإنجليز السم لمصطفى كامل حتى لا يكمل كفاحه ضدهم . . لم أكن أعرف فى ذلك الوقت من هو مصطفى كامل

وأنه مات فعلا فى ريعان شبابه ولكنى عرفت لأول مرة أن هناك قوماً اسمهم الإنجليز . . وأنهم ليسوا منا . . وأنهم أشرار لأنهم يضعون السم للناس .

وكانت جدتى تحكى لنا أيضاً موال أدهم الشرقاوى وبطولاته وكفاحه ودهاءه فى محاربة الإنجليز والسلطة .

ولكن لعل مما ترك فى نفسى أثراً عميقاً موال زهران بطل دنشواى . . وأنا أستمع إليه من أمى وقد اعتليت سطح الفرن لدفئه وإلى جانبى الأرانب وإخوتى الصغار وقد استغرقوا جميعا فى النوم أما أنا فكنت بين اليقظة والنام .

كان هذا الموال يستهوينى كل مرة أستمع إليه . . فدنشواى قرية لا تبعد عن قريتنا بأكثر من خمسة كيلو مترات . . والموال يحكى كيف أن عساكر الإنجليز عندما شاهدوا أبراج الحمام فى دنشواى أطلقوا عليها الرصاص .

وطاشت طلقة أحرقت جرنا من أجران القمح . . وتجمع الفلاحون فأطلق عليهم الرصاص أحد عساكر الإنجليز وجرى . . جرى الفلاحون وراءه وأمسكوا به وحصلت معركة مات فيها العسكرى الإنجليزى . . وفى الحال قبضوا على الأهالى . . وشكلت محكمة عسكرية فى القرية . . وعلقت المشانق قبل صدور الأحكام التى قضت بجلد عدد من الفلاحين وشنق عدد آخر .

وكان زهران بطل المعركة التى قامت مع الإنجليز وكان أول من حكموا بشنقه . . ويحكى الموال عن شجاعة زهران وصموده فى المعركة وكيف أنه تقدم من المشنقة مرفوع الرأس فخوراً مزهوا بنفسه لأنه استطاع أن يتصدى للمعتدين وأن يقتل أحدهم .

كنت أستمع إلى الموال ليلة بعد ليلة وأنا بين النوم واليقظة — كما قلت — ولعل هذا ما جعل عقلى الباطن يختزن القصة . . وأطلق العنان لخيالى فكم رأيت زهران وعشت بطولته فى الصحو وفى المنام . . وكم تمنيت لو كنت زهران .

وهكذا أدركت من فوق سطح الفرن فى دارنا بالقرية أن هناك خطأ مـا فى حياتنا . . وقبل أن أرى الإنجليز . . وأنا مازلت داخل قريتى . . تعلمت أن أكره المعتدين الذين قتلوا وجلدوا أهلنا .

ولكن لم يكن هـــذا كل ما تعلمته فى ميت أبو الكوم فقد تعلمت ما بقى بعد ذلك معى طول العمر وهو أننى أينما ذهبت وفى أى مكان كنت فسوف أعرف دائماً أين أنا .. لن أضل الطريق أبدا .. لأنى أعرف أن جذورى هناك حية متأصلة فى أرض قريتى التى انبتتنى كما تنبت الزرع والشجر .

هكذا قضيت السنوات الأولى من حياتى فى قريتى الوادعة إلى أن كان يوم وجدت نفسى فيه أنتقل فجأة مع أسرتى إلى القاهرة لأن والدى – كما قالوا لى – قد عاد من السودان .

كم كان عمرى حينذاك ؟ لم أكن أعرف .. عرفت فقط بعد ذلك أن أحداث حياتى كانت تسير جنباً إلى جنب مع أحداث التاريخ .

هكذا – كما يبدو . . . . شاء القدر ؟

٢

جئت إلى القاهرة فى سنة ١٩٢٥ فى أعقاب مقتل السردار الإنجليزى سيرلى ستاك قائد الجيش المصرى فى سنة ١٩٢٤ .. فقد كان من أهم العقوبات التى وقعتها انجلترا على مصر أن يعود الجيش المصرى من السودان .. فعاد وعاد معه والدى . . .

كنا نسكن فى بيت صغير بكوبرى القبة وكان على أن أكمل تعليمى العام الذى بدأته بمدرسة طوخ فاختار لى والدى مدرسة الجمعية الخيرية الإسلامية لأنها كانت مدرسة أهلية ومصاريفها تناسب دخله . . .

وبالفعل أخذت أوراقى وذهبت إلى المدرسة لألتحق بها .. عندئذ فقط ومن واقع الأوراق التى تقدمت بها عرفت أنى ولدت فى ٢٥ ديسمبر سنة ١٩١٨ .

كانت المدرسة فى الزيتون وكنت أذهب إليها وأعود كل يوم سيراً على الأقدام . وفى الطريق كنت أمر بسراى القبة .. أحد قصور الملك فؤاد فى ذلك الوقت .

ومازلت أذكر كيف كنت وبعض أقرانى فى المدرسة نتلكأ حول سور حديقة السراى فى الربيع لنقتطف بعض ثمار المشمش .. رغم ما كان يعتلج فى

صدورنا من إحساس بالخوف والرهبة .. فمجرد الإقتراب من أى شىء يخص الملك كان معناه الهلاك لى ولعائلتى ولأى إنسان .

لم أكن أعرف فى ذلك الوقت السحيق أننى سأشارك وزملاء لى فى تغيير وجه التاريخ .. وأنى سوف أجتاز يوما ما هذا السور الرهيب .. وأجلس فى نفس المقعـــد الذى كان يجلس عليه الملك فؤاد ومن بعـــده فاروق ..

قضيت بمدرسة الجمعية الخيرية الإسلامية فترة التحضيرى وسنة أولى وثانية ابتدائى .. وأذكر أنى فى تلك المرحلة كنت متفوقاً فى التعليم فكنت أتناوب الأولوية على الفصل مع الدكتـــور حسن الشريف وزير التأمينات الأسبق رحمـــه الله ..

بعد السنة الثانية انتقلت إلى مدرسة السلطان حسين فى أول مصر الجـــديدة حيث أخذت الشهادة الابتدائية .. وبعدها التحقت أنا وأخى الأكبر طلعت بمدرسة فؤاد الأول الثانوية ..

كان ذلك فى سنة ١٩٣٠ .. وكان القانون يقضى بأن يدخل أحدنا مجاناً والآخر بمصـــاريف ولكن رفض طلبنا .. فاضطر والدى إلى دفع المصاريف لى ولأخى .. كان القسط الأول ستة عشر جنيهاً .. هى كل مرتب والدى .. أعطاه لى فدفعته للمدرسة .. ولما حل ميعاد القسط الثـــانى أخذه أخى طلعت من والدى ولكن بدلا من أن يدفعـــه للمدرسة هرب به إلى حيث لا نعرف وانفقه إلى آخـــره ثم عاد ليعلن أنه لا يرغب الاستمرار فى التعليم ..

ربما كانت هذه مشيئة القدر .. فبدون إحجام أخى عن التعليم كيف كان سيتسنى لوالدى بدخله المحدود الإنفـــاق على تعليمنا نحن الإثنين .. أغلب الظن أنه كان سيضطر إلى إيقاف تعليمى .. وخاصة أن طلعت هو أخى الأكبر ..

فى المدرسة الثانوية تفتحت عينـــاى لأول مرة على أهل المدينـــة وعرفت معنى الطبقة والفـــوارق .. فى المدرسة كان معى ابن وزير الحربية وابن وكيل وزارة المعارف .. وكان كل منهما ينتقـــل إلى المدرسة ويعود منها إلى البيت فى سيارة فاخـــرة (كونبيـــل) كما كنا نسميها فى القـــرية .. منظر مبهر

للغاية ولكنه لم يترك فى نفسى أى أثر للغيرة أو الحقد . . وطبعا زملائى فى الفصل كانت ملابسهم أفضل من ملابسى بكثير ولكن هذا لم يصبغنى بأى عقدة . . كان لى أصدقاء كثيرون من أولاد الذوات وكانوا يعيشون فى بيوت فخمة لم أرها من قبل ولكنى لا أذكر أننى تطلعت يوماً إلى ما هم فيه .. اطلاقاً .. فى البلد عندنا دارنا وبهائمنا والجميع يعرفون أننى ابن الأفندى – وقبل كل شىء – عندنا الأرض التى انتمى إليها . . صلبة . . دائمة . . لا تزول . . تماماً مثل قيم القرية التى لا يعرفها أهل المدينة . . .

فى الحارة التى كنا نسكن فيها بالقاهرة نزلت مرة لأشترى علبة كبريت من البقال . . قلت « أنا عاوز علبة كسفريت » وفجأة انفجر الزبائن بالضحك . . اندهشت فيما يضحكون ؟ قالوا لى « ضرورى تقول كبريت . . » صممت على « كسفريت » . واستمرت سخريتهم منى . . وفى مواجهة هذه السخرية جاءنى شعور بأننى أقوى منهم . . فمن هم لكى يسخروا منى ؟

إن أفضلهم فى نظرهم أغناهم مالا وأكثرهم حسباً ونسباً . . أما نحن فى القرية فلا نعير مثل هذه الأشياء أى اهتمام . . الرجل الذى على خلق عندنا قيمة عليا فى ذاته رغم ما قد يكون عليه من فقر مدقع . . وفى القرية عندنا شىء اسمه العيب . . ونحن ينتمى بعضنا إلى البعض بالتآخى والتعاون والحب . . أما هم فى المدينة فينتمون إلى مالهم وسلطانهم وبيوتهم الكبيرة الفاخرة وكلها عرض زائل فاقد القيمة . .

وهكذا كانت مجموعة القيم التى نشأت عليها فى القرية ولم أجد مثلها فى المدينة سنداً لى فى تلك المرحلة المبكرة من حياتى فقد عمقت إحساسى بالتفوق الداخلى الذى لم يفارقنى لحظة منذ أن نشأت والذى هو فى الحقيقة – كما أدركت بمرور الأيام – قوة داخلية لا تستند إلى أى مصدر مادى . . بل بالعكس . . فربما كان هذا الشعور بالتفوق الداخلى أقوى ما يكون عندما تنعدم أو تكاد المصادر المادية الخارجية .

فى مرحلة التعليم الثانوى كنت أعيش تحت خط الفقر فقد كان والدى بدخله

المحدود يعول أسرة مكونة من ثلاثة عشر ولدا وبنتاً . . ولذلك فرغم أننا كنا نعيش فى القاهرة كان بمنزلنا فرن نخبز فيه العيش . . إذ أن شراء الخبز من السوق كما يفعل أهل المدينة . . كان أمراً لا طاقة لنا به . .

وكان مصروف يدى مليمين فى اليوم وبهذا المبلغ الضئيل كنت أشترى كوباً من الشاى باللبن وأشربه وأنا أحس أنى أسعد إنسان فى العالم . . فى حين كنت أرى زملائى من حولى يشترون أفخر أنواع الشكولاته والحلوى من (كانتين) المدرسة . . وكان لدى الواحد منهم أكثر من حلة فاخرة يختار من بينها ما يروق له فهو دائماً أنيق متجدد . . أما أنا فكانت عندى حلة واحدة أكل عليها الدهر وشرب ولكنى لا أملك تغييرها أو حتى تجديدها . .

وحين أتذكر هذه الأشياء الآن لا أذكر أنها يوماً جعلتنى أحس أننى أقل من زملائى فى شىء بل وفى تلك السن المبكرة لم تكن على الإطلاق مدعاة إلى أن أقارن بينى وبينهم . .

أذكر فقط أنى عندما تقدمت للحصول على شهادة إتمام الدراسة الثانوية كان علينا أن نرفق بالاستمارة صورة شخصية . . وكان لهذه الصورة أهمية خاصة فى نظر أى طالب . . فشهادة التوجيهية هى بطبيعة الحال نقطة تحول فى حياته . . ولذلك ذهبت إلى والدى وطلبت منه حلة جديدة أتصور بها هذه الصورة التاريخية . . وأدرك والدى أهمية مطلبى ولكنه قال . . « أمهلنى يوماً أو اثنين لأدبر المبلغ » . . وفى اليوم الثالث جاء إلى وهو باسم الوجه وقال « وجدت الحل . . اذهب إلى وكالة البلح . . هناك الدكاكين كلها متشابهة ولكن هذا هو اسم صاحب الدكان الذى أريدك أن تذهب إليه . . » وأعطانى مائة وخمسين قرشاً . .

لم يكن حجم الدكان يزيد على متر ونصف فى مترين . . وفى واجهة الدكان طاولة بطوله تقريباً يقف وراءها صاحب المحل وخلفه أثواب القماش وقد رصت على عدة رفوف . . وفى الزاوية ماكينة خياطة . . انتقيت القماش وتناوله منى الرجل وأعمل فيه المقص ثم جلس إلى ماكينته .. وبعد ساعة ونصف ناولنى حلتى الجديدة . .

لم تكن بالطبع لتقارن بما أعده زملائى فى المدرسة لهذه المناسبة ولكنى كنت سعيداً بها كل السعادة . . فهى تفى بالغرض ولا يهم على الإطلاق إذا كانت خشنة الملمس أو رخيصة المظهر . . ثم بها أو بدونها أنا هو أنا . . ذلك الفـــروى الصغير الذى يرى فى فلاحة الأرض ما يميزه ويميز من يمارسها على أهل المدينة الذين يعيشون على التجـــارة . .

هكذا كانت حيـــاتى طوال مدة تعليمى بالقاهـــرة سلسلة من المقارنات أو المفارقات المستمرة بين المدينة والقرية . . ولكنها لم تكن فى أى وقت فى صف المدينة بأى حال من الأحوال . . على العكس أشياء كثيرة أزعجتنى فى القاهرة .

مثلا منظـــر (الكونستابل) الإنجليزى على الموتوسيكل يجوب الشوارع ليل نهار وبدون انقطـــاع كالمجنون . . بوجهه الذى فى لون الطماطم فظ . . بليـــد . . وعينيه الجاحظتين وفمـــه المفتوح دائماً كفم الأبله . . ورأسه المنتفخة يغطيها طربوش طويـــل قرمزى يصل إلى أذنيـــه . .

كان الجميع يخشونه . . أما أنا فكنت أكره النظـــر إليه . . وأتساءل فى نفسى . . ما الذى أتى بهذا الغـــريب القبيح المنظـــر إلى المدينة ؟

لو أتى إلى قريتنا لما استطاع أن يسير خطـــوة واحدة . . ولكنه لم ولن يأتى . . لأنه لا يجرؤ . .

ووابور الزلط الذى فى كل مرة أصادفه كنت أراه يسير ورائى . . أسرع الخطى فيسرع خطاه . . أجرى فيجرى خلفى . . ما قصده بالضبط ؟ واضح أنه يسعى ليدوسنى تحت عجلاته الحديديـــة الضخمـــة . . ولكن لم ؟ وأنا لا أعرفه وهو لا يعرفنى . . ؟ ولم تنفعنى هذه الأسئلة فى شىء . . فكلما نظرت خلفى رأيته يلاحقنى فيزداد ذعـــرى . . ولم يكن لينقذنى منه كل مرة إلا إذا انعطفت فى حارة ضيقة لا تسمح بمروره أو أطلقت ساقى للريح بحيث لا أراه ولا يرانى . . فقد كان واضحاً أنه رغم جبروته ورغم ضآلتى إلا أنى كنت أسرع منه بكثير .

وأول مرة دخلت فيها السينما فى حياتى . . كان ذلك يوماً عصيباً . . فقد شاهدت قطار سكة حديد قادماً من أقصى الشاشة ومندفعاً بسرعة مذهلة نحوى . . ماذا أفعل ؟ أغمضت عينى ورجعت بمقعدى إلى الوراء . . ولكن صوت القطار ما زال

يدوى فى أذنى . . ففيم الانتظـــار ؟ قمت لتوى من مقعـــدى وبسرعة رحت اخترق الصفوف مهـــرولا فى طلب النجاة . . ولفت نظرى أن الناس كلها قابعـــة فى مقاعدها وكأن شيئاً لم يحدث . . هذا شأنهم قلت فى نفسى . . ولكن بمجرد أن بلغت نهاية الصف — وعيناى قد تسمرتا على الشاشة — لم أجد القطار . . . وجدت بدلا منه رجلا وامرأة يتناولان الطعام فى مقهى صغير فاخترقت الصف مرة أخرى وعدت إلى مقعـــدى . . أرقب أحداث الفيلم فى هدوء كما يفعل الآخـــرون . .

كم انبهرت ذلك اليوم بما رأيت . . وكان من نتيجة انبهارى أن حجزت تذكرة الحفلة التالية من الساعة الثالثة إلى السادسة بعد الظهر . . وتسمرت فى مقعدى لأشاهد القطار العجيب مرة أخرى .

كنت فى ذلك الوقت قد انتقلت من السنة الثانية الثانوية إلى السنة الثالثة . . ولكن بمجموع صغير فطلبوا منى أن أعيد السنة الثانية حفاظاً على النتيجة العامة للمدرسة فى شهادة الكفاءة وهى شهادة عامة كنا نتقدم لها بعد السنة الثالثة . . رفضت . . وسحبت أوراقى من المدرسة (مدرسة فؤاد الأول) وقدمتها إلى مدرسة أهلية هى مدرسة الأهرام حيث قبلونى بالسنة الثالثة . . وحصلت على شهادة الكفاءة فى نفس السنة .

وبإرادة التحدى — التى لم أكن بعد قد اكتشفتها فى نفسى فى ذلك الوقت المبكر — أخذت أوراقى مرة أخرى إلى مدرسة فؤاد الأول حيث التحقت بالسنة الرابعة ولكن فى الإمتحان فى السنة الرابعة إلى الخامسة وهى نهاية مرحلة التعليم الثانوى تكرر ما حدث لى عندما انتقلت من السنة الثانية إلى الثالثة فسحبت أوراقى من فؤاد الأول وذهبت بها ثانية إلى مدرسة الأهرام حيث قبلونى بالسنة الخامسة . . وتقدمت فى نهاية العام للحصول على شهادة التوجيهية . . ونجحت فى جميع المواد ولكنى رسبت فى المجموع .

كانت هذه نقطة تحول . . فقد أدركت أن رسوبى إنما كان دليلا على عدم رضاء الله عنى وعقاباً لى منه عز وجل . . لاستهتارى ربما . . وربما للثقة الزائدة عن الحد فى نفسى . . لم يكن أمامى من ملجأ سوى قيم القرية تحفظ علىّ نفسى كما

فعلت دائماً . . وبهذا الإحساس الغامض بالذنب والتوبة معاً نقلت أوراقى إلى مدرسة رقى المعارف بشبرا وحصلت على شهادة إتمام الدراسة الثانوية .

٣

قد يوحى ما حكيت عن إحساسى بالنوبة أنى أثناء تعليمى تخليت عن القرية ولو لبعض الوقت ولكن هذا لم يحدث على الإطلاق . . فبمجرد أن تنتهى الدراسة كنت أهرع إلى قريتى وأرتمى بين أحضانها . . مجتمعى المثالى الذى كنت أجد فيه نفسى . . بل وأجـــد فيه الوطن بأجمعه فلفترة طويلة كانت مصر عندى هى ميت أبو الكوم أما المفهوم الشمولى للوطن فلم أدركه ولم أشعر به إلا بعد انتهاء مرحلة التعليم الثانوى .

ولم يكن هذا بالأمر المستغرب فقد بدأ إحساسى بشىء أفتقده . . وبأن هناك وضعاً خاطئاً يجب إصلاحه وأنا أستمع إلى موال زهران ليلة بعد ليلة على سطح الفرن فى دارنا بميت أبو الكوم .

كان زهران مرتبطاً فى وجدانى بمصطفى كامل وبأدهم الشرقاوى فكلهم رجل واحد . . أو هكذا بدوا لى فى تحديهم للإنجليز البرابرة المعتدين الذين شنقوا وجلدوا أهلنا فى قرية دنشواى المتاخمة لقريتنا ولكن عندما جئت إلى القاهرة رأيت فى بيتنا صورة كمال أتاتورك وسألت عنه أبى فقال إنه رجل عظيم . . وكان أتاتورك فى ذلك الوقت مثلا أعلى فى العالم الإسلامى يتردد إسمه على كل لسان فقد قام ليحرر بلاده . . ويعيد بناءها . . وكان والدى شديد الإعجاب به كما كان معجبا بنابليون الذى حدثنى عنه طويلا وذكر لى فيما ذكر أنه عندما نفاه الإنجليز فى سانت هيلانه تعمد الحاكم الإنجليزى للجزيرة أن يجعل بوابة بيت نابليون قصيرة بحيث يضطر القائد الفرنسى الأسير إلى أن يحنى قامته فى كل مرة يدخل بيته أو يخرج منه . . ولكن نابليون لم يمكنه من غرضه فكان يجلس على الأرض ويدخل أو يخرج زاحفاً ولكنه رافع الرأس .

طبعاً هذه لم تكن إلا خرافة . . ولكنها تعكس صورة البطل فى وجدان الشعب المصرى وخاصة إذا كان هذا البطل خصما قوياً من خصوم الإنجليز الذين كنا

نعانى من احتلالهم لبلادنا ونرفض وجودهم بيننا بكل الوسائل التى كانت فى أيدينا فى ذلك الوقت .

من هنا كان إعجابى بسعد زغلول بدليل أنى كنت أخرج إلى شارع الخليفة المأمون كل مساء لانتظار خليفته النحاس باشا عندما ينتقل من بيته فى مصر الجديدة إلى بيت الأمة وعندما يعود . . فقد كنت أرى فى النحاس وفى الوفد فى ذلك الوقت رمزاً لكفاح المصريين جميعا ضد الإنجليز .

لا أستطيع أن أقول إن كان وعيى السياسى قد نضج أو حتى تشكل فى هذه الفترة المبكرة من حياتى . . كنت أشارك طبعاً فى الأحاسيس الوطنية التى كانت تعتلج فى صدر كل مصرى فأخرج فى المظاهرات . . وأساهم فى تكسير الصحون وحرق التراموايات وفى الهتاف بسقوط صدقى باشا وإعادة دستور سنة ١٩٢٣ . . دون أن أدرك ماذا كان ذلك الدستور .

ولكنى أستطيع أن أقول إنه إلى أن تركت المدرسة الثانوية كان قد تأصل فى نفسى شعور دفين بالكره للمعتدين وبالحب والإعجاب لكل من يحاول تحرير بلده . . أذكر أنه فى سنة ١٩٣٢ مر غاندى بمصر فى طريقه إلى إنجلترا . . وامتلأت الصحف والمجلات المصرية بأخباره وتاريخه وكفاحه فأخذت به واستولت صورته على وجدانى فما كان منى إلا أن قلدته . . خلعت ملابسى وغطيت نصفى الأسفل بإزار وصنعت مغزلا واعتكفت فوق سطح بيتنا بالقاهرة عدة أيام إلى أن تمكن والدى من إقناعى بالعدول عما أنا فيه . . فلن يفيدنى ما أفعله أو يفيد مصر فى شىء بل على العكس كان من المؤكد أن يصيبنى بمرض صدرى وكان الوقت شتاء قارس البرودة .

وعندما زحف هتلر من ميونخ على برلين ليخلص بلاده من آثار هزيمتها فى الحرب العالمية الأولى ويعيد بناءها كنت فى ذلك الوقت أقضى الصيف فى القرية . . فجمعت أقرانى وقلت لهم إننا يجب أن نفعل كما فعل هتلر وإننى أنوى الزحف على القاهرة من ميت أبو الكوم . . كان عمرى فى ذلك الوقت ١٢ سنة فضحكوا منى وانصرفوا عنى .

كانت هذه فى أغلبها إرهاصات تلقائية بخط كفاح لم أكن بعد قد تبينته ولكن

من بين هذه الإرهاصات التى كانت فى الحقيقة مجموعة انفعالات وتفاعلات مع الأحداث – بقى لى شىء واحد هو حبى لكمال أتاتورك . . فمن أتاتورك استهوتنى البدلة العسكرية وهو لم يستطع أن يفعل شيئاً ويحقق ثورته إلا بالقوات المسلحة .

كانت أحداث حياتى تسير جنبا إلى جنب مع أحداث التاريخ كما سبق أن قلت . . فقد انتهيت من إتمام دراستى الثانوية سنة ١٩٣٦ وفى نفس السنة كان النحاس باشا قد أبرم مع بريطانيا (معاهدة ١٩٣٦) . . وبمقتضى هذه المعاهدة سمح للجيش المصرى بأن يتسع . . وهكذا أصبح فى الإمكان أن التحق بالكلية الحربية . . قبل ذلك التاريخ كان الجيش المصرى ضيق الرقعة ضئيل الفاعلية وكان دخول الكلية الحربية قاصراً على أبناء الطبقة العليا .

ولكن رغم هذه التسهيلات الجديدة التى واكبت رغبتى فى دخول الكلية الحربية لم يكن التحاق بهذه الكلية – وهو منتهى أملى حينذاك – بالأمر السهل .

صحيح أنهم سمحوا لأبناء الطبقة المتوسطة والفقيرة بدخول الكلية ولكن كان باستمارة الدخول شرطان . . دخل الأب وثروته ثم الواسطة . . وفى كشف الهيئة كان ينادى رسمياً علينا . . فلان ابن فلان . . وواسطته فلان .

بالنسبة للشرط الأول كان والدى موظفاً بالحكومة فهو على الأقل عنده دخل ثابت أما الواسطة فمن أين لى بها ووالدى كما سبق أن ذكرت – مجرد باشكاتب بالقسم الطبى – لا يعرف أحداً من الباهوات أو الباشوات ؟

قالوا له إن رئيس الهيئة التى تقبل الطلبات هو اللواء إبراهيم باشا خيرى ولابد من الوصول إليه ولكن كيف ؟

كان إبراهيم باشا يمثل قمة الأرستقراطية فى ذلك الوقت . . فهو الذى عهد إليه الملك فؤاد بتعليم فاروق فى صدر شبابه الفروسية . . هو إذن معلم الملك وإلى جانب هذا هو وكيل وزارة الحربية . . ثم إنه متزوج سيدة من العائلة المالكة . . باختصار كان إبراهيم باشا نجماً من نجوم المجتمع . . فكيف الوصول إليه ونحن لا نملك الوصول حتى إلى سكرتير وزير ؟

أخيراً اهتدى والدى ببساطته المعهودة إلى أنه أيام خدمته فى السودان كان يعرف أحد الصولات .

وتصادف أن كان هذا الصول فى خدمة إبراهيم باشا فرتب لى ولوالدى – لا أعرف كيف – فرصة للقاء إبراهيم باشا . . وذات صباح توجهت مع والدى إلى قصر الباشا فى حدائق القبة أحد أحياء القاهرة الأرستقراطية فى ذلك الوقت.

دخلنا الفيلا الأنيقة ووقفنا فى الأنتريه . . هكذا كان الترتيب بحيث لابد أن يمر بنا الباشا فى طريقه إلى الخروج فنستلفت نظره ويسألنا عما نريد . . وفعلا نزل الباشا بعد قليل .

واقترب منه الصول وهمس فى أذنه ببعض الكلمات . . التفت بعدها إبراهيم باشا إلى والدى وقال له بكل عنجهية :

« آه . . آه . .أنت باشكاتب القسم الطبى . . ودا الولد ابنك اللى . . طيب . . طيب . . » ومضى مسرعاً نحو الباب . . وأبى يسير خلفه وهو يتمتم بكلمات لم أدركها ولا أحسب أنه هو نفسه كان يدرك ما يقول .

تجربة لم تبرح وجدانى أبدا ولا أظن أنى سأنساها مدى الحياة فقد كانت هذه أول مرة أدخل فيها بيت باشا أو التقى بأحد أفراد هذه الطبقة . . وتشاء الصدف أن ألتقى بابراهيم باشا نفسه بعد ذلك بسنوات وكان ذلك عندما استقبلته فى مكتبى وأنا رئيس مجلس الأمة . . كانت عنده مشاكل خاصة بأبنائه وقرض الحراسة وما شابه ذلك . .فساعدته فى حل جميع مشاكله وبعدها ذكرته بلقائنا الأول فى منزله ولكنى قلت له :

« إياك أن تتصور أن هذا اللقاء ترك فى نفسى أى أثر بالنسبة لك . . بالعكس أرجو أن تعتبر أنى فى أى وقت مستعد لتلبية جميع طلباتك . . فأنا أدين لك بالكثير : لا بالنسبة للقائنا فى قصرك بحدائق القبة . . بل لأنك كنت رئيس لجنة القبول التى أدخلتنى الكلية الحربية كما أدخلت جمال عبد الناصر وجميع ضباط مجلس قيادة الثورة . . فلولاك ما قامت الثورة . . . »

متناقضات ومفارقات لا نهاية لها ولكن لعل أبرزها أن الإنجليز الذين كان

هدفى من دخول الكلية الحربية خلاص البلاد منهم هم الذين ساعدونى على الالتحاق بالكلية .

فبعد أن تم لقاؤنا مع إبراهيم باشا خيرى فى قصره كان لابد أن أجد الواسطة كما تنص استمارة القبول كما أسلفت . . لم يجد والدى أحداً يلجأ إليه إلا حكيمباشى الجيش المصرى الذى كان والدى يعمل معه وهو انجليزى اسمه الدكتور فيتس باتريك . . واستجاب الرجل للطلب وكتب التزكية كما أوصى بى كبير المعلمين بالكلية وهو عضو لجنة القبول وانجليزى مثله .

وهكذا قبلت بالكلية الحربية وكان ترتيبى آخر المقبولين وعددهم إثنان وخمسون وذلك لأن واسطتى كانت أقـــل الوساطات شأناً . . ففى ذلك الوقت كانت الوساطات تتدرج من الأمير محمد على ولى العهد إلى الباشوات والباكوات من ذوى النفوذ .

ولكن بعد أن قبلت وذهبت لأدفع المصاريف حدثت مفاجأة لم تكن فى الحسبان . . فقد كان حمدى باشا سيف النصر وزير الحربية مع النحاس باشا فى مونتريه لعقد معاهدة إلغاء الإمتيازات الأجنبية التى كانت تعفى الأجانب من الخضوع للقانون المصرى (وكان أمراً شاذاً ومقرزا أن يرتكب الأجنبى الجناية فى مصر فلا تستطيع الحكومة المصرية أن تحاسبه أو تلقى عليه القبض وإنما تملك ذلك سفارته فقط ويحاكم أو يعفى من المحاكمة بمقتضى تلك الإمتيازات) أعود إلى القصة فأقول إن وزير الحربية وهو فى مونتريه لما أرسلوا له طلب التصديق على قبولنا بالكلية الحربيـــة كما يقضى القانون أرسل برقية يطلب حجز ستة أماكن لبعض أقربائه . . فاضطرت إدارة الكلية إلى حذف أسماء الست الأواخر وكنت أنا طبعاً أول المستبعدين .

عناء بعد ذلك كثير . . فقد التحقت بكلية الآداب ثم كلية الحقوق فكلية التجارة . . . ثم عاد حمدى سيف النصر وألحق أقاربه بالكليه . . وبعدها تدخل حكيمباشى الجيش وكبير المعلمين الإنجـــليز . . وأخيراً وبعد أن فقدت الأمل تماماً . . فوجئت ذات صباح بوالدى تطلب منى أن أتوجه فوراً إلى أبى فى مقر

عمله لآخـــذ منه مصاريف الكلية الحربية فقد قبلت بها . . وكان قد مضى على دخول أقرانى فى الدفعة ستة وعشرون يوماً كاملة .

فى الكلية الحربية كان أتاتورك مازال مثلى الأعلى . . فبدأت أقرأ عن الثورة التركية . . ورجعت أيضا إلى تاريخ مصر لكن ليس إلى أبعد من حملة نابليون . . فقد كنت أركز على الاحتلال البريطانى فى سنة ١٨٨٢ والخديعة التى دخل بها الإنجليز مصر وما ترتب عليها من المأساة التى كنا نعيشها .

مصـطفى كامل كنت مازلت أحبه ولكنى أخذت عليه أنه لم يلجأ إلى القوة . . وكان إيمانى أن الإنجليز لن يخرجوا إلا بالقوة .

ولكن هل كان الإنجليز هم المدانون وحدهم ؟

ماذا عن العائلة المالكة وهى أجنبية ؟ وماذا عن الخديوى توفيق واستعراضه للجيش الإنجليزى فى ميدان عابدين وكأنه بذلك يقر شرعية الاحتلال الإنجليزى فى مصر بعد هزيمة الجيش المصرى بالخديعة عام ١٨٨٢ ؟

إن نظام الحكم كان المسئول الأول عما حدث ويحدث لنا . . ففى حادث دنشواى مثلا كان القاضى والمحامى والنيابة كلهم من المصريين .

ومع هذه التساؤلات تطرح نفسها علىّ الواحدة بعد الأخرى . . بدأت مداركى تتفتح على الأوضاع شيئاً فشيئاً وبت أنتظر يوم تخرجى من الكلية الحربية بفارغ الصبر حتى أستطيع أن أفعل شيئاً . . فقد كنت أزخر بالعديد من الأمانى والآمال لمصر ولكنها كانت كلها مازالت حبيسة فى صدرى لم تترجم بعد إلى واقع .

٤

تخرجت من الكلية الحربية فى فبراير سنة ١٩٣٨ ومع خروجى إلى الحياة بدأت الطاقة المختزنة فى عقلى الباطن منذ سنين فى الإنطلاق .

فى طفولتى — كما حكيت — كنت أستمع إلى موال زهران كل ليلة قبل أن أنام . . وكنت أرى زهران وهو يصعد إلى المشنقة بخطى ثابتة . . رافع الرأس لا يخشى الإنجليز الذين حكموا بإعدامه ولا يخاف الموت الذى سيلاقيه بعد دقائق . .

فرغم قوة العدو وجبروته إلا أن زهران كان أقوى منه بكثير لأنه يملك أقوى الأسلحة وأمضاها وهو سلاح الرفض لكل ما يسعى إلى قهره وقهر أهله .

لم يفارقنى طيف زهران بعد ذلك . . التقيت به كثيراً فى الصحو وفى المنام . . وفى كل مرة كنت أتمنى أن أكون زهران وأن تحكى الناس قصتى كما جعلوا من قصته موالا تتغنى به الأجيال .

ومرت الأيام وبدأ الوعى يبدو . . فعرفت مصطفى كامل ومن قبله عرابى ثم أتاتورك . . وكانوا جميعا موضع إعجابى ولكن زهران ظل أقربهم إلى قلبى أرى نفسى فيه وأتمنى أن أفعل ما فعل ولكن بدلا من أن يحكم على الإنجليز بالإعدام أقود أنا ثورة تؤدى إلى هلاكهم وخلاص البلاد من حكمهم .

إن سلاح الرفض كان وسيظل دائماً أقوى أسلحة أهل الأرض الطيبة التى أحبها أكثر من أى شئ فى الوجود . . وهل يملك الإنسان إلا أن يكون ابن أرضه ووريث أسلافه ؟

كان إحساسى بالقوة الداخلية مازال يلازمنى بطبيعة الحال ولكن كان يصاحبه الآن إحساس بقوة خارجية فقد أصبحت ضابطاً بالقوات المسلحة وكنت أومن بأنه لن يخلص مصر من الإنجليز وفساد الحكم إلا القوة .

فيم الإنتظار إذن؟ لابد من عمل تنظيم يهدف إلى ثورة تقوم بها القوات المسلحة.. هذا هو طريق الخلاص . . ولا طريق غيره . ولكن هل يمكن أن تقوم الثورة من فراغ ؟ لابد من تهيئة النفوس وهذا لا يتأتى إلا بخلق وعى كامل على قدر المستطاع بالأوضاع التى تعانى منها مصر فى ذلك الوقت .

قلت أبدأ بوضعنا نحن كضباط فى الجيش المصرى فأقرب الطرق إلى قلب الإنسان ما يمسه هو شخصياً ولذلك ركزت فى أحاديثى مع زملائى الضباط على وضعين لم يكن أحد يختلف على أنهما يسيئان إلى الجيش وإلى حياتنا فى القوات المسلحة وهما البعثة العسكرية البريطانية ومالها من سلطات مطلقة ثم جيل كبار الضباط المصريين وانسياقهم الأعمى إلى ما يأمر به الإنجليز . .

كنا فى ذلك الوقت فى منقباد وكانت الاجتماعات تتم فى حجرتى بميس الضباط فقد كانت بالصدفة حجرة ضابط عظيم . . شقة صغيرة تقريباً . .

إذ عند نقلى إلى منقباد كانت حجرات صغار الضباط أمثالى كلها مشغولة فأعطونى هذه الحجرة . :

كنا نجتمع فيها كل ليلة نشرب الشاى ونتسامر ، وفى أثناء السمر كنت أعمل — دون تعمد واضح — على تفتيح أعين زملائى على أوضاع البلد عامة ووضع الإنجليز بصفة خاصة . .

كانت جلساتنا تستغرق وقتاً طويلا . . وكانت تدور بيننا مناقشات لا حصر لها ولكنها كانت ليلة بعد ليلة تضيف إلى إدراك زملائى الضباط لأوضاع البلد وتعمق إحساسهم بخطئها .. أغلبهم كانت تنقصه الثقافة السياسية . . وكنت أنا ألجأ إلى التاريخ أنتقى منه الصور المناسبة ثم أعقد المقارنات بين هذه الصور وبين الحاضر الذى نعيشه بمشاكله ومآسيه . . ولكنى كنت . . عن عمد . . أتحاشى إقتراح الحلول . . وكان لهذا الأسلوب فى الإثارة والإقناع أثره الفعال فقد كنت أرى الزملاء ينصتون إلىّ فى صمت ثم يستفسرون ويسألون ويستوعبون . وإذ كانت مداركهم تتفتح شيئاً فشيئاً كنت أرى بعضهم يثير قضايا جديدة ويقلبون الأمور على وجه بعد وجه والحماس يملأ صدورهم والألم أحياناً يعتصر قلوبهم .. وكانت كل القضايا تدور دائماً حول مصر وخلاص مصر مما تعانيه حتى أنهم أطلقوا على حجرتى الكبيرة بميس الضباط (بيت الأمة) . .

طبعاً كان يتخلل حديثنا بعض المزاح والنكات والسمر . . وكنت أشاركهم فى الهزل كما أشاركهم فى الجد . . فقد كنا جميعاً شباباً لا يتجاوز أكبرنا سناً العشرين من عمره . . هذا إلى جانب أن هذه كانت الطريقة المثلى . . فلم يكن من المصلحة فى شىء أن أنعزل عن إخوانى أو أن أشعرهم أنى أختلف عنهم . .

المرة الوحيدة التى شعرت فيها بأنى أختلف عن زملائى كانت عندما زارنا عزيز باشا المصرى بصفته المفتش العام للجيش المصرى وأخذنا معه لزيارة الدير المحرق الذى لم يكن يبعد عن المعسكر كثيراً فى الوجه القبلى . :

كان قصده من هذه الزيارة تثقيفنا فقد كان دائم الدعوة إلى الثقافة . . المهم أننا عندما دخلنا الدير المحرق . . ولم يكن أحد منا قد رآه من قبل . . وجدنا

القسيس أو الكاهن الصغير يعيش فى صومعة .. وهى قاعة ليست لها شبابيك فيما عدا فتحـــة صغيرة فى الحائط لا يزيد قطرها على البوصتين . . وينام على مصطبة من الطين . . . ودهش الجميع من هذا الأسلوب فى الحياة وأشفقوا على القسيس من كل هذا التقشف أما أنا فلم أدهش ولم أجـــد فى هذه الحياة أى تقشف . . فقد ولدت فى صومعـــة مشابهة وإن كنا فى القرية نسميها القاعة . . أما المصطبة فهى نفس المصطبة التى قضيت فوقها أيام وليالى حياتى فى ميت أبو الكوم .

تركت زيارة عزيز المصرى أثراً عميقاً فى نفسى فقد شاهدت بعينى هذه الشخصية الأسطورية التى شاركت فى الثورة التركية مع أتـــاتورك كما كان أحد مؤسسى جمعيـــة الاتحاد والترقى وجمعية تحرير الأمـــة العربية . . هذا إلى جانب تاريخه الطـــويل الملىء بالكفاح . . وولعه بالثقافة والدعوة إليها . .

والثقافة كانت دائما تستهوينى وبوجه خاص فى تلك المرحلة المبكرة فى حياتى فجنباً إلى جنب مع الخط السياسى الذى بدأته مباشرة بعد تخرجى من الكليـــة الحـــربية التزمت بخط ثقافى لم يكن فى نظـــرى يقل أهمية عن الخط السياسى لأنه فى الواقع يدعمه ويقويه .. ولذلك حاولت الالتحاق بالمعهد البريطانى بالقاهرة للحصول على البكالوريوس فى الآداب من جامعـــة لندن . . وكنت مولعاً بالقـــراءة وأتصيد الكتب من على سور الأزبكية كلمـــا ذهبت إلى القاهرة أما وأنا فى الأقاليم فكنت أكتب إلى الناشرين والمكتبات فى طلب قوائم الكتب أنتقى منها ما يروقنى فيرسلونها إلى الملازم ثان محمـــد أنـــور السادات . . أينما كنت . .

فى هذا بالذات كنت أختلف عن بقية زملائى . . أذكر ونحن فى منقبـــاد كان يحملنا عصر كل خميس أتوبيس عسكرى خاص إلى أسيوط لقضاء ساعات المساء بها . . وكان زملائى يذهبون إلى السينما أو أماكن اللهـــو الأخرى . . أما أنا فكنت أجلس فى مقهى وسط ميدان قريب من محطة السكة الحديد أدخن الشيشة وأقرأ الكتب التى تسوقتها من القاهـــرة وأنا فى غاية السعادة إلى أن يعود إخوانى من لهوهم ويعود بنا الأتوبيس جميعاً إلى المعسكر . .

كانت جلساتنا فى حجرتى بالميس تتسع يوماً بعد يـــوم وكان عدد الضباط الذين يشاركون فيها يزداد وأذكر أنى رأيت جمـــال عبد الناصر لأول مرة

فى هذه الجلسات فقد لحق بنا هو الآخر مع كتيبته فى منقبـــاد . . وكان انطباعى عنه أنه شاب جاد لا يميل إلى المزاح مثل غيره من الزملاء ولا يقبل أن يضاحكه أى إنسان لأنه كان يرى فى هذا مساساً بكرامته مما جعـــل أغلب الزملاء يبتعدون عنه بل ويتحاشون الكلام معه حتى لا يسىء فهمهم . . كان ينصت إلى مناقشاتنا باهتمـــام ولكنه لا يتكلم إلا فى القليـــل النادر وقد توسمت فيه الجدية لأول وهلة وكنت تواقاً إلى المزيد من التعرف عليه . . ولكن كان من الواضح أنه يقيم بينه وبين غيره من الناس حاجزاً من الصعب اجتيازه . . فقد كان منطـــوياً على نفسه بشكل يلفت النظـــر ولذلك فكل ما قام بيننا — فى تلك المرحـــة — لم يخرج عن نطـــاق الاحترام المتبادل ولكن عن بعـــد . .

استمرت الجلسات ولم ينقطـــع الكلام أو الحـــوار عن أوضاع مصر ومشاكلها ولكن كل هذا كان يدور فى نطاق محـــدود . . وكنت أريد مجالا أوسع لتنفيذ الخطـــة التى وضعتها للعمل السياسى عند تخرجى وكان هـــذا المجال الذى أنشده هو القاهـــرة بطبيعة الحال . . ولكنى كنت بعيـــداً عنها وسأظل كذلك ما دمت فى سلاح المشاة . .

من هنا بدأت أضيق بالخدمة فى هذا السلاح إلى جانب تبرمى بالبعثة البريطانية وبقائد محطتنا فى منقباد الذى كنا نسميه السلطان عبد الحميـــد لقسوته وبطشه الذى كان يحاول عن طريقه إخفاء جهلـــه من جهة وإرضاء رؤسائه الإنجليز من جهـــة أخرى . . ولكن أين المفـــر ؟

وأخيراً حانت الفرصـــة فقد كنت واحداً من الضباط الذين اختارتهم القيادة للحصول على فـــرقة إشارة بمدرسة الإشارة بالمعادى قرب القاهـــرة . . كان ذلك فى أوائل سنة ١٩٣٩ وكان معى فى نفس الفـــرقة عبد الناصر الذى وصل منقبـــاد بعـــد وصولنا بستة أشهر ولكن كان الحـــاجز مازال قائما بيننا . .

انتهى التدريب بعد شهرين ونصف وهى المدة المحددة للفـــرقة وعقد الامتحان ثم أقاموا لنا حفل تكريم قبل أن نعـــود إلى وحداتنا . . لم يكن عندى أى أمل فى أن التحق بسلاح الإشارة الذى أنشىء حديثاً فى الجيش . . فقد كان فى ذلك الوقت أهم الأسلحـــة جميعاً ولابد لدخوله من واسطة كبيرة مثل كل شىء آخـــر . . وعهد إلىّ بالقاء كلمـــة فى حفل الوداع نيابة عن زملائى . .

وقد وجدت فى إعدادها متعة لم أعرفها من قبل وهنا اكتشفت لأول مرة أن لدى قدرة على الكتابة وسياق مفاهيم ومعانى جديدة مترابطة . .

كانت كلمتى هادئة ولها معنى متكامل ولم أقرأها من الورق بل ألقيتها من الذاكرة ويبدو أنها راقت قائد سلاح الإشارة الأميرالاى إسكندر فهمى أبو السعد وكان أديباً فما أن عدت إلى كتيبتى بمنقباد حتى نقلت للعمل بسلاح الإشارة بالمعادى وكان ذلك من أسعد أيام حياتى فأخيراً أتيحت لى الفرصة التى انتظرتها طويلا . .

بدأت الاتصالات فوراً وعلى نطاق واسع شمل أغلب أسلحة الجيش فى القاهرة التجمع الأكبر من الضباط . . وبدلا من حجرتى بمنقباد بدأنا نلتقى فى شقتى بكوبرى القبة . . فى نادى الضباط . . وفى المقاهى وبيوت بعضنا . .

كان الاتصال أول الأمر قاصراً على زملاء السلاح والسن فى دفعتى .. ولكن انتصارات هتلر المتلاحقة فى سنة ٣٩ ، ٤٠ ، ٤١ . . وهزائم الإنجليز شجعتنى على أن أوسع الدائرة شيئاً فشيئاً حتى شملت الكثيرين ممن التحقوا بالجيش بعدنا ونفراً غير قليل ممن كانوا أسبق فى الخدمة منا .

كان الجميع يستجيبون للدعوة بسرعة وحماس . . وكانت الدعوة أننا يجب أن ننتهز الفرصة ونقوم بثورة مسلحة ضد الإنجليز فى مصر . .

هكذا قام أول تنظيم سرى من الضباط وكان ذلك فى سنة ١٩٣٩ . . كان ضمن أعضائه عبد المنعم عبد الرؤوف وكان يعتبر الرجل الثانى بعدى . . وعبد اللطيف بغدادى وحسن إبراهيم وخالد محيى الدين وأحمد سعودى حسين الله يرحمه . . وحسن عزت والمشير أحمد إسماعيل . . الذى كان يحضر اجتماعاتنا دون مشاركة سياسية فقد كان يرحمه الله رجل عسكرية كرس حياته لعمله وتخصصه . .

لم ألجأ إلى الخلايا السرية للدفع بهذه الثورة المسلحة لبلوغ أهدافها كما فعل عبد الناصر بعد عودته من السودان فى ديسمبر سنة ١٩٤٢ وتسلمه التنظيم فى أوائل سنة ١٩٤٣ بعد اعتقالى فى صيف ١٩٤٢ ففى تلك السنة كان خط

هتلر قد بدأ فى الإنكسار وبالتالى استعاد الإنجليز قوتهم فى مصر فكان على عبد الناصر أن يخطط للمستقبل . .

أما أنا فلماذا أخطط لثورة على مدى زمنى بعيد ؟ كانت الأحداث وما أعقبها من ردود أفعال – أى انتصارات هتلر المتلاحقة وهزائم الإنجليز كنتيجة حتمية لهذه الانتصارات قد جعلت الباب أمامى مفتوحاً للعمل المباشر . . ففيم الإعداد للمستقبل والفرص متاحة أمامنا وواجبنا أن ننتهزها قبل أن تفوت .

فى هذا الاتجاه سرت وأسرعت الخطى . . فإلى جانب اتصالاتى الواسعة بالضباط وتشكيل الهيكل التنظيمى للثورة بدأت أتصل بالجنود فى وحدتى بالمعادى وألقى عليهم محاضرات عن المعركة والموقف العسكرى فى العالم وموقفنا من الإنجليز والأوضاع فى مصر . . كيف كانت وكيف أصبحت . . وإلى جانب هذا كنت أحدثهم عن الوطن والوطنية كما كنت أصلى بهم . .

وتصادف وجود بعض الإخوان المسلمين بين جنودى ففوجئت يوم مولد النبى سنة ١٩٤٠ بأحدهم يهمس فى أذنى بأن بالباب رجل ممتاز فى الدين يريد أن يقول كلمتين للجنود بمناسبة المولد وكنت ضابط النوبة فى تلك الليلة .. سألت من يكون . . ولما عرفت أنه الشيخ حسن البنا المرشد العام للإخوان المسلمين رحبت به وجعلته يلقى المحاضرة على الجنود بدلا منى . .

كان ممتازاً فى اختياره للموضوعات وفهمه للدين وشرحه وإلقائه . . من كل النواحى فعلا كان الرجل مؤهلا للزعامة الدينية . . هذا إلى جانب أنه كان مصرياً صميماً بكل ما تحمله هذه الكلمة من دماثة خلق وسماحة وبساطة فى معاملة الناس . .

كنت قد سمعت الكثير عن الإخوان المسلمين وكنت أتصور أنها جماعة دينية هدفها الوحيد الإصلاح الخلقى وإحياء قيم الإسلام . . ولكنى بعد أن استمعت إلى الشيخ البنا بدأ مفهومى يتغير بعض الشىء فقد كان الرجل يتكلم عن الدين والدنيا معاً . . وبأسلوب جديد لم نألفه من رجال الدين .

أعجبت به كل الإعجاب فبعد أن انتهى من المحاضرة هنأته من كل قلبى . . وجلسنا نتبادل الحديث لبعض الوقت . . وقبل أن يخرج دعانى لحضور درس

الثلاثاء الذى كان يلقيه كل أسبوع بعد صلاة المغرب فى مقر المركز بالحلمية الجديدة .

وذهبت إليه وحضرت بعض الدروس وفى كل مرة كان يصطحبنى إلى مكتبه الخاص لنتجاذب أطراف الحديث .. ولفت نظرى ماكان عليه الإخوان من تنظيم وما كانوا يحيطون به المرشد العام من احترام وتبجيل يكاد يصل إلى درجة التقديس حتى أنهم فى معاملتهم لى كادوا يقبلون الأرض بين يدىّ لمجرد أنه كان يدعونى للجلوس معه فى مكتبه . .

كان الإخوان دون شك قوة لا يستهان بها ويكفى للتدليل على هذه القوة أنه كانت أمام مقرهم بالحلمية فيلا رائعة أراد الشيخ البنا أن يجعلها مقراً جديداً للجمعية فطرحها للاكتتاب وفى أقل من يوم غطى الاكتتاب واشتراها . .

بعد سماعى لعدد من دروس الثلاثاء وقبل ذلك المحاضرة التى ألقاها على جنودى يوم مولد النبى ساورنى الظن بأن الشيخ البنا إنما كان يعمل على مستوى سياسى وبطريقة ذكية للغاية فهو فى أحاديثه لا يتعرض للسلطة على الإطلاق . . وإنما يتكلم عن الإسلام فحسب ديناً ودنيا . . وكيف أنه صالح للروح كما أن لا صلاح للحكم بدونه . :

وأكد هذه الظنون ما سبق أن دار بينى وبين الضابط العظيم لفرقتى من حديث حول الشيخ البنا . . فبعد محاضرته فى الجنود يوم مولد النبى . . زارنى الضابط العظيم فى حجرتى فى ساعة متأخرة من الليل . .

قلت : خيراً . :

قال إنه إنما جاء ليقول لى كل سنة وأنت طيب بمناسبة المولد . . ثم دخل فى الموضوع مباشرة فأخبرنى أن المخابرات قد علمت بزيارة الشيخ البنا . . فحركاته مرصودة من الدولة لأن تنظيمه فى الواقع تنظيم سياسى ولذلك فهو يحاول أن يجند أفراد القوات المسلحة لبلوغ أهدافه . .

وعرفت بعد ذلك ما لم يقله لى الضابط العظيم أن عند الشيخ البنا وتنظيم الإخوان ضابطاً متقاعداً اسمه محمود لبيب هو رئيس الفرع العسكرى بالإخوان قد استطاع بالفعل تجنيد بعض الجنود والضباط .

كان هذا أول تنبيه لى . . ومع ذلك داومت على حضور دروس الثلاثاء . . ولكن لم يكن يعجبنى منظر الإخوان وهم يقبلون يد المرشد العام . . فأنا لا أميل بطبعى إلى هذا النوع من العلاقة بين الناس فكلنا بشر وكلنا سواء (ولو أننى كنت أقبل يد أبى إلى أن مات وبعد ولايتى كرئيس للجمهورية) ولذلك تعمدت بعد ذلك أن أذهب للقائه قبيل انتهاء الدرس فيصطحبنى كعادته إلى مكتبه الخاص ويبدأ الحديث معى . .

كان دائماً فى منتهى اللباقة والحرص فهو يتلمس طريقه إلى قلبى فى كل حوار يدور بيننا أما الأسئلة التى يوجهها إلى فقد كان هدفه منها استكشاف نواياى ومقاصدى . . وكنت أنا على وعى تام بما يحاول صنعه ففى إحدى اجتماعاتنا قلت له . .

ـ اسمع يا شيخ حسن . . واضح أنك حريص أكثر من اللازم فى الحديث معى وأنا لا أرى داعياً لهذا . . بصراحة أنا أسعى إلى عمل تنظيم عسكرى هدفه قلب الأوضاع فى البلد . .

باغتت الرجل هذه المفاجأة . . فنظر إلى فى دهشة ولم يعرف ماذا يقول . . ربما كنت أحد رجال المخابرات . . وربما كنت مدسوساً عليه من جهة أو أخرى . . وقطعت عليه صمته بقولى :

ـ نعم أنا أسعى إلى ثورة مسلحة . . ومعى عدد كبير من الضباط من كل أسلحة الجيش . . وحركتنا تسير . بدأ يسألنى أسئلة محددة . . أىّ أسلحة الجيش معكم ؟ وما مدى قوتكم ؟ وكم عدد الضباط الذين يمكن أن تعتمد عليهم للقيام بهذه الثورة ؟

وأجبته . . وفجأة طلب منى أن ننسق العمل معاً . . قلت له :

ـ لقد صارحتك بكل شىء . . وأحب أن أقول لك بنفس الصراحة . . نحن تنظيم لا يخضع ولا يعمل لحساب أى حزب أو هيئة وإنما لمصلحة مصر ككل . . وأرجو أن يكون ذلك واضحاً منذ البداية . .

وأمن الرجل على كلامى وقال :ـ يكفى فقط أن نتعاون . .

ولم يمض بعد ذلك وقت طويل حتى كان قد جند لحساب الإخوان عبد المنعم عبد الرؤوف الرجل الثانى بعدى فى تنظيم الضباط الأحرار .

٥

كنت مفتوناً بشخصية عزيز المصرى منذ لقائنا فى منقباد وكان معروفاً عنه أنه يكره الإنجليز حتى أن سير مايلز لامبسون السفير البريطانى فى ذلك الوقت طلب من على ماهر إقالته من منصبه بالجيش ولكن على ماهر اكتفى باعطائه إجازة مفتوحة . .

كنا بحاجة إلى الإفادة من خبرات هذا المحارب العظيم وإرشاداته . .

هكذا أحسست . فطلبت من الشيخ حسن البنا أن يجمعنى به وكان ذلك فى سنة ١٩٤٠ وهى نفس السنة التى التقيت فيها بالشيخ البنا . .

واستجاب الرجل على الفور . . فطلب منى أن أتوجه إلى عيادة الدكتور إبراهيم حسن بالسيدة زينب . . وكان فى ذلك الوقت وكيل الإخوان . . وأحجز تذكرة كأى مريض عادى ثم أدخل للكشف وبعد ذلك يقوم الدكتور حسن بالمطلوب . . وفعلا بمجرد أن دخلت على الدكتور حسن وقدمت التذكرة . . فتح باب حجرة مكتبه وهناك وجدت عزيز باشا فى انتظارى . .

حييته وذكرته بلقائنا فى منقباد ثم بدأت أتكلم فى شئون البلد وأحوال الإنجليز وأحوالنا . . لن أنسى أبداً هذا اللقاء الأول مع عزيز المصرى . . كان متردداً فى التحدث معى . . وصارحنى بأنه متشكك فى أمرى . . وأنى ربما كنت أحد رجال المخابرات أو أى شىء من هذا القبيل . . قلت له . . لو كان الأمر كذلك لالتقيت بك مباشرة ولكنى كما ترى أتيت إليك عن طريق الشيخ حسن البنا وأظنك تثق به . .

فلما اطمأن سألنى : ما سبب مجيئك وماذا تريد منى ؟

قلت : نحن ضباط فى مرحلة تنظيم يهدف إلى طرد الإنجليز من مصر و تغيير الأوضاع فى مصر .. وباعتبارك شخصية عسكرية كبيرة نتطلع إليها جميعاً .. نرجو أن تسمح لنا بأن نرجع إليك من آن لآخر لكى ترشدنا وتفيدنا بخبرتك وتجاربك . .

قال : أول درس أقوله لكم . . اعتمدوا على أنفسكم . . ولا تنتظروا أى رائد . . المبادرة يجب أن تأتى منكم أنتم . . نابليون وصل لرتبة جنرال وكان زعيماً وعمره سبعاً وعشرون سنة . . كم سنك أنت ؟

قلت : ٢٢ سنة . .

قال : عال . . تعاونوا مع بعضكم البعض . . وهذا يكفى . .

ثم أخذ يشكو لى من البلد وأنه قد احتك بأناس كثيرين للقيام بأعمال من هذا القبيل ولكن كانوا كلهم نصابين وانتهى الأمر كل مرة إلى لا شىء . . قلت له إننا جادون وإنه سيرى ذلك بنفسه عندما يسمح لنا بمداومة الاتصال به للمشورة وتبادل الرأى . .

قال : عظيم . . أول شىء كما قلت . . لابد أن تعتمدوا على أنفسكم . . ثانى شىء الثقافة . . لابد أن تثقفوا أنفسكم . . والثقافة ليست بالشهادات . . الثقافة بالقراءة . . اقرأوا فى كل الاتجاهات وفى كل المجالات . . الشىء الثالث الذى أوصيكم به هو أن تجعلوا تنظيمكم محكماً بحيث لا يتسرب إليه أى غريب أو تنال منه أية دسيسة . . لقد عانيت الكثير فى حياتى من الخيانات والغدر . .

ثم التفت إلى وسألنى فجأة . .

ماهى علاقتكم بالإخوان المسلمين ؟

قلت : لقد صارحت الشيخ البنا منذ البداية أننا نعمل من أجل مصر لا من أجل أى حزب أو كتلة .

قال : رائع ! . . هذه هى نقطة البدء . . سليم .

فى نهاية اللقاء اتفقنا كيف نتقابل وأين . . كان بيته فى عين شمس ولكنه كان مراقباً من المخابرات المصرية والبريطانية . . قلت إنه يمكننا التغلب على هذا . . فمعنا فى التنظيم بعض ضباط الشرطة وفعلا كنت أذهب لزيارته فى بيته وأحياناً كنا نلتقى فى جروبى . . وفى مرحلة من المراحل كان يسكن فى بنسيون وسط البلد اسمه الفينواز . . وكنت ألتقى به هناك أيضاً . .

وهكذا استمرت اتصالاتى بعزيز باشا المصرى . . كما لم تنقطع صلتى

بالشيخ حسن البنا . . وفى هذه الأثناء كنت أوسع دائرة الضباط الأحرار يوماً بعد يوم . .

تلاحقت الأحداث فقوات هتلر تجتاح أوروبا بسرعة غير متوقعة ومركز الإنجليز يزداد ضعفاً كل يوم وفى كل مكان . . بحيث جعل الفرصة تبدو أمامنا قريبة جداً لكى نضرب ضربتنا ونتخلص من المستعمر والأحزاب . .

فى هذه الأثناء صدرت الأوامر بنقلى إلى مرسى مطروح فى أقصى الشمال كضابط إشارة لآلاى المدفعية . . وهناك تابعت نشاطى بشكل مكثف بين الضباط . .

كان الجيش المصرى إلى ذلك الوقت يشترك مع القوات البريطانية فى الدفاع عن الصحراء الغربية ضد قوات المحور مما جعل مصر طرفاً فى النزاع العالمى رغم أن المحور لم يعلن الحرب علينا . . وأصبحت الصورة بهذا أننا نحارب لحساب انجلترا مما ينتقص بطبيعة الحال من سيادة مصر التى نصت عليها معاهدة سنة ١٩٣٦ . . هذا إلى جانب الشعور العام بأن عدونا الأصلى إن لم يكن الوحيد هو انجلترا وليست أية قوة خارجية أخرى . .

لم يكن الرأى العام فى مصر راضياً بأى حال من الأحوال عن هذا الوضع بل كان فى الواقع ساخطاً عليه كل السخط . . فى حديث دينى لشيخ الجامع الأزهر محمد مصطفى المراغى . . وكان شخصية مرموقة . . قال عبارة أصبحت تتردد على كل لسان . . وهى أنه لا ناقة لنا ولا جمل فى هذه الحرب . . ثم جاء على ماهر رئيس الوزراء فى ذلك الوقت وأعلن فى البرلمان سياسة تجنيب مصر ويلات الحرب . . وهى السياسة التى أقرها البرلمان على الفور وبالإجماع وبناء عليه صدرت إلينا الأوامر بالنزول من مرسى مطروح وكان هذا معناه أن يتولى الإنجليز وحدهم الدفاع عن القطاعات الثلاثة الموجودة فى المنطقة — وكنا قبل ذلك نتولى نحن الدفاع عن قطاعين منها . .

أغضب الإنجليز هذا الإجراء فطلبوا منا تسليم أسلحتنا قبل انسحابنا من مواقعنا . . وهنا ثارت ثائرتى ولكنى سعدت لأن هذا الطلب كفيل بتعبئة الشعور العام للضباط ضد الإنجليز وضد قيادة الجيش المصرى التى وافقت على

الطلب فهذه إهانة عسكرية لنا ثم إننا بحاجة إلى السلاح . . اتصلت بجميع الضباط وكانت النتيجة الإجماع على عدم التخلى عن السلاح . . وإذا صمم الإنجليز على تجريدنا منه فليس أمامهم وأمامنا إلا القتال . . ولما علمت إدارة الجيش بقرارنا سلموا بمطالبنا فصدرت الأوامر بالانسحاب مع الاحتفاظ بالسلاح . .

كان هذا فى صيف ١٩٤١ وهنا دبرت أول خطة لأول ثورة . . فاتفقت مع جميع الوحدات المنسحبة من مرسى مطروح على أن نلتقى فى وقت محدد عند فندق مينا هاوس فى نهاية طريق الإسكندرية القاهرة الصحراوى وهناك نبدأ التجمع وندخل القاهرة فنضرب الإنجليز . . ونستولى على السلطة . .

إلى هذا الحد كان الإنجليز فى ذلك الوقت على قدر من الضعف جعلنى وزملائى نقدم على هذه المغامرة دون أن نحسب حساب نتائجها . . نعم . . كانت هناك خطة مرسومة وكانت تفاصيلها كلها معى ولم يكن للإخوان المسلمين أو لأى تنظيم مدنى آخر أى دور فيها . . ولكن هل كان هذا يكفى ؟ المهم أنى أخذت وحدتى من مرسى مطروح وفى قفزة واحدة وصلنا إلى العجمى عند مدخل الإسكندرية . . حيث قضينا ليلتنا وأنا فى غاية السعادة ففى الغد سوف ألتقى بالوحدات الأخرى عند مدخل مينا هاوس وسوف ندرس الخطة معاً ونوزع الواجبات ونختار الوقت المناسب ثم ندخل القاهرة ونحقق ثورتنا . .

ولكن شيئاً من هذا لم يحدث . . فعند مينا هاوس لم تكن هناك أية تجمعات فضلنا العربات . . وجلست أنا وجنودى فى انتظار الوحدات . . ولكن عبثاً . . لابد أنهم سبقونا إلى القاهرة . . قلت فى نفسى . . وبعد طول الانتظار . . أمرت وحدتى بالسير إلى معسكرنا فى المعادى . .

وهكذا لم تتحقق لنا أول ثورة دبرتها . . ولكن ربما كان هذا من فضل الله . . فلو أن هذه الثورة قامت ثم فشلت لتنبه المسئولون ولشددوا الرقابة على الجيش ولما قامت ثورة ٢٣ يوليو . .

أخذت المسألة بروح رياضية ولذلك بدلا من أن يعرف اليأس طريقه إلى قلبى رحت أكثف اتصالاتى بجميع أسلحة الجيش . .

واتسعت الدائرة كما لم تتسع من قبل ففى كل يوم كان ينضم أعضاء جدد إلى تنظيم الضباط الأحرار . كان عبد المنعم عبد الرؤوف نائبى . . وكنا نعقد الإجتماعات فى بيته بالسيدة زينب أو عندى فى كوبرى القبة أو فى فيلا حسن عزت وسعودى بكوبرى القبة أيضاً . . وفى هذه المرحلة بدأنا فى عمل اللجان فكانت هناك لجنة للإتصالات بالهيئات السياسية ولجنة للإتصال بالضباط المتحمسين للتنظيم فى الأسلحة المختلفة . . ولجنة ثالثة لا أذكر الآن ماذا كانت مهمتها بالضبط . . وفى نفس الوقت داومت على اتصالى بالإخوان المسلمين وعزيز المصرى .

٦

فى أواخر عام ١٩٤١ التقيت بعزيز المصرى فى جروبى بناء على طلبه . . كان بحاجة إلى مساعدة تنظيم الضباط الأحرار لتمكينه من السفر إلى العراق . . فقد وصلته رسالة من الألمان يطلبون فيها سفره لمعاونة رشيد عالى الكيلانى فى ثورته التى قام بها فى العراق ضد الإنجليز . . فى هذه الأثناء كان الإنجليز قد أفلحوا فى استصدار أمر من الحكومة المصرية بإحالة عزيز باشا إلى المعاش . . وكانت المخابرات على علم باتصالاتى به فأنذرونى بالابتعاد عنه ولكنى لم أعبأ بإنذارهم فقد كان من واجبى مساعدته . . إلا أننا — كما قلت له — لا نملك من الوسائل سوى ما قد يمكنه من بلوغ بيروت وهناك يستطيع أن يتصرف . .

بعد ذلك بقليل أبلغنى عزيز باشا أنه تسلم رسالة ثانية من الألمان يقولون فيها إن طائرة ألمانية ستكون فى انتظاره عند جبل رزة فى مدخل طريق الفيوم فى يوم معين ساعة الغروب . .

هنا أدركت سر مجموعات الرحالة الألمان الذين كانوا يفدون إلى الصحراء الغربية ويضلون طريقهم فيها — كما كنا نقرأ فى الجرائد قبل الحرب . . كانت هذه الرحلات فى الحقيقة بعثات استكشاف فقد أصبح من الواضح أن الألمان قد درسوا توبوجرافيا الصحراء دراسة كاملة وإلا فكيف توصلوا إلى معرفة جبل الرزة وهو نقطة صغيرة على الخريطة لا تكاد العين تتبينها ؟

اشترينا عربة من نوع (البيك آب) الصالح للسير فى الصحراء ولكن صاحب المحل أبلغ عن بيع السيارة طبقاً للأوامر حينذاك . . عرفت المخابرات أنى اشتريتها . . شكوا فى الأمر فصدرت الأوامر بإبعادى إلى مكان اسمه الجراولة لا يبعد كثيراً عن مرسى مطروح . . تمارضت ودخلت المستشفى العسكرى حيث أعطونى إجازة لمدة أسبوع لم تكن كافية لتنفيذ خطة هروب عزيز باشا فوضعت الخطة بين يدى عبد المنعم عبد الرؤوف وذهبت إلى الجراولة حيث التقيت لأول مرة بالدكتور يوسف رشاد طبيب الملك فاروق بعد ذلك . . والذى لعب دوراً مرموقاً دون أن يدرى فى مسيرة ثورتنا نتيجة للصداقة التى نشأت بيننا . .

لا أعلم ما الذى حدث للعربة الـ (بيك آب) . . أغلب الظن أن الإنجليز استولوا عليها . . وإلا لما لجأ عبد المنعم عبد الرؤوف بالاشتراك مع حسين ذو الفقار صبرى وكلاهما طيار ماهر إلى الاستيلاء على طائرة حربية وضعا فيها عزيز المصرى وحقائبه للسفر إلى بيروت (التى كانت فى ذلك الوقت خاضعة لحكومة فيشى التى سلمت للألمان) . ولكن بعد أن أقلعت الطائرة بدقائق معدودة اكتشف حسين ذو الفقار صبرى أن الزيت قد نفد فيبدو أنه بدلا من أن يفتح طلمبة الزيت أغلقها فاضطر إلى الهبوط فوق شجرة فى أحد الحقول بجوار بنها . . ومن هناك استطاع ثلاثتهم بمساعدة مأمور قليوب الوصول إلى القاهرة حيث اختبأوا . .

فى هذه الأثناء اكتشفت حادثة الطائرة واكتشفت أيضاً حقيبة فى مكان الحادث وعليها الحرفان A.M. أى . . عزيز المصرى . . فاتجهت الشكوك إليه وخاصة بعد أن وجدوا أن الطائرة كانت موجهة إلى بيروت .. ولعلمهم بميوله المعادية للإنجليز أدركوا أنه كان فى طريقه للاتصال بالألمان فى العراق . .

ولما كانوا على معرفة باتصالاتى به قبضوا على فوراً فى الجراولة ونزلوا بى إلى القاهرة وأنا تحت الحراسة . .

وصلت القاهرة فى الصباح المبكر فتوجهوا بى إلى وزارة الحربية حيث جلست فى مكتب سكرتير الوزير أقرأ فى كتاب أرمسترونج « الذئب الأغبر »

وهو كتابه المعروف عن أتاتورك . . كنت مستغرقاً فى القراءة فلم أشعر إلا بعد فترة أن هناك من يقف أمامى ينظر إلى ويتفحصنى . . كان إبراهيم باشا عطا الله رئيس الأركان ومن حوله طاقمه . . وقفت على الفور وأديت له التحية العسكرية . . نظر إلى من حوله وقال :

– هذا هو اليوزباشى محمد أنور السادات ؟

أخبروه أنى قد وصلت فى الصباح من الصحراء الغربية فنظر إلى فى ازدراء ومضى . .

قلت فى نفسى إنه لو كلف خاطره ونظر إلى الكتاب لأدرك الكثير . . ربما . . وربما لم يكن ليدرك شيئاً على الإطلاق . .

استدعونى فى المساء للقاء وكيل النيابة وانتظرت دورى . . كان الرجل مشغولا فى أخذ أقوال شهود حادث الطائرة وشهود سلاح الطيران وكان عددهم كبيراً فانتظرت طويلا وفى هذه الأثناء كنت قد أعددت نفسى للقاء إعداداً كاملا . . فقد قرأت الجرائد وعرفت منها كل ما حدث . . أخيراً وفى منتصف الليل استدعيت وسألنى وكيل النيابة . .

– هل لك صلة بعزيز المصرى ؟ وهل كنت تزوره ؟

وأجبت : نعم لى صلة به وقد طلبت منى المخابرات قطع هذه الصلة ولكنى لم أستمع إليهم فليس فى هذه الصلة فى نظرى أى جرم أو مخالفة . .

وعاد يسألنى :

– هل تعرف عبد المنعم عبد الرؤوف وحسين ذو الفقار صبرى ؟

– طبعاً ونحن دفعة واحدة وأصدقاء

– ألم يتصل بك عزيز المصرى بشأن سفره خارج القطر ؟

وأجبته : أنا اتصالاتى بعزيز باشا تقوم كلها على الحب والوفاء . . فمنذ أن زارنا فى منقباد وأنا معجب به . .

واسترسلت فى وصف تلك الزيارة وكيف أخذنا إلى الدير المحرق وماذا رأينا هناك إلى أن اختتمت حديثى الطويل بقولى :

– بعد أن أحيل عزيز باشا إلى المعاش وجدت أنه من باب الوفاء أن أزوره بين الحين والحين . . هذا كل ما فى الأمر .

وعاد وكيل النيابة إلى سؤالى :

– هل عندك أية معلومات عن محاولة السفر أو أية اتصالات تمت بينه وبين الألمان ؟

قلت : ومن أين لى مثل هذه المعلومات وأنا على بعد ٥٥٠ كيلو من القاهرة وقد سافرت إلى الجراولة قبل الحادث بخمسة أيام ؟

لم يجد وكيل النيابة أى دليل على إدانتى فأمر بالإفراج عنى وعودتى إلى عملى بالجراولة . .

«هذه ميزة سيادة القانون» قلت فى نفسى وأنا فى طريق العودة إلى الصحراء . . ولم يكن هذا كل ما قلته . . كان الحوار بينى وبين نفسى طويلا . . ما الذى حدث لعبد المنعم عبد الرؤوف ولحسين ذو الفقار صبرى ؟ لم أكن أعرف . . وعزيز المصرى . . ماذا كان مصيره ؟ وتساءلت عن سبب قلقى لفشل خطة سفره إلى العراق . . وجاءنى الجواب . .

مما لا شك فيه أنه كان سيساعد فى نجاح ثورة رشيد عالى الكيلانى للتخلص من الإنجليز فى العراق . . وكل ما من شأنه إضعاف مركز الإنجليز فى الشرق الأوسط كان يهمنى فى المقام الأول .

أليس فى إضعاف العدو – أينما كان – مزيداً من الفرص لكى نضرب ضربتنا . . ؟

٧

فى أواخر عام ١٩٤١ صدرت إلينا الأوامر بالنزول من مرمى مطروح وأذكر أن كتيبة عبد الناصر كانت على مقربة منا فى جهة اسمها الحمام . . ولكنه لم يكن فيها . . كان فى السودان ولم يعد منها إلا فى ديسمبر سنة ١٩٤٢ . . فى القاهرة أخذت فرقة للترقى وفى أثناء عملى بالفرقة داومت نشاطى السياسى فى بناء تنظيم الضباط الأحرار .

كان ذلك فى أوائل سنة ١٩٤٢ وقد وصل روميل إلى ليبيا مع فرق البانزر (الدبابات) الألمانية وكان الشعور العــام فى مصر معادياً للإنجليز وبالطبع فى صف أعدائهم . . وكان الإنجليز يعلمون ذلك . . فطلبوا من فاروق فى فبراير ١٩٤٢ أن يكلف النحاس زعيم الأغلبية بتشكيل الوزارة أملا منهم فى استمالة الرأى العام المصرى . . ولكن فاروق رفض فما كان من السفير البريطانى لورد (كيلرن) إلا أن حاصر قصر عابدين بالدبابات يوم ٤ فبراير ١٩٤٢ فإما أن يستجيب فاروق لطلبهم أو يتنازل عن العرش . . وأمام هــذا التهديد استدعى فاروق النحاس وكلفه بالوزارة .

كان ذلك فى ٤ فبراير سنة ١٩٤٢ . . تاريخ لا ينساه جيلنا . . فى ذلك اليوم سقط النحاس فى نظرنا . . إذ كيف يقبل أن يفرضه المستعمر على البلد بقوة السلاح ؟ فتجمع الضباط بالقاهرة وسرنا إلى قصر عابدين تحية للملك الذى خرج لرد التحية .

لم نكن بطبيعة الحال راضين عن فاروق ولكن ما حدث كان إهانة لمصر جيشاً وشعباً واعتداء على سيادتها بصرف النظر عن شخص من يمثل هذه السيادة . . لذلك عندما سمعنا أن لورد (كيلرن) قد وجه إنذاراً ثانياً إلى فاروق إثر حادث وقع فى مطار القاهرة بعد أيام من حصار عابدين جرحت فيه كرامة إنجلترا . . اتفقنا نحن الضباط الأحــرار أن نحيط بالقصر الملكى ونشتبك مع الإنجليز لو حاصروا القصر بدباباتهم مرة أخرى . . ومن ثم استعرت عربة زكريا محيى الدين وكان الوحيد بيننا الذى يملك عربة خاصة . ورحت أطوف بها حول القصر طوال الليل أرصد الحركة من قريب ومن بعيد لأنذر إخواننا لو حدث ما كنا نتوقعه . . ولكن الليل انقضى دون أن يحدث شىء فرجعت بالعربة فى الصباح المبكر وأعدتها لصاحبها .

كان الشعور العام ضد الإنجليز يزداد يوماً بعد يوم إلى أن أتى الصيف وحطم روميل الجيش الثامن الــبريطانى ووصل إلى العلمين وهى تبعد ٧٠ كيلو متراً عن الإسكندرية . . وهنا كشف المصريون عن شماتتهم فى الإنجليز فخرجت المظاهرات تنادى «إلى الأمام ياروميل» فقد كانت الجماهير ترى فى هزيمة الإنجليز الطريق الوحيد لخلاص البلاد منهم .

وأصاب الإنجليز الذعر فراحوا يحرقون وثائقهم وأوراقهم ويرحلون رعاياهم والموالين لهم إلى السودان . . فبعد أن سقطت العلمين فى يد روميل أصبح الطريق أمامه مفتوحاً لغزو مصر .

لم يكن هناك أى شك فى أن روميل سوف يواصل سيره إلى الإسكندرية ومنها إلى القاهرة . . المسألة فقط مسألة وقت . . ووقت قصير أيضاً .

وكان مقرراً أن تكون مصر من نصيب إيطاليا وإن موسولينى قد جهز بالفعل حصاناً أبيض ليدخل القاهرة على ظهره كما كانت العــادة أيام الإمبراطورية الرومانية .

اجتمعت مع إخوانى فى تنظيم الضباط الأحرار وقلت لابد من عمل شىء . . فكيف نترك روميل يغزو مصر بدون أية مقاومة ؟ اتفقنا على أن نرسل أحدنا إلى روميل فى العلمين ليقول له إننا مصريون شرفاء وإن لنا تنظيمنا داخل الجيش ونحن مثلكم ضد الإنجليز وعلى استعداد لكى نجند من بيننا فرقاً كاملة تحارب إلى جانبكم وأن نزودكم بصور جميع خطوط ومواقع القوات البريطانية بمصر وفوق هذا كله فنحن نتكفل بأن لا يخرج عسكرى إنجليزى واحد من القاهرة . . كل هذا مقابل أن تنال مصر استقلالها التام فلا تكون من نصيب إيطاليا أو تحكمها ألمانيا وأن لا يتدخل أحد فى شئونها الداخلية أو الخارجية بأى حال من الأحوال .

كانت هذه هى شروط المعاهدة التى أمليتها وحملها المرحوم الطيار أحمد سعودى على طائرة هرب بها من القاهرة إلى العلمين وأنا عندى ٢٢ سنة بعد أن عرضتها على إخوانى وحازت قبولهم ولم يكن عبد الناصر معنا فقد كان فى السودان كما سبق أن أوردت .

وتعزيزاً لحركة المقاومة وضماناً لتنفيذ بنود مشروع المعاهدة اهتديت إلى سوق الزجاج حيث اشتريت عشرة آلاف زجاجة أعددناها على هيئة كوكتيل مولوتوف . ثم قام بغدادى وحسن إبراهيم مع سعودى وحسن عزت بتصوير المواقع البريطانية بالطائرة ووضعنا الأفلام ومشروع المعاهدة فى حقيبة وعهدنا إلى سعودى بتوصيلها إلى روميل فى العلمين .

فى ذلك اليوم كانت طائرة حسن إبراهيم هى التى تحت الإنذار فأعطاها لسعودى الذى طلع بها كأنه فى دورية عادية ثم اتجه إلى العلمين .

كانت طائرة من طراز بريطانى طبعاً يسمى جلادياتور ولذلك فرغم إشارة الصداقة أطلق الألمان نيرانهم عليها فوق العلمين فانفجرت بسعودى وما فيها .

وعندما اكتشف فقدان الطائرة قدم حسن إبراهيم للمحاكمة وتأخرت أقدميته ولكنهم لم يتمكنوا من الكشف عما وراء الحادث من تنظيم .

فى ذلك الوقت كنت أعمل بسلاح الإشارة فى الجبل الأصفر بالقرب من القاهرة . . وكنت أنتظر إشارة من سعودى أو من الألمان ولكن طال الإنتظار فبدأت أقلق . . فى هذه الأثناء حدثت مفاجأة لم أكن أتوقعها فقد أتى إلىّ زميلى حسن عزت ليقول إن ضابطين من الجيش الألمانى يريدان الاتصال بى للتعاون ففرحت وقلت هذه نجدة من السماء .

كان أحدهما واسمه (ابلر) من أم ألمانية متزوجة من مستشار مصرى أنجبت منه ولدا اسمه حسن جعفر . . كان حسن الخلق .. أما (ابلر) واسمه العربى حسين جعفر فقد طرده زوج أمه المستشار لسوء سلوكه بعد أن عاش فترة غير قصيرة من عمره فى مصر ولذلك عندما التقيت به وجدته يتكلم العربية كأحد أبنائها . .
أما الضابط الآخر زميله – وكان ضابط إشارة فلم يكن يعرف العربية إطلاقاً . .
سألتهما كيف دخلا مصر فعرفت أنهما تنكرا فى ملابس ضباط الجيش الثامن البريطانى ثم عن طريق طرق القوافل التى لا يعرفها إلا بدو الصحراء دخلا إلى الواحه الخارجة ومنها إلى أسيوط فالقاهرة .

فى القاهرة توجه أبلر ومعه زميله ساندى إلى ملهى (الكيت كات) يسهران ويعربدان ليلة بعد أخرى دون حساب فقد كانت معهما كميات كبيرة من الجنيهات الاسترلينية المطبوعة فى اليونان . . ولفت البذخ الذى يعيشان فيه أنظار الجميع فأبلغت عنهما إحدى راقصات (الكيت كات) . . ومنذ ذلك اللحظة وضعا تحت رقابة المخابرات البريطانية . . كل هذا عرفته بعد ذلك . . أما عندما التقينا فلم أكن أعرف سوى أنهما يعيشان فى دهبية على النيل قرب (الكيت كات) أستأجرتها لهما حكمت فهمى إحدى فنانات ملهى بديعة مصابنى . . وأن معهما جهاز لاسلكى ألمانى ولكنه معطل . .

ذهبت معهما إلى الدهبية لأرى الجهاز فوجدت جهازين أحدهما ألمانى وهو المعطل وآخر أمريكى جديد تماماً Hallicrafter Sky Challenger وهو جهاز قوى تماماً وممتاز ولكن أبلر أخبرنى أنه بعد عطل الجهاز الألمانى اتصل سراً بسفارة سويسرا التى كانت ترعى شئون ألمانيا فى مصر . . وأن القائم على هذه الرعاية وهو ألمانى قد أمدهما بجهاز لاسلكى أمريكى وجدت أنه أفضل بكثير من الجهاز الألمانى المعطل ولكن ليست عند الجاسوسين مفاتيح فاقترحت أن أشغله بمفاتيح مصرية . .

ووافقا وبالفعل أخذت الجهاز معى وناديت (تاكسى) وضعته فيه وتوجهت إلى بيتى فى كوبرى القبة . .

فى البيت جربت الجهاز فوجدته فى منتهى القوة والجودة . . وكنت سعيداً بذلك كل السعادة فأخيراً ستتمكن من الاتصال بروميل وتعرض عليه شروطنا التى سبق أن ضمنتها مشروع المعاهدة معه والتى بت أعتقد أنها لم تصله . . وإلا فقيم هذا الصمت وإلى متى نترك الأمور كما هى والوقت يجرى بسرعة وروميل قد يدخل القاهرة فى أية لحظة وإذا حدث هذا دون اتفاق سابق ودون علم بوجود حركة مقاومة مصرية ضد الإنجليز ومدى ما يمكن أن يقدمه التنظيم له من مساعدات مقابل استقلال مصر فسوف يكون مصير البلاد استبدال الاحتلال البريطانى باحتلال آخر ألمانى أو إيطالى . . ونحن لا نريد هذا بأى حال من الأحوال . .

لم يكن أمامى أى مخرج من هذا المأزق سوى الاتصال بروميل . . وها أنا أخيراً قد حصلت على وسيلة الاتصال بعد أن فشلت الوسيلة الأولى كما أصبح واضحاً . .

لم يبق أمامى إلا أن آخذ الجهاز إلى الورشة عندى فى الجبل الأصفر وأجربه تجربة نهائية ثم نبدأ الاتصال . .

لم تكن عندى أية فكرة أن أبلر وزميله ساندى مراقبان . . ولذلك فوجئت فى الصباح عندما وصلتنى أنا وحسن عزت رسالة من عبد الغنى سعيد – وهو الأصل فى صلتنا بالجاسوسين – بأن أبلر وزميله قد قبض عليهما بمعرفة المخابرات البريطانية . .

كان لابد من إخفاء الجهاز فأخذته وذهبت مع حسن عزت إلى صديق له يسكن فى شبرا ولكن لسوء الحظ وجدنا بيته مغلقاً وقالوا لنا إنه سافر إلى قريته فعدت بالجهاز إلى بيتى فى كوبرى القبة وأخفيته فى حجرة من الحجرتين اللتين كنت أشغلهما . . وفى نفس الليلة وصل زوار الفجر . . قرعوا الباب مرة . . مرتين . . عدة مرات حتى استيقظ أهل البيت . .

— اليوزباشى أنور السادات ساكن هنا ؟

— نعم . .

دخلوا مباشرة . . فرقة ضباط كاملة من المصريين والإنجليز . . وحوالى ٢٠ أو ٣٠ مخبراً ملأوا الحديقة والبيت كله حتى أصبح من الصعب معرفة عددهم وكان عندنا فى الحديقة كلب بلدى عادى فما أن شاهد هذا الجيش من الغزاة الغرباء حتى اتخذ لنفسه موقعاً إلى جانب الفرن وأخذ ينبح بشدة ولا يكف عن النباح محتجاً ربما . . ولكن فى أغلب الظن مدافعاً عن الفرن مصدر لقمة العيش لأهل هذا البيت الهادئ المطمئن الذى يأوى إليه والذى هو فى الواقع أحد أفراده . .

— أين حجرتك . . ؟

سألونى فأشرت إلى إحدى حجرتين كنت أشغلهما فى بيت أبى وكانت حجرة نومى . . فتشوها وفى أثناء التفتيش لاحظ سيف اليزل ضابط المخابرات المصرى وجود مسدس آخر إلى جانب مسدسى العسكرى فما كان منه إلا أن تناوله ووضعه فى جيبه ببساطه . . لم أكن أعرفه معرفة خاصة أو يعرفنى ولكن كانت تربطنا صلة أقوى من أية صلة . . وهى الوطنية المتأججة فى صدر كل مصرى . . أيا كانت وظيفته .

بعد الانتهاء من تفتيش حجرة نومى طلبوا تفتيش الحجرة المجاورة وكانت حجرة مكتبى . . قلت لهم إن حريم الأسرة بهذه الحجرة وإن تقاليدنا تقتضى إخلاءها قبل دخولهم . . فسمحوا لى بذلك . .

ودخلت الحجرة . . كان بها جهاز اللاسلكى وصفيحة بارود كنا نصنعه فى القرية من خشب شجر الصفصاف والسماد . . طلبت من أخى الأكبر

طلعت أن يأخذ الصفيحة والجهاز ويخفيهما فى أى مكان . . وفعلا أخذهما طلعت وخرج من الباب الخلفى للبيت حيث دفن الجهاز فى وقود الفرن وتركه والصفيحة فى حراسة الكلب الطيب الذى غطى نباحه المستمر جميع تحركات طلعت . .

فى حجرة المكتب لم يجدوا غير بعض الكتب فأخذوها . . وطلبوا منى أن أذهب معهم . . وأخذونى إلى سجن الأجانب . . رفضت دخوله فالقانون يقضى بأن حبس أى ضابط فى الجيش المصرى لا يكون إلا فى ميس الضباط حيث يقوم على حراسته ضابط مثله . . هكذا قلت لهم . . وخضعوا لسيادة القانون . . واقترحوا أن أقضى بقية ليلتى ضيفاً على البوليس فى مكاتب الفرقة (ب) بجاردن سيتى إلى أن ترسل قيادة الجيش فى طلبى فى الصباح . .

قبلت . . وفى اليوم التالى كنت فى ميس الفرسان . . وكان هناك أيضاً زميلى حسن عزت . . ولكن أنا فى طرف وهو فى الطرف الآخر . . لا تجمعنا إلا وجبة الإفطار حيث يجلسنا المرحوم أحمد رياض قائد الفرسان جنباً إلى جنب ويهمس إلينا بأن ننهى حديثنا بسرعة إذ لابد بعد الأفطار أن يتوجه كل منا إلى مكانه . . تماماً كما حدث عندما وضع سيف اليزل مسدسى فى جيبه لانقاذى . . مصريون كلنا ومتعاونون . . ضد العدو والسلطة . . رغم وظائفنا المتباينة . . ورغم واجباتنا الرسمية . . ودائماً . . رغم كل شىء . . لأن واجب الوطن كان فوق كل شىء . .

ثلاثة أيام بلياليها لم أذق طعم الأكل . . كنت فقط أشرب الماء ولا أرتوى وكأن شيئاً يحترق بداخلى . . فقد كان عقلى يعمل ليل نهار بحثاً عن مخرج مما أنا فيه . .

لم يكن هناك سبيل إلى الإنكار . . كنت أعلم ذلك جيداً فقد قابلت أبلر مرات ومرات . . الطريق الوحيد إلى الخلاص هو التبرير . . والتبرير المقنع المتكامل . . لكل ما حدث . . — ولكن كيف . . ؟

بعد جهد وعناء مستمر وفى نهاية الأيام الثلاثة كنت قد ألفت فى رأسى قصة كاملة تتضمن كل ردودى ومخارجى وتسد على الخصم جميع الطرق . .

أطلعت زميلى حسن عزت على تفاصيل القصة كلها حتى لا تتناقض أقوالنا فى التحقيق . . وبعد ذلك استرحت وعدت إلى حياتى الطبيعية آكل وأشرب وأنــــام . .

أخذونا بعد ذلك إلى رئاسة الجيش حيث وقفنا فى طابور . . ليتعرف علينا الجاسوسان مرة بعد مرة كالصاروخ . كان ابلر يتوجه إلىّ مباشرة ودون أى تردد . . أما ساندى فكان أقــل جرأة من زميله فهو يسير أمام الطابور إلى أن يصل إلى مكانى ثم يشير إلىّ .

قدمونا للمحاكمة أمام مجلس التحقيق تمهيداً للمجلس العسكرى العالى . . وكان مجلس التحقيق يتكون من اثنين من الضباط الإنجليز وضابطين من الجيش المصرى وضابط بوليس هو كمال رياض من الفرقة (ب) شرطة . . تشكيل خاطىء دون شك .

وبدأت المحاكمة :

– تعرف أبلر ؟ .

– لا .

– تعرف حسين جعفر ؟ .

– لا .

– تعرف هذا الذى تعرف عليك ؟ . (وأشاروا إلى أبلر) .

قلت : طبعاً أعرفه . . إنه ماجور إبراهام من الجيش الانجليزى .

ارتبك المجلس لحظات . . ثم استمرت المحاكمة .

– ألم تأخذ منه جهاز لاسلكى ؟ .

– جهاز لاسلكى ؟ . طبعاً لا . . هذا الرجل قدم لى نفسه وزميله على أنهما من ضباط سلاح الإشارة الإنجليزى . . وأنا بطبيعة عملى أتعاون مع هذا السلاح ولذلك التقينا أكثر من مرة .

ولما كانت أحسن وسيلة للدفاع هى الهجوم . التفت إلى أبلر وسألته فجأة :

– أتذكر لقاءنا فى محل الجمال يا ماجور إبراهام ؟

– نعم أذكره . . ولكنى لم أقل لك أن إسمى ابراهام بل قلت لك إننى ألمانى واسمى أبلر .

– لو قلت لى هذا كنت أبلغت عنك .

قال : وماذا عن الدهبية ؟ .

أنكرت طبعاً مكان الدهبية . . قال يذكرنى :

– هل نسيت عندما نبح الكلب وأنت خارج من الدهبية ومعك الجهاز ؟ من غيظى ضغطت على قدمه بكل قوة .

وقف على التو من الألم وقال :

– لماذا تدوس على قدمى الآن ؟ .

قلت مندهشاً :– أنا دست على قدمك ؟ لماذا تدعى على بما لم يحدث ؟ الدهبية . . والجهاز . . ونباح الكلب . . والآن قدمك ؟ ما قصدك من كل هذا ؟

قال : لا فائدة . . لقد اعترفت بالكامل . . ويجب أن تعترف مثلنا .

قلت بمنتهى الهدوء : أعترف بماذا ؟ . . أنا أعرفك فعلا . . ولكن كضابط إنجليزى .

قال : وماذا عن مصر الجديدة ؟

كنت قد قابلته بعزيز المصرى فى مصر الجديدة ولكننى قلت :–

– نعم حدث . . لقد التقينا فى مصر الجديدة .

وعاد إلى السؤال : وفى مصر الجديدة من كان معنا ؟ .

اخترعت قصة كاملة مؤداها أنه أتى إلىّ فى محل (صولت) بمصر الجديدة ويومها أخبرنى أن زميله ساندى مريض .

أتوا بحسن عزت وكانت أقواله مطابقة تماماً لأقوالى .

بعد ذلك أتوا بساندى ففعلنا به ما فعلناه بأبلر .

انهارت أركان القضية . . فأعادونى وحسن عزت إلى ميس الضباط معتقلين .

فى هذه الأثناء . . وفى شهر يوليو عام ١٩٤٢ على وجه التحديد .. جاء تشرشل

إلى مصر فى زيارة سرية وغير القيادة وعين مونتجومرى وذهب إلى العلمين ليرفع الروح المعنوية بين القوات البريطانية .

وكما علمت بعد ذلك . . التقى بالجاسوسين أبلر وزميله ووعدهما بحياتهما إذا اعترفا وكان هذا سر اعتراف أبلر الكامل .

بقيت معتقلا فى ميس الضباط إلى أن أتى رمضان وفى يوم قبل المغرب بساعة تقريباً دخل على أبى شاحب الوجه يبدو عليه الإعياء والإنهيار . . كان يقوم على حراستى ضابط المدفعية . . فقام لتوه وتركنا وحدنا حتى نتكلم بحرية . . سألت أبى عن سر الزيارة فأجاب وهو يجمع أنفاسه :

— اليوم أتى إلىّ اللواء على باشا موافى رئيس إدارة الجيش . . وقال لى إن موقف إبنك فى القضية ميئوس منه والأفضل له أن يعترف . . فى هذه الحالة سيصدر عليه حكم مخفف أما إذا لم يعترف فسوف يقتلونه رميا بالرصاص فى الفجر .

أدركت ساعتها أن جميع جهودهم لإقامة قضية قد فشلت تماماً . . ولذلك فهم يلجأون إلى هذه الحيلة الرخيصة كمحاولة أخيرة .

قلت لأبى : لكى يضربونى بالرصاص لابد من مجلس عسكرى عال وتهمة تثبت على . . هذا هو النظام فى الجيش . . ولو كانت هذه التهمة فى أيديهم فعلا لما لجأوا إليك لتطلب منى الإعتراف .

اقتنع الرجل . . وكان رحمه الله يأخذ كلامى أمراً مسلماً به . . فاسترد أنفاسه وزال اضطرابه . . وخرج بعد أن تناول الإفطار معى وهو مطمئن كل الإطمئنان أن لا خطر على حياة ابنه على الإطلاق .

فى اليوم التالى . . كما عرفت بعد ذلك . . زاره فى مكتبه موافى باشا ليعرف نتيجة اللقاء وكان رد أبى عليه .

— اسمع يا باشا . . إذا كان ابنى مخطئاً فاضربه بالرصاص . . وإذا كان بريئاً فواجبكم أن تعيدوه إلى عمله .

وحذره موافى باشا من نتيجة إصرارى على عدم الإعتراف . . وكان تعليق أبى الوحيد أن افعلوا ما شئتم . . ولكن ليس لدى أكثر مما قلته .

فى هذه الأثناء كان مونتجومرى قد حشد حشوداً هائلة حتى يضمن المعركة مائة فى المائة وقطع على روميل خطوط إمداداته فى البحر الأبيض . . وبذلك بدأت أعصاب الإنجليز تهدأ فتغيرت نظرتهم إلى قضيتنا . . وكانت النتيجة أنه فى يوم ٢٦ رمضان سنة ١٩٤٢ قبل المغرب بساعة طلبنى رئيس أركان حرب قسم القاهرة وأبلغنى أنه قد صدر النطق الملكى السامى بالإستغناء عن خدماتى .

خلعت الرتب . . وتقدم منى محمد إبراهيم رئيس القسم السياسى بالبوليس وقال :

— تعال معنا إلى المحافظة لعمل بعض الإجراءات .

فهمت أنهم بصدد اعتقالى فسألته :

— إلى أين نحن ذاهبون بالضبط حتى يعرف المراسلة أين أنا فيحضر لى طعام الإفطار ؟ — فأجاب باختصار . . « سجن الأجانب » .

وفى رمضان ١٩٤٢ عندما ألقـوا القبض علىّ مقـابل جهودى للتخلص من الإستعمار الإنجليزى سرت إلى سجن الأجانب .

وطوال الطريق . . كان يرتفع أمـام عينى طيف زهران وهو يسير رافع الرأس سعيداً بما فعل لا يخشى الموت الذى سيلقاه . . . . بعد قليل .

لقد فعلت أخيراً ما فعله زهران . . وإذ غامرنى هذا الشعور أدركت — كما لم أدرك من قبل — أن زهران لم ينهزم قط . . ورغم أنهم حكموا عليه بالإعدام إلا أن إرادته لم تمت .

ألم أكن أنا امتداداً لهذه الإرادة التى سرت فى كيانى منذ طفولتى ؟ إرادة النصر والتحدى ؟ .

بلغنا السجن وإذ كنت أصعد السلم فى طريقى إلى حجرتى كان يغامرنى فرح غريب بما فى داخلى من قوة لا يدرك مداها سواى .

لقد انتصرت كما انتصر زهران من قبل .

رغم موته . . ورغم تجريدى من رتبتى واعتقالى . . رغم كل شىء .

الفصل الثانى

نحو تحرير الأرض

١

كانت هذه أول مرة أدخل فيها سجن الأجانب . . وكان ذلك فى ٢٦ رمضان سنة ١٩٤٢ ميلادية وهى (ليلة القدر) . . موسم من المواسم الدينية التى نحتفل بها فى مصر عامة وفى الريف على وجه الخصوص . . فنذبح بطة أو أوزة أو دجاجتين . . كل حسب مقدرته المالية .

كان سجن الأجانب مخصصاً للعمليات المتعلقة بمعركة الإنجليز ولذلك كان مأموره مستر هيكمان الملطى الأصل البريطانى الجنسية .

دخلت الزنزانة الخاصة بى وكانت فى الدور الأول وبعد قليل جاء المغرب وأحضر المراسلة الطعام فصليت وتناولت طعام الإفطار .

إلى هنا كانت حالتى عادية . . لم أكن بعد قد أحسست بالصدمة . . ولكن بعد أن أكلت ودخنت سيجارة (وقد كان التدخين مسموحاً به فى سجن الأجانب دون بقية السجون) بدأت حيرتى ورحت أتساءل . . ما هو الحل ؟ سوف أقضى مدة السجن ولكن ماذا سأفعل بنفسى بعد ذلك ؟ وقد جردت من رتبتى ولم يعد لى عمل ؟

واستمرت التساؤلات واستمرت الحيرة ساعة . . ساعتين . . ثلاث ساعات لا أدرى . . وأنا أسير فى الحجرة من ركن إلى ركن ومن حائط إلى حائط ولكن لا إجابة واحدة عن تساؤلاتى . . وأخيراً جلست على الأرض وأسندت ظهرى إلى السرير كما نفعل فى القرية . . ربما لأنى عندما أجلس على الأرض أحس أنى قريب من الطبيعة والفطرة وربما لأنى تعودت الجلوس على الأرض فى القرية — لا أعرف . . ولكن فجأة خطرت قريتى على بالى . .

كان مجرد خاطر ولكنه وضع كتلا من الصخر والصلب بداخلى . . فقريتى هناك قابعة فى حضن الدلتا . . وسوف أعود إليها ففيم القلق وفيم البحث عن مصير ؟

إن القرية هى الاستقرار . . أقل إنسان فى القرية وأضعف وأفقر إنسان دائماً مطمئن . . لماذا ؟ لأن عنده داره . . ومهما كانت صغيرة حتى ولو كانت عبارة عن قاعة واحدة ودورة مياه ومصطبة . . فإنه عندما يغلق بابه عليه يصبح أكثر الناس اطمئناناً واستقراراً . .

هذه هى روح الفلاح فى كل مكان . . الأمن والاستقرار . . لأنه مرتبط بالأرض يعطيها فتعطيه . . يكفيها فتكفيه دون الحاجة إلى أى إنسان . .

لم أكن قد عرفت نفسى بعد . . ولكن فى تلك اللحظة الحاسمة من حياتى وأنا أواجه نفسى فى السجن لمحت جانباً من جوانب شخصيتى . . فقد أدركت أنه يكفى أن أكون فلاحاً بسيطاً لكى أكون أسعد الناس . .

هذا الإحساس بالقناعة بالأرض — حتى ولو لم تتعدى رقعتها الفدانين وهى كل ما أملك — أصبح وأنا فى سجن الأجانب مصدر قوتى . . وما زال . . فى أى وقت وتحت أية ظروف أحس أنى غنى بكونى فلاحاً عن كل شىء . .

فالأرض هناك وفى أى وقت يمكن أن أعود إليها أزرعها وأفلحها بيدى . . وفى هذا الكفاية بل أكثر من الكفاية . . فأمرى دائماً بيدى . . وإرادتى هى إرادتى وحدى . . وأنا سيد نفسى . .

وخطر لى خاطر مر برأسى كسحابة سوداء تحجب الشمس للحظة . . إن الغالبية العظمى من الناس تطلب ما لا تملك . . ومن له مطالب . . من يطمع فى شىء يظل طول حياته عبداً لهذا الشىء . . رغم أنه يبدو حراً طليق الحركة لا يعيش وراء القضبان . . كما أنا فى سجن الأجانب .

٢

كان سجن الأجانب يختلف عن بقية السجون .. ففى كل زنزانة سرير وبطانية وكرسى وطاولة صغيرة . . حتى التدخين — كما سبق أن قلت — كان مسموحاً

به ولكن بشرط أن يشعل السجان السيجارة ويقدمها لك . . فليس من حق السجين أن يحمل معه كبريتاً أو ولاعة . .

ولما وجدت الأمور بهذا الشكل تشجعت وطلبت الجرائد فأحضروها لى ومعها بعض الكتب (تفرقة حتى فى السجن فعندما دخلت سجن مصر بعد ذلك بفترة مكثت به سنة كاملة معزولا عن العالم الخارجى . . فلا جرائد ولا كتب ولا فراش ولا مقاعد ولا شىء على الإطلاق) . .

فكرت فى أن أقوى نفسى فى اللغة الإنجليزية فطلبت بعض الكتب بهذه اللغة وأرسل إلى هيكمان مأمور السجن مجموعات من القصص القصيرة وغيرها . . ومن الكتب التى ما زلت أذكرها كتاب عن جمعية فى الريف الإنجليزى يجتمع أعضاؤها كل أسبوع ويتناول كل واحد منهم موضوعاً يتكلم فيه – نظرتهم للحياة – ما يحدث فى قريتهم أو القرى المجاورة أو أحوال الحصاد والمحصول . . . إلخ . . ويسجلون ما يدور فى الاجتماع ثم فى نهاية كل ثلاث شهور يجمعون أحاديثهم فى كتاب .

راقتنى الفكرة كثيراً فعزمت على أنه بمجرد خروجى من السجن وعودتى إلى قريتى أفعل بالمثل فأجتمع مع الأهل والأصحاب ونعقد ندوات ودية . . ألا ما أجمل انطلاقة الريف والراحة التى أحس بها فى مندرة دارنا . . وأحلى من هذا كله كلام أهل الريف التلقائى البسيط الصادق والذى فى الوقت نفسه يحمل الكثير من المعانى العميقة المعبرة التى تمتد جذورها إلى حضارة آلاف السنين . .

قضيت بسجن الأجانب وقتاً لا بأس به . . أقرأ وأخرج إلى فناء السجن مرتين فى اليوم كل ربع ساعة أمارس فيها رياضتى المحببة وهى المشى . . بين أضلاع السجن الأربعة .

أشياء كثيرة حدثت فى السجن ولكنى لا أذكرها كلها . . أذكر مثلا أنى صحوت من النوم على صوت امرأة تغنى « لا والنبى يا عبده » وكانت هذه من الأغنيات الشائعة فى ذلك الوقت وفجأة سمعت نفس الصوت يولول ويصرخ . . تماماً كما يحدث فى أفلام السينما الميلودرامية .

سألت قالوا إنها حكمت فهى الراقصة وإنها فى الزنزانة المجاورة لى . . وإنها هى الأخرى متهمة فى نفس قضيتنا . . فهمت . . فهى التى أجرت الذهبية للجواسيس الألمان . .

كل من كان فى سجن الأجانب فى ذلك الوقت كان مقبوضاً عليهم فى قضايا خاصة بالسلطات البريطانية لاستكمال التحقيق معهم تمهيداً لترحيلهم إلى المعتقلات . .

هكذا علمت . . ولذلك لم أدهش عندما أخرجونى من الزنزانة يوماً وساروا بى إلى مأمور السجن حيث كان هناك أيضاً الجاسوس الألمانى (أبلر) . . أعادوا التحقيق ولم أغير كلامى ضعاً . . اتصلوا تليفونياً بهيكمان مأمور السجن . . يسألونه عن النتيجة . .

فسمعته يقول : لا أمل لأنه ينكر على طول الخط (ولم يكن يعرف أنى أعرف الإنجليزية) .

كان معنا فى السجن طبعاً زميلى حسن عزت ولم نكن نتقابل ولكن لما عرف الحراس أننا من الضباط بدأوا ينقلون الكلام بيننا . . وبدأوا أيضاً يعاملوننى معاملة بها الكثير من التعاطف والود والاحترام . . فمن خلالهم تعرفت على أكثر المساجين . . مثلا كان هناك رجل ألمانى اسمه (ماكس) قالوا لى إن له فى السجن سنة ونصف . . وآخر إيطالى معتقل له ٨ شهور . . وهكذا وهكذا . . أقل فترة لأى سجين كانت لا تقل عن ٦ شهور .

قلت فى نفسى هذا يعنى أنى سأقضى هنا ٦ شهور على الأقل . . وكان الشتاء قد دخل وغيرنا ملابسنا ولكن الملابس الشتوية لم تكن كافية وخاصة أن الواحد منا كان يقضى معظم الوقت فى زنزانته دون حركة أو عمل . .

وذات صباح فوجئت بالسجان يفتح الباب يحمل إلى بعض الطعام من البيت عندنا ومعه روب شتوى ممتاز . . فردت الروب أمامى على السرير ووقفت أنظر إليه وأتحسسه . . كان شيئاً جميلا للغاية كالأشياء التى نراها فى السينما . . لم أصدق عينى فناديت السجان وسألته إذا كان هذا الروب حقيقة لى . . قال أنه مرسل للزنزانة رقم ٧ . . وهذه هى . . تأكدت فلبسته وأنا فى

منتهى السعادة . . مثل هذا الروب لم يكن فى استطاعتى شراؤه وأنا يوزباشى فى الجيش فكيف حصل عليه أهلى ؟ لابد أنهم صرفوا المكافأة المستحقة لى وهى ثمانون جنيها واشتروا بجزء منها هذا الروب الجميل . . كان بالنسبة إلىّ متعة لا تساويها متعة أخرى . . فقمت وتوضأت وصليت حمداً لله . . لم أكن فقط فرحاً بالروب نفسه . . بل أيضاً باللفتة التى يحملها . . (إذن هناك من لا يزال يذكرنى وما زالت لى قيمة فى نظر الناس . . أو بعضهم على الأقل) .

٣

كنت قد بدأت أتأقلم على حياة السجن . . وخاصة بعد أن سمحوا لى ولزميلى حسن عزت باللقاء . . وكان هذا معناه أن التحقيقات قد انتهت . . وفى لقاءاتنا كان حسن عزت يحكى لى عن مشروعاته بعد خروجنا من السجن . . مشروعات صيد سمك من وراء خزان أسوان . . ومشروعات زراعة . . . . إلخ . . أما أنا فكان مشروعى الوحيد أن أعود إلى الأرض ومن هناك أبدأ من جديد . .

لم نستمتع طويلا بحالة الاستقرار والتأقلم التى هى من نعم الله على الإنسان ففى يوم من الأيام جاء إلىّ السجان وطلب منى أن أحزم أمتعتى . .

قلت : خيراً . .

قال : ستنقل من هنا . .

– إلى أين ؟ سألت ولكن ما من جواب .

جهزت ملابسى وتوجهت إلى حجرة المأمور حيث سلمونى رباط حذائى ورباط عنقى وماكينة الحلاقة وثلاثة جنيهات كان أهلى قد أودعوها السجن أمانة . .

– عهدتك تمام ؟

– نعم تمام .

– اتفضل وقع . .

وقعت على أنى تسلمت حاجياتى ثم أمرونى بالسير إلى باب السجن وعسكرى

إلى يمينى وآخر إلى يسارى . . نظرت فرأيت عربة (بيك آب) تقف ملتصقة بالباب . . أما السلم المؤدى إلى الباب فقد غطوه من الجانبين بالبطاطين . . فهم لا يريدوننى أن أرى شيئاً مما حولى . . وكأنهم مثلا يقومون بعملية اختطاف . . فى العربة وجدت زميلى حسن عزت ويبدو أننى كنت آخر القادمين فبمجرد دخولى غطوا العربة الـ (بيك آب) ببطانية ثم ساروا بنا . . وما هى إلا دقائق معدودة حتى وجدنا أنفسنا على رصيف الصعيد فى محطة مصر . . كانوا قد أخلوا الرصيف من المسافرين تماماً ولكن كان البوليس محتشداً فوقه بصورة توحى بأننا قوة خطيرة لابد من حصارها وإلا أصبح أمن الدولة فى خطر . .

كان فى انتظارنا قطار ديزل صغير أدخلونا فيه فاكتشفنا أننا لم نكن وحدنا إذ رأينا بالقطار معتقلين آخرين . . منهم على ما أذكر اثنان من كبار ضباط الجيش من ضحايا الأحزاب . . وإلى جانب كل منا . . هم ونحن يجلس ضابط لحراستنا . . وتحرك القطار بنا فى طريقه إلى معتقل جديد . . كما كان يبدو واضحاً . . ولكنه كان فى هذه المرة فى الصعيد . . على بعد ٢ كيلو من المنيا (وهى تبعد عن القاهرة بـ ١٦٠ ميلا) .

لم يكن المعتقل الجديد الذى نقلونا إليه بنفس الطريقة (أى أن البطاطين كانت تغطى العربة بحيث لا نرى شيئاً إلى أن وصلنا) معتقلا بمعنى الكلمة ، بل قصراً شامخاً يقف منعزلا على ضفاف ترعة الإبراهيمية يحيط به التراب وخلفه قرية صغيرة لا تختلف كثيراً عن ميت أبو الكوم . . ما الذى أتى بهذا القصر إلى هذا القفر ؟

عرفنا بعد ذلك أنه كان ملكاً لأحد أعيان حزب الوفد وساءت حالته المالية فأجره للحكومة التى أحالته إلى معتقل . . أو بدأت تفعل ذلك . . فعندما وصلنا وجدنا المهندسين العسكريين يعملون فى بناء أسوار من الأسلاك الشائكة تحيط بالقصر كله . . ولاحظت أنها كانت عالية جداً بحيث لا يستطيع أحد تسلقها . .

أقمت فى معتقل (ماقوسة) هذا من ديسمبر ٤٢ إلى سبتمبر ٤٣ . . فى هذه الأثناء وحتى قبلها بقليل فى نوفمبر ٤٢ على وجه التحديد ، كان مونتجومرى

قد قـام بهجـومه على القوات الإيطالية والألمانية فى معـركة العلمين المشهورة بعد حصار بحـرى منع الإمدادات عن قوات روميـل . . ومع ذلك استطاع روميـل أن ينسحب بقواته سليمة كاملـة برغم التفـوق الهائل لقوات مونتجومرى ومازال انسحاب روميـل على الصورة التى تمت يعتبر فى التاريخ العسكرى موازياً للنصر الذى أحرزه مونتجومرى ولعل انتصار الحلفاء فى تلك المرحلـة هو الذى جعل أعصاب الإنجليز تهـدأ قليلا . . فاكتفـوا بفصلنا من الجيش واعتقالنا . .

كانت إقامتى بمعتقل ماقوسة صعبـة فى الأيـام الأولى رغم أنه كان قصراً منيعـاً به مرايا فرنسية وأخشاب فاخـرة وشبابيك من الزجاج الملـون وحمامات رائعة . . أشياء لم أر مثلها من قبل فى حياتى بهرتنى فى أول الأمر وكانت مصدر دهشة لى . . ولكن مـع الوقت تعـودت عليها وأصبح السجن سجناً كبقية السجون . . وخاصة عندما بدأوا يغلقـون الشبابيك بقضبان من الحـديد . .

ما معنى هذا والمبنى تحيط به الأسلاك الشائكة من كل جانب ؟ كان لابد من التمـرد . وفعلا كانوا كلمـا ركبوا القضبان الحديدية أزلناها . . وهكذا يوماً بعـد يوم إلى أن اضطروا إلى الاكتفاء بالأسلاك الشائكة . .

فى معتقل ماقـوسة كان معنا حسن جعفـر الأخ الغير شقيق لحسين جعفـر أو (آبلـر) الجاسوس الألمـانى . . ولم يكن لحسن أى دور فيما حدث ولكن رغم ذلك اعتقلـه الإنجليز من باب الإحتيـاط . .

وجـدت فى حسن شاباً دمث الخلـق لطيفاً للغاية وكان يعرف الألمانية والإنجليزية فطرأت لى فكرة طرحتها عليه للفور وهى أن يعلمنى اللغة الألمانية وكنت قد قرأت أن الشيخ محمـد عبده (وهو أحد أقطاب نهضة مصر الحـديثة) لمـا بدأ تعلم الفرنسية وجد أن أحسن طريقة أن يقرأ رواية بالفرنسية على أن يعاونه فى قراءتها شخص يعرف الفرنسية والعـربية معاً . . فالـرواية هى شريحة من الحياة بكل ما فيها من أوصاف وحوار ونقاش . . . إلخ . .

وكان مع حسن جعفـر رواية لإدجـار والاس مترجمـة إلى الألمانية فاتفقنا على قراءتها معاً . . وفعلا كنا نجلس كل يوم على سلم القصر الداخلى نقـرأ

الرواية . . فى أول الأمر كنت أقرأ فى اليوم ٤ سطور ثم وصلنا إلى نصف صفحة . . فصفحة وبالتدريج بعد سبعة شهور استطعت أن أقرأ فصلا كاملا إلى أن جاء الشهر التاسع فانتهيت من الرواية كلها وأصبحت أقرأ الألمانية كما يقرؤها حسن جعفـر تماماً حتى أنى عندما زرت النمسا فى الفترة الأخيرة وألقيت خطاباً بالألمانية سمعت أن كيسنجر قال لنـورد إننى أنطق الألمـانية أحسن منه لأن كيسنجر من جنـوب ألمانيا أصلا وأنا أتكلم لغـة الشمال التى هى أقرب إلى الألمـانية السليمة . .

وفى نفس الزيارة كان مستشار النمسا حريصاً على أن أتعرف على كاردينال النمسا وهو من الشخصيات الهامة فى الفاتيكان . . وفعلا تم التعارف ووجدته يتقن عدة لغـات منها الإنجليزية والفرنسية والعـربية . . وفى أثناء حديثى معه سألنى أين تعلمت الألمـانية بهذا الإتقان . . ودهش طبعاً عندما عرف . . وما زلت إلى اليوم أتذكر معـالم الدهشة التى بدت على وجهـه . .

كان أهلى يأتون لزيارتى بالمعتقل كل شهر . . فأجـرة السفر غالية وأهلى فقـراء . . وحدث مراراً أنى وزملائى تمارضنا فكانوا يرسلوننا إلى المستشفى فى المنيـا . . وفى إحدى هذه المرات ذهبت إلى المكتبـة وهناك التقيت بوجيـه خليل أحـد زملائى فى الكفاح الذى رتب اللقـاء عندما عرف بوجـودى ليخبرنى أن إخوانه الضباط قد قرروا دفع عشر جنيهات شهرياً لأسرتى بالقاهرة . .

لا يمكن أن تتصور مدى تأثير لمسة الوفاء هذه على وأنا فى المعتقـل بعيداً عن إخوانى الضباط بل ولم أعد حتى واحداً منهم . .

فى معتقـل (ماقوسة) حضرت رمضان مرة أخـرى كما حدث فى سجن الأجانب من قبل . . وكعادتى قرأت القـرآن ثلاث مرات مرة كل عشرة أيـام . . كان ذلك خلال عام ١٩٤٣ ، وقد بدأت هزائم المحـور وبدأ مسار الحرب يتغير لصالح الحلفـاء . . وخاصة بعد أن حارب الروس معـركة رائعـة فى ستالنجراد . . وساعدهم فى حربهم الجنرال « ونـتر » (أى الشتاء القارس) الذى سبق أن هزم نابليـون كما كان السبب الرئيسى فى هـزيمة الألمـان . . وقبل أن تنتهى سنة ١٩٤٣ صدرت إلينا الأوامـر بالانتقال إلى معتقـل آخر – قرب القاهـرة – هو معتقل الزيتـون .

٤

فى معتقل الزيتون كان هناك أيضاً نوعان من المعتقلين – النوع الأول مثلى من المصريين المكافحين ضد الإنجليز أو من أهل سوريا ولبنان المتمصرين ممن كانت تستخدمهم حكومة فيشى أو الألمان بحكم الاستعمار والوجود الفرنسى التقليدى فى الشام الذى كان يشبه الوجود الإنجليزى عندنا . أما النوع الثانى فكان من أعضاء أحزاب مناهضة لحزب الوفد الحاكم مثل حزب مصر الفتاة وحزب الكتلة الذى كونه مكرم عبيد عندما انشق على النحاس باشا زعيم الوفد وأصدر (الكتاب الأسود) وهو كتاب صغير الحجم ولكنه يكشف عن أسرار تسيء إلى حكم الوفد . . ورغم أن النحاس كان رئيس الحكومة إلا أن الكتاب صدر ووزع وتداوله الناس .

فى معتقل الزيتون تعرفت على (كونت) من بلاد البلطيق معتقل مثلنا . . كان رجلا لطيفاً للغاية ولكن – رغم أنه كان يعيش فى غرفة صغيرة فى البدروم مغلوباً على أمره كأى معتقل إلا أنه لم ينس لحظة أنه كونت أوروبى . . فكان يأمر وينهى كأنه فى قصره ويمشى ويتكلم بأرستقراطية لم يستطع أبداً أن يتنازل عنها مما جعله طول الوقت موضع ضحكنا بل وتسليتنا الوحيدة .

كانت الحياة مملة فى معتقل الزيتون فالوقت يمضى فى بطء شديد ولا شيء نفعله .. ففكرنا فى تربية الأرانب – اشترينا زوجين أو ثلاثة فى بادىء الأمر – وبعد ثلاثة شهور فقط تكاثرت أرانبنا حتى امتلأت بها القاعة الوحيدة الفسيحة فى المعتقل مما جعلنا ندورحولها لكى نذهب إلى حجرتنا فقد أصبح من المستحيل أن نخطو فيها خطوة واحدة . . ماذا نفعل بكل هذا الجيش من الأرانب ؟ وهنا اكتشفنا موهبة فذة فى صديقنا الكونت الأرستقراطى . . وهى أنه يجيد الطهى وخاصة طهى الأرانب بالذات . . وهكذا عشنا فترة على تربية الأرانب وأكلها إلى أن جاء وقت أصاب أحدها المرض وانتشرت العدوى بينها فما هى إلا أيام قلائل حتى أخذ عددها يتناقص بنفس السرعة التى تكاثرت بها . . وخلت القاعة منها وعادت إلينا فسيحة خاوية كما كانت فى البداية .

وهكذا توقفنا عن تربية الأرانب وعن أكلها طبعاً وتوقف صاحبنا الكونت

عن طهيها وحفظ (الحلة) أو الوعاء الذى كان يملؤه كل صباح بها ويخفظه بين المرتبتين على سريره حتى تظل محتفظة بحرارتها كما كان يفعل كل مرة نتأخر فيها بعض الوقت عن ميعاد الأكل .

ومن الشخصيات التى أذكرها فى معتقل الزيتون وكيل وزارة الداخلية فى ذلك الوقت . . غضب عليه النحاس باشا فاعتقله رغم أنه كان محايداً لا ينتمى إلى أى حزب . . كان اسمه أبو شادى وقد رأيته مرة أخرى بعد الثورة – عندما فرضت عليه الحراسة لا أعرف تحت أية ظروف ولا لأية أسباب . . كان هذا فى سنة ١٩٦١ أى بعد حركة الانفصال عن سوريا . . وكانت كل الحراسات التى فرضت أساسها حزبى فقد نشأ عند عبد الناصر خوف من الإنفصال أعقبه شعور مضاد عند الشعب المصرى نحو الحكومة فزين له بعض أعوانه أن هذا الشعور إنما هو ثورة مضادة . . وبناءً عليه لجأوا إلى فرض الحراسات على جميع الحزبيين وجاء ضمنهم أبو شادى مع أنه كما قلت لم يكن ينتمى إلى أى حزب . . بل كان مثلا أعلى للموظف المسئول فى اتخاذ الإجراءات العادلة السليمة .

ولكن كان من الطبيعى بعد فشل الوحدة مع سوريا أن يتكلم الناس وأن يتناول بعضهم نظام الحكم بالنقد وهذا ما ذهب ضحيته أبو شادى . . تماماً كما حدث بعد سنة ١٩٦٥ بالنسبة للإخوان المسلمين الذين هيئ للسلطة الحاكمة فى ذلك الوقت بأنهم يتآمرون ليقوموا بالثورة المضادة وقد ذهب ضحية هذا التصور الكثيرون ممن يحصون بالألوف . . وصدرت ضد الكثيرين منهم أحكام وظل الجميع فى المعتقلات أو السجون إلى أن صفيت أنا العملية كلها فأغلقت المعتقلات كلها مباشرة بعد أن صفيت مراكز القوى فى سنة ١٩٧١ أما المحكوم عليهم سواء من الإخوان أو فى أية قضية سياسية أخرى فقد أطلقت سراحهم مباشرة بعد معركة أكتوبر ١٩٧٣ .

٥

أعود إلى حديثى عن معتقل الزيتون .

فى الحقيقة كانت له عدة مزايا عن معتقل ماقوسه . . فنحن هنا فى القاهرة وأهلنا يترددون علينا لزيارتنا دون تكاليف السفر إلى المنيا .. ثم إن معتقل الزيتون

كان فيلا بها حديقة كبيرة تتيح لنا فرصة الحركة أكثر من حديقة معتقل ماقوسه الصغيرة الضيقة . . ولكى نقطع الوقت فكرت وزميلى حسن عزت فى زراعة الحديقة بالبرسيم ليكون غذاء للأرانب التى ربيناها . . ثم بعد فناء الأرانب لجأنا إلى زراعة البطاطا وكانت هذه أول مرة أمارس فيها هذه الزراعة .

وهكذا عشنا فى هدوء لا يعكره سوى مطبعجى من سيدنا الحسين كان كلما أفرجت عنه السلطات يطبع منشوراً ضد الحكم فيعود إلينا فى اليوم التالى . . فهو يفضل عيشة المعتقل على عيشة الحرية . . والسبب أنهم رتبوا رواتب شهرية قدرها سبعة جنيهات ونصف لكل منا . . تقبلها الجميع ما عداى وحسن عزت الذى أقنعته بعدم قبول منحة من سلطات الاعتقال لأن هذه مسألة مهينة للكرامة . . وكان المطبعجى ضمن من يتقاضون هذا الراتب الشهرى . . وكانت الإقامة بالمعتقل بما فيها الأكل والمبيت بالمجان طبعاً ولذلك كان حريصاً على أن يبقى بالمعتقل أطول مدة ممكنة على أمل أن يخرج منه فى النهاية برأس مال محترم . . فى نظره على الأقل .

فى يوم من الأيام عكر صفونا تعيين قومندان جديد للمعتقل — كان عنيف السلوك ولذلك فصل أكثر من مرة من منصبه وعاد إليه أيضاً أكثر من مرة إذ كان عمه عضو مجلس شيوخ وفدى عن مديرية البحيرة . . وكانت لهم عصبية كبيرة تمتد إلى ليبيا موطنهم الأصلى .

المهم أنه حدثت بينى وبين القومندان الجديد مشادة لا أذكر سببها الآن ولكنى أذكر نتائجها جيداً . . فقد جمعت المعتقلين جميعاً وأقمنا متاريس من فراش وأمتعة حجراتنا ووضعناها كلها على السلم بحيث تمنع أى إنسان من الوصول إلينا فى الدور الثانى . . بعد ذلك بفترة قصيرة جاء القومندان إلى حجرتى وأخذ يهددنى وهو يحمل طبنجة فى يده .

قلت له : أنت جبان . . وإلا فكيف تهددنى بالسلاح وأنا أعزل ؟

خرج غاضباً وتوجه إلى حجرته وأحاطها بالعساكر وظن أنه فى أمان . . قلت فى نفسى لابد أن أؤدب هذا الإنسان الشاذ . . فقفزت من حجرة إلى حجرة إلى أن دخلت حجرته من الشباك . . نظر فرآنى أمامه . . انذعر . . قلت : أنت مغلق

الحجرة على نفسك والحراس يحرسون الباب . . وهكذا تعتقد أنك فى أمان . . ولكن فى مقدورى الآن أن أخنقك . . أو أن أفعل بك أى شىء . . هل تدرك هذا ؟ . . ودار بيننا حوار ساخن تركته على أثره وتوجهت إلى حجرتى . . وأغلقنا السلالم بالمتاريس إغلاقاً تاماً .

كان الموقف السياسى فى العالم قد انكشف تماماً فى عام ٤٣ . ٤٤ أصبح من الواضح أن ألمانيا فى طريقها إلى الهزيمة وكانت هذه فرصة مواتية لاستعجال الإفراج عنا . . فاستقر رأيى وزميلى حسن عزت على إثارة الرأى العام فى المعتقل . عملنا حركة عصيان وأشركنا معنا جميع المعتقلين . . ضربوا فينا بالرصاص من حديقة المعتقل . . وكان هذا التصعيد للموقف من جانب الحكومة ما توقعناه . . بل وأكاد أقول ما طلبناه فقررنا أن نعطيهم درساً لا ينسونه مدى الحياة .

ولكن كيف ؟

٦

قررنا أن يهرب ستة منا . . واتفقنا على خطة ونفذناها بكل دقة . . كان أحسن وقت للهروب هو وقت تغيير الحراس فى أول المساء . . نسبة إلى ما يسود المكان من هرج ومرج . . أما طريقة الهروب فكانت أن نفتح فتحة فى سقف حجرة الأرانب ولم يكن هذا بالأمر الصعب فالسقف من الخشب البغدادلى . . وفى اليوم الذى حددناه نصبت السلم وتسلقته وحفرنا فجوه فى السقف خرجت منها إلى السطح واستلقيت على وجهى حتى لا يرانى أحد . . ومددت يدى أتسلم بقية الهاربين من بين يدى حسن عزت الذى كان يقف على أرض الحجرة يناولهم لى الواحد بعد الآخر فأدلهم على الطريق . . إلى أن انضم إلىّ حسن عزت فنزلنا إلى الشارع وكان الظلام حالكاً . . ولكن كانت هناك عربة (أولد زموبل) فى انتظارنا كما رتبنا . . فركبنا نحن الستة ومضينا .

كان حسن فخوراً بالعربة — فالكاوتش جديد كما قالوا له . . وهو أمر كان نادراً فى ذلك الوقت خلال الحرب فلا يمكن شراء كاوتش جديد إلا بإذن من السلطات

البريطانية . . بعد كيلو أو اثنين ضرب الكاوتش فاقترح حسن أن نذهب إلى أية ورشة لإصلاحه – ولكنى رفضت وقلت : اعملوا أنتم ما يتراءى لكم فأنتم الذين ستظلون هاربين كما قررنا أما أنا ومحسن فلنا خطة أخرى .

كان محسن فاضل شاباً دمث الخلق قضى شطراً كبيراً من حياته فى فرنسا . . أين نختفى إلى أن يطلع الصباح وننفذ خطتنا ؟ اقترح محسن أن نذهب إلى شقة سيدة فرنسية عاشت فى مصر بعض الوقت مع صديق مصرى لها ثم هجرها وبقيت هى بشقتها الصغيرة فى ميدان الإسماعيلية – فى وسط البلد – تنتظر انتهاء الحرب حتى تعود إلى وطنها . ضربنا الجرس ففتحت الباب ورحبت بمحسن وبى أحسن ترحيب . حكى لها محسن القصة بالتفصيل فتعاطفت معنا بكل كيانها .

كانت سيدة عظيمة فى الواقع – تمثل روح الشعب الفرنسى أحسن تمثيل – ذلك الشعب الأصيل العاشق للحرية تماماً كشعب مصر . . استنكرت عودتنا إلى المعتقل كما كانت تقضى به خطتنا فى الصباح . . ومازالت كلماتها ترن فى أذنى : – كيف تعودان إلى السجن بعد الحرية . . وبمحض إرادتكما ؟ لقد اقتصدت ٢٠٠٠ جنيها هى كل ما أملك . . خذا المبلغ بأكمله واهربا إلى أى بلد . . هيا اذهبا . .

رفضنا شاكرين . . فعادت تقترح أن نختبىء عندها وهى تتكفل بمصاريفنا مهما طال الوقت . .

كم كانت رائعة هذه السيدة الفرنسية فى إلحاحها على أن تعطينا كل ما تملك وتبدأ هى حياتها من جديد رغم تقدم السن بها . . وكل هذا من أجل الحرية !

فى الصباح وجدنا مائدة الإفطار فى انتظارنا وفوقها الجرائد العربية وكل شىء معد على أحسن صورة .. تناولنا الإفطار ثم شكرناها ونزلنا إلى الشارع .. أخذنا تاكسى وتوجهنا إلى قصر عابدين . .

دخلنا القصر فوجدنا أحد الأمناء فى حجرة الأستقبال ودفتر التشريفات مفتوح – إلى هنا كل شىء عادى فالدفتر مفتوح لأى مواطن يريد أن يشكر أو يستأذن فى السفر أو أى شىء من هذا القبيل . .

توجهنا مباشرة إلى الدفتر وقيد كل منا اسمه وقلنا إننا معتقلون فى الزيتون وقد حضرنا خصيصاً لكى نقول للملك إن الحكومة يجب ألا تخضع للسلطة البريطانية كما لا يجوز إطلاقاً أن تعاملنا هذه المعاملة البالغة السوء . . وإننا على الفور سنعود إلى المعتقل بمحض إرادتنا . . وقد هربنا لكى نبلغ هذه الرسالة للملك ولكى نقول له إن أربعة من زملائنا قد هربوا معنا ولكنهم لن يعودوا مثلنا إلى المعتقل . . بل سيظلون أحراراً يفعلون ما يريدون . . رهائن خارج السجن مقابل حريتنا جميعاً وتحدياً للسلطة . .

عندما قرأ التشريفاتى المسئول عن الدفتر هذا الكلام فزع وهرع إلى الأمين الأول يبلغه بما حدث ، جاء الأمين الأول وكان اسمه بدر وكان يعرفنى من معتقل ماقوسة عندما كان فى ذلك الوقت مدير المنيا . . قال لى إن هذا عمل جنونى وإنه سوف يثير أزمات وأزمات . . قلت له إننا سنعود فوراً إلى المعتقل وله أن يفعل ما يشاء . . وعلى مشهد منه ومن جميع مرؤوسيه الذين تجمعوا حولنا خرجت ومعى محسن وأخذنا تاكسى وتوجهنا إلى المعتقل . . فتحوا الباب ، دخلنا بالتاكسى ثم نزلنا وسلمنا أنفسنا . .

لم يكونوا قد اكتشفوا هربنا إلا صباح اليوم التالى حيث جاء وكيل النيابة ليحقق معنا – قلنا إننا فعلنا ما فعلناه لكى يحسنوا معاملتهم لنا . . وإن المقصود بالعملية إعطاء درس لوزارة الداخلية ولإدارة المعتقل وكان وكيل النيابة الذى أجرى التحقيق هو الأستاذ أنور أحمد الذى أصبح وكيلا لوزارة الشئون الاجتماعية بعد ذلك . .

طبعاً نقلوا قومندان المعتقل وتحسنت معاملتهم لنا بشكل ملموس ثم جاء أكتوبر سنة ١٩٤٤ .

فى ذلك الوقت كان النحاس مازال فى الحكم منذ أن فرضه الإنجليز على الملك فى فبراير سنة ١٩٤٢ . . ومنذ ذلك الوقت والملك يتحين الفرص للتخلص من النحاس . . وأخيراً جاء الوقت المناسب فى أكتوبر سنة ١٩٤٤ وضح انتصار الحلفاء وبدأت أعصاب الإنجليز تهدأ ومخاوفهم تزول فأقال الملك النحاس وعين بدلا منه أحمد ماهر . . وكان من أقطاب الوفد المنشقين على النحاس وزعيما لحزب جديد شكله هو الحزب السعدى . .

بمجرد تولى أحمد ماهر الحكم أفرج عن زملائنا فى المعتقل الذين ينتمون إلى حزب الكتلة فقد كان هناك شبه ائتلاف بين الكتلة والسعديين والأحرار الدستوريين أما الوفد فقد كان وحده . . أفرجوا أيضاً عن أعضاء حزب مصر الفتاة ممن كانوا معنا بالمعتقل وكل الحزبيين المعتقلين . . الكل أفرج عنهم إلا نحن المعتقلين بناء على أوامر السلطات البريطانية . .

إلى متى سنظل فى المعتقل ونحن فى نهاية سنة ٤٤ والحرب قد اتضحت نتائجها ؟ لابد من عمل شيء . . حرضت زملائى فأضربنا عن الطعام . . ولكن بعد فترة لم يتحمسوا الجوع فعادوا إلى تناول الطعام أما أنا فلم أتنازل مطلقاً فاضطروا حسب القانون إلى نقلى إلى مستشفى القصر العينى الجديد لكى أكون تحت العناية الطبية حسبما تقتضى القوانين .

هناك أوقفت إضرابى عن الطعام . . وبعد فترة قصيرة زارنى فى المستشفى زميلى حسن عزت الذى كان قد هرب من معتقل المنيا وقال : ماذا تفعل هنا ؟ . . لابد من تدبير خطة هروبك . . وفعلا دبرنا الخطة . .

فى ساعة الظهيرة عندما يزدحم المستشفى بالداخلين والخارجين من آلاف الناس جاء حسن عزت بعربة (أوستن) صغيرة ووضعها تحت مظلة الأطباء . . ولم يوقف الموتور . . خرجت أنا إلى فناء المستشفى وخلفى حارسى . . وفى زحمة الناس استطعت بسهولة أن أتوارى عنه وبسرعة بلغت العربة التى اختفت بى وبحسن عزت فى لمح البصر . . وبعد دقيقتين وصلنا منطقة فم الخليج حيث الشقة التى كان قد جهزها حسن كمخبأ لى على بعد دقائق قليلة .

كان هذا فى أكتوبر سنة ٤٤ كما قلت . . وبقيت مختبئاً هارباً من وجه العدالة إلى سبتمبر سنة ٤٥ عندما سقطت الأحكام العرفية فبسقوط الأحكام العرفية انتهى اعتقالى حسب القانون — هذه ميزة سيادة القانون التى أحترمها وأدين بها وأطبقها الآن وأنا رئيس لجمهورية مصر . .

ماذا حدث لى طوال سنة كاملة منذ أكتوبر سنة ٤٤ إلى سبتمبر سنة ٤٥ وأنا هارب من وجه العدالة . . ويمكن فى أية لحظة أن يقبض على وأعود إلى المعتقل أو ربما إلى السجن ؟

هذه قصة أخرى . .

٧

كانت فترة الهروب مليئة بالأحداث . . فقد كان لابد أن أعمل لكى أجد لقمة العيش لى ولأولادى فلم يكن والدى فى وضع يسمح له بمساعدتى بأى شيء على الإطلاق . . ولذلك كان على أن أخرج للحياة فأطلقت ذقنى لأخفى ملامحى وسميت نفسى الحاج محمد .

أول ما قمت به هو أنى عملت حمالا على عربة لورى كان يملكها زميلى حسن عزت . . بدأنا أنا وسائق اللورى بالعمل لحساب تاجر اسمه غويبة كان متعهداً للجيش البريطانى فى الإسماعيلية . . وأذكر أنه فى مرة من المرات وصلنا الإسماعيلية فى المساء فتكرم علينا غويبة وسمح لنا أن نبيت ليلتنا فى مكتبه على الأرض . .

كان غويبة هذا مليونيراً من أغنياء الحرب فلما أصدر عبد الناصر قوانين الإشتراكية فى سنة ٦١ وضع غويبة أمواله تحت البلاطة كما نقول وارتدى ملابس رثة للغاية فصدق عبد الناصر ورجاله أنه معدم فعلا . . ولم يكن غويبة فريداً فى هذا فقد فعل مثله الكثيرون من الأثرياء فى عهد عبد الناصر وقبله . فالشعب المصرى على مدى تاريخه الطويل قد تعلم كيف يخدع حكامه إذا تعارضت أوامر الحكام مع رغبات الشعب ومصالحه . .

نعود إلى قصتى مع غويبة . . فى المرحلة الثانية من عملى معه عهد إلى بنقل الخضرو الفاكهة إلى معسكر الإنجليز فى التل الكبير . . وأذكر أننى عندما سلمت أول شحنة لاحظت أنها محملة بأسوأ أنواع البرتقال . . فاندهشت ولكنى اكتشفت أن هناك اتفاقاً بين المتعهد ومسئول التموين بالجيش الإنجليزى Quarter - Master على الغش طبعاً . .

وبعد فترة طلبوا منا عدم إمدادهم بأى تموين . . فقد لجأوا إلى استيراد جميع متطلباتهم من اليهود فى فلسطين . . ربما لأنهم كانوا أكثر قدرة على الغش والرشوة من المصريين . . وربما لسبب آخر لا أعرفه ولكن بهذا توقف عملى مع غويبة . .

عملت بعد ذلك فى بلدة اسمها مزغونة (بالقرب من القاهرة)
وكان عملى بها أن أنقل الحجر (الدبش) من المراكب الآتية بالنيل إلى أن أصل
بها إلى الطريق الذى كان فى ذلك الوقت يرصف بين القاهرة وأسوان .
كنا نعمل من مطلع الفجر إلى غروب الشمس دون توقف وفى نهاية
اليوم كنت أهرع إلى مطعم صغير حيث أتناول شوربة العدس الساخنة فى
برد الشتاء القارس بعد جهد وجوع يوم بأكمله . . فكانت أشهى طعام
أكلته فى حياتى بمجرد أن ألتهمه وأحس بالشبع والدفء آوى مباشرة إلى
جراج مسقف بالصفيح لأنام . .

كان ذلك فى ديسمبر سنة ٤٤ ومع مجيء سنة ٤٥ انتقلت إلى بلدة أبو كبير
بالشرقية وعملت فى مشروع شق ترعة رى تسمى ترعة الصادى بالمنطقة
وكان من عادة مصلحة الرى فى ذلك الوقت أن تشق ترعة جديدة كل
سنة . .

سكنت فى منزل غفير فى مكان اسمه عزبة طلعت أجرته منه . . وكان السقف
من حطب القطن . . وفى ليلة من ليالى الشتاء أمطرت السماء مطراً شديداً
فاخترق الماء سقف الحجرة وبدأ يتساقط فوقى . . ماذا أفعل ؟
غطيت رأسى وجسمى بقماش خيمة صغيرة كنت أحملها معى دائما . .
وتحمل قماش الخيمة المطر الذى لم ينقطع طول الليل وظل ينهمر بغزارة فوق
الخيمة وأنا تحتها أسمعه يضرب القماش بعنف مما أطار النوم من عينى . . ولكن
لعله التعب والإجهاد . . أو لعله صوت المطر وهو يسقط فوقى فى رتابة . .
لا أعرف ولكنى نمت تلك الليلة نوماً عميقاً إلى أن طلع الصباح . .
وكان الخفير يجاملنى فيقدم لى كل صباح اللبن الزبادى أو اللبن «المترد»
فأتناوله . . ولم أكن أعلم أن معدتى ليست سليمة وأن اللبن بالذات من أكثر
الأشياء التى تضر بها . .

تم مشروع شق الترعة فوجدت نفسى مرة أخرى بدون عمل ولكن لم يطل
انتظارى . . فى بلدة سنور شرق النيل جنوب بنى سويف فى صعيد مصر
وسط الصحراء القاحلة وجدت عملا واشتغلت . . كانت هناك شركة مصر

للمناجم والمحاجر وهى تملك امتياز منجم الرخام الألباستر الوحيد الموجود
فى هذه المنطقة . . وكان هذا المنجم يعمل أيام الفراعنة ثم أهمل إلى أن أتى
محمد على فأعاده إلى العمل وبنى منه مسجد القلعة . . فى هذا المنجم عملت
وكان يبعد عن شاطىء النيل ٥١ كيلو متراً ولكن محمد على أقام
استراحات كل منها تبعد عن الأخرى ١٧ كيلو . . وبقايا هذه الاستراحات
قائمة وموجودة إلى اليوم . .

كنت أعمل كمقاول لنقل الرخام . . وسوف تدهش إذا علمت أن الاستراحة
التى بناها الملك فاروق فى الهرم لنفسه من هذا الرخام (وهى اليوم كازينو) وأن
جميع رخام هذه الإستراحة قد قطعته أنا من المحجر ونقلته بنفسى إلى منطقة
الأهرامات لكى يبنى فاروق استراحته ثم لكى يستمتع بها الشعب اليوم
بعد أن أصبحت كازينو مفتوحاً للشعب .

٨

بانتهاء الحرب سقطت الأحكام العرفية وكان ذلك فى سبتمبر سنة ٤٥ فخرجت
إلى الحياة إذ بسقوط الأحكام العرفية أو ما يسمى قانون الطوارئ . . يسقط
حق الاعتقال . . وهذه ميزة سيادة القانون .

وهكذا عدت إلى بيتى بعد ثلاث سنوات من التشرد والحرمان . .
وارتديت ملابسى وبدأت أظهر بالصورة التى يعرفنى بها أهلى وأصحابى . .
صورتى التى تعودتها . .
فى تلك الفترة لم يكن عندى أى عمل . . وكانت الخمسة مليمات بالنسبة
لى عملة صعبة بكل معنى الكلمة . . فكنت أسير على الأقدام يومياً
من منزلى بكوبرى القبة إلى العتبة . . أى أكثر من ٢٠ كيلو . . لأنى
لا أملك ٦ مليمات أجرة الترام . . ولقد نشأت على حبى للجمال فى كل
شىء . . وكانت ملابسى ضمن الأشياء التى أتطلب فيها الجمال . . وكانت
عندى جاكتة أعتز بها كثيراً ارتديتها قبل اعتقالى مرات معدودة فقررت أن

أبيعهــا فى محل من محلات وسط البلـــد التى تشترى الأشياء المستعملـــة . . وفعلا أخذتها وتوجهت إلى إحدى هذه المحلات ولكنى عندما أصبحت على مسيرة قدمين من المحل توقفت . . لابد أن صاحب المحل سيتصور أنى سرقتها فليس من المعقـــول أن شاباً رث المنظـــر بهذا الشكل يمكن أن يمتلك هذه الجاكتة الوجيهة . . خطـــر لى هذا الخاطر وأنا أقف أمام التاجـــر فتراجعت وعدت إلى البيت سيراً على الأقدام ومعى الجاكتة . . كنت أعرف أن التاجـــر لن يسألنى من أين أتيت بالجاكتة . . وكنت واثقاً من أنه سيشتريها منى بأى ثمن . وأن المبلـــغ الذى سيدفعـــه مهما كان ضئيلا سوف يفك ضائقتى . . ولكنى فضلت أن لا أشوه صورتى فى نظـــر إنسان لا أعرفه ولا يعرفنى مهما كلفنى هـــذا . .

ولكن ماذا عن صورتى لنفسى كما أراها بعينى ؟ هل هى حقاً ما أردت لها أن تكون ؟

لقد عادت حريتى . . هذا ما كان يعنيه انتهاء الأحكام العـــرفيه . . ولكن هل أحسست أنا بالحرية كما يشعر بها سجين أطلـــق سراحه ؟ إن مصر ما زالت حبيسة والشعب ما زال لا يملك من أمر نفسه شيئاً . .

ولذلك بمجـــرد أن عاد إلى كيانى كمواطن حـــر طليق كان أول عمل قمت به هو تكوين الجمعية السرية . . فكيف تتحرر الذات بدون أن يتحـــرر الوطـــن ! ؟

كان ذلك فى سبتمبر سنة ٤٥ ولم يمض على خروجى إلى الحياة سوى أيام قليلة . . اتصلت بعمـــر أبو على شقيق زميلى سعودى حسين الطيـــار الذى سبق أن أرسلناه لروميـــل وضربت طائرته — وعرفنى عمـــر بشاب اسمه حسين توفيـــق اتضح أنه كان يمارس قتل الجنـــود الإنجليز فى المعادى قبل أن ينضم إلينا . . ولكن هل قتل حفنة من الجنـــود الإنجليز هو الطـــريق إلى تحـــرير مصر ؟ طبعـــاً لا . . ربما كان هذا العمـــل مجرد تدريب ولكن المهم أن نتخلص ممن كانوا يساندون الإنجليز فى ذلك الوقت . .

وكان على رأس هؤلاء فى نظـــرنا مصطفى النحاس باشا رئيس حزب الوفد الذى سقط فى نظـــرنا منذ أن فرضه الإنجليز بقـــوة السلاح فى ٤ فبراير ٤٢ . .

فلا شىء يعادل خيبة الأمل التى يصاب بها الشباب فى زعيم كان يوماً مثلهم الأعلى . .

وما زلت أذكر كيف كنا ونحن طلبة نخرج إلى الشارع مرتين كل يـــوم ننتظـــر ذهاب النحاس إلى بيت الأمة وعـــودته منه لنراه ونهتف ونصفق له . . كان بطلا أسطورياً ورمزاً فريـــداً للوطنية والفـــداء والعطاء . . أما بعـــد ٤ فبراير فقد فقد كل شىء وأصبح فى نظرنا خائناً لمصر ولشعبها يحتم علينا واجبنا الوطنى أن نزيلـــه من طريقنا . . ولذلك قررنا التخلص منه . .

كانت عادة النحاس أن يذهب فى يـــوم مولد النبى إلى النادى السعدى وهو مقـــر حزب الوفـــد ليلقى خطاباً بهذه المناسبة . . وصادف ذلك يوم ٦ سبتمبر سنة ٤٥ فخرجت أنا وبعض أفـــراد الجمعية السرية ننتظـــر خروج النحاس من جـــاردن سيتى إلى شارع القصر العينى حيث يوجـــد النادى . . كان البوليس يحرس الطـــريق منعاً للشغب . . فلا أحد يملك أن يمنع النحاس من إلقاء خطابه . . رغم أن أحمـــد ماهر كان فى الحكم والنحاس ضعـــاً خارج الحكم . . ولكن كانت هناك قيم وأصـــول يحترمهـــا الجميع فى ذلك الوقت . .

كنت قد دربت أعضاء الجمعية على استعمال القنابل اليدوية . . وكان الذى سيقـــوم بالعملية هو حسين توفيق . . وفعلا ألقى القنبلـــة فى الوقت المناسب ولكن سائق النحاس فوجىء وهو ينطلق من جاردن سيتى بعربة ترام فى شارع القصر العينى تكاد تصطدم به . . فأسرع لكى يتحاشاها . . كان فرق السرعة ست ثوان لا أكثر . . ولكنها كانت كافيـــة . . فعندما انفجرت القنبلـــة كان النحاس وعـــربته خارج منطقة الانفجـــار . . فأصابت الشظايا عربة أتوبيس بها فتيات .A. T. S التابعات للقوات المسلحة البريطانية . .

طبعاً كنت أنا وبعض أفـــراد الجمعية السرية فى مواقعنـــا نراقب العمليـــة فانسحبنا فى هدوء وركبنا الترام إلى ميدان الإسماعيليـــة (التحـــرير الآن) وهو على بعـــد دقائق قليلة من مكان الحادث . . حيث توجهنا إلى مقهى (أسترا) مكاننا المفضـــل الذى كنا نعقـــد فيه أغلب اجتماعاتنا . .

فى نفس المقهى قررنا التخلص من أمين عثمـــان الذى تولى وزارة المالية طوال حكم النحاس بعـــد أن فرضه الإنجليز فى ٤ فبراير . .

ولكن لم يكن هذا هو السبب فى إدانتنا لأمين عثمان . . فلم يكن له أثر يذكر فى سياسة الوفد أو على النحاس نفسه . . ولكنه كان أكثر من صديق للإنجليز . . ومساندا لبقائهم فى مصر بشكل لم يسبق له مثيل . .

كان قد كون فى تلك الأيام نوعاً من الحزب السياسى أطلق عليه اسم (رابطة النهضة) وهنا أحب أن أسجل للتاريخ أنه لم يكن فى مصر حزب سياسى واحد لم أدخله من باب المعرفة ربما أو من باب البحث عن منفذ نخلص به مما كنا فيه .

كان مقر (رابطة النهضة) هذه فى شارع عدلى وسط القاهرة . . وكانت لها ستة مبادىء أساسية ينص المبدأ الثانى منها على أننا مرتبطون بإنجلترا ارتباطاً حتمياً . . فقد أعلن أن مصر وإنجلترا قد تزوجا زواجاً كاثوليكياً . . فحتى لو تركتنا هى يتحتم علينا أن لا نتركها .

هذا التصريح كان بمثابة حكم الإعدام عليه . .

كان ذلك فى يوم السبت ٦ يناير سنة ٤٦ وأمين عثمان قد عاد من إنجلترا قبل ذلك بيومين وزار المندوب السامى البريطانى لورد كيلرن فى ظهر نفس اليوم وفى المساء ذهب إلى مقر الرابطة . . وكان حسين توفيق فى انتظاره عند باب العمارة حسب الخطة . . قبل أن يصل إلى المصعد ناداه حسين : « يا أمين باشا . . يا أمين باشا » التفت إليه أمين عثمان فأطلق عليه حسين رصاص مسدسه . .

كان الظلام مازال يسود القاهرة طبقاً لما كان يطبق أثناء الحرب العالمية الثانية وكان فى الإمكان أن يهرب حسين توفيق دون أن يلتفت إليه أحد ، ولكن تصادف مرور ضابط طيران اسمه مرسى رأى حسين توفيق وشاهد العملية كلها ونبه الناس إليه . . فجروا وراءه . . وظل يجرى وهم وراءه حتى ازداد عددهم واشتد حصارهم فتفجر قنبلة من قنبلتين يدويتين كنت أعطيتهما له وأوصيته ألا يستعملهما إلا فى حالة الضرورة . . وبعيداً عن الناس . . وفعلا عمل بالوصية فرمى القنبلة داخل سور (صندوق الدين) . . وأدى الإنفجار الغرض المطلوب فانصرف عنه الناس . . وعاد هو فى هدوء إلى بيته بمصر الجديدة . .

كنت فى هذه الأثناء أجلس فى مقهى قريب فقمت على أثر سماعى الانفجار

لأتأكد من عدم وجود ضحايا بين الأهالى . . فلما اطمأن بالى أخذت الترام وذهبت إلى بيتنا فى كوبرى القبة .

فى الصباح قرأت خبر اغتيال أمين عثمان فى الجرائد وكيف أن المندوب السامى البريطانى استدعى له كبير أطباء الجيش الإنجليزى فى محاولة يائسة لإنقاذه . . وذكرت الصحف أيضاً ضمن تفاصيل الحادث كيف أن أمين عثمان يوم اغتياله كان ضيف المندوب السامى البريطانى الذى استقبله فى الظهر وتناول طعام الغداء على مائدته .

فى تلك الأيام كانت مقابلة المندوب السامى تعتبر تشريفاً كبيراً لأى سياسى . . إذ كانت تعنى فى أغلب الأحيان ترشيحاً لرئاسة الوزارة . . ثم إن أمين عثمان كان قد عاد قبل يومين من إنجلترا . . فهو إذن موضع حماية ورعاية من الحكومة البريطانية وممن يمثلها فى مصر . . ولكن رغم هذا تم اغتياله . . وقد ترك كل هذا أثره فى نفوس الجماهير فقد أوضح بما لا يقبل الشك أن الإنجليز قد فقدوا القدرة على حماية أنصارهم . . بل على العكس أصبح من هو قريب منهم فى موضع ضعف لا موضع قوة كما كان الحال من قبل . .

وهكذا تحقق لنا ما نريد باغتيالنا لأمين عثمان . . فإلى جانب أننا تخلصنا من أحد أنصار الاستعمار قضينا إلى حد كبير على الهالة التى كانت تحيط بالسلطات البريطانية وجعلنا صورة الاستعمار تهتز فى نظر الناس بشكل لم يحدث من قبل . .

طبعاً لم يمر مقتل أمين عثمان بدون تدخل البوليس الذى ذهب يتحرى فى مكان الحادث فإذا بالطيار مرسى يتطوع لمعاونتهم ويعطيهم أوصاف القاتل التى انطبقت على حسين توفيق وقد كان عندهم محل شبهة منذ أن كان يمارس قتل الإنجليز فى المعادى فذهبوا إلى منزل والده حيث كان يقيم فوجدوه على مائدة العشاء . . سألوه أين كان وقت حدوث الجريمة ولما لم يستطع الإجابة قبضوا عليه على ذمة التحقيق . .

صمت حسين توفيق فى أول يوم . . وفى ثانى يوم لازم الصمت أيضاً . . وأغاظ هذا وكيل النيابة وكان رجلا ماكراً فأوعز إلى الصحف بالإشارة إلى أن

الجريمة كانت أسبابها نسائية . . وهنا انفجر حسين توفيق واعترف . . وكان وكيل النيابة يعرف فيه طبيعته فى حب البطولة ولذلك أفلح فى الكمين الذى نصبه له . اعترف حسين بالكامل وبشكل لا يختلف عن الطريقة التى سبق أن أعترف بها (أبلر) الجاسوس الألمانى إن لم يكن أكثر اندفاعاً وعنفاً .

فى يوم ١٠ يناير سنة ٤٦ اعترف حسين توفيق ودل البوليس هو وبعض أفراد الجمعية السرية على مخزن السلاح الذى كان فى جبل المقطم . . قلت فى نفسى لقد انتهى الأمر تماماً ولكن كان ما زال عندى بصيص أمل فى أن يكون حسين توفيق قد أخفى أمرى عن البوليس . .

فى ١١ يناير ١٩٤٦ وصل الملك عبد العزيز آل سعود إلى القاهرة فى زيارة رسمية للملك فاروق وكانت المدينة والدولة كلها تستعد لاستقباله منذ فترة . . فقد كان عبد العزيز رحمه الله بطلا شهماً كريماً وقد أكرم فاروق عند زيارته للسعودية فأراد فاروق أن يزيد فى إكرامه له . . هذا إلى جانب أن الملك عبد العزيز كان يحب مصر . . وهذا تقليد عند الأسرة السعودية فهم دائماً حريصون على تنسيق وتوثيق علاقاتهم بمصر . . فخرجت مع غيرى من الناس لاستقبال الملك عبد العزيز . . ووقفت فى انتظار الموكب إلى أن مر أمامى فى ميدان الأوبرا تحت حراسة مشددة جعلتنى أضحك منهم . . فنحن لا نفكر فى أن نصيب الملك عبد العزيز بأى أذى . . إن هدفنا أعداء مصر لا أصدقاؤها . .

كانت الساعة الثانية بعد الظهر عندما مر الموكب فعدت إلى بيتنا فى كوبرى القبة . . فلم يكن فى مقدورى أن أفعل شيئاً سوى أن أبقى فى البيت ، أعيش على أعصابى وأنتظر . .

ولم يطل انتظارى ففى الساعة الثانية صباحاً من ليلة ١١ – ١٢ يناير ٤٦ قرعوا الباب ودخلوا كما فعلوا فى سنة ١٩٤٢ . . ولكن هذه المرة لم يكن هناك الإنجليز . . بارحت فراشى وذهبت إليهم . . وكان الجو قارس البرودة . . سألت :

– هل معكم أمر من النيابة بالتفتيش ؟

وأجابوا : إن معنا وكيل النيابة نفسه .

وقال وكيل النيابة كامل قاويش : نعم أنا هنا بنفسى . . وأنا بنفسى الذى أحقق قضية اغتيال أمين عثمان . .

فهمت . . فقد كان هو الذى نصب الكمين لحسين توفيق واضطره إلى الاعتراف .

فتشوا البيت حجرة حجرة . وبعد التفتيش أخذونى معهم إلى سجن الأجانب . . تماماً كما حدث فى سنة ١٩٤٢ .

٩

فى سجن الأجانب وضعونى فى زنزانة بمفردى . . سألت على حسين توفيق فعرفت أنهم وضعوه فى الزنزانة رقم ١ فى الدور الأول – وهى حجرة كبيرة جداً . . أما بقية أعضاء الجمعية فوزعوهم على حجرات أخرى كل على انفراد . . طبعاً أنا لى سابق معرفة بسجن الأجانب وحراسه وكل من يعمل به . . عرفت منهم أن وكيل النيابة يلتقى بالأولاد كل ليلة حيث يجرى معهم التحقيق وأنه يسهر معهم إلى مطلع الفجر . . يتناولون العشاء معاً على حساب وكيل النيابة . . المسألة أصبحت مسألة صداقة . . وخاصة . . كما علمت . . . بين وكيل النيابة وحسين توفيق . .

ماذا أفعل ؟ اتصلت بالأولاد عن طريق السجانين وأوصيتهم بأن ينكروا إنكاراً تاماً اعترافاتهم السابقة . . فهذه هى الطريقة الوحيدة لعدم إدانتهم . . بدأ بعضهم فعلا ينكر ما سبق أن اعترفوا به – أحس وكيل النيابه بأن شيئاً ما يحدث ضد مصلحته ومصلحة التحقيق . . وأنى أنا السبب فأمر بنقلى إلى الدور الأعلى حيث أكون بمعزل عن بقية المتهمين . . وفعلا تم نقلى ولم يعد فى إمكانى الاتصال . .

بقيت فى حجرتى الجديدة حوالى أسبوع . . لا تحقيق ولا اتصال من أى نوع . . وفجأة فتحوا باب حجرتى فى الساعة الثانية صباحاً وطلبونى للتحقيق . . نوع من الإرهاب . . وإلا فلم الساعة الثانية بعد منتصف الليل بالذات لبدء التحقيق ونحن فى يناير والشتاء قارس البرودة ؟

فتحـوا المحضر وسألوا :

– أقوالك ؟

– بالنسبة لماذا ؟

– حسين توفيق اعترف عليك بكذا وكذا وكذا . .

عرفت أن حسين اعترف بكل شيء . . أدق التفاصيل ذكرها . . لم ينس شيئاً على الإطلاق . . وكأن عقله آلة تسجيل . .

كنت أعرف أن بعض الأولاد قد أنكروا ما اعترفوا به من قبل وأن هذا الإنكار فيه تمييع للقضية . . ولكن بقى ركن هام لإفساد القضية إفساداً تاماً . . وهـو التعـذيب . . فكرت بسرعة وقلت لوكيل النيابة : –

– كل ما اعترف به حسين توفيق غير صحيح على الإطلاق أما بالنسبة لغيره من الأولاد فأنا مستعد لمواجهتهم واحداً بعد الآخـر . . وسترى بنفسك كيف أن اعترافاتهم السابقة كانت كلها كاذبة ولذلك أنكرها بعضهم . . ثم إن هناك شيئاً هاماً يجب أن يثبت فى التحقيق . .

– مـاذا ؟

– أنكم استدعيتمونى للتحقيق فى الساعة الثانية بعـد منتصف الليل .

– هذا مثبت بالمحضر . .

– أعرف ولكن أطلب إثبات أن هذه عمليـة تعذيب – فقد أيقظتمونى من النوم فى حين كان النهار كله أمامكم وهذا الذى فعلتموه قد أصابنى بهزة عصبية شديدة .

أثبتوا ما قلتـه . . ثم أقفلـوا المحضر وهم فى غاية الاطمئنان فقـد كانت القضية فى نظرهم منتهية وخاصة بعد اعترافات حسين توفيق وغيره . . بعد ذلك كانوا يرسلون فى طلبى أثناء النهار . . ومرة سألونى :

– أليس لديك أقوال جديدة ؟

– لا . . أبداً . . على العكس أنا ما زلت أصر على مواجهـة جميع المتهمين . .

وكيل النيابة وجد أنى ثابت . . بدأ يهتز . . فأخذ خطاً جديداً فى التحقيق . .

– تعرف عمـر أبو على ؟ تعرف فلان ؟ أجبت أنى طبعاً أعرفهم جميعاً . . فهذا شقيق صديق قديم لى . . وذاك عرفته بمناسبة كذا . . وكذا . . وجدت مبرراً لمعرفتى بهم . . ولكنى أنكرت . . بل استنكرت أن تكون لمعرفتى بهم أية صلة بمـا يدعونه فى اعترافاتهم والدليل على صدق كلامى أنى مستعـد لمواجهتهم واحـداً واحـداً .

بدأ الخوف يدب إلى قلب وكيل النيابة فأنا بإصرارى هذا أفسدت ما قالوه فأمر بإعادتى إلى زنزانتى وتركنى أسبوعاً بأكمله دون تحقيق . . فى خلال هذا الأسبوع كان وكيل النيابة يكدح ذهنه . . كيف يدينى وكنت أنا أيضاً أفكر كيف أفسد القضية . . وأهتديت فى تفكيرى إلى أن الشخص الوحيد بين المتهمين الذى صمـد ولم يعترف بأى شيء هو ابن خـالة حسين توفيق وكان شاباً صغيراً اسمه محمـد كامل . . اتصلت به عن طريق السجان فوجدت منه استجابة أسعدتنى كثيراً . . فهو شاب يمكن الاعتمـاد عليه وأنا وهو معاً يمكننا إفساد القضية تماماً . . (هذا الشاب محمـد كامل هو وزير الخارجية الحالى) .

فى هذه الأثناء عرفت أن وكيل النيابة كان على اتصال دائم بحسين توفيق وبقية المتهمين . . يسهر معهم كل ليلة ويرسل فى طلب العشاء لهم من خارج السجن . . هـو إذن يواصل جهوده لاستمالتهم إليه . . قررت أن أسبقه . .

فى ليلة فجأة طلبت استدعاء مـأمور السجن وقبل أن يسأل عن سبب استدعائى له فاجأته بقـولى : –

– أريد ورقة وقلمـاً لأكتب برقية إلى النائب العـام . .

أحضروا ما طلبت فكتبت برقيـة أطلب فيها إرسال وكيل نيـابة للتحقيق لأنى أعيش تحت ضغط شديد . . ووكيل النيابة المحقق يريدنى أن أعترف بأمور لم أرتكبها إطلاقـاً . . ومأمور السجن وضبـاط البوليس السياسى يمارسون معى أقصى أنـواع التعذيب . .

قرأ مأمـور السجن هذا الكلام فاندهش : –

– ما هذا الذى كتبته ؟ من هم ضباط البوليس الذين عـذبوك ؟

– توفيق السعيد والجـزار .

— ولكن متى وكيف ؟

— هذا شأنى . .

كان سبب هذه الحكاية التى ألفتها أنه فى يوم من الأيام قبل نقلى من الدور الأرضى إلى الدور الأعلى فتح باب زنزانتى الضابط توفيق السعيد لكى أخرج وأتمشى فى فناء السجن مدة الربع ساعة المخصصة لكل منا قبل دخول المساء . . كنت أعرفه ويعرفنى منذ إقامتى بسجن الأجانب فى سنة ١٩٤٢ فتبادلنا التحية وإذا به يقول لى : —

— مفيش داعى يا أنور للإنكار . . كلهم اعترفوا . . وليس هذا فقط . . بل أخذونا معهم إلى مخزن الأسلحة فى جبل المقطم وأتينا بالأسلحة من هناك ، يعنى كل شيء ثابت والقضية اكتملت ففيم إصرارك على الإنكار ؟

قلت : هل تريدنى أن أعترف ؟

قال : نعم .

قلت : وهل عندك أدنى شك فى أننا قتلنا أمين عثمان ؟ نعم قتلناه — لأنه خائن ويستحق الذبح !

قال مستنكراً : أمرك غريب والله . . هل نسيت أن فى البلد قانوناً ؟

قلت : أعرف أن هناك قانوناً ولكنه لا يسرى على الخونة ولذلك يتحتم علينا أن نتولى نحن أمرهم . .

قال : على أى حال أنا سعيد لأنك اعترفت . . فالإعتراف سيخفف الحكم عليك . .

وفجأة التفت إليه وقلت : اسمع يا توفيق . .

قال : نعم

قلت : هل صدقت أننا قتلنا أمين عثمان حقاً ؟ أنا قلت لك هذا لأتحداك وجها لوجه ولو كان معنا اثنان من الشهود لما قلت لك شيئاً لأن العبرة فى الاعتراف أن يكون أمام اثنين من الشهود . . هل نسيت ؟

قال : لا تتعب نفسك على أى حال . . فالكل اعترفوا . . وإنكارك لن يفيدك فى شيء . .

قلت : سنرى . .

اختزنت هذه الواقعة مع توفيق السعيد لاستعمالها فى الوقت المناسب . . وبناء عليه أرسلت البرقية إلى النائب العام استغيث به . . وأعطيتها لمأمور السجن . الذى نزل بها إلى وكيل النيابة القاويش ففتح المحضر وأثبت البرقية فيه . . لم يكن يملك أن يفعل غير هذا فرغم أن التحقيق كان مازال سرياً إلا أنه عندما تزول السرية وأبلغ المحامين أنى أرسلت برقية للنائب العام ولم تثبت فى المحضر ستعتبر القضية لاغية من أولها إلى آخرها . .

استدعانى القاويش بعد ذلك فنزلت حيث رأيته جالساً وإلى جانبه مأمور السجن وتوفيق السعيد والجزار وابتدأ التحقيق . .

س : هل كتبت البرقية ؟

ج : نعم .

س : لماذا ؟

ج : لأن هناك تعذيباً وقع على .

س : من الذى عذبك ؟

ج : مأمور السجن وتوفيق السعيد والجزار .

س : تركوا علامات على جسمك ؟

ج : لا وليس بالضرورة أن يترك التعذيب علامات . . يكفى أنهم شتمونى وصفعونى على وجهى وضربونى « بالشلاليت » فهل تترك هذه أى آثار ؟ ثم إنهم يريدون إجبارى على الاعتراف . . توفيق السعيد حاول هذا أكثر من مرة . . وقال لى لكى يغرينى على الاعتراف بأنهم ذهبوا إلى جبل المقطم وأتوا بالأسلحة التى يقول إنى أخفيتها هناك .

بدت الدهشة على وجه القاويش لأن هذه الواقعة من أسرار التحقيق والمفروض أن يواجهنى هو بها . .

أخذ أقوال مأمور السجن والجزار وتوفيق السعيد والكل أنكروا . . التفت إلى توفيق السعيد وقلت : —

— فى اليوم الفلانى ألم تفتح باب حجرتى علىّ فى الساعة الثانية صباحاً ؟ ألم توقظنى من النوم فى البرد القارس وتهجم علىّ ؟

— توفيق السعيد أجاب : أبداً . . لم يحدث هذا .

قلت : حاول أن تتذكر جيداً . .

وراح توفيق السعيد يضرب كفاً بكف وينظر إلى باستغراب .

قلت : هذا حصل .

قال : أبداً كل ما حدث أنى قابلته فى فسحة العصر ودار بيننا حديث .

قلت : أبداً . . الساعة كانت الثانية بعد منتصف الليل « وانت انهجمت علىّ وشتمتنى وضربتنى » وقلت لى إذا لم تعترف فسوف تلقى أسوأ مصير . . لأن القضية جاهزة . . وإدانتك واضحة وخاصة بعد أن اعترف الجميع .

كنت أعرف أن مثل هذه الأقوال كفيلة بهدم القضية وخاصة عندما تخرج إلى حيز العلانية ويتناولها المحامون ويستغلونها أحسن استغلال . .

أدرك وكيل النيابة القاويش ذلك . . فواجهنى بالمتهمين ما عدا حسين توفيق . . بعضهم قد اعترف وتمسك باعترافه . . أما عمر أبو على فكنت واثقاً منه . . نظرت إليه ففهمنى مباشرة . . أنكر كل ما سبق أن قاله . . جن جنون القاويش إذ أدرك أن القضية بدأت تنهار فأمر بعودتى إلى الزنزانة . . راجعت مع نفسى كل ما حدث . . كنت مرتاحاً إلى أن عمر أبو على أيدنى ثم أنى أثبت التعذيب . . ولكن ما زال هناك شوط علىّ أن أقطعه . .

طلبت مأمور السجن . . حضر إلى زنزانتى . .

— ورقة وقلم . .

— مرة أخرى ؟ ما الذى جد ؟

— هذا شأنى . .

أحضروا الورقة والقلم . . وكتبت إلى النائب العام : « أرجو إنقاذى من

وكيل النيابة المحقق . . لقد سبق أن استغثت بك من التعذيب الذى حدث لى وقد أخذ وكيل النيابة أقوالى وأقوال من عذبونى ولكن التعذيب مازال مستمراً . . ولذلك فأنا أطالب بوكيل نيابة آخر يحقق معى . . علماً بأننى مضرب عن الطعام منذ هذه اللحظة احتجاجاً على ما يحدث لى . . وقد طلبت من مأمور السجن أن يفتش حجرتى ليتأكد من أنه لا طعام بها » .

أرسل القاويش وكيل النيابة فى طلبى وفتح المحضر . .

— أنت مضرب عن الطعام ؟

— نعم .

— السبب ؟

— التعذيب .

— من الذى يقوم بتعذيبك ؟

— أنت أولا ثم الجزار وتوفيق السعيد . . ومأمور السجن الذى يأمر رجاله باقتحام حجرتى فى الليل والتهجم على بالسب والضرب ثم ينسحبون ليعاودوا التهجم مرة أخرى وهكذا طول الليل . .

أخذ القاويش أقوال كل من اتهمتهم . . طبعا أنكروا . . وخصوصاً مأمور السجن الذى أكد أن شيئاً مما قلته لم يحدث على الإطلاق . . تمسكت بأقوالى .

أدرك القاويش أن هدفى من كل هذا تقويض أركان القضية . . وخاصة أن محمد كامل كما سبق أن رويت رفض الاعتراف وأن عمر أبو على غير أقواله . . لم يكن أمام القاويش إلا أن يواجهنى بأكثر المتهمين صلابة وأكثرهم انحيازاً إليه وهو حسين توفيق . .

وفعلا تمت المواجهة فى الحال . . حسين توفيق أصر على موقفه . .

واخترعت أنا قصة أفسر بها معرفتي بحسين توفيق ومقابلاتي معه . . وطبعاً كانت بعيدة كل البعد عما حدث . . حاول حسين توفيق تكذيب ما قلت . . ولكني أصررت على أن هذه هي الحقيقة وأبديت دهشتي لقدرته على تشويه الواقع وحاولت أن أوحي إلى حسين توفيق أن الإصرار على هذا الكلام معناه الإعدام . . بدأ حسين توفيق هو الآخر يهتز وأدرك وكيل النيابة خطورة ما يحدث فأنهى التحقيق على الفور . . ولكي يتخلص مني . . لكي يبعدني عن بقية المتهمين حتى لا أؤثر عليهم وبذلك يتغير مسار القضية . . أمر بنقلي فوراً إلى سجن قره ميدان أو سجن مصر العمومي حيث أودعت الزنزانة ٥٤ .

الفصل الثالث

١ نحو تحرير الذات "الزنزانة ٥٤"

كانت الساعة الخامسة والنصف مساء عندما وجدت نفسي داخل الزنزانة ٥٤ في سجن قره ميدان . . وتلفت حولي . . كل شيء يختلف اختلافاً تاماً عن سجن الأجانب . . فلا سرير ولا مائدة صغيرة ولا كرسي ولا نور . . ولا أي شيء على الإطلاق . . فقط أرضية الحجرة المصنوعة من الأسفلت وفوق جزء منها «برش» من الليف الخشن بالكاد يكفي لكي يتمدد عليه الإنسان لينام ملتحفاً ببطانية قذرة إلى أبعد حدود القذارة التي لا يمكن أن تتصورها مهما حاولت . .

أما حيطان الزنزانة في الشتاء ينشع منها الماء ليل نهار وفي الصيف تغطيها مع الماء جيوش من البق لا حصر لها . . كيف يستطيع البق أن يعيش مع هذه المياه التي لا تجف لحظة ؟ . . لم أعرف . ولا أعرف إلى الآن . .

هكذا عشت سنة ونصف كاملة . . لا قراءة ولا كتابة ولا راديو ولا نور ولا أي شيء مطلقاً . . في هذه الأثناء كانوا قد نقلوا بالتدريج جميع المتهمين في القضية إلى سجن قره ميدان .. كل في زنزانة منفردة بطبيعة الحال .. فقد كان هذا من حقنا لأننا مازلنا رهن التحقيق.. بالإضافة إلى أنه كان من المستحيل بالنسبة لنا أن نسجن في الزنزانات الكبيرة التي خصصت للمحكوم عليهم ما بين لص وقاتل وتاجر مخدرات وحرامي الحزن . . ! وكان هذا الأخير — كما علمت — أكثر الناس احتراماً في نظر المجرمين . .

في أول الأمر كان يسمح لكل منا بفسحة لمدة ربع ساعة منفردة يومياً ثم بعد أن قدمونا لقاضي الإحالة جعلوا الفسحة ثلاثة أرباع الساعة صباحاً ومثلها بعد الظهر . . وفي أثناء الفسحة سمحوا لنا باللقاء والكلام . . وتكلمنا . . كل كلامنا تقريباً كان يدور حول ما نعانيه في هذا السجن اللعين . . وخاصة دورات المياه

التى كان يستحيل على أى آدمى أن يقضى بها حاجته فإلى جانب قذارتها بصورة لا يمكن أن ترى العين مثيلا لها . . كان علينا عندما نضطر إلى اللجوء إليها أن نقضى حاجتنا جماعياً . . هكذا كما يفعلون فى الأدغال أو ربما فى الريف . . ولكن فى الحقيقة أسوأ بكثير . . فالأرض هناك واسعة . . ولكن هنا فى السجن كانت طاقة دورة المياه ألف شخص فى حين كانت حمولتها دائماً ثلاثة آلاف فى أى وقت . . وقد أثر هذا تأثيراً سيئاً للغاية على معنوياتنا بل لقد كان السبب فى تخصيص عنبر للجرب فى كل سجن من سجون مصر . . فكثير من المساجين كانوا يمرضون بهذا المرض . . لأنهم ينتقلون أصلا من بيئة قذرة إلى بيئة أكثر قذارة وهى السجن . . فينتشر هذا المرض بينهم بسرعة . . كما سبق أن انتشر عندنا فى معتقل الزيتون فى الأرانب . . وهكذا «بقدرة قادر» أصبح لا فرق بين الأرانب والآدمى فى السجن . . (وقد عالجت كل هذا بعد أن توليت) .

عشنا سنة كاملة فى هذه المعاناة التى لم يستطع أن يتحملها الكثيرون كما تحملتها أنا بفضل نشأتى بالقرية وللخشونة التى اكتسبتها من خدمتى بالقوات المسلحة فمثل هذه المسائل لها أثرها دون شك . .

من خلال وساطات بعض أهالى المتهمين معنا من الأكابر سمحوا لنا فى مرحلة متأخرة – بعد سنة تقريباً – بالأكل بالملعقة . كما ركبوا شبابيك زجاج فوق شباك الزنزانة الذى لم يكن سوى كوّة فى أعلى الحائط مفتوحة على الدوام لبرد الشتاء وقيظ الصيف . .

فى هذه المرحلة كان المفروض فيمن هو تحت التحقيق أن يأخذ أكل السجن أو يطلب طعامه من متعهد خارج السجن وكان هناك متعهد يملك دكاناً فى مواجهة السجن . . فى الإفطار كان يرسل لنا بعض العسل والخبز والجبن أيضاً . . ربما . . لا أذكر . . ولكنى أذكر أنى لم أكن آخذ وجبة الظهر من المتعهد فقد كان الإفطار وحده يتكلف سبعة جنيهات ونصف فى الشهر . . وكان أهلى فى كثير من الأحيان لا يستطيعون دفع ثمنه لأنهم لا يملكونه . .

فى يوم ما اتصل الشيخ حسن البنا مرشد الإخوان المسلمين بشقيقى طلعت وأخبره أن الجمعية قد خصصت عشرة جنيهات شهرياً لأسرتى . . تماماً كما سبق

أن فعل إخوانى الضباط وأنا فى معتقل ماقوسة بالمنيا . . ولكن توقفت المعونة المالية بعدما انتهى الاعتقال وظلت متوقفة طوال فترة هربى ولما عدت إلى السجن كان ما زال لا أثر لها على الاطلاق . . ربما نسوا سامحهم الله . .

وأخيراً أتى الشيخ حسن البنا ليعطى لعائلتى عشرة جنيهات شهرياً فى وقت كان شقيقى طلعت لا يجد ثمن إفطارى ولا حتى ثمن زجاجة ملح الفواكه التى كان ثمنها فى ذلك الوقت ١٢ قرشاً . . وملح الفواكه بدأت أتناوله أول شىء فى الصباح وأنا فى السجن وما زلت إلى الآن استخدمه . . فترة طويلة تقرب من ثلاثين عاماً لم يمكننى فيها الاستغناء عنه إطلاقاً . . أضف إلى هذا ثمن إيجار السرير والمنضدة والكرسى بعد أن سمحوا لنا فى السجن باستعمالها ما دمنا تحت التحقيق ولكن بشرط أن ندفع عنها إيجاراً يومياً قدره عشرة قروش .

ورغم أن سجن الأجانب لم يكن نزلاؤه إلا من أسافل القوم ورغم أن السجون العمومية هى لأبناء مصر . . لكن التفرقة كانت واضحة . . فهنا ندفع . . وندفع مقابل ماذا ؟ مرتبة من قش الأرز صلبة خشنة والأرجح أنها مصنوعة من ألياف جامدة كالحجر . . أما هناك فالفرش وثيرة والنور الكهربائى متوفر وكذلك الطعام . . وكل هذا بدون مقابل . . تمييز عنصرى حتى فى السجون بيننا نحن أبناء الوطن وبين الأجانب . .

ولكن للأسف كانت سجوننا من أسوان إلى الأسكندرية هكذا على نفس الطراز . حتى أنى لما ذهبت فى ٦ أكتوبر ١٩٧٥ لأهدم سجن طره كرمز لإنهاء امتهان كرامة الإنسان وأمسكت المعول بيدى أضرب به أحسست أن جدران السجن هى نفس جدران سجن قره ميدان ، فالطوب تحت المعول مبلل هش من المياه التى تتخلله وحتى قبل أن أصل للطوب ، وأنا أزيل الطلاء أحسست بالرطوبة ورأيت الصراصير تخرج من بين الطوب والطلاء . . جيوش من الصراصير لاحصر لها . . كان منظرها قبيحاً ولكنى لم أترك المعول لحظة . . ظللت أضرب فى الحائط وأعصابى مشدودة فلابد أن أزيله . . حاولوا أن يوقفونى . . ولكنى رفضت وقلت لهم أنا بخير . . المهم أن تزول هذه السجون وتحل محلها سجون يمكن أن يعيش فيها الإنسان . . ولذلك أمرت ببناء سجون جديدة تتوفر فيها جميع الشروط الصحية . . وفى الوقت نفسه تصلح للانتاج بحيث لا يقضى

السجين طول مدة سجنه بين أربع جدران عاطلا عالة على المجتمع .. بل يجب أن يفيد ويستفيد فيخرج من السجن بحرفة جديدة تعلمها وببعض المال الذى يستطيع ادخاره فى السجن مقابل عمله وفعلا بدأنا التجربة فى السجن الذى أقمناه بدلا من سجن قره ميدان ، وهو الآن موجود على طريق مصر اسكندرية الصحراوى وإلى جانبه قطعة أرض تم استصلاحها ويقضى بها المساجين نهارهم يزرعونها خضراً وفاكهة بعد أن هدم سجن قره ميدان وأصبحت فى مكانه حديقة عامة يستمتع بها الشعب . .

نعود إلى قره ميدان . . فى أثناء إقامتنا به كان وكيل النيابة القاويش دائم السعى بطبيعة الحال إلى إدانتنا . .

قبل أن أنقل من سجن الأجانب حدث أن جاء أخى طلعت ليأخذ ملابسى للغسيل كالعادة وكنت قد وضعت فى جيب البيجامة ورقة بها رسالة باللغة الإنجليزية تقول :

FORMATION A OUT OF ACTION ALL

FORMATION B GOT IN TOUCH WITH ME

شك القاويش فى الملابس ففتشها وأخرج الورقة وصورها ثم أعادها إلى مكانها بالبيجاما . . أحس أخى طلعت وهو فى طريقه إلى البيت أن هناك من يتبعه . . أدرك أن هناك شيئاً ما . . فى البيت وجد الورقة نقل الرسالة التى تحملها وترك الرسالة الأصلية فى جيب البيجاما حيث تم غسلها مع بقية الملابس . . وفى عودته إلى السجن كان مازال تحت المراقبة وكان القاويش ينتظر النتيجة – فتح جيب البيجاما فوجد الورقة – الرسالة الأصلية – فى مكانها ولكنها قد أصبحت عجينة . . ذهب المستند الذى كان يتطلع إليه ! خاب أمله وازداد خيبة عندما علم من رجاله أن الرسالة لم تبلغ إلى أية جهة . . فقد بلغها أخى طلعت فى الساعات الأولى للفجر فى يوم كان واثقاً فيه من أن أحداً لن يفكر فى أن يتبعه . .

كان التنظيم « أ » كله من المدنيين وأما التنظيم « ب » فقد كان خليطاً من العسكريين والمدنيين . . ولكن لا أحد يعرف أن الآخر فى التنظيم . .

أراك يا عزيزى القارئ تتساءل إلى من بلغت الرسالة فأجيبك على الفور . .

إلى من عهدت إليهم الأقدار بالقيام بثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ . (وكان تصرف وكيل النيابة فى هذا الموضوع من الأركان الرئيسية لبراءتى) .

بعد عودة الملابس مباشرة أتى إلى السجن القاويش وطلب التحقيق معى . . أعطانى ورقة وقلماً وقال . . اكتب وأملانى .

Formation A out of action all

Formation B got in touch with me

فهمت أن الرسالة التى بعثت بها قد وقعت فى أيديهم .. كنت قد كتبت الرسالة بحروف مفردة . . ولكننى كتبتها الآن بالخط المشبك . . فعاد وطلب أن أكتبها بالحروف المفردة .. أنا عادتى أميل الكتابة لليمين أو أقف فى الوسط . فتعمدت أن أميلها للشمال . . كتبت ثلاثة صفحات كاملة بالحروف المفردة والمشبك فقد كان هدفه أن يقارن ما كتبت بخط صورة الرسالة التى عنده . ويصبح لديه بهذا مستند يحقق الأمل الذى كان يراوده وهو أن يقع فى يده تنظيم الجيش . ولكن خاب ظنه .

لم يأت القاويش إلىّ بعد ذلك الإمتحان الذى فشل فيه .

كان بقية المتهمين فى القضية – « الأولاد » كما كنت أسميهم – قد بدأوا يفدون إلى سجن قره ميدان كما سبق أن رويت . . وكان معنى هذا أننا ما زلنا تحت التحقيق إلى أن نذهب لقاضى الإحالة الذى له أن يحكم بتحويلها إلى محكمة الجنايات أو باعتبارها جنحة لا ترقى إلى جناية . . أو أنها لاشىء على الإطلاق فيفرج عن المتهمين . .

بمجرد أن عرضت القضية على قاضى الإحالة رفعت عنها السرية وتداولها المحامون فوجدوا أننى قد قوضت أركان القضية بانكارى وتكذيبى للآخرين واتهامى مأمور السجن ووكيل النيابة وغيرهم بتعذيبى . . ووجد المحامون فى القضية لقمة سائغة فأخذ كل محامى يوصى موكله بالإنكار قالوا لهم « لو أنكم استمعتم فى بداية الأمر إلى نصائح أنور السادات ؟ . إنه رجل . . أما أنتم فما زلتم صبيه صغاراً » . . كان عمرى ٢٧ عاماً فى ذلك الوقت أى سنة ١٩٤٦ أما أعمارهم فكانت تتفاوت بين ١٤، ١٧، ٢٠، ٢٢ سنة . . كنا سبعة وعشرين متهماً

فى القضية وكان رقمى السابع أى كان أمامى ٦ وخلفى عشرون . . وبالطبع تختلف تهمة كل منا عن تهم الآخرين ولكنها تدور جميعاً حول مقتل أمين عثمان . أفرج قاضى الإحالة عن اثنين منا فقط بكفالة . . بينما ظل الباقون وكنت منهم طبعاً فى السجن ننتظر المحاكمة .

ولكى نشغل الوقت راح المحامون عنا يقدمون المعارضة بعد الأخرى . . ولكن بدون فائدة . .

هكذا مرت سنة ٤٦ ثم أتت سنة ٤٧ ولم يكن فيها من جديد سوى أنهم حددوا لنا دائرة جنايات . وكان موقف المحامين فى هذه المرحلة طلب التأجيل مرة بعد أخرى ودعواهم أن القضية كبيرة وملفاتها كثيرة – مجرد كسب وقت – ونجحوا طبعاً . . فمع مرور الزمن تغيرت دائرة الجنايات إلى دائرة جديدة . .

فقد كان الذين يترافعون عنا من أكبر محامى مصر . . وكان الواحد يتقاضى عن القضية الواحدة آلاف الجنيهات ولكن للأسف لم يكن هذا حالهم فى العشرين سنة الأولى للثورة بعد أن عطلت سيادة القانون ، فلم يصبح هناك أى مجال للمحاماة أو القضاء . . وأفلس الكثيرون من المحامين أو كادوا .

ولكن الأمور قد عادت إلى مجراها الطبيعى اليوم بعد أن أعدت سيادة القانون . . أصبحت الحاجة ملحة إلى المحامين للعمل على رفع الظلم عن الناس . .

وبعد الانفتاح زاد الطلب على المحامين إذ لابد لكل رجل أعمال أجنبى يفد إلى مصر من أحد المحامين لكى يرعى شئونه . . وبذلك عاد الكيان لا إلى القضاء وحده بل إلى المحاماة أيضاً .

٢

مكانان فى هذا العالم لا يمكن للإنسان فيهما أن يهرب من ذاته . . هما الحرب والسجن . . وفى الزنزانة ٥٤ عشت مع نفسى . . تلازمنى وألازمها ليل نهار . . لم تكن هذه الفرصة قد أتيحت لى من قبل . . فقد كنت مشغولا بأشياء كثيرة أعمل بالجيش وأشتغل بالسياسة بينما كان تيار الحياة اليومية يجرفنى معه أينما

ذهب أو ذهبت . أما الآن فأنا أعيش فى الزنزانة ٥٤ دون أن تكون لى صلة بالعالم الخارجى . . فلا راديو ولا صحف ولا أى شىء على الاطلاق .

وحدة رهيبة لم يكن هناك من سبيل إلى الخلاص منها سوى أن أعيش مع نفسى . . وفعلا عشت معها ولكن رغم هذه المعايشة لم أستطع أن أنفذ إليها كأن شيئاً ما يقف بينى وبينها . .

ظلمات كنت أعانى منها من زمن ولكنى لم أدركها تمام الإدراك لأنى لم أستطع أن أنقلها إلى منطقة الضوء .

وعندما سمحوا لنا فى السجن بالكتب والمجلات والصحف انكببت عليها أقرأ فى نهم وأجد فى كل سطر شيئاً جديداً يفتح أمامى آفاقاً لم أعرفها من قبل .

كان أكثر من نصف قراءاتى باللغة الإنجليزية والباقى باللغة العربية وعندما كانت تستهوينى فكرة أو قصيدة شعر أو أى شىء فيما أقرأ كنت على الفور أنقل ما يروقنى فى كراسة ما زلت أحتفظ وأعتز بها كل الإعتزاز إلى الآن وهى كراسة السجن . . وقد أودعتها أغلب ما كان له أثر على حياتى من آراء أو مشاعر لكتاب ومفكرين من الشرق والغرب .

ولم يقتصر أثر قراءاتى المتعددة على توسيع آفاقى الفكرية والعاطفية بل لقد ساعدتنى هذه القراءات على المزيد من التعرف على الذات . . فاستطعت أن أتخلص من أزمة عصبية كنت أعانى منها منذ زمن وكانت بسبب القبض علىّ فى الساعة الثانية صباحاً فى برد الشتاء القارس فى كل من عامى سنة ٤٢ ، ٤٦ . لم أكن أدرك طبيعة هذه الأزمة ولكنى كنت أشعر أنها تعكر صفو سلامى الروحى . . إلى أن دخلت السجن وعشت مع نفسى فطفت هذه المعاناة على السطح تلقائياً . . أسبوع واحد فى السجن يكفى لهذا . . أما كيف تخلصت من هذه الأزمة فالفضل يرجع إلى مقال قرأته فى الـ « ريدرز دايجست » لأحد علماء النفس الأمريكان . . كانت خلاصة المقال أو النتيجة التى وصل إليها الطبيب النفسانى بعد تجارب ٢٤ سنة هى أن الإنسان فى أية مرحلة من مراحل حياته معرض لأن يصاب بصدمة تكون نتيجتها أن يحس أن كل شىء حوله مغلق . . وكأنه فى سجن لا باب له . .

أول باب لهذا السجن أن يعرف الإنسان ماذا يضايقه . . وثانى باب . . الإيمان . . ما معنى الإيمان ؟ أن تنظـــر إلى أى شىء كريه يحدث على أنه قدر لابد من مواجهته وتحملـــه . . وبعد ذلك تتغلب على الآثار الناجمة عن هذا . . فيجب ألا تفكـــر أنه ليس هناك حل لأية مشكلة . لأن الحل دائماً هناك . . ما الذى يجعلك تفكر هكذا ؟ إيمانك بأن الله قد خلقك لأن عليك دوراً يجب أن تؤديه فى هذه الحياة . . والإله الذى خلقك ليس شريراً على الإطلاق . . بالعكس إنه خير جداً . . لا كما يصوره لنا الشيخ فى كتاب القرية — جبار . . مخيف . وذلك فالعلاقة المثلى بين الإنسان والله لا تنبنى على الخوف أو على الثواب والعقاب . . بل على قيمة أسمى من كل قيمـــة . . وهى الصـــداقة . . فمن صفات الخالق . . الرحمـــة والعـــدل والحب ثم هو قادر على كل شىء لأنه مصدر الأشياء جميعاً فإذا اتخـــذت منه صديقاً منحك الاطمئنان . . فتحت أية ظروف وفى جميع الأحـــوال تحبه ويحبك .

إن تحليل العالم النفسانى لم يحل لى عقـــدة الهزة العصبية فقط بل فتح أمامى آفاقاً من الحب لاحدود لها فى علاقاتى بالكون . . كانت كامنة فى خضم الحياة العادية فكشفت عنها تجربة السجن ومعاناتها بحيث أصبح الحب المنطلق الرئيسى لكل أفعالى ومشاعرى .

من أجل هذا . . ولأنى أصبحت مليئاً باليقين والاطمئنان لم أهتز لحظة واحدة وسط الأحداث المتقلبة التى واكبت حياتى فى جميع مراحـــل العمر . ولم يخذلنى الحب مرة واحدة . . بل كان دائماً ينتصر فى النهاية . .

وهذه حكايتى أو طرف منها مع جمـــال عبد الناصر . . فى الثمانى عشرة سنة التى لازمته فيها . . كانت هناك أوقات لا أستطيع فيها أن أفهمه أو أن أقر بعض تصرفاته ومع ذلك كانت مشاعرى نحوه هى نفس المشاعـــر . . الحب والحب وحـــده . .

وقد تساءل البعض فى حيرة كيف قضيت هذه الفترة الطـــويلة مع عبد الناصر من غير أن يقـــع بيننا ما وقع بينه وبين بقية زمـــلائه مثلما تساءل صحفى أجنبى فى لندن قائلا إما إننى كنت لا أساوى شيئاً على الاطلاق وإما أنى كنت خبيثاً

غاية الخبث بحيث تحاشيت الصراع معـــه . . وبقيت أنا الرجل الوحيد من رجال الثورة الذى لم يمسسه سوء بل على العكس عندما فارق عبد الناصر الحياة كنت أنا نائب رئيس الجمهـــورية الوحيـــد . .

وإن دل هذا التساؤل الساذج على شىء فإنما يدل على جهل أصحابه بطبيعتى فلا أنا كنت عديم الصفة أثناء حياة عبد الناصر ولا كنت خبيثاً أو لئيماً فى حياتى قط . . كل ما فى الأمر أنى وعبد الناصر تصادقنا ونحن فى سن التاسعة عشرة ثم جاءت الثورة وأصبح هو رئيسا لجمهـــورية مصر . . فقلت فى نفسى أهلا وسهلا . . صديقى الذى أثق فيه قد صار رئيس جمهـــورية ، وهذا شىء يسعدنى ونفس الإحساس شعرت به عند ما أصبح عبد الناصر زعيماً للأمـــة العربية وبنى حوله هالة كبيرة . .

أحياناً كنا نختلف وتحدث بيننا جفـــوة قد تستمر شهرين أو أكثر يرجع السبب فيها ربما إلى اختلافنا فى الرأى أو إلى دس بعض من لهم تأثير عليه ممن حوله . . فقد كان عبد الناصر يؤمن بالتقارير ويميل بطبعه إلى الإصغاء للقيل والقال . . ولكن أياً كان الأمر فلم يحدث مرة واحـــدة أن وضعت نفسى موضع الدفاع فليس من طبعى أن أفعل هذا بالنسبة لعبد الناصر أو لغيره من الناس . . طبعا كانت تنتهى الجفـــوة مهما طالت عندما يتصل بى تليفـــونياً ويسأل أين كنت طوال هذه الأيام ولماذا لم أتصل به ؟ وكنت أجيب بأنه كان لابد مشغولا ولذلك فضلت أن أتركه لمشغولياته . . ثم نلتقى وكأن شيئاً لم يكن . .

حدث هذا مراراً عديدة ولكنى كنت أقابل كل ما يفعله عبد الناصر بالحب الخالص من جانبى . . لقد تسلم تنظيم الضباط الأحـــرار فى نهاية سنة ١٩٤٢ وقطع به شوطاً طويلا استغرق ٦ سنوات كاملـــة كنت أنا أثناءها فى السجون والمعتقلات ثم بعد خروجى من السجن كان لابد لى من العـــودة إلى الجيش لكى أشاركه وزملاءه فى الجهـــود التى بدأتها ثم استأنفـــوها هم من بعـــدى . . وفعلا تحقق هذا عندما عدت إلى الجيش عام ١٩٥٠ .

ثم قامت الثورة فى ١٩٥٢ وساهمت فيها ولكن لم تكن مساهمتى بالأمـــر الذى يهمنى فى حد ذاته . . الأهم من كل شىء أن الثورة قد قامت وتحقق بها الحلم الذى استولى على حياتى منذ أن كنت صبياً لم أبلـــغ الثانية عشرة بعـــد . .

هذا ما جعلنى أعيش مع عبد الناصر ١٨ سنة دون صراع . لأنى لم أكن أريد شيئاً . لم تكن لى مطالب من أى نوع وفى أى وضع كنت . . عضواً فى مجلس قيادة الثورة أو سكرتيراً للمؤتمر الأسلامى أو رئيس تحرير جريدة الجمهورية أو وكيلاً لمجلس الأمة . . أو رئيس مجلس الأمة . . لم يتغير حبى لعبد الناصر أو تختلف مشاعرى نحوه . . فأنا إلى جانبه منتصراً كان أو مهزوماً . . ولعل هذا ما جعل عبد الناصر يلتفت حوله بعد ١٧ سنة وينتبه إلى أن هناك إنساناً لم تقم بينه وبينه معركة فى يوم ما . .

وهذا ما جعلنى أقول إن الحب ينتصر فى النهاية . . فلم يكن من السهل أن تزول الغشاوة من عينى عبد الناصر . . وداخله ملىء بتناقضات لا يعلمها إلا الله . . يحتم على واجبى كصديق أن لا أكشفها أو أفصح عنها . . ولكنها كانت موجودة . . عبد الناصر مات دون أن يستمتع بحياته كما يستمتع الآخرون . . فقد قضاها كلها بين انفعال وانفعال . . القلق يأكله أكلا فقد كان يفترض الشك فى كل إنسان مسبقاً . . وكانت النتيجة الطبيعية لكل هذا أن تخلف عبد الناصر وراءه تركة رهيبة من الحقد سواء بين زملائه أقرب الناس إليه أو داخل البلد نفسها بجميع طبقاتها . .

ولكنى كما قلت وكما زلت أكرر . . انتصر الحب فى النهاية .. هذا الحب الذى كان وليد المرارة والألم فى الزنزانة ٥٤ . . فلا شىء مثل المعاناة يصقل النفس ويزيل عنها الصدأ ويكشف عن معدنها الأصيل . . فقد تكشف لى أنى بطبعى وتكوينى أحب الخير . . وأن الحب هو الدافع الحقيقى لكل ما أفعل . . وبدون الحب لا أستطيع فعلا أن أعمل . .

لقد منحنى الحب اليقين والثقة الكاملة فى نفسى وفى كل شىء حولى . . فحبى للكون مستمد من حبى لله عز وجل . . ومادام الخالق صديقى ففيم الخوف من البشر ؟ . إنه هو الذى يملك أمرهم وأمر الوجود كله . .

بهذا الإحساس الذى أصبح جزءاً لا يتجزأ منى . . والذى كان كذلك طوال حياتى ولكن دون أن أعيه وعياً كاملا . ارتفعت فوق المكان والزمان فى الزنزانة ٥٤ فلم يعد المكان الزنزانة ذات الأربعة جدران . . بل اتسع بحيث شمل

الكون كله . . أما الزمان فلم يعد له وجود بعد أن دخل قلبى حب سيد الكون فاستولى على وأصبحت أشعر أنى أينما كنت فأنا منه قريب . . يقول تعالى :

« وإذا سألك عبادى عنى فإنى قريب أجيب دعوة الداع إذا دعان » .
صدق الله العظيم

أصبح صديقى الذى تملأ صداقته كل كيانى وتملأ فراغ الزنزانة هو الله منبع الحب والخير والوفاء وكل ما يجعل قوته شريفة . . فقد كنت معه أحبه وأعبده فى كل ما خلق . . كم أصبح كل شىء مصدراً للبهجة والسعادة فالكل أصدقائى لأن الكل من صنع الله . . الشجرة التى أراد لها أن تكون فكانت والحبة التى تنبت بإرادته التى هى حبه . . والزهرة والجبل والثمرة والجذور والفروع والبشر على مختلف ألوانهم وطباعهم . . كل مافى الوجود أصبح موضع حبى . . لأنه كان مثلى كان ويكون بحب الله له . . وبحبه لله . .

٣

مما تعلمته فى الزنزانة ٥٤ أن العاقل هو من يحرص على النجاح الداخلى لأنه سيظل دائماً متوازناً داخل ذاته صادقاً مع نفسه والصدق مع النفس يعنى الصدق مع الناس . . وأنا لا يهمنى النجاح الذى يراه الناس فىّ بل النجاح الذى أراه أنا فى داخل نفسى وأرتاح إليه . . هذا النجاح يعتمد أساساً على معرفة الذات ولذلك فمن يؤمن . . يحاسب نفسه قبل محاسبته للغير وهو لا يأخذ فى الاعتبار ما يناله الإنسان من مكاسب مادية بل على مدى اكتشاف صورة الإنسان لذاته وتحقيق هذه الصورة فيما يصدر عنه من أفعال . . إن النجاح الداخلى قوة دائمة مطلقة لا تخضع لأى مؤثرات خارجية على عكس النجاح الخارجى الذى يهتز ويتغير من وقت إلى آخر حسب الظروف والعوامل الخارجية فقيمته دائما نسبية .

أغلب الناس يبهرهم النجاح الخارجى — ما يصلون إليه من مراكز اجتماعية أو مال أو سلطان — باختصار صورتهم فى نظر الغير ولذلك إذا تغيرت هذه الصورة لسبب أو لآخر اهتزوا وأصابهم الإنهيار . . فهم لا يعرفون الصمود لأنهم لا يعرفون الصدق مع النفس أو مع الآخرين فالغاية عندهم دائما تبرر

الوسيلة . . أما أنا فقد درجت على أن تكون صورة الذات فى نظرى أهم عندى من صورتى فى نظـر الناس . . رئاسة الجمهـورية ليست أكبر عندى من أنـور السادات ، فأنور السادات هو نفس أنور السادات فى أى موقـع وتحت أية ظروف . . إنسان ليست له مطالب خاصة لنفسه ومن ليس بحاجة إلى شىء فهـو سيد نفسه .

فالاعتماد على النجاح الخارجى يبعد الإنسان عن ذاته . . والجهل بالذات هو أسوأ ما يمكن أن يصيب المرء إذ تنتشر الظلمـة داخل النفس . . وبانتشارها يفقد الإنسان الرؤية وتضيع عنه معالم الطـريق فيصبح سجيناً داخل نفسه . . معزولا عن كل ما عداه . . وبهذا يفقد كيانه كإنسان . .

فهذا الكيان لا يتحقق إلا بالاتصال والاتصال دائماً بين الإنسان والكون . . إذ بدون الاتصال يعيش الإنسان على ما تأتى به الأيـام من نجاح أو فشل عبداً للزمـان والمكان فهو يكون ولا يكون . .

فقط عندما يتصل . . عندما يتسع وعيه حتى يشمل الكون بأجمعـه . . عندما تذوب ذاته فى ذات الآخرين . . عن طريق الحب والمعاناة من أجلهم . . باختصار فقط عندما لا يكون الإنسان فهو يكون . . فيقهـر الزمن ويعلـو على المكان . .

هكذا تعلمت من تجاربى فى الحياة ، ولكن كم من الناس يدركون هذا ؟ وكيف يدركون وهم لا يملكون إلا رؤية أنفسهم وقياس الغير بمقاييسهم التى أعمت بصائرهم عن كل شىء فيما عدا ما ينالون من نجاح خارجى يشوه الذات فيعذبها بدلا من أن يحققها فيسعدها ؟

فى أواخـر الخمسينات كنت ألقى حديثاً أسبوعياً بإذاعة صوت العرب . . وكنت أحس أن المجتمـع المصرى لابد له من العـودة إلى قيمه الأصيلة التى حفظت عليه وحدته وشخصيته عبر آلاف السنين ومواجهة العديد من المغيرين وأن بناء الإنسان يجب أن يكون هو الهدف بعد أن كان واضحاً أن البعض يريد أن يستغل الثورة لهدم القيم والإنسان فاعتمدت أنبه إلى ذلك فى هذه الأحاديث ولا أعرف من الذى أخبر عبد النـاصر . . وأنا لا أريد بهذه القصـة اغتياب

عبد الناصر ، فالوفاء له يقتضينى ألا أسمح لأحـد باغتيابه بقـدر ما لدى من معلـومات وبقدر ما أخذت نفسى به من إعطاء الشعب حريته . .

المهم سألنى عبد الناصر عن أحاديثى فى صوت العرب . . وقال إن الإذاعة دفعت لى حوالى ٤٠٠ جنيهاً مقابل تلك الأحاديث . . قلت نعم . . فعلا حدث ولم أقل له ما لم يكن يعلمـه وهو أنى كنت قد كونت جمعية باسم مسجد سيدى أبو الكوم ، وأن شيك الإذاعة تسلمه صندوق الجمعية كما هو . . فكلما سئلت . . أنا لم أضع نفسى يوماً موضع الدفاع أمام أى إنسان . .

واستمر عبد الناصر فى كلامه بما يشير إلى الناس سوف تتكلم وأن كلام الناس كثير . . . إلخ . .

بعد هذا سجلت الحديث الاسبوعى وجعلته ختام أحاديثى وكان موضوعه النجاح الداخلى . . والنجاح الخارجى . . وكيف أن الأول أبقى وأدوم أما الثانى فأنا لا آخذ به لأن الصدق مع النفس ينقضه وبالتالى فمن يؤمن به لن يكون صادقاً مع الناس . . بل وسيظل عبداً لمطالبه ورغباته وشهواته . . وهو ما أرفضه

اخترت موضوع الحديث هذا عمداً كختام لهذه الأحاديث . . فقد كنت أعرف أن أحد مستشارى جمال يبهرهم النجاح الخارجى . وأنه سوف ينقل الحديث إلى عبد الناصر وخاصة عندما أوضحت أنه لا يعنينى أن يرى الناس النجاح الخارجى فىّ وإنما يعنينى أن أرى أنا النجـاح الداخلى فى نفسى . .

وفعلا حدث ما توقعت . . فكانت جفـوة بينى وبين عبد الناصر استمرت شهراً أو أكثر لم يتصل خلالهـا أحدنا بالآخـر . .

٤

لقد سيطر مفهـوم النجاح الخارجى على أذهان ومشاعر القائمين على أمور مصر فترة طويلـة ، وكان من نتائج ذلك أن أقبل الناس على المـادة وأغرقوا أنفسهم فيها بشكل لم يسبق له مثيل — فأصبح الإنسان يقاس لا بقدر ما يحققه من خير أو يحمل قلبه من حب للآخرين بل بقدر ما ينال من مال أو قوة . . وهكذا فى خضم التصارع على المـادة نسينا أو غابت عنا الحقيقة الأزلية التى لا يمكن لأى

مجتمع إنسانى أن يقوم بدون أن تكون فى بؤرة شعوره باستمرار . . وهى أن الإنسان قيمته تستمد من ذاته فهى مطلقة على الدوام ولا يمكن أبداً أن تكون نسبية .

يقول تعالى : « إنا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان » .

صدق الله العظيم

لقد أفرد الله للإنسان دوراً تميز به عن جميع الكائنات . . فى التوراة يقول تعالى : « إن الله قد خلق الإنسان على صورته » . وفى القرآن : « نفخ فيه من روحه » . . وكل هذا يحتم على الإنسان أن تكون له رسالة وإلا انتفى المعنى لوجوده . . فالأصل فى هذا الوجود هو حمل الأمانة التى كلفه الله بحملها . .

قد تختلف الرسالة من شخص لآخر . . ولكنها فى جميع الأحوال تهدف إلى تحقيق ما أراد له الله أن يحققه من حمله الأمانة . . فإذا خلت حياة الإنسان من رسالة يؤديها كان هذا معناه أنه قد خان الأمانة .

ولكن لكى يؤدى الإنسان الرسالة التى خلق من أجلها ، يجب عليه أن يستمد كيانه من ذاته لا من عوامل خارجية . . بهذا وحده يستطيع الإنسان أن يدين بالولاء لما هو أكبر وأبقى من هذه الذات فتكون له رسالة يؤديها فى هذه الحياة . .

هذا يقين توصلت إليه فى الزنزانة ٥٤ وأصبح جزءاً لا يتجزأ من كيانى فإذا انقضى يوم بدون أن أفعل شيئاً نحو هذه الذات التى هى أكبر منى وأشمل بت غير راضٍ عن نفسى وتساءلت ماذا فعلت بالأمانة التى أحملها يوماً بأكمله ؟

إن قيمة الإنسان مطلقة دون شك . . لأنها لو كانت نسبية فسوف تتغير من شخص إلى آخر ومن مجتمع إلى مجتمع . . ومن زمن إلى زمن . . حسبما يفيد منه الناس كل من وجهة نظره . . فيراه البعض عظيم الفائدة ويراه الآخرون عديم النفع . . أو ربما كثير الضرر . . وهكذا إلى أن يفقد الإنسان قيمته كإنسان وبالتالى يفقد كيانه .

وهذا ما يحدث فى المجتمعات الفاشية مثل المجتمع النازى أو الشيوعى حيث

تكون قيمة الإنسان مرهونة دائماً بمتطلبات هذه المجتمعات مما يمسخ البشر أو يحيلهم إلى أنصاف آلهة فى الأحزاب الحاكمة أو يجعلهم عبيداً عليهم فقط أن يطيعوا الأوامر أو آلات تعمل دون أن تعى . .

وفى كل هذه الحالات يفقد الإنسان كيانه كإنسان له قيمة فى ذاته ويسلب حق حمل الأمانة التى كلفه الله بحملها ويجرد من الرسالة تلك الشعلة المقدسة التى خلق ليضىء بها الطريق لمن حوله ولمن يأتى بعده من أجيال . .

فعندما تصبح قيمة الإنسان نسبية تزول القوانين الآلهية بل والوضعية أيضاً . . إذ يصبح لا مكان لها ما دامت سيادة القانون قد زالت كقيمة مطلقة وحلت محلها سيادة بعض الأفراد ممن هم أسرى النجاح الخارجى والذى يصبح المقياس الوحيد الذى يقيسون به الناس مما يؤدى بالضرورة والحتمية إلى ضياع القيم الإنسانية العليا التى من أجلها وجد الإنسان . .

وهكذا يضيع مجتمع الخير والجمال ويحل محله مجتمع القوة . . وأغلب البشر الآن يعيشون مجتمع الحقد والقوة مما أفقد العالم القيم العليا التى بناها الإنسان على مر العصور . . وفى اعتقادى أن المخرج الوحيد للبشرية من الأزمة التى تعانيها هو العودة إلى هذه القيم والإصرار على وضعها موضع الصدارة فى جميع مجالات الحياة . . ولذلك تجدنى لا أكف عن الدعوة إلى تبنى قيم القرية المصرية ربما بشىء من التطرف أحياناً . . ولكننى أرى فيها الخلاص الوحيد من آثار مجتمع القوة الذى جربناه فى مصر فأضاع القيم بأكملها . .

فى الثمانية عشر عاماً السابقة على رئاستى للجمهورية حاولوا أن يجعلوا من مصر مجتمع حقد وقوة فقط ولكن التجربة فشلت ١٠٠٪ لأنها لا تتلاءم مع تكويننا أو طبعنا . . نادينا بالديكتاتور العادل أو المستبد العادل فلما جاءنا . . قام البناء على الرمال . . وليت الأمر اقتصر على هذا . . فأقبح ما واجهته لم يكن الوضع الاقتصادى المنهار ولا الوضع العسكرى المهين . . بل جبل الحقد الذى نشأ عن محاولة بناء مجتمع القوة . . فى هذه المجتمعات كما قلت تنعدم القيم الإنسانية ومع انعدامها يصبح الشاغل الوحيد لكل فرد فى المجتمع أن ينال أكبر قسط من النجاح الخارجى (الكسب أو الجاه والقوة المادية) بحق أو بدون حق ومهما كلفه هذا من ثمن ولو كان القضاء على الآخرين .

من نتائج مجتمع الحقد والقوة حالة الضياع والحيرة التى يعيشها الشباب فى مصر اليوم فقد وضعوا أمامهم قيماً لمجتمع لا وجود له فى ذاتهم ولا فى تكوينهم وقالوا لهم هذا هو مجتمعكم الجديد وهو أحسن المجتمعات . . ومن هنا نشأ صراع داخلى مرير عند الشباب . . بين قيم جمالية ترسبت فى وعيهم الجماعى على مرور آلاف السنين هى عمرهم الحضارى . . ومجتمع القوة الجديد الخالى من أى قيم والذى فرض عليهم فرضاً . . وازدادت حدة الصراع وأصبح الضياع أمراً محتوماً عندما رأى الشباب مجتمع القوة ينهار أمام أعينهم ومع ذلك فما زالوا يلقنونهم أنه أفضل المجتمعات وأقواها .

٥

فى الزنزانة ٥٤ بدأت الروابط التى تربطنى بمطالب الحياة تنقطع الواحدة بعد الأخرى . . ولما تخففت الروح من أثقالها تحررت الذات وانطلقت كما ينطلق الطير من قفصه إلى الفضاء الواسع . . إلى الكون بأجمعه . . إلى اللانهائية . . فما دام الإنسان يريد أن يكون هذا أو ذاك أو أن يمتلك هذا أو ذاك فهو لا يمتلك شيئاً على الإطلاق لأنه سيظل عبداً لما يريد ولما يملك . . وبذلك فهو لا يكون . . فقط عندما يتخلص من كل ما يمت إلى ذاته يصبح سيد نفسه . . فيكون . .

فعندما يخرج الإنسان من الذات الضيقة بمعاناتها وانفعالاتها الدنيوية يجد أمامه عالماً جديداً لم يعرفه من قبل . . هذا العالم الجديد أرحب وأغنى من الحياة التى ألفها وهو أيضاً من نوع مختلف . . ففيه تتحرر الذات بحيث تصبح كل ما فى الوجود فلا زمان ولا مكان يمكن أن يحتويها . . وفى هذا التحرر تتحول الإرادة إلى حب . . وكل ما كان يمكن أن يعكر الصفو . . إلى سلام لا حدود له ويجد الإنسان سعادة تفوق كل ما يمكن أن يسعد به على هذه الأرض . .

من أجل هذا كانت الستة شهور الأخيرة لى فى الزنزانة ٥٤ وما زالت أسعد أيام حياتى . . ففيها تعرفت لأول مرة على هذا العالم الجديد . . عالم إنكار الذات إنكاراً تاماً بحيث ذابت فى غيرها من الكائنات فاتسعت واتصلت بسيد الكون . .

طبعاً لم يكن هذا ليحدث قبل أن أخلو إلى نفسى وأعيش معها وأعرفها . . ومما لا شك فيه أيضاً أن قراءاتى قد ساعدتنى على اكتشاف هذا العالم الجديد . . أنا لم أدرس التصوف ولكن ما وقع فى يدى من أقوال وكتابات المتصوفين وجد صدى فى نفسى مثل الكثير من قراءاتى فى السجن فقد عبرت لى عما كنت أشعر به دون أن تصل درجة إدراكى إلى مرحلة الوعى الكامل والتعبير . ولكن لعل المعاناة من أهم العوامل التى قربت بينى وبين العالم الجديد الذى عرفت فيه السلام الروحى كما لم أعرفه من قبل فالآلام العظيمة هى التى تبنى الإنسان وتجعله يرى نفسه على حقيقتها . . وهذه الآلام تندرج تحت الكثير من القيم الإنسانية العليا . .

مثلا غدر الصديق بى يفوق كل ألم آخر فى الحياة . . لأن الصداقة عندى شىء مقدس ولذلك عندما يغدر بى صديق أحس أن الأرض قد اهتزت تحت قدمى . . وعندما أقرر الاستغناء عن الصديق لغدره بى أشعر أن جزءاً من كيانى قد انسلخ عنى . . وأعانى من الآلام ما لا طاقة لبشر بتحمله . . إلى من ألجأ ؟ وما هو السبيل إلى دفن أحزانى ؟

لم يعد هذا حالى بعد أن تعرفت على عالمى الجديد وعشت فيه . . لا وجود لذاتى . . فالوجود الوحيد لذات الكون وللذات العليا .

كان هذا العالم الجديد فتحاً حقيقياً بالنسبة لى . ففيه عرفت صداقة الله . . هو وحده عز وجل الصديق الذى لا يمكن أن يخونك أو يتخلى عنك . . فهو الذى خلقك وكونك وحملك الأمانة وأعطاك من روحه وهو لا يعرف إلا الحب الذى لا حدود له والخير الذى ليس بعده خير . .

وهو يريد للحياة التى خلقها أن تسير شريفة . . قوية . . جميلة . .

بعدما عرفت صداقة الله ، تغيرت كثيراً فلم أعد أغضب أبداً إلا فى الحق وأصبحت الحياة بالنسبة لى أرحب وأجمل وأوسع وزادت قدرتى على التحمل مهما كانت الأمور والمشاكل التى على أن أتحملها . . وصار أهم هدف لى فى الحياة إسعاد الآخرين وأصبحت البسمة على أية شفاه وخفقة الفرحة فى قلب أى إنسان تسعدنى كما لو كان قلبى هو الذى يخفق فرحاً . . ولم يعد للانتقام أو الحقد أى مكان فى نفسى . . وأصبح إيمانى بأن الخير دائماً ينتصر جزءاً لا يتجزأ من وجدانى . . وزاد إحساسى بجمال الحب وهو الاحساس الذى

صورته لى نشأتى بالقرية كرباط يجمع بين الناس فى العمل والحياة . . ثم غذته فىّ أمى خلال مراحل حياتى . . إذ كانت رحمها الله معيناً لا ينضب للحب . . كان هذا تكوينها الطبيعى . . مجموعة انفعالات حب لا يعرف الحدود .

ولذلك فلعل أكثر ما عانيت منه فى الزنزانة ٥٤ هو شعورى بالفراغ العاطفى فلكى يكون الرجل مكتملا لابد أن تكون له رفيقة . . تحبه ويحبها . . هذه فعلا أعظم نعمة فى الوجود . . فعندما تمتلىء نفس الإنسان بالحب يستطيع أن يتم رسالته . . وبدون هذه العاطفة يعيش إلى أن يبلغ منتهى العمر وهو يشعر أنه يفتقد شيئاً هاماً وأنه مهما حقق فهو لم يكتمل بعد .

كان هذا شعورى فى جميع مراحل حياتى . . لم أشعر أبداً أن الحب كقيمة إنسانية عليا قد تغيرت فى نظرى يوماً ما . . بل على العكس إذ اكتشفت أن الحب هو المفتاح لكل شىء . .

حدث هذا فى الزنزانة ٥٤ عندما تجردت من ذاتى فنعمت بصداقة الله . . وعمر قلبى بحبه . . وأصبح ظله سبحانه وتعالى يحتوينى . . وعندها أدركت أن الحب قانون تستقيم به الحياة وتزدهر وتثمر وأن بدونه كل شىء عدم .

لقد اكتشفت ذاتى عن طريق الحب . . وعندما أنكرت هذه الذات وأذبتها فى ذات الكون . . أصبح الحب الشمولى لمصر — للكون — للخالق عز وجل — هو المنطلق الذى مارست منه وما زلت أمارس واجبى فى الحياة . . فى الشهور الأخيرة لى فى السجن . . بعد خروجى منه . . عندما كنت عضواً فى مجلس قيادة الثورة . . والآن وأنا رئيس جمهورية مصر . .

هذا ما يجعلنى أدعو دائماً إلى الحب . . فهو المظلة التى تحمى الإنسان من كل الأزمات . . كل من عرفه لن يعرف الجدب بل النماء والإزدهار لأن الحب عطاء والعطاء دائما يبنى . . على عكس الحقد الذى ساد حياتنا فى الثمانية عشر عاماً الأولى قبل أن أتولى الرئاسة فهدم كل ما فى طريقه هدماً ما زلنا نعانى من آثاره إلى اليوم .

« ربى قد طويت من عمرى صفحات ونشرت اليوم صفحة فاجعل صفحتى

هذه أدعى للخير وأخلى من الشر . . وزينها بالحق وبرئها من الباطل . واجعل فاتحتها وخاتمتها الإخلاص لك والعمل لوجهك واجعل يقينى أفضل اليقين وصحح بما عندك يقينى » . هكذا كنت أناجى ربى كصديق . . فى الأسبوع الأول بعد وفاة عبد الناصر قبل ولايتى . .

٦

كان من الطبيعى بعدما عشت عالمى الجديد حيث تخلصت الروح من أثقالها واقتربت المسافة بينها وبين الكون وخالقه عز وجل أن تتضح فى نظرى بعض مفاهيمى للحياة وأن يصيب التغيير نظرتى إلى كثير من الأشياء . .

لم يعد الحب بالنسبة لى عملية احتواء للحبيب بل عطاء وفناء فى ذات من تحب . . وليس هذا الفناء معناه العدم . . فالحب هو الطاقة الوحيدة القادرة على إزالة الحواجز بين الروح والمادة . . بين ما ترى وما لا ترى . . بين الذات وخالق الكون . . وبدون الحب يعمى بصرنا عن أن نرى « غيرانية » الغير . . فيتعذر الاتصال ونفقد أنفسنا فى أنفسنا . . ولا يقتصر الأمر على هذا بل يضيع السلام الروحى . . وهو دعامة كبرى من دعامات الحياة فبدونه يفقد الإنسان توازنه الداخلى ويدخل فى صراع مع نفسه لا يعلم متى ينتهى . .

عندما أنظر اليوم إلى الثمانية عشر عاماً الأولى من الثورة قبل أن أتولى الرئاسة أجد أن هذه المرحلة من حياتى كانت فترة معاناة لم أدرك سببها فى ذلك الوقت ، فقد ظلت كامنة فى العقل الباطن . . ولكنها أحدثت خللا فى توازنى . . عبد الناصر كان صديقى دون شك . . وعندما خرجت من السجن كنت حريصاً على أن أبقى على السلام الروحى الذى اكتسبته فى الزنزانة ٥٤ . . ولكن حينما دخلت مجلس قيادة الثورة شعرت أن هناك خللا فى توازنى الداخلى وأنى فى طريقى إلى أن أفقد سلامى الروحى . .

كان لابد من المحافظة عليه . . ولكن كيف ؟

إن الإنسان عقل وجسد وروح . . ولابد من الغذاء لكل من هذه العناصر حتى يتحقق السلام الروحى . . لجأت إلى المعرفة أنهل منها ولا أتوقف عن القراءة

يوماً . . فهـذا غذاء العقل وبالإيمان الذى لا يعرف الحدود روضت روحى أما الجسد فكانت وما زالت رياضته الوحيدة المشى على الأقدام أربعة كيلو مترات كل صباح .

بهذا حاولت طوال فترة المعاناة أن أحافظ على السلام الروحى الذى أعتقد أنه ضرورة لا بد منها لكى يؤدى الإنسان رسالته على هذه الأرض كما يجب أن يؤديها .

وقد يظن البعض أن التصالح مع النفس الذى هو ثمرة السلام الروحى يعنى الاستسلام للأمر الواقع أو على الأقل تقبله . . ولكن هذا غير صحيح فأنا لا أقبل الأمر الواقع كما هو بل أحاول دائماً تطويعه والسمو به إلى ما هو أفضل . فى اعتقادى أن الإنسان يجب أن يعمل دائماً ونصب عينيه مثل أعلى يريد أن يبلغه . . فبدون المثل الأعلى كيف تكون للإنسان رسالة . . وإذا خلت الحياة من الرسالة فلماذا نحياها وأى معنى لها ؟

وفى الزنزانة ٥٤ كانت المعرفة قريبة منى كما لم يحدث من قبل . . ويبدو أن هناك علاقات متبادلة بين المعرفة والحياة الروحية . . فكلما نهلت من الواحدة ازدادت الأخرى نضجاً — منوال دائم لا نهاية له . . ولكنه يؤدى إلى المزيد من معرفة الذات ، وكلما ازدادت رؤية الإنسان لذاته وضوحاً ازدادت قدرته على قهر ذاتيته فأصبحت أفعاله وأفكاره ومشاعره أكثر تحرراً وانطلاقاً بحيث لا تهدف إلى منفعة ذاتية بل إلى طلب الكمال المطلق فى كل شىء .

وهكذا أصبح الجمال يلح علىّ فى كل ما أرى وما أفعل . . أتطلبه فى جميع نواحى الحياة وكلما اغترفت منه ازدادت حاجتى إلى المزيد منه .

ومن هنا كانت المثالية التى هى فى الواقع ليست إلا سعياً دائماً نحو الجمال . .

هذه المثالية التى أنحو إليها بكل كيانى جعلت الكثيرين من الناس لا يستطيعون فهمى . . بل وغمضت بعض تصرفاتى فى عيونهم .

يسألنى البعض ما هى السياسة ؟ والإجابة دائماً تحيرنى . . فأنا لا أدعى أنى درست السياسة وتخصصت فيها . . كل ما أعرفه أنى نشأت بميول وآمال وأحلام معينة هى التى كونت شخصيتى منذ الطفولة إلى أن أصبحت رئيساً للجمهورية . .

هذه الآمال والميول كانت وما زالت تهدف إلى هدف واحد هو تخليص مصر من المعاناة والسير بها دائماً نحو الجمال والكمال . .

يصف البعض السياسة بأنها فن الممكن ولكنى لا آخذ بهذا التعريف فإذا قسناه على حرب أكتوبر لقلنا إن السياسة هى فن المستحيل . . فأيهما أصح ؟

أنا لم آخذ دكتوراه فى السياسة ولم أتبحر فى علومها . . أنا مجرد إنسان اكتشف ذاته ولذلك فأنا صادق مع نفسى فى كل ما أقول وما أعمل والمعاملة بينى وبين الناس تقوم دائماً على الصدق . .

ولعل هذا ما يدهش البعض إذ يجدوننى رجلا سياسياً يقول فى حجرة مغلقة نفس الكلمة التى يقولها أمام الميكروفون . . ولا يستغل موقفاً معيناً لشعبية رخيصة . . أو لهتاف الجماهير . .

فإدراك الذات إنما يجعل كل تصرفات الإنسان تصدر عن موضوعية لا ذاتية مطلقة . .

ولذلك فالسياسة — فى رأيى — هى فن بناء مجتمع يحقق إرادة الله من خلق هذا الكون وهى العمران . . فى هذا المجتمع يجب أن تكون حرية الفرد مطلقة لا يحدها سوى ما تعارف عليه المجتمع من قيم إنسانية أصيلة نبتت من المجتمع نفسه فهى ثمار حضارته . . والحرية نفسها أجمل هذه الثمار وأغلاها وأقدسها فلا يجب أن يشعر الفرد فى هذا المجتمع أنه تحت رحمة أية قوة من قوى القهر . . أو أن إرادته مرهونة بما يريده الغير . .

وبالتأكيد فإن الحرية ليست لازمة لبناء مجتمع القوة . . ولكنها الدعامة الكبرى لبناء مجتمع الحق والخير والجمال حيث تعمر النفوس بالحب والنور والإيمان وبالتالى تعمر الكون صروح الإيمان والانتصار بالإنسان وما يشيد من صروح الأمان والعزة والرفعة والسلام فتتحقق إرادة الله . .

ولكن لكى يقوم هذا المجتمع لابد لمن يتصدون لقيادته من أن يحملوا مسئولية تنبع أساساً من وجدانهم الإنسانى وأن لا تكون أفعالهم مجرد ردود أفعال لانفعالات ذاتية أو لأوهام أمجاد ديكتاتورية تسيطر عليهم وتلعب

بروؤسهم . . كما كان الحال مع هتلر وغيره . . فى مثل هذه الحالات لا مكان لمجتمع الحق والخير والجمال . . لأن كرامة الإنسان لا تصبح موضع أى اعتبار . . بل على العكس تهدر حين يهدرون قيمته المطلقة كإنسان ويحيلونه إلى شىء من الأشياء . .

أنا أتكلم من واقع التجربة والممارسة . . فثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ ، قد أتت بأفكار جديدة وحاولت جاهدة إلى أن تنقل المجتمع المصرى إلى المرحلة الحضارية التى يعيشها اليوم . ولكن يجب أن أعترف بأن النجاح لم يحالفنا بالكامل فيما أردنا تحقيقه لأسباب كثيرة منها الصراعات الشخصية . . ومنها أيضاً عدم وضوح الرؤيا بالقدر الكافى لا فى وقت مجلس قيادة الثورة ولا بعد أن أصبح جمال عبد الناصر رئيساً للجمهورية . . فقد كان بطبعه كثير الشك . . ولذلك انشغل بأمنه عن الرؤية البعيدة وعن أهم وأثمن ما فى الوجود وهو الإنسان . . وليت الأمر توقف عند هذا الحد . . ففى غمرة شكوكه وانشغاله بأمنه تحددت آفاق الإنسان المصرى وأبعاده . . وهكذا حدثت فى مصر للأسف أخطاء جسيمة ضد أخطر وأهم ما كان يجب أن نحرص عليه . . وهو آدمية الإنسان وإنسانيته . .

٧

فى الزنزانة ٥٤ لازمنى الاحساس بأننى منذ أن تخرجت من الجيش وأنا أواجه الخطر . . كان إحساساً صادقاً ، فقد حدث أن واجهت المخاطر فى جميع مراحل حياتى منذ أن أصبحت ضابطاً بالجيش إلى آخر لحظة قضيتها بالزنزانة ٥٤ . . عندما بدأت بالتمهيد لوجود رأى عام بالجيش . . ثم جهودى لحماية مصر من غزو قوات هتلر والتى أدت إلى فصلى من الجيش واعتقالى . . وبعد ذلك محاولاتى للقضاء على أعوان الإستعمار الإنجليزى وقضية أمين عثمان . . والزنزانة ٥٤ حيث أصبح الخطر قائماً وخطيراً بل ومحققاً كما كان يبدو لى . .

كيف ستنتهى القضية ؟ لم أكن أعلم . . كل ما كنت أعرفه أن ترتيبى فى الاتهام كان السابع . . وأن تهمتى يمكن أن تؤدى إلى الإعدام أو الأشغال

الشاقة المؤبدة . . ولا وسط فى العقوبة . . فإما أن تكون هكذا أو لا تكون على الاطلاق . . أى البراءة . . ولكن كيف ؟

أثناء وجودى فى السجن قامت حرب فلسطين . . كان ذلك فى منتصف عام ٤٨ ويعلم الله كم عانيت وتألمت من الغارات الإسرائيلية على القاهرة ، وكان مصدر ألمى أنى فى السجن لا أملك أن أفعل شيئاً . . وأن الإسرائيليين بهذه الغارات ينتهكون حرمة الشهر المقدس . . شهر رمضان . .

كنت أعرف أنها مجرد حرب نفسيه . . لا أكثر . . وزاد فى اطمئنانى أن جيوشنا كانت تشق طريقها إلى نصر أكيد . . ولكن فجأة عقد الملك عبد الله الهدنة التى أنقذ بها رقبة إسرائيل . .

تم هذا طبعاً بالإتفاق مع الإنجليز . . وكم أثار ما فعله الملك عبد الله غضبى ولكن ماذا كان يمكن أن أفعل وأنا بين أربعة جدران سجين فى الزنزانة ٥٤ ؟

لماذا عهدوا إلى الملك عبد الله بقيادة الجيوش العربية ؟ ما الذى دعاهم إلى هذا ؟ ما السبب ؟ ما السر ؟

رحت أتساءل مع نفسى وقلبى ينفطر مرارة . .

من أجل ذلك . . وحتى لا يتكرر ما حدث . . لا أكف اليوم عن الدعوة إلى أنه لا مجال للمجاملات . . وأننا يجب أن نضع النقط فوق الحروف . . فلا نسمح للعناصر غير الصالحة أن تشكل مصيرنا وأنه لزام علينا أن نردع كل من تسول له نفسه العبث بمصيرنا .

استغرقت محاكمتنا ثمانية شهور من يناير إلى أغسطس سنة ١٩٤٨ وأذكر أنه عندما أتى البوليس ليأخذنا إلى المحكمة ، حاولوا وضع (الكلبشات) فى أيدينا فرفضت وقلت « إذا حكم على فافعلوا ما تشاؤون . . ولكن الحكم لم يصدر بعد . . وهذا الذى تحاولونه لا أقبله اطلاقاً » . . طبعاً حذا الأولاد حذوى . . فاكتفى البوليس بأن يضعنا كلنا فى (لورى) كبير ليأخذنا إلى المحكمة ثم يعود بنا إلى السجن .

فى هذه الأثناء هدأت أعصاب الحكومة — قليلا — فسمحوا لنا بالخروج بعض الوقت . . وانتهزت أنا الفرصة وطلبت أن أعالج أسنانى عند طبيب أسنان

أعرفه فى الجيش أسمه أحمـــد على – فسمحوا لى . . كانت الرحلـــة من القلعة إلى مستشفى الجيش فى كوبرى القبة طريفة للغاية . . إذ كنت أقطعها فى التاكسى وأملأ عينى بملامح القاهـــرة وشوارعهـــا وأملأ رئتى بهواء الحرية ساعة كاملة على الأقـــل فى كل مـــرة . . نعم كان إلى جوارى دائماً أحد ضباط البوليس ولكن ماذا يهم ؟ أوصيت الطبيب أن لا يعالج الضرس المريض . . حتى تمتد الرحلـــة وتتكرر . وفى كل مرة كان يقف ضابط البوليس يراقب الطبيب . . ولكنه لم يفطن طبعاً إلى أن الطبيب كان يتناول أسنانى كلها بما يشبه العلاج ما عدا الضرس موضع الداء . . ما زالت متعتى بهذه الرحلـــة عالقة بذاكرتى . . فقد كانت نسمة الحـــرية لطيفة رغم قصرها . . وأحياناً كنت أنتهز الفرصة وأزور والدى الذى كان يعمـــل بمستشفى الجيش . . ونشرب الشاى معاً .

لم تدم متعتى طويـــلا ففجأة هرب حسين توفيق – وهو المتهم الأول – من السجن وكان رد الفعل المباشر أن أوقفوا خروجنا مهما كان السبب .

واستمرت المحاكمة يوماً بعـــد يوم وشهراً بعـــد شهر . . كان الرأى العام كله معنا . . وكنت قد شككت فى سلامة القضية بما يكفى كما سبق أن رويت . . هذا إلى جانب أن القضية كانت فى أيدى كبار رجال المحاماة فى مصر . .

انتهت المحاكمة فى أوائل يوليو ١٩٤٨ ثم جاء النطق بالحكم وكان ذلك فى أغـــسطس سنة ١٩٤٨ ، فذهبت إلى المحكمة وأنا لا أرتدى سوى بنطلون رمادى رث وجاكت بيضاء . . فقد كان هذا كل ما عندى . . بدأوا طبعاً بالمتهم حسين توفيق . . وبمجـــرد أن سمعت الحكم وهو ١٠ سنوات سجن (غيابياً طبعاً) جاءنى إحساس بأنهم سيحكمون على بالبراءة . وفعـــلا عندما أتى دورى أعلنت المحكمة المتهم رقم ٧ بـــراءة .

صـــدر الحكم فى الظهـــر . . ولكن كانت التعليمات تقضى بالبقاء فى السجن حتى الساعة الخامسة مساء فعدت إلى السجن وبقيت به إلى الساعـــة الخامسة مساء ، حيث سمحوا لى بالخروج . .

قررت الذهـــاب إلى حلـــوان وهناك بحثت عن بنسيون رخيص يتناسب مع ما معى من نقـــود قليلة . . وعشت أعالج معـــدتى بمياه حلـــوان المعدنية وأنتظـــر الأيـــام . .

الفصل الرابع

١

العمل من أجل قيام الثورة

كان من الطبيعى بعد أن قضيت ٣١ شهراً متواصلا فى السجن . . أن أشعر كأنى قد ولدت لتوى فى عالم جديد لا أعـــرفه . . ولذلك كنت أقضى وقتى متنقلا بين البنسيون الرخيص الذى سمحت لى نقـــودى القليلة أن أقيم به ، وبين الحديقة اليابانية حيث كنت أسترخى على أحد مقاعدها الخشبية أقرأ فى صحيفة أو كتاب بعيداً عن الناس . . قانعاً بخلوتى . . أتأمل ما أنا فيه . . وما حدث . . وما قد تأتى به الأيـــام . .

كنت أتحاشى الجلـــوس مع الناس أو الكلام معهم . . فلو أننى حاولت هذا لتطلب منى جهـــداً لم يكن فى مقـــدورى أن أبذله ، فقد أصبح ما كان مألوفاً من أمور الحياة العـــادية عالمـــاً غريباً بالنسبة إلىّ لابد أن أتأقلم معـــه . . حتى أشعر أننى واحد من سكانه . .

أذكر أننى بعد شهر تقريباً من خروجى من السجن ، ركبت سيارة أقودها بنفسى ورغم اتقـــانى القيادة فقد هالنى أن أجد أننى لم أكن أعرف كيف أسير فى شوارع القاهـــرة . . وانتهى بى الأمر إلى حادثـــة تحت نفق الجـــيزة . . هكذا قضيت أيامى فى حلوان أحاول التخلص من آثار السجن وأحاول شفاء معـــدتى بمياهها المعـــدنية إلى أن جاء يوم فوجئت فيه بزيارة زميلى وصـــديقى القديم حسن عزت الذى بحث عنى فى كل مكان إلى أن أهتدى إلى مقامى . .

كنت أصلى الفجـــر عندما هبط على . . وكانت نقـــودى قد نفدت تقريباً ولم أكن أعرف ماذا أفعـــل بنفسى .

– ما الذى يقعـــدك هنا ؟ قم معى – تعال . .

قالها لى حسن عزت وهو يتأمل أثاث وجدران الحجرة البالية التى كنت أقطن بها . .

قلت : إلى أين ؟

وأجاب : إلى بيتى فى السويس – هيا بنا . .

وارتديت ملابسى . . الجاكته البيضاء والبنطلـون الرمادى – نفس الملابس التى خرجت بها من السجن وكانت كل ما أملك ولاحظ حسن عزت أن البنطلون قد بلى من الخلف ، فقلت له ليس عندى غيره وحتى لو ذهبنا إلى بيت والدى ما وجدت بديلا عنـه .

قبل أن نتوجـه إلى السويس ذهبت مع حسن عزت إلى القاهـرة حيث اشترينا قمصان وفصلت بدلتين وكانت هذه أول مرة أرى فيها الجـوارب السوكيت التى يبدو أنها ظهـرت وانتشرت فى الأسواق وأنا فى السجن – فأعجبتنى واشترى لى حسن عزت ثلاثة أزواج أو أربعة منها . وبعـدها ركبت معه سيارة وذهبنا إلى السويس . .

فى بيته هنـاك التقيت لأول مرة بجيهـان – زوجتى – حيث كانت فى زيارة لابنة عمتها زوجة حسن عزت – قضيت معهم بعض الأيام ، تبينت خلالها أن حسن عزت لم يبحث عنى ويأتى بى إلى السويس لوجه الله .. فقد كان على خلاف مع شركائه فى عمليات تجارية بين مصر والسعودية عن طريق السويس – فأراد أن يخيفهم ببطـل قضية أمين عثمـان حديث كل المجلات والصحف . . الذى هو أنا طبعاً . . واشتركت معهم فعلا فى بعض الصفقات وكان نصيبى منها كما علمت بعـد ذلك ١٨٠ جنيها من الذهب أعطانى منها حسن عزت ٦٠ جنيهاً وأخذ الباقى لنفسه وكان الجنيه الذهب فى ذلك الوقت يساوى ستة جنيهات مصرية . . ولذلك عندما عدت إلى حلـوان لأستأنف علاج معـدتى . . وضعت المبلـغ فى خزينة اللوكاندة حتى لا يسرق – وطبعاً لم يحدث هذا . . الذى حدث أن المبلغ صرف عن آخـره على إقامتى بحلـوان . .

انتقلت بعـد ذلك إلى بنسيون فى وسط البلـد بالقاهرة عاطلا بدون عمل بينما تتراكم الديون على يوماً بعد يوم . . فذهبت إلى إحسان عبد القدوس وهو

صديق قديم لى . . ليبحث لى عن عمل . . قصدنا جريدة الأهرام ولكن لم تكن بها مجالات للعمل – فاقترح روز اليوسف ولكن إحسان قال إن روزا لا تتحملنا نحن الأثنين – وكان إحسان وقتها يعمـل بروز اليوسف وبدار الهلال كمعيد للصياغة Rewriter وفى جـريدة الزمان . . فى ثلاثة أماكن فى وقت واحد . .

ولكن حدث أن استغنى إحسان عن عمله بدار الهلال ، فأخذنى وقدمنى لأصحاب الدار . . الذين اشتروا منى مذكراتى التى كتبتها فى السجن وبدأوا نشرها . . ويبدو أنهم أرادوا اختبارى للتأكد من أن المذكرات بقلمى – فأتانى شكرى زيـدان أحد أصحاب دار الهلال – وأشار إلى جزء من المذكرات وقال إنه بحاجة إلى تطـويل بما يساوى عمـوداً ونصف ، فقلت بكل سرور . . قال إليك المكتب ولكن عليك أن تنهى من الكتابة فى خلال ساعة ونصف وهو الزمن الباقى على إغلاق المطبعـة .

فعلت ما طلبه وسلمته إليه قبل الزمن المحـدد . . فقرأه وشكرنى وانصرف .

لم يخامرنى أى شك فى أن هذا كان نوعاً من الاختبار . . إلى أن أرسل فى طلبى صباح اليـوم التالى ، وطلب منى أن أعمـل معهم فى دار الهلال بصفة مستديمة وأن أحدد المرتب الذى أريده . . كان هذا أمـراً مذهلا لى . . فقد كنت أعرف أن كبار المحررين عندهم يعملون جميعاً بالقطعة .

قبلت العمل على الفـور وأخذت مكان إحسان كمعيد للصياغة . .

واستمر عملى هذا إلى نهاية ديسمبر ١٩٤٨ . كنت أثناءها – وعلى وجه التحديد فى ٢٩ سبتمبر ١٩٤٨ – قد تقـدمت لخطبة جيهـان من أبيها وتمت الخطبة .

كنت راضياً عن عملى بدار الهلال بل وسعيداً به ولكن حدث أن اختلف حسن عزت مع شركائه فى السويس فانتقل إلى مصر ، وطلب منى أن أشاركه فى الأعمـال الحرة . . لم يكن من السهل أن أرفض طلبه فهـو زميل كفاح – ثم إنه هو الذى خلصنى من الأزمـة المالية التى كنت أعانى منها عندما نفدت نقـودى فى حلـوان وقبل هذا وذاك كانت عندى نقطة ضعف نحـو حسن عزت كصديق يحبنى ولا يخفى عنى شيئاً ويعتبرنى ضميره .

طبعاً لم يكن خروجى من دار الهلال أمراً سهلا فقد تصوروا أنى أريد أجراً

أكبر وعلى هذا الأساس بدأوا يساومونني ولكن فشلت كل محاولاتهم وبدأت العمل مع حسن عزت بعمليات مياه صخرى فى ٥٢ قرية من قرى محافظة الشرقية باسم حسن عزت طبعاً وأنا شريكه ولكن بدون تسجيل . .

انتقلت إلى الزقازيق عاصمة الشرقية . . وكنت قد تزوجت جيهان فى ٢٩ مايو ١٩٤٩م . فأخذتها معى حيث قضينا شهر العسل وما بعده فى لوكانده متوسطة الحال من لوكاندات الأقاليم هناك . . التزمت بجدول زمنى انتهينا بمقتضاه من العمليات فى نصف المدة المقررة وفعلا تم هذا . . فقد كنت أخرج من الصباح الباكر لأعمل ١٥ أو ١٧ ساعة فى اليوم . . ثم أعود فى المساء إلى زوجتى فى اللوكانده .

أتممت العمل فى ٦ شهور فخرجنا بربح يساوى ٦ آلاف جنيه وأعطتنا الحكومة شهادة تقدير طبعاً باسم حسن عزت . . فرست علينا ٨ عمليات مياه كبرى فى المنيا بمبلغ ٦٠ ألف جنيه وكان هذا يعنى بالمعدل الذى سرنا عليه . . ربما ما لا يقل عن ٣٠ ألف جنيه . .

كان من المقرر أن يبدأ عملنا بالمنيا فى نوفمبر ١٩٤٩ . ولكن قبل أن نبدأ العمل قلت لحسن عزت إننى أريد أن أستقر مالياً . . فى المنيا لابد أن تكون لى شقة أعيش فيها مع زوجتى . . ثم إن على التزامات مالية أخرى نحو أولادى من زوجتى الأولى التى انفصلت عنها رسمياً فى مارس ١٩٤٩ . راوغ . . ثم وافق . ثم قال إننى أنفقت فى الزقازيق ٢٠٠٠ جنيه طبعاً لم يكن هذا صحيحاً أو قريباً من الصحة . . فى الزقازيق لم تكن عندى أى تكاليف إلى جوار اللوكاندة المتواضعة سوى ثمن السجائر — ولكن حسن عزت أصر . . عرفته على حقيقته واشمأزت نفسى منه ومن السوق والعمل به فتركته وفى جيبى ١٢٠ قرشاً وكان لى عنده ٣٠٠٠ جنيها هى نصيبى من عملية الزقازيق ولكننى لم أطلبها منه .

كان كل همى أن أبتعد . . أن أنجو مما وقعت فيه . . فما قيمة المال إذا أصبح دنساً يهدد كيان الإنسان ويقوضه من داخله ؟ ثم أين أحلام الصبا وآمال الشباب والمعارك التى خضتها من أجل تحرير الأرض ؟ هل فعلت كل ما فعلت لكى

أصبح فى النهاية رجل أعمال كل همه أن يكسب من العمليات التى يقوم بها ٣٠٠٠ جنيه أو أكثر أو أقل ؟

طوال الفترة التى عشتها بعد أن بارحت السجن كنت أحس أنى بعيد عن نفسى . . غريب عن ذلك الإنسان فى داخلى الذى عشت معه — وعرفته — وارتحت إليه وكنت شديد الاعتزاز به فى الزنزانة ٥٤ . .

كنت على ثقة من أنه لم يذهب بعيداً . . ربما لعبت الظروف دوراً فى ابتعادى عنه . . ولكننى كنت شديد السعادة عندما وجدتنى أقول لحسن عزت عند فراقنا . . « كم أتمنى أن يكون عندك ١٠٠ ألف جنيه وأنا لا أملك شيئاً . . لسوف أكون دائماً أكبر منك بما لا أملك . . وأنت أقل منى بكل ما تملك »

لقد عادت ذاتى إلى . . وفى نفس اللحظة . . قررت أن أعود إلى الجيش . . الوسيلة الوحيدة لتحقيق الرسالة التى كانت بالنسبة إلى كل شىء .

٢

هناك على شاطىء البحر الأبيض بلاج فى غاية الجمال كانت تشغله فى سنة ١٩٤١ وحدات من الجيش المصرى وكنت أنا ضمنها مبعداً بأمر المخابرات وهناك فى الجراولة كما كانوا يسمونها . . تعرفت إلى ضابط طبيب اسمه يوسف رشاد كانت خيمته إلى جوار خيمتى وتصادقنا . . كان لابد من ذلك فهو دمث الأخلاق مثقف يقرأ كثيراً ولا يكاد غليونه يفارق شفتيه ولا يكاد الكتاب يفارق يده . . وبلغت بنا الصداقة حد التلازم فكنا لا نكاد نفترق إلا ساعة النوم — نطهو طعامنا معاً — ونأكل معاً . . ونتحدث ونفكر ونقرأ معاً . . وما زلت أذكر اليوم الذى أعطانى فيه كتاباً ترك فى نفسى أثراً عميقاً وهو كتاب من تأليف « جون ستيوارت ميل » عنوانه : النظام الشمولى والحرية والحكم النيابى وكان بالانجليزية .

ومرت الأيام وابتعد كل منا عن الآخر — ولكن صداقتنا ظلت كما هى — لم يخدشها شىء . .

يوسف رشاد هو أملى الوحيد فقد أصبح طبيباً فى الحرس الملكى ولا أعتقد

أنه سيرد لى طلباً . . فاتصلت به تليفونياً وطلب منى زيارته فى بيته . .

هناك شرحت له حالى — وكيف أن النيابة أستأنفت ، وأن الاستئناف قد نظر فى أواخر عام ١٩٤٩ وأيدت المحكمة الحكم بالبراءة فلم يكن هناك إذن ما يمنع عودتى إلى الجيش .

واستمع إلى يوسف رشاد وهو يدخن غليونه فى هدوء وبدمائته المعهودة وعد بأنه سيتصل بى فى أقرب وقت . . وما هى إلا أيام قليلة حتى اتصل بى يوسف رشاد . . وكان ذلك على وجه التحديد يوم ١٠ يناير ١٩٥٠ وطلب منى أن أقابل حيدر باشا قائد عام القوات المسلحة .

كان حيدر باشا فى انتظارى وما أن رآنى حتى انهال على بالسباب . .

— أنت ولد مجرم . . تاريخك أسود . . و . . و . . .

حاولت أن أتكلم . .

— لا داعى للكلام . . لا تفتح فمك على الإطلاق — وفجأة دق الجرس فدخل كاتم أسراره .

— أفندم يا باشا . .

— الولد ده ترجعه الجيش النهارده . .

وصدرت النشرة العسكرية بعودتى إلى القوات المسلحة اعتباراً من ١٥ يناير ١٩٥٠ برتبة يوزباشى — وهى الرتبة التى خرجت بها — وكان زملائى فى الجيش قد سبقونى فى ذلك الوقت برتبتين . . رتبة صاغ ورتبة بكباشى .

كان أول من زارنى مهنئاً جمال عبد الناصر ومعه عبد الحكيم عامر . . علمت من عبد الناصر أن تنظيم الضباط الأحرار قد أصبح أوسع انتشاراً وأن قوته تشتد يوماً بعد يوم . . وكأنما أراد أن يثبت لى مدى قوة التنظيم أو أن يختبر هذه القوة — طلب منى أن أتقدم لامتحانات الترقية بحيث أستعيد ما فقدت من رتب وأنا خارج الجيش ، وأن لا أهتم بالصعاب التى سوف تواجهنى . . فمهما كان شأنها سيذللها التنظيم ويتخطاها . . وفعلا تم هذا . . وحصلت على رتبة بكباشى فى وقت قصير . .

طلب منى عبد الناصر أن لا أقوم بأى نشاط سياسى واضح . . لأنى بسبب تاريخى النضالى لابد أن أكون بطبيعة الحال مراقباً ولو أن هذا لم يمنع جمال من أن يكشف لى عن خريطة الضباط الأحرار فى وحدات الجيش المختلفة ، فكنت أزورهم وأتبادل الحديث معهم ولكنها كانت جميعاً أحاديث ودية لا علاقة لها بالسياسة . . فلم يكن من المفروض فى التنظيم أن أكشف لهم عن نفسى أو أن أشعرهم أننى أعرف أنهم ينتمون إلى الضباط الأحرار .

كانت هذه قاعدة أساسية أرساها عبد الناصر يوم تسلمه التنظيم من بعدى عندما قبضوا على فى صيف ١٩٤٢ — وهى أن يظل تشكيل كل خلية سراً لا يعرفه إلا أعضاؤها .

كان الرجل الثانى بعدى فى ذلك الوقت هو عبد المنعم عبد الرؤوف الذى ظل على اتصال بالشيخ حسن البنا رائد الإخوان المسلمين — والذى كان على اتفاق تام معى فى أن تنظيم الضباط الأحرار يجب أن لا يخضع لأية هيئة أو لأى تنظيم حزبى لأن الهدف منه هو خدمة مصر بأجمعها لا فئة معينة . .

عندما دخلت المعتقل كان عبد الناصر ما زال فى السودان ولكن بمجرد نزوله بكتيبته ووصوله مصر أواخر ١٩٤٢ ، اتصل به عبد المنعم عبد الرؤوف لضمه إلى التنظيم — فقد كان عبد الناصر من الضباط الممتازين — وكانت هذه هى القاعدة التى أرسيتها . . أى أن لا ينضم إلى التنظيم إلا من كان متميزاً فى عمله بالقوات المسلحة . . فالضابط الممتاز موضع ثقة الجميع . . ومن السهل أن ينقاد إليه الآخرون . .

استجاب عبد الناصر على الفور . . ولم يكن من الصعب عليه بعد ذلك أن يزيح عبد المنعم عبد الرؤوف من طريقه وأن يتولى هو قيادة التنظيم بدلا منه .

كانت قيادة عبد الناصر لتنظيم الضباط الأحرار تختلف عن قيادتى ، فقد لجأ إلى تكوين خلايا سرية فى الجيش ، كل خلية منها لا تعرف الأخرى . . وتكاثرت الخلايا يوماً بعد يوم ، حتى شملت القوات المسلحة بأجمعها وخاصة المناطق الحساسة فيها مثل إدارة الجيش . .

في سنة ١٩٥١ ، شعر عبد الناصر أن التنظيم قد و[illegible] مرحلة النضج وأنه لا بد له من قيادة خاصة وأن الكثيرين من أعضائه قد بدأوا يتساءلون عن قائد التنظيم أو قادته .. بينما كان بمصر في هذا الوقت خمس أجهزة سرية هي بوليس السياسي .. والمباحث الجنائية .. والمخابرات الحربية للجيش .. والمخابرات الخاصة بالإنجليز والـ C.I.A. الأمريكية التي دخلت مصر بعد الحرب العالمية الثانية .. هذا بخلاف جهاز آخر خاص بالملك ويتبع السراي مباشرة .

لذلك كان الحرص مطلوباً في تكوين الهيئة التأسيسية فبدأ عبد الناصر في اختيار أعضائها ممن احتك بهم هو شخصياً في حرب فلسطين مثل كمال الدين حسين وصلاح سالم وممن له صداقة عمر معه – عبد الحكيم عامر – ثم ممن كانوا أصلا قادة التنظيم قبل أن يتسلمه وهم عبد المنعم عبد الرؤوف وعبد اللطيف بغدادي وحسن إبراهيم وخالد محيي الدين وأنا ..

قد يبدو اختيار عبد الناصر لي دليلا على الوفاء – صحيح أنني كنت قد بدأت تنظيم الضباط الأحرار – ولكنني بقيت بعيداً عن التنظيم ثماني سنوات وهي الفترة ما بين فصلي من الجيش سنة ٤٢ إلى أن عدت إليه سنة ٥٠ ، ولكن لم يكن عبد الناصر ينتمي إلى ذلك الصنف من الرجال الذين تحركهم مشاعرهم نحو الآخرين إلا إذا كانت هذه المشاعر وليدة صداقة وطيدة الأركان كصداقته مع عبد الحكيم عامر .. ورغم أننا تعارفنا إلى بعض وعمرنا لم يتجاوز الـ ١٩ سنة .. إلا أنني لا أستطيع أن أقول سوى أن علاقتنا كانت علاقة احترام وثقة من جانب كل منا .. وليست صداقة على الاطلاق ..

فلم يكن من السهل على عبد الناصر أن ينشىء علاقة صداقة بمعنى الكلمة مع أي إنسان وهو المتشكك دائماً – الحذر – المليء بالمرارة .. العصبي المزاج .

لا أقصد بهذا تجريد عبد الناصر في اختياره لي من عامل الوفاء ولكنني أضيف إلى هذا عاملا آخر وهو الذكاء .. فمن خط سيري في القوات المسلحة ومن علمه منذ أن تقابلنا في مقتبل العمر أني رجل ذو مبادىء وقيم .. لم يكن من الصعب على عبد الناصر أن يدرك أنه يمكنه الاعتماد علي وأن إضافته لي إلى الهيئة التأسيسية سوف تجعلني مدى العمر وفياً لهذا الوفاء من جانبه ..

ومما لا شك فيه أن عبد الناصر وهو الحذر دائماً بتكوينه كان واثقاً كل الثقة أنني سأقف إلى جانبه باعتباري قوة لها تجربتها وتاريخها .. قوة ستسانده في الصراعات التي بدأت داخل الهيئة التأسيسية حتى قبل قيام الثورة .. ولذلك كان يهرع إلى عندما أعود إلى القاهرة في أجازة ليشرح لي المصاعب التي يلاقيها من بعض الأعضاء .. وعندما تعود بي الذاكرة إلى تلك الأيام البعيدة لا أبالغ إذا قلت إن عبد الناصر كان يقضي معي خمسة أيام كاملة في كل إجازة من إجازاتي التي لم تكن تتعدى الأسبوع .. وكنا كل مرة نتدارس أحوال التنظيم والصعاب والمشاكل التي تواجهنا .. هذا إلى جانب أن عبد الناصر كان يضع تجربتي محل تقدير .. أذكر مثلا أنه في سنة ١٩٥١ طرأت له فكرة أن تبدأ الثورة بحركة اغتيالات واسعة ، وسألني في هذا فقلت له : « غلط يا جمال .. ما هي النتيجة .. إلى أين ستصل ؟ إن الجهد الذي يبذل في حركة الإغتيالات يساوي تماماً الجهد الذي يبذل في قيام الثورة ولذلك دعنا نأخذ الطريق المباشر المستقيم .. وليكن هدفنا المباشر هو الثورة » .

وقد اقتنع بهذا الرأي فوراً وأخذ به .. ولم يكن هذا حال عبد الناصر بعد أن قامت الثورة وأصبح هو قائدها .. مثلا في سنة ١٩٥٣ عندما بدأت الصراعات تشتد وتمتد داخل مجلس قيادة الثورة بحيث أصبحت تشكل خطراً على الثورة وعلى مصر .. أذكر أني ذهبت إلى منزله في ذلك الوقت وقلت له :

– يا جمال الثورات تأكل نفسها وتأكل أبناءها .. ونحن لا نريد أن نصل إلى هذا المدى .. فلماذا لا تضع حداً لكل هذا .. لماذا لا تواجه الزملاء وتقول لهم .. فليبق معنا كل من هو من رأي وفكر واحد أما من يريد أن ينفرد برأي فليتركنا .. لقد أنجزنا المرحلة الأولى وهي قيام الثورة وهذا عمل تاريخي رائع يكفي كل من ينسلخ عنا الآن فخراً أنه ساهم في قيام الثورة » .

كان ينصت إلى بكل إمعان وتابعت كلامي :

– بعد ما نصل إلى السلطة تتغير أمور كثيرة – ولكن يجب ألا يكون هذا على حساب مصر – لقد انتخبناك رئيس مجلس قيادة الثورة بالإجماع فلا خلاف عليك إذن .. ولذلك يجب أن يكون واضحاً لدى الجميع أن من يستطيع أن يسير معك يمكن أن يستمر أما من لا يستطيع فعليه أن يعتزل »

ولم أستطع أن أكمل حديثى فقد فوجئت بعبد الناصر وهو يقاطعنى محتداً — محتجاً — غاضباً — ساخراً . . وكأننى أقف ضده لا معه . . كانت ردوده كلها تشير إلى ذلك . . مليئة بالمرارة التى انفجرت فجأة فى صدره وكأنها حمم بركان يقذفها فى ثورته . . طائشة المرمى . . تلهب وتؤذى بلا سبب ودون أى اعتبار . . فالله وحده يعلم أن هدفى من الحديث معه كان تجنيب البلاد انعكاسات الصراع الذى كان يشتد كل يوم بين من بيدهم الأمر مما جعـل ثورة ٢٣ يوليو رغم إنجازاتها الرائعة تصل بمصر إلى مرحلة رهيبة انتهت بهزيمة ٦٧ التى كادت أن تمحو كل ما حققته الثورة .

٣

لم يكن دورى فى التمهيد لقيام ثورة يوليو قاصراً على إسداء النصح لعبد الناصر كلما أمكن ذلك أو على مساندته فى مواقفه المختلفة من الصراعات القائمة فى الهيئة التأسيسية أو على توزيع منشورات الضباط الأحرار فى المناطق المخصصة لى — فقد كانت الأحداث تسير بسرعة مذهلة . . وكان على أن ألحق بركب الأحداث وأن أكيف نفسى وفقاً لطبيعتها . .

ففى أكتوبر عام ١٩٥١ ألغى النحاس باشا المعاهدة المبرمة بين مصر وإنجلترا عام ١٩٣٦ . وبدأت حركات الفـدائيين والإخوان المسلمين فى القنال واشتركت فيها بالتدريب وبالإمـداد بالسلاح والذخـيرة وأصبح الجو العـام يبشر بأن الهـدف الذى كنا نعمـل من أجله لم يعـد بعيداً فاجتمعت الهيئـة التأسيسية للضباط الأحرار فى أوائل يناير ١٩٥٢ وقررنا قيام الثورة فى نوفمبر عام ١٩٥٥ . . ولكن ما هى إلا أيام قليلة حتى فوجئنا بحريق القاهرة فى ٢٦ يناير ١٩٥٢ . لم يعرف حتى الآن من الذى دبر حريق القاهرة ، ولكن الهدف كان واضحاً لدى الجميع . فما لاشك فيه أن حريق القاهرة كان موجهاً ضد الملك كما كان تعبيراً عنيفاً عما يلاقيه أكثر من ٩٥٪ من الشعب — وهى القاعدة العريضة التى حرمت فى ظل نظـام طبقى رأسمـالى صارخ من كل شئ وأصبحت الأحـزاب السياسية هى الأخرى أداة فى يد الملك والإنجليز وأصبح كل همها أن تتحالف مرة مع الإنجليز ومرة مـع الملك لكى تحقق لنفسها المكاسب على حساب الشعب .

وكان حريق القاهـرة هو جرس الإنذار قبل ثورة دموية لو أنها قامت لهدمت وأحرقت كل شئ ، ورغم أن الفاعل كان مجهولا إلا أن الهدف قد أصاب فأضعف من مركز الملك .

فى ضوء هذا الحدث الأخير كان علينا أن نراجع حساباتنا وأن نعرف أين نقف بالضبط — وهنا تذكرت يوسف رشاد الذى أصبح طبيب الملك الخاص ، وصلة الصداقة التى تربطنى به . . لقد آن الأوان لكى أستخدم هذه الصلة لمصلحة القضية التى نعمـل من أجلها . . واتصلت بيوسف رشاد وكان فى ذلك الوقت صديقاً شخصياً للملك كما كان على رأس جهـاز المعلـومات الخاص بالسراى .

وجـدت يوسف رشـاد يأخذ كل ما أقوله له أمراً مسلماً بـه . . فلا جدال ولا مناقشة ولا شك من أى نوع . . الطـريق مفتوح إذن لتضليل الملك وتخديره حتى يقـوم تنظيمنا بالثورة .

والحقيقة أن هذا هو ما فعلت . . فكنت أقدم له معلومات خاطئـة .. وعندما كان يعرض على منشورات الضباط الأحرار ، كنت أوهمه أنها من صنع خيال ضابط معروف بحب التظاهـر والعظمـة ولكنه فى الحقيقة لا حول له ولا طول . . وعندما كانت تصل إليه بعض الحقائق كنت أعمـل جاهداً على تصويرها فى عينيه على أنها أكاذيب ومبالغات لا نصيب لها من الصحـة .

ولم يكن هـذا كل دأبى . . فقد كنت دائم السعى للتحايل للتعرف على أخبار الملك وخططه ونواياه . . ونجحت إلى حد كبير فى تحقيق هدفى ، فبعد حريق القاهرة بأيام عرفت من يوسف رشاد أن الملك بات يشعر بأنه لم يعد له مكان فى مصر . . بل وأعـد قائمة بأسماء من سيصاحبونه فى المنفى ومن بينهم يوسف رشاد طبعاً . . كما أنه بدأ يرسل الذهب فى طائرته الخاصة إلى بنـوك جنيف الأمر الذى جعلنى أنا وعبد الناصر نقتنع بأن حركة الضباط الأحرار لن تجد مقاومـة تذكر من جانب الملك . . فقد كان واضحاً أنه قد بدأ ينهار فعلاً وبناء عليه جمعنا الهيئة التأسيسية فى فبراير ١٩٥٢ وقررنا قيام الثورة فى نوفمبر ١٩٥٢ بدلا من نوفمبر ١٩٥٥ . . لمـاذا نوفمبر ؟

لأنه فى نوفمبر يكون الملك والحكومة قد عادا من الأسكندرية وبذلك نستطيع تركيز ضربتنا فى القاهـــرة . .

باستثنـــاء عبد الناصر لم يكن أحد يعـــلم باتصالاتى بيوسف رشـــاد الذى ظـــل سلاحاً من أهم أسلحـــة معـــركتنا . . ولم نتوقف عن استخـــدامه إلى أن بلغنا هدفنا بالكامل . . أذكر أنه فى أول يوليو ١٩٥٢ ، كنت أقضى إجازتى الشهرية بالقاهـــرة وفى حديث لى مع عبد الناصر طرأت له فكرة استطلاع أخبار الملك فركبت عربتى الفوكسهول وتوجهت إلى الإسكندرية حيث التقيت بيوسف رشاد فى نادى السيارات بسيدى بشر وعلمت منه أن الملك قلق لزيادة منشورات الضباط الأحرار . . طمأنت باله ونسبت المنشورات كما اعتدت أن أفعـــل إلى أحد الضباط الذى كان مولعاً بالتظاهر وإيهام الناس بأنه مهم . . وكنت قد ابتكرت بعض المعلـــومات الخاطئة المضللة . . فحكيتها ليوسف رشاد وبعد أن أطمأن بالى إلى أنه نقلها إلى الملك . . ركبت عربتى وتوجهت إلى القاهـــرة حيث أطلعت عبد الناصر على نتائج رحلتى وكانت إجازتى قد انتهت فعـــدت إلى مقـــر عملى فى رفح .

فوجئنا بعد ذلك فى ١٨ يوليو بالملك يصدر أمراً بالغاء انتخابات مجلس إدارة نادى الضباط وهى التى كان التنظيم قد كسبها من الضباط الموالين للسراى . . الملك قد بدأ يسترد أنفاسه إذن . . بل ويتحدى . . وفى نفس الوقت أبلـــغ أحمـــد أبو الفتح (الصحفى الوفدى) جمال عبد الناصر — وكان صديقاً شخصياً له — بأن الملك يعتزم تغيير الوزارة وأن وزير الحربية فى الوزارة الجديدة هو اللواء حسين سرى عامـــر الذى يعرف الكثير عن الضباط الأحـــرار والذى سوف يكون أول ما يفعله بالتأكيد هو أن يقضى عليهم ويجهض كل مشروعاتهم بمجـــرد توليه الوزارة لكى يثبت للملك قوته وولاءه .

وبتحليل بسيط وصل عبد الناصر إلى حقيقة تفرض نفسها علينا وعلى مستقبل الثورة والبلاد . . إما نحن وإما حسين سرى عامر الوزير القادم والذى يعرف الكثير عنا بل ونحن أغلب أعضاء الهيئة التأسيسية الذين تحولوا فيما بعد إلى مجلس قيادة الثورة .

ولم يتردد عبد الناصر .

فقد اتخذ قرار قيام الثورة قبل تولى هذا الوزير لمهام منصبه وقبل أن يفلت زمام المبادأه .

وكان معنى هذا أن تقوم الثورة فى يوليو بدلا من نوفمبر ٥٢ .

وفى يوم ٢١ يوليو١٩٥٢ أرسل عبد الناصر رسالة لى مع حسن إبراهيم تسلمتها فى مطار العريش يطلب منى فيها أن أنزل إلى القاهـــرة يوم ٢٢ يوليو لأن الثورة قد تحدد لقيامها ما بين ٢٢ يوليو و ٥ أغسطس . . وفعلا وصلت القاهرة يوم يوم ٢٢ يوليو . . ولكنى لم أجد عبد الناصر فى انتظارى على محطـــة السكة الحـــديد كعادته ، فقلت فى نفسى لابد أن الوقت لم يحن بعد . . ولذلك توجهت إلى بيتى واصطحبت زوجتى إلى السينما ولكنى عندما عدت إلى البيت فى منتصف الليل وجدت بطاقة من عبد الناصر يطلب منى فيها أن أقابلـــه فى منزل عبد الحكيم عامر الساعة ١١ مساء . . وعلمت من البـــواب الذى سلمنى هـــذه البطاقة أن عبد الناصر قبل أن يترك البطاقة أتى إلى بيتى مرتين . . مرة فى الساعة الثالثة مساء ومرة أخرى فى العاشرة .

غيرت ملابسى وأخذت مسدسى معى وتوجهت إلى منزل عامر وطبعا لم أجده فذهبت إلى ثكنات الجيش فى العباسية . . لم أكن أعرف كلمة السر بطبيعة الحال فمنعونى من الدخول وعندما تبينوا رتبتى طلبوا منى أن ألزم بيتى . . فهذه هى الأوامر بالنسبة للضباط العظام . . ناورت وحاولت كثيراً ولكن دون فائدة — كدت أجن فكيف تقوم الثورة أمام عينى وأنا لا أشارك فيها ؟ لقد كرست كل حياتى لهذه اللحظة بالذات . . من أجلها كافحت وعانيت بل وكنت . . فى كل مرحلة من مراحل العمر . . ففيم كان كفاحى وفيم كان كيانى . . وأنا أقف موقف المتفرج مما أعطى لهذا الكيان مبرراً لوجوده ؟ ناورت وحاولت مرة أخرى وعدة مرات إلى أن التقيت بعبد الحكيم عامر وهو ينظم مرور القوات . . ناديت عليه . . لم يكن فى موقف يستطيع فيه أن يرانى ولكنه تعرف على صوتى . . عرفت منه أن القيادة قد سقطت إذ اقتحمتها قواتنا القادمة من معسكر (هاكستب) (ومعسكر هاكستب كان معسكراً أمريكياً أثناء الحرب العالمية الثانية وسمى على اسم أحد

الأمريكيين) وعلى رأسها عامر ويوسف صديق وأن رئيس الأركان حسين فريد قد حددت إقامته أما بقية القادة فكان عامر يقودهم إلى المعتقل فى مقر الكلية الحربية حينذاك .

أخذت عربتى وتوجهت إلى رئاسة الجيش حيث كان عبد الناصر الذى طلب منى أن أتصل تليفونياً بجميع وحداتنا لأرى إذا كان كل شىء يسير حسب الخطة الموضوعة . . نزلت إلى حجرة التليفونات بالطابق الأرضى . . ولكنى وجدتها خالية . . ناديت على العساكر عدة مرات ولكن لم يظهر منهم أحد – ألححت فى النداء ورحت أطمئنهم فظهروا الواحد بعد الآخر وبعد أن تعرفوا على وهدأت نفوسهم عادوا إلى عملهم تحت إشرافى وبدأنا التتميم على جميع وحدات الجيش فى سيناء والصحراء الغربية والإسكندرية والقنطرة شرق والعريش ورفح .

وحدث أن اتصل بنا حيدر باشا وزير الحربية فى ذلك الوقت يطلب توصيله بالضابط النوبتجى فأوصلته بعبد الناصر – لم أسمع المكالمة ولكنى عرفت أنه لعب دور الضابط النوبتجى وقال لحيدر باشا رداً على تساؤلاته أنه لا توجد أية تحركات فى الجيش وأن كل شىء على ما يرام . . بعد قليل اتصل حيدر باشا بنا مرة أخرى وطلب توصيله بسلاح المدرعات (السوارى) فأصدرت أمرى إلى العساكر بإهماله .

فى الساعة الثالثة صباحاً أتت جميع التمامات من جميع الوحدات فأبلغنا عبد الناصر والزملاء أعضاء مجلس قيادة الثورة . . وفى الحال اتصل عبد الناصر تليفونياً باللواء محمد نجيب فى بيته بحلمية الزيتون وأرسل عربة مدرعة أتت به إلينا فى الفجر . .

فى شرفة القيادة ونسيم الصيف الرقيق يلفح وجهى . . وقفت أتأمل الشارع الفسيح الطويل الممتد بامتداد ثكنات الجيش وقواتنا تتدفق إليه من مصر الجديدة ومنشية البكرى وتتجه إلى قلب القاهرة . . المدفعية – والمشاة – والدبابات . .

كل شىء هادىء فى ساعات الصباح المبكر ولكن الثورة قد بدأت . .
أخيراً تحقق الحلم الذى عشت به وله سنوات عمرى . . تحول إلى حقيقة . .

يزخر بها صدرى . . تستولى على كيانى . . فيتضاءل إلى جانبها هذا الكيان . .

كل شىء فى الواقع يتضاءل . . يصبح وهما . . إلا هى . . الحقيقة الوحيدة . . شامخة مهيبة تحجب الرؤية عن كل ما عداها . .

هكذا كانت فرحتى بها . . أكبر وأجمل من أن أتحملها وحدى . . ولذلك ما أن طلع صباح ٢٣ يوليو ١٩٥٢ حتى هرعت إلى الإذاعة أعلن ميلاد الثورة ليشاركنى الناس ما أنا فيه من سعادة . .

٥

العجلة تدور . . لا تتوقف لحظة . . هذا أمر لا مفر منه ، ولكن المهم أن نديرها نحن . . نتحكم فيها . . نوجهها الوجهة السليمة . . وهذا ما فعلناه ، أو على الأقل فعلنا كل ما بوسعنا لكى نحققه .

قبل أن أعلن قيام الثورة ، وفى فجر ليلة ٢٣ يوليو ، فكرنا فى الاتصال بالأمريكان لنعطيهم فكرة عن أهداف الثورة وطبيعتها . . فقد كانت صورة أمريكا فى أذهاننا مقترنة بحماية الحرية ومناصرة حركات التحرر . . وكنا نهدف من هذا الاتصال أيضاً إلى تحييد الإنجليز . . ولكن كيف نتصل ونحن لا نعرف أحداً بالسفارة الأمريكية ؟ هدانا البحث إلى ضابط مسئول عن مخابرات الطيران اسمه على صبرى ، وكان فى ذلك الوقت صديقاً للملحق العسكرى الأمريكى . . فأرسلنا فى طلبه وحملناه رسالة إلى صديقه . . الذى نقلها بدوره إلى مستر كافرى السفير الأمريكى فى ساعة مبكرة من صباح ٢٣ يوليو . .

اعتبر السفير الأمريكى كافرى هذا لفتة طيبة منا وخاصة أنه كان صديقاً شخصياً لفاروق أو هكذا كان يعتبره الملك ، وبالفعل كان اتصالنا به بداية علاقة طيبة بيننا وبينه . . حتى أنه فى الوقت الذى كان فيه الإنجليز يبذلون كل جهدهم لمعرفة من هم رجال الثورة ، كان السفير الأمريكى قد دعانا إلى العشاء فى بيته بالسفارة ، فلبينا جميعاً دعوته . . أعضاء مجلس الثورة جميعاً . .

كان من الواضح أن البلاد كانت مهيئة للثورة ، فقد فقدت الناس ثقتها فى الأحزاب ، أما بالنسبة لشعور الشعب نحو الملك والإنجليز فقد بلغ قمة

الرفض والكراهية . . ولذلك التفت الجماهير حول دبابتنا فى كل مكان ، ترقص وتغنى وهى فى قمة السعادة .

كان علينا أن نواجه مسئولياتنا وأولها تكليف وزارة بإدارة شئون البلاد — ولكن من يكون رئيسها ؟

بعد مناقشة لم تدم طويلا ، اتفقنا جميعاً على أن أصلح الموجودين هو على ماهر باشا ، فهو بعيد عن الأحزاب ثم إنه معروف بالحسم .

« يا أنور » خاطبنى جمال عبد الناصر قائلا : « دانت طول عمرك بتشتغل بالسياسة ، روح شوف لنا على ماهر وكلفه علشان يشكل الوزارة » .

لم أكن أعرف بيت على ماهر ، ولكن حدث أن إحسان عبد القدوس وهو صحفى مهد بمجلاته الصحفية لقيام الثورة وصديق عملت معه فى الصحافة كان قد أتى لزيارتى فى القيادة ، ولما كان يعرف بيت على ماهر توجهنا معاً إليه .

استقبلنا على ماهر بترحاب ، وجلسنا فى شرفة الدور الثانى حيث كانت حرارة الجو محتملة بعض الشىء . . أبلغته بتكليف مجلس قيادة الثورة له برئاسة الوزارة . . اضطرب ولم يقل شيئاً . . فهمت أنه محرج فالتكليف يأتى من الملك . . ثم إنه ليس واثقاً من أن حركتنا سيكتب لها النجاح ، قلت له إننا قد سيطرنا على الموقف تماما . . وأثناء حديثنا مرت فى الجو أربع قاذفات قنابل على ارتفاع منخفض . . فسألنى إذا كانت الطائرات تابعة لنا . . قلت « نعم ، ألم أقل لك إننا سيطرنا على كل شىء ؟ منذ الفجر والقوات المسلحة فى أيدينا . . وكذلك جميع المرافق الحيوية . . كل شىء أصبح فى أيدينا . . نحن نطلب منك أن ترأس الوزارة . . هذا أمر مجلس قيادة الثورة الذى هو صاحب الكلمة الوحيدة فى مصر الآن » .

سألنى ماذا سنصنع بالملك . . قلت له إنه حر يتصرف كما يشاء ، وعلى ضوء تصرفاته سنعامله . . فى هذه اللحظة دق جرس التليفون فى الحجرة المجاورة وتغيب على ماهر بضع دقائق ثم عاد ليقول إن الملك قد اتصل به وإنه موافق على تعيينه رئيس وزراء وسيستقبله مساء نفس اليوم بالإسكندرية . . « مبروك » قلت له وعدت إلى إخوانى بالقيادة أبلغهم ما تم .

لقد كلفنا هذا السياسى بتشكيل الوزارة بدلا من أن نشكل وزارة من العسكريين لأننا لم نعد أنفسنا لتولى الحكم وكان هدفنا هو تطهير الحياة السياسية وإقصاء الملك والأحزاب والإنجليز .

إلى هنا كنا قد كسبنا الجولة الأولى ، لكن ما زالت هناك جولات أخرى أولها انتقال قوات عسكرية من القاهرة إلى الإسكندرية فقد كان الملك يقضى الصيف بها كعادته رسمياً ، ولكن لكى يتم هذا لابد لنا من بعض الوقت ، ولم يكن أمامنا من سبيل إلى هذا سوى أن نصطنع بعض المطالب من الملك . . كسباً للوقت أولا ولكى لا يشك فى حقيقة نوايانا نحوه ثانيا . . فاتصلنا بعلى ماهر نطلب منه انتظارنا قبل سفره بعد ظهر ٢٣ يوليو لمقابلة الملك حتى يحمل مطالبنا إلى الملك .

كان مطلبنا الحقيقى الوحيد هو رحيل الملك عن البلاد . ولكن كان علينا أن نخفى هذا إلى أن يتم انتقال قواتنا إلى الإسكندرية فى هدوء . . وبناء عليه اصطنعنا بعض المطالب التافهة — ست مطالب على ما أذكر . . وذهبنا بها أنا وعبد الناصر ، إلى على ماهر وسلمناها له ، وسافر الرجل إلى الإسكندرية بعد ظهر ذلك اليوم ليقابل الملك .

وفى الليل اتصل بى على ماهر من الإسكندرية وقال إن الملك قد قبل طلباتكم كلها !.. وأسقط فى يدنا فقد كنا نعتقد أن الحوار سيبدأ . . وبناء عليه فهو يرى — أى على ماهر رئيس الوزارة الذى فرضناه على الملك — أن يحضر إلى الإسكندرية اثنان من مجلس قيادة الثورة ليسجلا اسميهما فى دفتر التشريفات . .

« شكراً للملك على الاستجابة إلى مطالب الجيش » قلت له : « سأدرس الموضوع مع زملائى »

جهزنا القوات يوم ٢٤ وفى صباح ٢٥ يوليو بدأت تتحرك . . علم الملك فأبلغ على ماهر الذى اتصل بى ليستفسر . . فقلت له إن هذه القوات قادمة إلى الإسكندرية لتأمين المرافق كما فعلنا فى القاهرة . . ولا داعى للقلق ثم إنى شخصياً سأحضر إلى الاسكندرية فى المساء لتنفيذ ما اتفقنا عليه .

عبد الناصر قال لى فى ردهة القيادة العامة للقوات المسلحة : « اسمع يا أنور

خلصنا بقى من الجدع دا بسرعة . . اديله إنذار ومشيه . . عاوزين نخلص منه بسرعة علشان تستقر الأوضـاع فى البلد » . قلت له « طيب » . أثناء حديثنا مر بنا محمـد نجيب فلما علم بموضوع الحديث طلب منا أن يذهب معى . . ووافقنا .

أخذت مع محمـد نجيب طائرة عسكرية من طراز دوف (Dove) صغيرة أوصلتنا إلى مطار النزهة بالإسكندرية ومن هناك توجهنا إلى بولكلى ، وهو مقر رئيس الوزراء الصيفى فى الاسكندرية ، حيث دخلنا على رئيس الوزراء على ماهر . . وجدته مضطرباً بسبب القوات المتجهـة إلى الاسكندرية . . طمأنت باله ، كما فعلت من قبل ، وأكدت له أن الغـرض من القوات هو تأمين المرافق والأهالى والممتلكات . . خاصة وفى الاسكندرية كثير من الأجانب ، فقد يفتعل بعضهم أشياء تعرض البلاد للخطـر وبالذات كنا نحسب حساب أى عمـل من جانب المخابرات البريطانية . .

عند خروجى وجدت مقـر رئيس الوزراء مليئاً بالصحفيين من جميع الجنسيات ، الكل يهرع إلى متسائلا عن آخر الأخبار . فقلت لهم ، لا جديد ، وسوف ألتقى برئيس الوزراء مرة ثانية فى السادسة مساء .

لا أعلم إذا كان من حسن حظى أو العكس ، أننى كنت الوحيد من بين أعضاء مجلس قيادة الثورة الذى كتبت عليه مواجهـة جميع الأحداث ، منذ إعلانى قيام الثورة إلى خروج الملك من مصر . فقد تسبب هذا فى خلق حساسيات كثيرة بينى وبين زملائى فى مجلس قيادة الثورة خاصة وأننى كنت الاسم الوحيد المعروف لدى الجمـاهير نتيجـة لنضالى السياسى الطويل وبعد أن خلقت منى الصحف والمجلات بطلا أسطورياً فى قضية مقتل أمين عثمان .

لم أنتبه إلى هذه الحساسيات فى بادىء الأمر ، فقد كنت أقوم بكل ما أفعله فى عفـوية وبفرحة من بدأ عملا كبيراً . . لا يهمه إلا أن يكتمل ، بصرف النظر عن شخصه أو أى شخص آخـر . . هكذا كنت أرى الأمور ، وأتصرف وفقاً لما أراه .. ولكنى بعد ذلك عانيت الكثير من هذه الحساسيات التى لم يكن لى يد فى إيجادها ، بل ولم أكن حتى على وعى بها ولكن هكذا شاءت الظروف .

لا أعرف ما الذى عاد بذاكرتى إلى تلك الحساسيات ، فمن المؤكد أنها لم تترك

أى أثر فى نفسى حتى عندما تبينتها وأصبحت واضحة لى كل الوضوح ، ولكن من المؤكد أيضـاً أنها أثرت على الآخـرين بما كان يمكن أن يجعل الموقف يتفجـر أكثر من مرة فيفسد العمل الجميل الذى قمنا به . . ولذلك أعتقد أننا ينبغى أن ننشىء أبناءنا على استبعـاد الذاتية فى كل ما يفعلـون لتحـل محلها الموضـوعية الخالصة .

فليس المهم أن أكون أنا أو غيرى الذى بنى البيت ، الأهم من هذا كله . . بل الشىء الوحيد المهم أن يوضع حجر أساس البيت وأن يكتمل بناؤه .

٦

بعد أن تركت على ماهر ، توجهت إلى قشلاق مصطفى باشا مقـر قيادة القوات العسكرية بالاسكندرية ، حيث كان زكريا محيى الدين . . كان جزء من قواتنا قد وصل والباقى فى الطـريق . . ولكن زكريا أخبرنى أنه لن يكون مستعداً لمحاصرة قصر رأس التين وقصور الملك الأخرى قبل أن نوجه له الإنذار إلا فى الساعة السابعة من صباح اليوم التالى ٢٦ يوليو ، إذ أن الجنـود بعد هذه الرحلة الشاقة من القاهـرة إلى الاسكندرية ، لابد لهم من تناول وجبة ساخنة ، ثم إنه لن يكتمل وصولهم قبل الساعة السادسة مساء ٢٥ يوليو ، وهو الميعاد الذى حددته لمقابلـة على ماهر ، وإبلاغـه بإنذار مجلس القيادة .

لم يكن هناك مفر من التأجيل ، فاتصلت بعلى ماهـر ، وطلبت منه تأجيل ميعـادنا إلى الساعة التاسعة صباح ٢٦ يوليو . . ولكن قبل أن يتم اللقاء كان زكريا قد حاصر بالجزء الأكبر من قواتـه مقر الملك حينذاك وهو قصر رأس التين حيث قامت معركة بين القوات وبين الحـرس الملكى . . أصيب فيها عدد من الحرس . . انزعج الملك . . فسحب قوات الحرس ، واتصل بعلى ماهـر ، كما اتصل بالسفير الأمريكى يستنجد به خوفاً من القبض عليه وقتله ، ولكن كافرى كان حريصاً فأرسل له سكرتيره الخاص خوفاً من خلق حساسية معنا ولمعرفته أن الملك مكروه وأنه قد خسر المعـركة .

فى التاسعة من صباح ٢٦ يوليو ، اتجهت ومعى اللواء محمد نجيب إلى بولكلى ،

كان فى البهو المؤدى إلى حجرة رئيس الوزراء عدد ضخم من الصحفيين والكل يتطلع إلىّ ويسأل ما الأخبار ؟ وفجأة تقدم منى رجل عرفت منه أنه مستشار السفارة الأمريكية . وسألنى وهو فى حالة انفعال لماذا حاصرت قواتنا الملك فى قصر رأس التين وكيف حدث إطلاق النار . . . إلخ . . نظرت إليه بلامبالاة ، وقلت له إن هذا ليس من شأنه فانسحب ، وتقدم منى رجل آخر . . مصرى هذه المرة . . وهمس فى أذنى « حاجة مهمة يا فندم . . الدكتور يوسف رشاد على التليفون ويلح أنه يكلمك قبل ما تدخل عند على ماهر » .

كان واضحاً أن الملك يريد أن يطمئن ، وأنه كان ما زال يعتقد أنى كصديق ليوسف رشاد يمكننى مساعدته ، فالتفت إلى الرجل وقلت :

« قل ليوسف رشاد ينتظر . . العجلة دارت ولن تعود مرة أخرى إلى الوراء » .

لقد كان الدكتور يوسف رشاد صديقا عزيزا استخدمته فى تضليل الملك ولذلك ولأن الأمر أكبر من الصداقة وهو مصلحة الوطن فقد رفضت أن أكلمه إلا بعد أن تنتهى معركة التخلص من الملك .

أما بعد خروج الملك وبعد أن أصبح كل شىء فى أيدينا فيوسف رشاد بالنسبة إلى هو الصديق الذى أحبه وأحفظ له وقوفه إلى جانبى فى ساعة الشدة ، ولذلك فإنه بعد التخلص من الملك وحين طلب منى مجلس قيادة الثورة اعتقال يوسف رشاد ، فوجىء مجلس قيادة الثورة بى وأنا أدخل الإجتماع ، أحمل فى يدى حقيبة ملابسى . . وأقول لهم « يوسف رشاد هذا الذى تتكلمون عنه أنا فعلت معه كذا وكذا وكذا . . عبد الناصر يعلم كل التفاصيل ولذلك إذا اعتقلتم يوسف رشاد فيجب أن تعتقلونى معه . . وأنا على أتم استعداد لذلك كما ترون . . فمعى حقيبة ملابسى . . فهذا أمر خلقى ومبدئى بالنسبة لى » . . ولم يعتقل يوسف رشاد وتركوه وشأنه إلى أن مات .

بعد أن دخلنا حجرة على ماهر . . لم أضيع وقتاً ففتحت الحقيبة التى فى يدى ، وأخرجت منها الإنذار الموجه من مجلس قيادة الثورة — وهو بخط يدى — إلى الملك وبدأت أقرؤه ، طلبنا فيه مغادرة الملك للأراضى المصرية فى الساعة السادسة مساء يوم ٢٦ يوليو ١٩٥٢ ، فإن لم يفعل فإن عليه أن يتحمل المسئولية كاملة .

كانت الصدمة واضحة على وجه رئيس الوزراء ، ولكنه أفاق منها بعد لحظات ، وأخذ الإنذار ليبلغه إلى الملك .

وفى العاشرة والنصف أى بعد ساعة ونصف من تسليم الإنذار اتصل بى على ماهر رئيس الوزراء من مقره فى بولكلى بعد عودته من مقابلة الملك ، وأبلغنى أن الملك قد قبل الإنذار ورجانى أن ألحق به فى مكتبه للاتفاق على صيغة التنازل . فقد كان مطلبنا فى الإنذار أن يتنازل الملك عن عرشه لابنه الأمير أحمد فؤاد .

ذهبت إلى مكتب على ماهر مع أحد الزملاء ، المرحوم جمال سالم ، حيث اطلعنا على صيغة التنازل ، وفيها أن يوضع الأمير أحمد فؤاد تحت الوصاية ، فقد كان فى ذلك الوقت طفلا صغيراً . . ووافقنا على الصيغة ، ثم أرسلناها إلى الملك . فوقعها وعلى الفور اتصلت بقائد المحروسة يخت الملك الخاص وطلبت إعداده للابحار بالملك وأسرته فى السادسة مساء على أن يعود اليخت إلى مصر بمجرد أن ينتهى من مهمته .

فى قشلاق مصطفى باشا جلست مع إخوانى فى القيادة ممن كانوا معى فى الاسكندرية ، نتلقى التهانى من مواكب رجال الأحزاب وكبار البشوات والباكوات والإقطاعيين فإذا بنا نفاجأ بطلب المقابلة من القائم بالأعمال البريطانى وفى صحبته الملحق العسكرى فى السفارة البريطانية وطبعاً كان الملحق العسكرى يرتدى زياً رسمياً على طريقة مواكب الإمبراطورية القديمة التى كانوا يرهبون بها المستعمرات ، وكان السفير البريطانى فى إجازة . . استقبلناهما . . قدم القائم بالأعمال لنا مذكرة ، فحواها أنهم باعتبارهم أصدقاء لنا ، فهم يطلبون معرفة موقف الثورة من أسرة محمد على وحقوقها التاريخية ، ويطلبون كذلك فرض حظر التجول حماية لأرواح الأجانب .

كان هذا أول اصطدام لنا مع الإنجليز بعد الثورة ، فقلت هذه فرصة لكى نلقنهم درساً كنا نتوق إليه طوال عمرنا . . التفت إلى الرجلين وقلت : —

« البند الأول ، أسرة محمد على وحقوقها التاريخية . . ما دخلكم أنتم فى هذا ؟ هل هى أسرة إنجليزية ، أمركم غريب والله ! أما عن حماية الأجانب ، فيجب

أن تعلموا أن هذه بلدنا . . وأنه منذ اليوم لا أحد مسئول عنها إلا نحن . . ونحن فقط . . أفهمتم ؟

ثم إننا نريد أن نعرف . . بأية صفة تقولون هذا الكلام ؟ هل هى صفة رسمية ؟ إذا كان الأمر كذلك فنحن نريد كلامكم مكتوباً وموجهاً من الحكومة البريطانية حتى نستطيع أن نتخذ موقفاً من حكومتكم » .

تراجع القائم بالأعمال البريطانى على الفور وقال إن الورقة التى قرأ منها الكلام ، ورقة عادية وإن حكومته لا تعرف شيئاً عنها أو عن زيارته لنا ، وإنه قد أتى إلينا كصديق فقط ، وليس بأية صفة أخرى ، ورجانى أن أعتبر الزيارة كأن لم تكن . . باختصار انسحب بكل الأساليب الناعمة التى يمكن تصورها .

بمجرد خروجه ، أبلغت إخوانى فى القيادة بالقاهرة بأن أول احتكاك لنا مع بريطانيا قد وقع فى الساعة الثانية عشرة ظهر يوم ٢٦ يوليو ، وأنه انتهى بانسحاب بريطانيا وتراجعها تراجعاً كاملا .

اتصلت بعد ذلك بالميناء ، فعرفت أن كل شىء على ما يرام بالنسبة لليخت المحروسة ، واجراءات خروج الملك على ظهرها — أصدرت أوامرى لمدفعية السواحل بعدم التعرض للمحروسة ، كما أعطيت تعليماتى لسلاح الطيران بتجهيز بعض الطائرات لتحية الملك أثناء مبارحته المياه المصرية .

وهكذا فى السادسة من مساء ٢٦ يوليو ١٩٥٢ ، غادر الملك فاروق الأراضى المصرية . . وكان فى وداعه من رجال الثورة على اليخت محمد نجيب وجمال سالم وحسين الشافعى . أما أنا فقد وقفت على ظهر البارجة إبراهيم فى الميناء ، أكبر قطعة بحرية عندنا فى ذلك الوقت . . أراقب الطائرات وهى تحوم فوق المحروسة تحيى الملك مودعة . . لفتة بسيطة — هكذا قلت لنفسى — ولكنها تحمل من معانى الثقة بالنفس والكبرياء والسماحة ما يعبر عن روح مصر عبر الزمان .

الفصل الخامس

١

الثوار يحكمون

فى مساء ٢٧ يوليو ١٩٥٢ أى بعد خروج الملك بيوم واحد دعانا عبد الناصر — مجلس قيادة الثورة — إلى الاجتماع فى القيادة . . وافتتح الاجتماع قائلا إن المرحلة الأولى من مراحل الثورة قد نجحت بخروج الملك أمس ، واليوم نحن المسئولون عن البلاد وبناء عليه يجب أن نتخذ قراراً فى أمر مهم جداً ، ولكن قبل أن نتخذ هذا القرار . . يرى من واجبه أن يتنحى عن رئاسة الهيئة التأسيسية ، فقد انتهت هذه الهيئة بنجاح الثورة ونحن من اليوم اسمنا مجلس قيادة الثورة .

لم أرى أى معنى فى كلام عبد الناصر ، فلماذا يستقيل ؟ وما الفرق بين رئيس الهيئة التأسيسية ومجلس قيادة الثورة ؟ لقد نجحت الثورة فماذا يهم بعد ذلك ، وما الداعى إلى تغيير الأوضاع والمسميات ؟

كان من الصعب على فى تلك المرحلة البعيدة إدراك ما يهدف إليه عبد الناصر.. فبالنسبة إلىّ — بنجاح الثورة ودخولى مجلس قيادة الثورة — انتهى كل ما كنت أطمع فيه منذ أن كنت أستمع إلى موال زهران فوق سطح الفرن فى ميت أبو الكوم وأثناء الاعتقال وبعد الفصل من القوات المسلحة وخلال سنوات السجن والجوع والتشريد . . عمر جيل بأكمله من الكفاح والحرمان فى سبيل تحقيق رسالة ، لا أغالى إذا قلت إنه بدونها لم يكن فى الإمكان أن يكون للحياة أى معنى . .

والآن وقد تحققت الرسالة وشاركت أنا بالفعل فى تحقيقها فأعلنت ميلاد الثورة وأخرجت الملك من البلاد ، وواجهت بريطانيا التى كانت تمثل عدو الشعب رقم ١ ، وعلمته درساً كنت أتوق إليه من زمن ، عندما أتى إلينا القائم بالأعمال البريطانى ومعه الملحق العسكرى فى قشلاق مصطفى باشا بالاسكندرية فأعلنت

بكل وضوح وعزم وتصميم أن لا إرادة بعد اليوم إلا لمصر ، ومصر وحدها . . فماذا أريد بعد ذلك اليوم ؟ وأى شيء يهم ؟ حتى ولو لم أدخل مجلس القيادة وحتى لو لم يكن لى دور ملموس فى قيام الثورة . . يكفينى أن الثورة قد قامت ونجحت فتحقق بذلك حلم حياتى . .

كانت هذه حقيقة مشاعرى منذ البداية ، فالثورة قد قامت ولا يمكن أن يكون قيامها إلا لمصلحة مصر ولتحقيق قيم الخير والحق التى كنت أتوق إليها منذ الصبا . . فلتسر كما تشاء وليتخذ قادتها من القرارات ما يرون اتخاذه ، فالحصيلة فى النهاية هى خير مصر والمصريين .

ولذلك دهشت عندما تقدم عبد الناصر باقتراحه بالتنحى واعترضت عليه ، ولكنه ألح وصمم على أن يوضع اقتراحه موضع التنفيذ . وفعلا أعدنا انتخابه بالاجماع رئيساً لمجلس قيادة الثورة . . لم يكن عهدى بعبد الناصر أن يقول أو يفعل أى شيء اعتباطاً ، فلماذا فعل ما فعل ؟ لم يكن عبد الناصر بالرجل الذى يمكن وصفه بالمثالية . . بل كان فى الحقيقة عملياً إلى أقصى حد . . كثير الشك . . به مرارة تجعله يلتزم الحذر فى كل خطواته . . فلا بد من سبب لاصراره على تنحيه عن الرئاسة ، وإعادة انتخابه رئيسا لمجلس قيادة الثورة ، وهنا تذكرت بعض الصراعات التى قامت بينه وبين بعض أعضاء الهيئة التأسيسية . . صراعات على السلطة بطبيعة الحال . . ولكن بعد أن قامت الثورة لماذا الصراع ؟ سألت نفسى هذا السؤال أكثر من مرة إلى أن اهتديت لا إلى الحل – بل إلى طريق لإدراك ما يدور حولى . . لقد جاءت الثورة بالنسبة إلى بصورة تختلف اختلافاً كلياً عما حدث لهم جميعاً . . فالثورة بالنسبة إلىّ ومعذرة للتكرار ، كانت ثمرة كفاح عمر بأكمله ، ولذلك فبحكم ما أدين به من قيم ومثل ، ما أن نجحت الثورة حتى أصبحت لا أريد أى شيء ، وأصبح أى شيء فى نظرى يساوى أى شيء آخر . . ولذلك كنت دائماً أقف بعيداً عن أية معركة تدور بينهم ، وكان تفسيرهم لسلوكى هذا أنى عديم الاهتمام والمبالاة بكل شيء ، غير قادر على البت فى الأمور . . ولم يخطر على بالهم أننى أبتعد ترفعاً لا عجزاً . . وامتلاء" بذاتى لا خواء ولا خوفاً . . بل حرصا على الثورة . . وحرصاً على أن تظل المجموعة مترابطة لأن هذا لابد أن ينعكس على البلاد . .

وتعالياً على صغائر الأمور وفى مقدمتها السلطة . . واقتناعا منى بأننا ما دمنا قد صنعنا الثورة فلا شيء يهم بعد ذلك . . أما هم أى زملائى من أعضاء مجلس قيادة الثورة فمجموعة من الضباط الشباب كانوا منذ ثلاثة أيام فقط يجلسون إلى مكاتبهم فى القاهرة كما يجلس الكثيرون غيرهم من أفراد القوات المسلحة ، لم يعرفوا الجوع أو التشرد ، لم يتعرضوا للسجن والاعتقال . . لم يعانوا مرارة الأمل واللهفة والإحباط . . ثم بعد ثلاثة أيام من إعلان الثورة وجدوا أنفسهم ينتقلون فجأة من مكاتبهم ومراكزهم فى الجيش إلى مركز السيادة ، فهم وحدهم يحكمون مصر بلا منازع ولا منافس ، ومن ثم كان الصراع على السلطة ، وهو الشيء الذى لم يخطر ببالى فى أى وقت من الأوقات . . ولذلك تجد كل أفعالى طوال مدة قيام مجلس قيادة الثورة ، وبعد ذلك ، بمنأى عن هذا النزاع ، أى الصراع أو الرغبة فى السلطة أو المزاحمة على المناصب .

لو لم أر هذا بنفسى لما صدقته . . ولكن لم يكن الأمر كذلك مع عبد الناصر ، فقد كان على وعى كامل بالصراع على السلطة ، وكان يعد لكل أمر عدته ، فبعد أن اطمأن إلى انتخابنا له رئيساً لمجلس قيادة الثورة ، طرح علينا أمراً وصفه بأنه فى غاية الأهمية ، وهو الاختيار بين حكم البلاد عن طريق الديمقراطية أو طريق الديكتاتورية .

ما هذا الذى يفعله عبد الناصر ؟ هل فقد عقله أم ماذا ؟ قلت فى نفسى . . فقد كنت على ثقة من أننا جميعاً بل والشعب الذى أيد الثورة بهدير رهيب وأولنا عبد الناصر قد كفرنا بالديمقراطية نتيجة لما صنعته بنا وبالبلاد ديمقراطية الأحزاب وصراعاتها من أجل السلطة وخضوعها للملك وللإنجليز . . ثم إننا جميعاً ضباط ، وقد تعودنا فى العسكرية سرعة الإنجاز . . هذا إلى جانب الهدف الرئيسى الذى قامت الثورة من أجله وهو إصلاح أحوال البلاد فى أسرع وقت .

طرح الموضوع للمناقشة ، وللحقيقة والتاريخ أصر جمال عبد الناصر على رفض طريق الديكتاتورية لأنه كما وصفه هو طريق الدم ، والعمل الذى يبدأ بدم لابد أن ينتهى بدم . . وقال إنه يفضل ألف مرة إعادة البرلمان الحزبى القديم وتسليم مقاليد الأمور للأحزاب برغم الرفض المطلق لها من

جانب الشعب ، على أن نلجأ إلى أسلوب الديكتاتورية . . فكيف نخرج البلاد من ديكتاتورية الأحزاب لندخلها فى ديكتاتوريتنا ؟

هذا إلى أن الأحزاب كانت تخاف من الملك ومن الإنجليز . . أما نحن فلنا الآن مطلق السيادة ، ولن نخاف من أحد . .

تكلم الجميع وربما كنت أنا أكثرهم حماساً ، فقد كان دفاعى من منطلق الحرص على مصلحة مصر ، فالشىء الذى ننجزه بالطريق الديمقراطى فى سنة يمكن انجازه عن طريق الديكتاتورية فى يوم . . ولم يخطر ببالى مطلقاً فى تلك اللحظات أن المسألة كلها ليست إلا اختياراً للقوة من جانب عبد الناصر فهو يهدف فى بداية رئاسته للمجلس إلى أن يثبت للجميع أنه يستطيع أن يتخذ القرار .

احتدم الصراع وشعرت أننا سوف نواجه انقساماً يضرب وحدتنا فتدخلت ، وبدأت ألخص الكلام الذى قيل بهدف تمييع الموقف ، وإذا بعبد الناصر يقاطعنى بحدة وعنف قائلا : —

— أنت قاعد تلخص كلام الأعضاء وتتكلم كلاماً لا معنى له . . وتتصرف كأنك رئيس مجلس قيادة الثورة . . ما هذا الذى تفعله ؟

قلت له مندهشاً : « يا جمال أنا آسف . . أنا بأحاول أجد حل وسط . . أنا لا رئيس مجلس قيادة ثورة ولا شىء من هذا القبيل . . »

وأخذت الأصوات فكانت النتيجة ٧ ضد واحد هو عبد الناصر . . سبعة أصوات منا مع الديكتاتورية وواحد للديمقراطية هو عبد الناصر .

عندها وقف محتجاً وقال فى حدة : —

« أنا لا أستطيع أن أقبل هذا القرار الذى هو قرار الديكتاتورية . . هذا طريق خطر على الثورة وعلى البلاد ، وأنا مستقيل من جميع مناصبى » .

وبرغم إعادة فتح باب المناقشة للمرة الثانية وأخذ الأصوات فى نهايتها فإن النتيجة لم تتغير سبعة للديكتاتورية وواحد للديمقراطية هو عبد الناصر وجمع جمال أوراقه وأعلن استقالته من جميع مناصبه متمنياً لنا التوفيق ولكنه كما قال

طريق خطر على البلاد سيثبت لنا خطوءه وغادر القاعة إلى منزله فى الساعة الثانية من صباح ٢٨ يوليو ١٩٥٢ وأسقط فى يدنا جميعاً بعد انصراف جمال ونحن حول منضدة الاجتماع ورانت فترة من الصمت . .

ثم بدأت المناقشة هذه المرة بدون جمال وتغلبت روح الوحدة على روح الصراع والإنقسام خاصة وأن جمال كان الدينامو الذى لم نتصور أبداً أن يبدأ العمل فى إعادة البناء بدونه واتخذنا فى نهاية المناقشة قراراً بأن يعود جمال ولنا فيه كل الثقة وذهب إليه فى منزله اثنان منا ليبلغوه . . وفى الفجر عاد جمال منتصراً . . بتفويض منا . . وكان قراراً تاريخياً مهما اختلفت الآراء عليه .

٢

كان أول قرار اتخذناه لتطبيق الديمقراطية هو مطالبة الأحزاب بتطهير نفسها ، وأصدر مجلس الثورة قانون تنظيم الأحزاب ثم طلبنا من الأحزاب القديمة أن توافق على قانون الإصلاح الزراعى الذى هو مبدأ أساسى من مبادىء الثورة . . فبه وحده سوف يتغير هيكل المجتمع . . وهذا ما كنا نبغيه . .

وأصدر مجلس الثورة أيضاً فى نفس الوقت قراراً بإجراء الانتخابات العامة فى فبراير ١٩٥٣ أى بعد ستة أشهر فقط من قيام الثورة وحينما هاجم على ماهر — رئيس وزراء الثورة الذى فرضناه على الملك — عندما هاجم الأحزاب فى بيان لم يذكر فيه تاريخ الإنتخابات الذى حددناه فى مجلس الثورة أى فبراير سنة ١٩٥٣ أوقفنا مطابع الصحف وأصدرنا بياناً من مجلس الثورة يؤكد التزامنا باجراء الانتخابات الديمقراطية فى فبراير سنة ١٩٥٣ .

وكانت صفعة لرئيس الوزراء .

بالنسبة لتطهير الأحزاب فقد استغلت الأحزاب الفرصة فقام الأقوياء فى كل حزب بطرد الضعفاء ، واعتبروا أن هذا هو التطهير المطلوب . . كانت طبعاً مسألة شكلية بحتة . . أما بالنسبة لقانون الإصلاح الزراعى . .

فقد رفضته الأحزاب جميعاً كما رفضه على ماهر رئيس الوزراء فى أول حكومة للثورة .

لم يكن هناك مفر من اتخاذ إجراءات جديدة وخاصة بعد أن صدر قانون تنظيم الأحـزاب . . ماذا كانت النتيجة ؟ تقدمت الأحزاب القديمة طبعاً وتقـدم معهـا ٢١ طلب بتكوين أحزاب جديدة . . فى نفس الوقت وبعد ثلاثة أسابيع من قيـام الثورة كانت الصراعات داخل مجلس القيـادة قد بلغت حداً يحتم ضم عناصر جديدة ومحايدة إلى المجلس عسى أن يخفف ذلك من حدة الصراع . . وفعلا ضممنا إلى المجلس خمسة أعضاء كان على رأسهم محمـد نجيب الذى عهدنا إليه برئاسة مجلس قيادة الثورة كطلب جمـال نظـراً لأنه كان أكبرنا سناً فأصبح أعضاء المجلس ١٤ وهو أكبر رقم وصل إليه .

كان من الواضح أننا لم نعد أنفسنا عند القيام بالثورة لتولى الحكم — كانت أقصى أمانينا أن تنجح ثورتنا وأن تطهـر الأحزاب نفسها وأن تقـوم فى مصر حياة ديمقراطية نظيفة وشريفة وأن يتولى زمام البلد طاقم جديد يختلف عن الطاقم القديم فى أسلوب العمل وفى نظـرته إلى الأشياء ، أما نحن كجيش فنجلس فى الخلفية ، نراقب سير الأمور إلى أن تصـل البلاد إلى بر الأمان وتوصل الحرية والاستقلال . . فلا ملك ولا مستعمـر بعـد الآن . .

لم تكن الوزارات مطمعنا فنحن لم نعد أنفسنا لهـا بل ولم نعـد برنامج حكم معين ، ولكن رغم هذا كله حدث أننا فى أحد اجتماعاتنـا قلنا لقد آن الأوان لكى نوزع أنفسنا لمتابعـة أعمـال الوزارات بمعنى أن يصبح كل واحـد منا مسئولا عن وزارة أو مجمـوعة وزارات لكى نعطى للعمل دفعة جديدة . . كل واحد بدأ يتكلم ويستعرض قدراته بالنسبة لهذه الوزارة أو تلك . . إلى أن أتى دورى فقلت : — « لا أعتقد أنى بحاجة إلى وزارة — فأنا لا أفهم إلا فى السياسة . . »

وسألنى صلاح سالم متهكماً : —

وما هى السياسة التى تفهم فيها ؟

قلت : — « أنا أقصد بالسياسة . . كيف نوصل مصر من أقصر وأسرع طريق إلى أمانينا . . وأن نكتب لمصر تاريخاً جـديداً . . هذه هى السياسة فى عرفى » .

ما أن قلت هذا ، حتى خيل إلى أنى ارتكبت جريمة ، فقد هاجمنى صلاح سالم على الفـور واشترك معه بعض الحاضرين وعلى رأسهم عبد الناصر . . لم يهمنى هجـوم صلاح سالم فقد كان معـروفاً بحب الظهور والتهجم ، ولكن هالنى أن ينضم إليه عبد الناصر وهو من كان يربطنى به رباط من الاحترام المتبادل منذ أن كان عمـرنا تسعة عشر عاماً . . لم أجد مبرراً لهذا الهجوم المفاجئ ، فقد فعلت ما فى وسعى منذ قيام الثورة وقبل ذلك للحفـاظ على عبد الناصر مهما كلفنى الأمـر . . فيم إذن هذا الهجوم والتهكم والسخرية وكأننى دخيل يريد أن يسلبهم حقوقهم أو غريب يتكلم لغة غير لغتهم . . ؟

حزنت لا لنفسى . . ولكن لعبد الناصر ولهم . . ومنذ تلك اللحظـة انسحبت إلى نافـذة عالية أطل منها عليهم وأضحك على صراعاتهم . . ففيم يتصارعون ؟ سألت نفسى أكثر من مرة إلى أن تكشف لى أننا لسنا إلا بشر ، وبشر من المرتبة العادية . . ولكن هذا الاكتشاف لم يمنعنى من أن أفضل أى واحد فيهم على نفسى لا لشىء إلا انطلاقا من مفهوم الصداقة ومفهوم العمل الذى قمنا به مجتمعين من أجل الملايين . . ولكن مهما حاولت أن أذيب ذاتى فى ذاتهم مهتدياً بالقيم والمثل العليا التى نشأت عليها . . ظل السؤال حائراً فى رأسى . . فيم الهجـوم على ومن عبد الناصر بالذات ؟ وفيم ارتياح الآخـرين لهذا الهجوم ؟ لم أستطع أن أجد الإجابة فى ذلك الوقت ولو أنى أدركتها فيما بعـد . . فعندما قامت الثورة وفى أيامهـا الأولى لم يكن الشعب يعرف أحد من رجالهـا سوى أنور السادات بطل قضية أمين عثمـان كما صورته الصحف ووسائل الإعلام وحكت قصة نضاله الوطنى الطـويل . .

ولكن هل كانت مراحل الكفاح التى مررت بها جريمة استحق عليها أن يعاقبنى عبد الناصر وبعض الآخـرين عليها ؟

لم أكن قد عرفت بعـد كل جوانب شخصية عبد الناصر . . فقد كان حتى

له يحجب الحقيقة عن عينى ، ثم إنه من المعتاد أن نحكم على غيرنا بما جبلنا عليه من طبائع وخصال . .

أنا مثلا أثق فى كل إنسان إلى أن يثبت العكس ، أما عبد الناصر فقد اكتشفت فيما بعد أنه يشك فى كل إنسان وفى كل شىء إلى أن يثبت العكس وفى ظروف حياتنا المعقدة هذه قليلا ما يثبت العكس . .

أنا أكتب هذا الكلام الآن بعد تجارب سنوات وسنوات ، أما فى تلك المرحلة المبكرة فلم يكن من السهل على أن أتقبل أو أتصور أن يشك جمال فى وأنا الوحيد الذى لم يدخل معه معركة . . أو يطلب شيئا لنفسه . . ولذلك فبعد أن حدث ما حدث وفى الأيام الأولى للثورة دخلت برجاً بعيداً وعشت فيه . . أراقبهم عن بعد فإذا قام خلاف بينهم أحاول الاصلاح ، وإذا لم يكن هناك خلاف فكل شىء يتساوى عندى مع أى شىء — حاولوا مراراً أن يعرفوا سر سلوكى هذا . . قالوا إنه ضعف وعدم معرفة بالأمور أو عدم اهتمام ، ولكنهم لم يتوصلوا أبداً إلى الحقيقة .

لقد اكتشفت ذاتى داخل الزنزانة رقم ٥٤ فى سجن مصر العمومى ومن يومها عرفت أن نفسى أكبر من كل المراكز والمناصب والألقاب . . ففيم الدهشة إذن لابتعادى عن هذه الصراعات البشرية ؟ .

إن ليلة ٢٢ — ٢٣ يوليو قد حققت كل آمالى . . فوجدت فيها نفسى . . وإذا ما وجد الإنسان نفسه فماذا يريد من الحياة بعد ذلك ؟

٣

فى ٩ سبتمبر سنة ١٩٥٢ ، كانت الصورة قد اتضحت أمامنا . . فقانون الإصلاح الزراعى مرفوض من رئيس وزراء الثورة على ماهر ومن الأحزاب جميعاً . . وتطهير الأحزاب لم يكن تطهيراً إلا بالاسم فقط . . يجب إذن أن نتولى السلطة . . وهذا فعلا ما كان . . فذهبت مع عبد الناصر وجمال سالم إلى على ماهر فى مكتبه فى رئاسة مجلس الوزراء وقلنا له شكراً . . لقد أديت مهمتك على

أحسن وجه . . فقدم استقالته ، وعينا اللواء محمد نجيب رئيساً للوزارة على أن يكون الوزراء كلهم من المدنيين . .

هكذا كان بدء اتجاهنا نحو السلطة . .

كان الأصل فى تعيين محمد نجيب رئيساً لمجلس قيادة الثورة أن وجوده سوف يضع حداً للصراعات داخل المجلس نظراً لأننا جميعاً من أعمار متقاربة . . أما هو فيكبرنا بكثير . . ولكن للأسف فإن الذى حدث هو العكس . . فقد بدأت صراعات جديدة دخلها نجيب . . وفوجئت أنا بحملة اشاعات ضدى يقودها محمد نجيب وصلاح سالم كما أخبرنى عبد الناصر فى ذلك الوقت . .

لم يكن هذا بالأمر الذى يهمنى أو يشغل بالى ، ولكن المسائل تطورت بعد ستة شهور فقط من قيام الثورة أى ديسمبر سنة ١٩٥٢ ، فإذا بنا نفاجأ باتصال بعض رجال الأحزاب ببعض ضباط القوات المسلحة وكان تفسير هذا الأمر بسيطاً . . وهو أن الأحزاب التى كانت تتصارع على الحكم بالتقرب إلى الملك تارة وإلى الإنجليز تارة أخرى أو إلى الاثنين تارة ثالثة وجدت فجأة أن الثورة فى الأيام الثلاثة الأولى لها قد عزلت الملك وعزلت أيضاً فى نفس الوقت نفوذ بريطانيا الإمبراطورية العتيدة وأصبحت سلطة السيادة فى مجلس قيادة الثورة الذى يتكون من ضباط مصريين فى القوات المسلحة المصرية ، أو بمعنى آخر أصبحت القوات المسلحة هى مصدر السلطات فلماذا لا تحاول الاتصال بها كما كان الحال مع الملك ومع الإنجليز . ؟

وعندما عرفنا ذلك فى مجلس قيادة الثورة كان لابد من مواجهة الوضع الجديد لكى نفهم السياسيين والأحزاب أن القوات المسلحة ليست لحزب ولا لفئة معينة ولا لطائفة وإنما هى للوطن . . وكان لابد من اتخاذ إجراء فورى لتأكيد هذا المعنى . .

وضعنا السياسيين فى المعتقل ، أما الضباط الذين حاولوا التآمر مع هؤلاء السياسيين من الأحزاب فحوكموا محاكمة عسكرية ، وفى ١٦ يناير ١٩٥٣ ، ألغينا الأحزاب ، وصدر قرار مجلس الثورة بالغاء الأحزاب ووضع السلطة

التنفيذية والتشريعية فى مجلس الثورة لمدة ثلاث سنوات تنتهى فى ١٦ يناير سنة ١٩٥٦ .

هنا بدأ الإخوان المسلمين الصراع المفتوح . . فصدر قرار من مجلس الثورة بحل الجماعة ، ولكنهم ظلوا على نشاطهم إلى مارس ٥٤ ثم إلى أكتوبر ٥٤ عندما حاولوا قتل جمال عبد الناصر فى ميدان المنشية بالاسكندرية . . المهم أن الأحزاب كلها ألغيت وأخذنا سلطة السيادة ولكنا وعدنا بالدستور فى نهاية الثلاث سنوات . . وقد كان . . فى ١٦ يناير سنة ٥٦ أعلنا الدستور المؤقت . . ولا أعرف لماذا اخترنا أن يكون مؤقتاً .

وعندما تعود بى ذاكرتى إلى تلك الأيام البعيدة ، أرى نفسى وأنا أكتب استقالتى من مجلس قيادة الثورة . . وأطلب جوازات سفر لى ولزوجتى لكى نعيش فى لبنان . . لماذا لبنان ؟ لأنى كنت أسمع أنها بلاد جميلة . . غنية بمناظرها الطبيعية ، وأنا أحب الجمال . . ويسعدنى أن أعيش مع الطبيعة . . أما سبب استقالتى فقد كان محمد نجيب . . والحرب المستمرة التى أخذ يشنها على سراً وعلناً . . وبدون مبرر من جانبى على الأقل . .

وقد عرفت فيما بعد من ضباط المخابرات الذين اشتركوا فى الحملة ضدى أن السبب كان ما سبق أن حكيته عن معرفة الشعب لى بسبب كفاحى القديم وتصوير ذلك لنجيب على أنه محاولة منى للتسلق عليه وقد أزكى ذلك عنده عضو أو أكثر كما اعترف هؤلاء الضباط لى أمام جمال عبد الناصر بعد ذلك .

أنا أكره الصراعات ولا أرى فى الحياة شيئاً يستحق أن أتصارع عليه مع زملائى . . ولكن أن يجمعنا مجلس الثورة معاً أصبح بالنسبة لى أمراً لا يطاق . . فى العمل ؟

لقد عينا محمد نجيب رئيساً لمجلس الوزراء كما سبق أن قلت وتنازل له جمال بعد انتخابه كما أسلفت وقدمناه للناس كرئيس لمجلس قيادة الثورة ، فلا سبيل إلى التراجع وخاصة فى تلك المرحلة المتقدمة . . ولذلك فضلت أن انسحب أنا وأعيش فى هدوء . . اتصل بى عبد الحكيم عامر ثم عبد الناصر الذى أقنعنى بسحب الاستقالة . ولكن الأمور لم تقف عند هذا الحد .

نفس الشىء للأسف حدث لرشاد مهنى الذى كان من ضباط المدفعية وعين أحد الأوصياء على الأمير أحمد فؤاد ، فقد تخيل هو الآخر أنه مادام وصياً على العرش فهو صاحب السيادة . . ولقد انضم هو الآخر إلى عملية الصراع على السلطة وأبلغنى جمال أنه عندما قابله للتفاهم معه اشترط خروجى من مجلس الثورة كشرط أساسى قبل أى تفاهم ومرة أخرى تعجبت أنا الذى لم أزاحم أحداً أو أطلب منصباً ولا دخلت صراعاً كيف تغطى بصائر الناس غشاوة إلى الحد الذى يصبح الوهم فيه حقيقة والحقيقة وهماً ؟ ثم ما هو السبيل إلى إعادة الأمور إلى نصابها السليم ؟ كان لابد من أن نفعل شيئاً وشيئاً حاسماً لا رجعة فيه . . وهذا ما فعله عبد الناصر حين دعا مجلس الثورة للانعقاد ، وفى يوم واحد من شهر مارس سنة ١٩٥٣ رقى عبد لحكيم عامر من رتبة صاغ إلى رتبة لواء وعين قائداً عاماً للقوات المسلحة وفى نفس اليوم أعلنا الجمهورية فتخلصنا من مجلس الوصاية وصادرنا أموال العائلة المالكة وقررنا تعيين محمد نجيب رئيسا للجمهورية بعد أن أرغم على ترك القيادة العامة للقوات المسلحة فى ذلك اليوم كطلب مجلس قيادة الثورة . .

ودخل عبد الناصر الوزارة كنائب رئيس وزراء ووزير داخلية ، ولإنهاء كل الصراعات وخاصة بعد تعيين عامر قائداً عاماً للقوات المسلحة دخل بعضنا الوزارات .

هذا كله مجتمعاً كان الحدث الأول المهم فى عام ١٩٥٣ وفيه نرى أنه فى أقل من سنة من بداية الثورة ، اتضح الصراع بين محمد نجيب وبقية الأعضاء ، كما اتضحت حقيقة لم أكن أنا على الأقل أدركها من قبل . . وهى أن للحكم بريقاً يمكن أن يخلب لب الثوا ر ويلعب برؤوسهم . . هذا أمر بشرى على ما أعتقد ولكن أحمد الله أن هذا لم يكن شأنى فالإنسان عندما يكون فى دخيلة نفسه أكبر من أى شىء يصبح فى غنى عن كل شىء .

٤

أحـــداث سنة ١٩٥٣ كثيرة ومتنوعة فهى وليدة الدفعـــة الثورية التى هى بطبيعتها شابة فتية . . أذكر من هذه الأحـــداث أننا طلبنا السلاح من أمريكا ، وكان السفير الأمريكى مستر كافرى صديقاً لنا – فرحب واتصل ببلاده على الفور . . وجاءنا الرد بأن أمريكا ترحب بأن تعقد معنا اتفاقية الأمن المتبادل

Mutual Security Pact

وهى صيغة ابتكرها الأمريكان بعد الحرب العالمية الثانية ، تمكنهم من ملء الفراغ كما كانوا يسمونه (Vacuum) أى أن يحلوا محـــل إنجلترا وفرنسا فى البلاد التى كانت تحت نفـــوذ هذين البلدين . .

قرأنا الصيغة فإذا بها تنص على أن أمريكا على استعداد لإمدادنا بالسلاح بدون مقـــابل ولكن بشرط أن يصاحب السلاح عدد من الخبراء الأمريكان وألا يستعمل السلاح ضد أى حليف لأمريكا . .

رددنا الورقـــة للسفير الأمريكى وقلت له : شكراً . . نحن نريد أن نشترى السلاح بحر مالنا ولا نريده مجاناً ونرفض أيضاً اتفاق الأمن المتبـــادل لأنه ضد استقلالنا الذى نحرص عليه كالحياة تماماً .

وسايرتنا أمريكا أول الأمر ولكن من غير حماس ووافقت على استقبال بعثة عسكرية فى واشنطون للتفاوض على شراء ما نريد من سلاح .

وكان جارحاً لنا جداً أن نرى الأمريكان وقد تجاهلوا البعثة تماماً بعد وصولها إلى واشنطون بما لا يدع مجالا للشك فى أنهم لا يريدون بيع السلاح لنا وأن الأمر لم يكن إلا مناورة فقط .

حاول الأمريكان بعـــد ذلك أن يقنعـــونا بالانضمام إلى بعض الأحلاف التى بدأها جون فوستر دالاس فيما كان يسمى بسياسة احتواء الإتحاد السوفييتى بتطـــويقه بأحـــلاف وقواعد وهى السياسة التى أطلق عليها Containment والتى بدأت بحلف الأطلنطى وامتدت إلى جنوب شرق آسيا ثم ربط حلف بغداد فيما بعـــد بين الإثنين . ولكننا أفهمناهم بصراحة ووضوح أن إرادتنا قد

تحررت منذ قيام الثورة وأصبحت مصرية وحرة ١٠٠٪ ولذلك فلا مجال للكلام عن قاعـــدة أو الانضمـــام إلى أحلاف .

كانت ميزانية مصر فى ذلك الوقت ٢٠٠ مليون جنيه وهى اليوم ٥٠٠٠ مليون ، ومع ذلك فقـــد كان وضعنا الإقتصادى لا بأس به . . فبعد رفض الأمريكان لنا ، اتصلنا بالسوفييت فى أوائل عام ١٩٥٣ وكان ستالين فى مرض الموت وقتذاك ولكنهم رفضوا هم أيضاً بدورهم ، لأن مبادىء ستالين كانت تمنعه من إعطاء السلاح إلا للدول الشيوعية ، ولكن حـــدث أن التقى شواين لاى بعبد الناصر فى مؤتمر باندونج فى ربيع ١٩٥٥ فتوسط لدى السوفييت ، وبناء على توصيته عقـــدت أول صفقة سلاح بيننا وبين السوفييت ، وتشيكوسلوفاكيا فى سبتمبر ١٩٥٥ .

أذكر بهذه المناسبة أنه لمـــا مات عبد الناصر أرسلت أنا مبعوثين إلى جميـــع الدول . . كان مبعوثنا إلى الصين رئيس مجلس الشعب الذى بادره شواين لاى بالسؤال : –

« تعرف مين اللى قتل عبد الناصر وهو عنده ٥٢ سنة ؟ »

واحتار رئيس مجلس الشعب . . ولكن شواين لاى قال رداً على سؤاله :

– السوفييت .

وهذا صحيح على ما أعتقـــد . . فعبد الناصر كان يحب رقعـــة واسعة للمنـــاورة . . وعندما يجدها فهو مناور ممتاز ، ولكن الذى حدث أنه قطـــع علاقاته بأمريكا والغـــرب ، والعرب وإيران – ولم يبق له إلا السوفييت . . وهذا لم يعطـــه حرية المناورة ، خاصة وأن السوفييت عاملـــوه معاملة أبعد ما تكون عن الكرم أو الكرامة . . وقد كان لهذه المعاملـــة أثرها على صحته . . فقد كانت دون شك من أهم العوامل التى جعلت حالته النفسية سيئة مما ساعد على اصابته بمرض القلب ومرض السكر وهما اللذان أجهـــزا عليه . . طبعاً الأعمـــار بيد الله . . ولكن شواين لاى كان على حق .

ولقد كان تعليق عبد الناصر لى شخصياً يوم أن عاد من رحلـــة استغرقت ٢١ يوماً فى الإتحاد السوفييتى قبل موته بشهرين وكنت أسأله عما تم فقال لى بالحرف

الواحد وبالإنجليزية Hopeless case وأخذ يشرح لى كيف أنه من شدة ضيقه أعلن القادة السوفييت فى نهاية مفاوضات فاشلة أنه سيعلن قبوله فى الحال لمبادرة روجرز التى كانت قد أعلنت من جانب أمريكا قبل ذلك بشهر ولم يعلن عبد الناصر موقفه منها إلا على مائدة الاجتماع فى الكرملين فى يوليه سنة ١٩٧٠ وقال لى عبد الناصر أن بريجنيف انفعل لهذا الإعلان وقال لعبد الناصر بغضب هل معنى هذا أنك تقبل حلا أمريكياً فرد عليه عبد الناصر « بعدما فعلتموه معى فإنى أقبل حلا حتى من الشيطان » .

٥

منعاً للتعارض والازدواج بين مجلس قيادة الثورة وبين مجلس الوزراء ، شكلنا ما أسميناه بالمؤتمر المشترك من الاثنين للبت فى الأمور . . وقد تبدو هذه صورة مثالية ، ولكنها فى الواقع لم تكن كذلك فقد كان العدد كبيراً وأخذت المناقشات تطول وتتشعب . . كل واحد من المجتمعين كان يستعرض عضلاته وفى أغلب الأحيان كان الخلاف يتسع فلا يصل إلى قرارات . وهكذا كانت تتعطل الأمور فى وقت كنا فيه بحاجة إلى كل يوم وكل ساعة لانجاز ما لدينا من مشروعات تهدف إلى اصلاح حال البلاد والانتقال بها إلى مرحلة أكثر تقدماً . وقد دعانى هذا الوضع الغريب أن أطلب الكلمة فى إحدى الاجتماعات وأشير صراحة إلى المناورات المستديمة التى أصبحت جزءاً لا يتجزأ من المؤتمر المشترك ، والتى تعطل العمل مما يستلزم سرعة تغيير هذا الاسلوب المعوق والبحث عن أسلوب آخر .

كانت حصيلة أراضى العائلة المالكة المصادرة ٧٠ مليون جنيه . . أنفقناها على بناء الوحدات المجمعة والمستشفيات والمدارس فى ريف مصر بحيث كنا نبنى ٣ مدارس كل يومين — وأذكر أننا بنينا فى سنة واحدة قدر ما بنى فى مصر من مدارس خلال ٢٠ سنة .

أنشأنا عند ذاك مجلسين ، أحدهما للانتاج والآخر للخدمات . . أما مجلس الإنتاج فقد بدأ عمله بمشروع (كيما) للسماد . . وعندما تعود بى الذاكرة إلى

تلك الأيام . . أرى أمام عينى المهندس اليونانى الأشعث الشعر ، الزائغ العينين الذى كان يتردد علينا فى القيادة بالعباسية فى أى وقت وبدون سابق ميعاد . . كان اسمه على ما أذكر (دانينوس) ، وكان فى كل مرة يقتحم مقرنا يتفوه بعبارات محمومة . . فحواها دائماً فكرة واحدة . . وهى أن النيل عند منطقة أسوان يجب أن يغلق بسد عال .

كان تمسكه بالفكرة وإلحاحه عليها — والبريق الذى يشع من عينيه يوحى إلينا بأنه مجنون دون شك ، ولكن التعبير الذى كان يعلو وجهه دائما لم يدع مجالا للشك بأنه مؤمن بفكرته إيمان العابد بالله عز وجل . . مما دعانا إلى أن نكلف مستشار المجلس المرحوم المهندس محمود يونس بدراستها . . وقد عاد إلينا بعد فترة ليقول إنه بعد الدراسة والمعاينة يرى ابتداء أنها فكرة رائعة ، إذ أثبتت الأبحاث على قاع النيل فى تلك المنطقة صحتها وطلب لذلك الموافقة على بدء الأبحاث مع بيوت الخبرة العالمية .

وهكذا نشأت فكرة السد العالى . . وليدة للإيمان والحماس والبصيرة . . كما تنشأ عادة كل الأفكار العظيمة .

فى سنة ١٩٥٣ بدأنا أيضاً إنجاز مشروع قديم ظل يتلكأ بين حكومات الأحزاب المختلفة ، وهو مشروع كهربة خزان أسوان ، الذى انتهينا منه فى سنة ١٩٦٠ مما أعطانا فرصة بدء السد العالى اعتمادا على الكهربة التى زودتنا بها .

ولكن لعل المشروع الذى غير وجه المجتمع المصرى ، والذى جعل ثورتنا ثورة حقيقية لا مجرد انقلاب عسكرى . . هو مشروع الإصلاح الزراعى . . فبعد أن ترك على ماهر الحكم فى سبتمبر سنة ١٩٥٢ وتولى رئاسة الوزارة محمد نجيب مباشرة كان أول عمل للوزارة الجديدة تحديد الملكية الزراعية بـ ٢٠٠ فدان . وللتاريخ فإن الذى صنع هذا القانون بجميع تفصيلاته هو المهندس سيد مرعى رئيس مجلس الشعب الآن . . وكان سيد مرعى فى ذلك الوقت من نجوم الحزب السعدى اللامعين ، ولكنه على أساس هذا المشروع دخل الوزارة وظل متابعاً له كوزير زراعة ورى ، وكنائب رئيس وزراء ، وهو أيضاً الذى صنع لنا القانونين ، الثانى والثالث للاصلاح الزراعى ، وفى كل

مرة كان القانــون يهدف إلى المزيد من تحديد الملكية الزراعية . وبطبيعة الحال إلى المزيــد من المساواة والعدالة الاجتماعية .

من الناحية السياسية ، كان لابد نتيجة حل الأحزاب ما بين ٥٢ ، ١٩٥٣ ، أن ينشأ فراغ ، وكان علينا طبعاً أن نملأ هذا الفراغ ، فانشأنا ما يسمى بهيئة التحــرير ، وكان شعارنا الاتحاد والنظــام والعمــل . . ثم تلاها اتحاد قومى أول وبعــد ذلك اتحاد قومى ثان ، ثم اتحاد اشتراكى أول وبعــده اتحــاد اشتراكى ثان ، ولابد أن أقرر هنا أن هذه الصيغ كلها كانت مستعارة من يوغوسلافيا بعد أن توطدت علاقة عبد الناصر الشخصية بتيتــو ، وكان عبد الناصر يمضى وقتاً طويلا معه فى المناقشة ويعجب بآرائه .

كانت صيغــة الاتحاد القومى بمرحلتيه تشبه تماماً صيغة اتحاد الاشتراكيين الذى أقامــه تيتــو بعد أن أنتصر فى حرب التحرير بحركة البارتيزان Partisan التى جمعت كل يوغسلافيا وليس الشيوعيين وحدهم أى كل الأحــزاب التى كانت قائمة فى الصرب ومختلف جمهــوريات يوغوسلافيا الخمسة مع بقاء عصبة الشيوعيين كنواة لهذا الاتحاد .

ثم عدل عبد الناصر بواسطة مؤتمــر قومى عقــد بعد انفصال سوريا والنكسة التى سببها فى مصر والتى حفزت الشعب على النقــد العلنى العنيف إلى صيغة الاتحاد الاشتراكى الذى يقــوم على تحالف قــوى الشعب العامل وهى خمسة كما أقرها المؤتمــر عندما تقدم بها عبد الناصر فيما سمى بالميثاق .

وهذه القوى هى الفلاحون والعمــال والجنود والمثقفــون والرأسمالية الوطنية .

ولم يكتب لهذا الاتحاد الاشتراكى النجاح كما حدث من قبل للاتحاد القــومى فهو ببساطة صيغة الحزب الواحد فى الحالتين .

وازدادت الحالة سوءاً عندما أصبح الاتحاد الاشتراكى (الحزب الواحد) أداة سيطرة كاملة حتى على أرزاق الناس . . حين استعار الملتفون حول جمال والذين يفلسفون له الماركسية كأسلوب فبــدأ فرض الحــراسات والمصادرة والاعتقال ومنع النشاط الخاص بحجة ضرب الرأسمالية مع أن الميثــاق الذى

قامت عليه النظــرية يقرر غير ذلك بل ويضع الرأسمالية الوطنية كإحدى قوى التحالف الخمس .

وبدأت مرحلــة التخبط الاقتصادى .

وجاءت هزيمة ٥ يونيو بابعادها المهينــة .

وبعــد أن أفاق الشعب من هول الصدمة بــدأ النقد العنيف مرة أخرى ، وفى هذه المرة جاء الانفجار فى فبراير سنة ١٩٦٨ بعد صدور أحكام مخففــة على قادة الطيران الذين يعتبرهم الشعب من أقــوى أسباب الهزيمة المهينة . . ثم اكتشف الشعب أيضاً أن ما سمى بالميثاق لم يطبق وأنه لم يكن إلا لامتصــاص نكسة الانفصال بين مصر وسوريا وعندئذ أصدر عبد الناصر ما سمى بعد ذلك ببيان ٣٠ مارس سنة ١٩٦٨ بواسطة نفس الملتفين حوله والذين لم يكن لهم من هم إلا السلطة الديكتاتورية المطلقــة لكى يبقوا فى مناصبهم واكتشف الشعب مرة أخرى أن بيان ٣٠ مارس سنة ١٩٦٨ لم يغير من القبضة الديكتاتورية شيئاً وأنه قد أرجأ الدستور الدائم إلى ما بعد إزالة آثار العدوان وكرس حق الاعتقال وكانوا يظنــون أنه سيقودهم إلى الديمقراطية . .

لقــد اكتشفوا أن هذا البيان لم يكن إلا لامتصاص آثار هزيمة يونيه وانفجار الجماهير وكم عانيت أنا من سياسة الامتصاص هذه بعــد ذلك . .

فأنا أحب أن أغير . . لا أمتص . . وأن أعالج . . لا أحــذر . . وفى نظر الناس أريد أن يكون كل شىء واضحاً كما هو فى نظرى تمامــاً . . وعندما ألجأ إلى حل بعض المشكلات ، أفعل كل ما بوسعى لكى يكون الحل جذرياً . . لا مؤقتاً . . ولكن الناس طبائــع وخصال . .

مثلا كان من الواضــح أن هناك صراعاً داخل مجلس قيادة الثورة منذ أوائل ١٩٥٣ . . وبطــريقة الحلول المؤقتة لجأ عبد الناصر إلى تعيين أعضاء مجلس قيادة الثورة فى الوزارة واحــداً بعد الآخــر ، حتى أنه قبل أن تنتهى سنة ٥٣ كان جميع الثوار يحكمــون . . ما عدا واحداً هو أنا .

ولكن هل استطاع عبد الناصر بهذا أن يغلق دائرة الصراع حقــاً ؟

فى سنة ١٩٥٤ وصل الصراع إلى مرحلة عنيفة ، خاصة بينى وبين محمد نجيب ، وبيننا وبين الأخوان المسلمين وبعض فلول السياسيين الذين ألتفوا حول نجيب وظنوا أنهم يستطيعون أن يحققوا شيئاً .

فى مارس من تلك السنة كان الصراع قد طفا على السطح بحيث أصبح لا يمكن تجاهله فاجتمعنا فى مجلس الثورة ، وأعلنا التنحى ، وتوالت الأحداث خلال بضعة أيام عدل بعدها مجلس الثورة عن التنحى . .

ثم تطور الصراع فشمل إلى جانب محمد نجيب خالد محى الدين — وهو شيوعى ماركسى — حاول أن يستخدم سلاح الفرسان تحت ستار عودة الديمقراطية والأحزاب معتقداً بذلك أنه يستطيع فرض ديكتاتورية اليسار تلك التى تحيل البشر إلى عجلات فى آلة ، لا هم لها إلا طحن الإنسان ، والقضاء عليه وسلبه أخص مقوماته التى خلقها له الله سبحانه وتعالى . .

قضينا على فتنة الفرسان وتكفل الضباط الأحرار بالكشف عن مزايدات المزايدين من الضباط والسياسيين ، وأقلنا محمد نجيب ثم أعدناه بعد ذلك . وكنا فى ذلك الوقت قد بدأنا المفاوضات مع بريطانيا من أجل الجلاء عن القناة . وصاحبت المفاوضات حركة مقاومة ضد الإنجليز فى القناة . ورغم هذا كله حاولت كل العناصر المضادة استغلال الانشقاق مع محمد نجيب ليس حباً فى نجيب وتأييداً له بل فى محاولة لانهاء الثورة وتسلم السلطة . فكانت مظاهرات الأخوان وهى تجوب شوارع القاهرة وتتوجه إلى قصر عابدين ، يحمل أفرادها مناديل ملطخة بالدماء وينادون بسقوط الثورة .

لم يكن هناك بد ازاء كل هذا من حسم الوضع مع نجيب فعزلناه نهائياً فى أكتوبر ١٩٥٤ بعد توقيع اتفاقية الجلاء مع بريطانيا فى نفس الشهر تلك الاتفاقية التى انهت الاحتلال البريطانى لمصر لأكثر من خمسة وسبعين عاماً .

كان عبد الناصر رئيس وفد المفاوضات ، وكان قد وصل مع الإنجليز إلى أنهم على استعداد للجلاء عن القاعدة خلال ٢٤ شهراً ، على شرط أن يحتفظوا بمخازن و ١٢٠٠ خبير من المدنيين ، يتم انسحابهم بعد ٧ سنوات ، وتصبح المخازن وكل ما بالقاعدة ملكاً لمصر ، وجزء لا يتجزأ منها . .

جمعنا عبد الناصر فى استراحة الهرم . وعرض علينا المشروع بأكمله وطلب من كل منا رأيه مسجلا .

طبعاً كانت هناك معارضة من بعضنا . مجرد مزايدات وصراعات كالعادة ، أما أنا فكنت مذهولا لما يحدث ولذلك عندما جاء دورى لإبداء الرأى انفجرت قائلا : —

« أنا موافق على المشروع بدون مناقشة — فما الذى يمكن مناقشته ؟ ١٢٠٠ خبير ليسوا عسكريين وتحت حراستنا نحن المصريين ؟ هل هذا يخيفنا ؟ فليكونوا عشرة آلاف خبير — وليبقوا بدلا من السبع سنوات عشراً — ما قيمتهم وقد حصلنا على استقلالنا وأصبحت إرادتنا حرة ؟ أى سياسى أبنه يرفض هذا الحل لمشكلة عمرها فوق الخمسة وسبعين سنة ؟ » .

وقعنا اتفاقية الجلاء فى أكتوبر ٥٤ وهكذا وضعنا أقدامنا على أول طريق الاستقلال . . وكنا قبل ذلك قد وافقنا على حق تقرير المصير للسودان فإما الاستقلال أو الاتحاد مع مصر ، وقبل الموعد المحدد انسحبنا وتركنا السودان يقرر مصيره بنفسه مما اضطر إنجلترا أن تحذو حذونا . فنال السودان استقلاله قبل أن يتم جلاء الإنجليز عن مصر .

٦

كانت فترة الانتقال ما بين ١٩٥٣ و ١٩٥٦ ، فترة مليئة بالأحداث الهامة التى يمكن اعتبار أغلبها بمثابة نقط تحول فى تاريخ مصر والثورة . . فكما رأينا وقعنا اتفاقية جلاء الإنجليز عن مصر فى أكتوبر ١٩٥٤ وفى ١٨ يونيو ١٩٥٦ تم جلاء آخر جندى بريطانى ورفع علم مصر على القاعدة البريطانية بالقناة بعد كفاح ونضال يزيد على الخمسة وسبعين عاماً .

فى هذه الفترة أيضاً عزلنا محمد نجيب ، وبذلك تخلصنا من الصراعات التى حاول السياسيون المحترفون استغلالها لعودتهم ، وجنبنا البلاد آثارها ، وتولى عبد الناصر رئاسة الوزارة ورئاسة مجلس قيادة الثورة فى نفس الوقت ، وبهذا تركزت السلطة كاملة فى أيدى من قاموا بالثورة .

ورغم عزوفي فترة طويلة عن أى منصب تنفيذى إلا أننى دخلت الوزارة التى شكلها جمال فى سبتمبر سنة ١٩٥٤ كوزير دولة بعد أن بقيت أكثر من سنة العضو الوحيد الذى لم يتقلد منصباً وزارياً وكان جمال يصف هذا الموقف بينى وبينه بأننى رجل الداورية الذى يبقى فى الخارج لكى يضمن سلامته وهو تعبير عسكرى عندنا Get Away Man

ومن أهم ملامح تلك الفترة أيضاً ، حلف بغداد الذى نادى به مستر إيدن بعد وقت قصير من اتفاقية الجلاء بدعوى أن منطقة الشرق الأوسط قد نشأ بها فراغ لابد من أن يملأ . . وقد انضمت إلى الحلف كل من تركيا والباكستان والعراق . . كان موقف الثورة من الحلف معادياً بطبيعة الحال فكيف نقبل أن ننضم إلى حلف كهذا فى حين أن من سبقونا قد رفضوا إقامة اتفاقيات ثنائية ، ثم نحن قد تخلصنا من الاحتلال البريطانى بمعاهدة الجلاء فكيف نرضى أن ترتبط مصر بعجلة بريطانيا أو بأية قوة أجنبية مرة أخرى ؟ .

ولم تقتصر مقاومتنا لحلف بغداد على رفض الانضمام إليه بل شملت جهودا مكثفة من جانبنا لمنع بعض بلاد المنطقة العربية من دخوله كالأردن ولبنان وفعلا نجحنا فى ذلك . . مما أوغر صدر بريطانيا وأمريكا فأوعزتا إلى إسرائيل بالانتقام منا – وكانت النتيجة غارة مفاجئة على غزة فى ٢٨ فبراير ١٩٥٥ وهو تاريخ يمكن اعتباره نقطة تحول فى تاريخ مصر والثورة والمنطقة ودول العالم الثالث لأنه جعلنا نشعر بحاجتنا الملحة للسلاح – مما أدى فى النهاية إلى عقد أول صفقة أسلحة مع السوفييت بعد تدخل نهرو وشواين لاى كما أسلفت لاقناع روسيا بذلك . . وقد كان لهذا أثره فى كسر الحاجز وإذابة الثلوج بيننا وبين السوفييت ، كما كان من العوامل الفعالة فى رفع الروح المعنوية لدول العالم الثالث التى شعرت بأن هناك من يمكن أن تلجأ إليه لاسترداد إرادتها من قبضة الاستعمار الذى ظل جاثماً فوق صدرها قروناً طويلة حتى ولو كان طريقها إلى ذلك هو طريق البيع والشراء . .

من أهم انجازات تلك الفترة على المستوى العالمى والمحلى مؤتمر باندونج الذى كان أول مؤتمر دعم دول عدم الإنحياز وجعلها قوة ثالثة يحسب لها

حساب وفى نفس الوقت الملاذ الوحيد الذى تلجأ إليه الدول الصغرى ومثلها الأعلى الذى تحذو حذوه . . أما بالنسبة للأثر المحلى لمؤتمر باندونج فقد أضاف الكثير إلى شعبية عبد الناصر الذى استطاع أن يقف جنباً إلى جنب مع بعض الشخصيات العالمية أمثال نهرو وشواين لاى وأن يستحوذ على اعجابهما رغم أنه كان فى ذلك الوقت دونهما بكثير سناً وتجربة .

٧

أين كنت أقف من أحداث تلك الفترة ؟ إلى أى مدى شاركت فيها وكيف كنت أنظر إليها ؟ .

فى ديسمبر ١٩٥٣ ، انشأت جريدة الجمهورية وتوليت رئاسة تحريرها وكانت تعتبر لسان حال الثورة ، وقد قامت بدور ملحوظ فى إحباط حلف بغداد . . ورغم عزوفى عن السلطة فترة طويلة ، إلا أننى قبلت العمل كوزير دولة فى الوزارة التى شكلها عبد الناصر فى سبتمبر ١٩٥٤ تضامناً معه فى دفع عجلة الأمور . . وفى يناير ١٩٥٥ تم إعلان قيام المؤتمر الإسلامى وتوليت منصب السكرتير العام له ، وقد أتاح هذا لى زيارة بلاد المنطقة لجمع شمل الدول العربية والإسلامية ، وكذلك العمل من أجل تحقيق أهداف سياسية وقومية تخدم قضايانا . . فلست أبالغ إذا قلت إننى قمت بدور فعال فى إحباط حلف بغداد . . ففى الأردن مثلا . . تسنى لى إقناع الملك بعدم الإنضمام إلى الحلف . . وكان من الآثار الجانبية لهذا طرد جلوب باشا قائد عام الجيش الأردنى البريطانى الجنسية . . بقرار من الملك حسين .

وفى لبنان ألتقيت بالرئيس شمعون ونجحت فى إبعاد لبنان عن الحلف معتمداً فى ذلك على العداء القديم المستحكم فيما بين شمعون وعائلته من ناحية وبين الأتراك من ناحية أخرى . . ، وفى بغداد اجتمعت مع نورى السعيد لمحاولة اقناعه بالعدول عن الإشتراك فى الحلف . . ودام اجتماعنا طويلا فما كان من الداهية إلا أن أبلغ الصحفيين أن أنور السادات مجتمع به للتفاوض بشأن دخول مصر حلف بغداد . . فعندما انتهى الاجتماع وخرجت فاجأنى الصحفيون

بهذا الخبر — فقلت إن شيئاً من هذا لم يحدث على الاطلاق وإن هذه حيلة من حيل نورى السعيد المعروفة عنه .

هكذا كان موقفى من أحداث سنوات الانتقال .. ولكن هل تكتمل بهذا صورة تلك الفترة من حياتى ؟ لا أعتقد . . فهناك جانب من الصورة لا تكتمل بدونه رغم أنه قاتم اللون . . ألا وهو الصراع الداخلى بين أعضاء مجلس قيادة الثورة الذى تكشف واحتدم بعد عزل محمد نجيب والشعبية التى نالها عبد الناصر فى مؤتمر باندونج .

أذكر مثلا أنه فى غياب عبد الناصر أناب عنه جمال سالم وكان رحمه الله حاد المزاج . . عصبياً إلى حد غير طبيعى . . غير متزن فى جميع نواحى شخصيته . . فلما وجد الناس منصرفة عنه لسوء معاملته ، بدأ يثير المعارك هنا وهناك . . وفى كل مجال . . إلى أن عاد عبد الناصر فازدادت المعارك حدة خاصة وأن جمال سالم فى غياب عبد الناصر كان قد اتخذ إجراء ما ضد عم عبد الناصر .. وكانت لدى عبد الناصر حساسية شديدة من ناحية أهله . . فكان يكفى أن يبلغه أن أحداً من الناس قال شيئاً ما عن أحد أقاربه حتى يضعه على الفور فى المعتقل ويتخذ ضده من الاجراءات ما يحلو له . . وهذه إحدى نقاط الضعف التى كان يستغلها فيه أصحاب مراكز القوى وأتباعهم لينالوا حظوة عنده ، وفى نفس الوقت ينالون من أعدائهم . . وفى رأيى أن عبد الناصر كحاكم كان يجب أن يدرك أن هذه هى طبيعة الحكم وطبيعة البشر أيضاً . . والحكمة العربية تقول إن نصف الرعية ضد الحاكم — هذا إن عدل ! ، وهذا فى رأيى أمر طبيعى . . فالحاكم هو الوحيد الذى على المسرح . . كل الأنظار تتجه إليه ولا ترى سواه ولذلك فكل من لديه مشكلة أو أمر ينغص عليه حياته أو حتى يعكر مزاجه ولو قليلا لابد وأن ينسبه إلى الحاكم حتى ولو كان الحاكم أعدل الناس وأبعدهم عن مسئولية ما تشكو منه الرعية فما بالك إذا كان الحاكم كعبد الناصر — قد جمع زمام الأمور كلها بين يديه فأصبح فى نظر الناس — ولعلهم على حق — المسئول الوحيد عن كل ما يصيبهم ؟

أنا شخصياً على نقيض تام من عبد الناصر فى هذه الناحية . بل إننى فى وقت من الأوقات راودتنى رغبة شديدة فى أن أقول للناس : بما أننى قد ألغيت بالنسبة

لكم المعتقلات إلى الأبد وأعدت سيادة القانون فأرجو أن تمنحوا رئيس الجمهورية الحق فى أن يعتقل أهله .. وأهله فقط .. صحيح أن نشوة الحكم والمظهر لا تدير رأسى اطلاقاً ولكن من يضمن لى أنها لا تدير رؤوس أهلى وأقاربى فيظلمون الناس من حيث لا أدرى ؟ . . ومن هنا كان أمر الاعتقال الوحيد الذى أصدرته طوال مدة ولايتى خاصاً باعتقال شقيقى الأكبر وهو من ساعدنى ووقف من خلفى فى السجن والمعتقل وجميع الأزمات التى مرت بى . .

ليس معنى هذا أنى أتنكر لأهلى أو لا أدين لهم بالوفاء فهذا يتنافى مع قيم الأسرة التى نشأت عليها والتى ما زالت تسرى فى عروقى وتشكل وجدانى كما لا يشكله أى شىء آخر . . على العكس فإن إيمانى بهذه القيم يزداد يوماً بعد يوم . . حتى أصبحت أرى فى التمسك بهذه القيم الخلاص الوحيد للمجتمع لا كأسر متفرقة بل كأسرة واحدة كبيرة .

أذكر أنى فى إحدى جولاتى فى المنطقة كسكرتير عام للمؤتمر الإسلامى زرت الهند وكان ذلك قبل انعقاد مؤتمر باندونج بفترة قصيرة . . واستقبلنى نهرو استقبالا ودياً خالصاً وأقام حفل استقبال تكريماً لى . . وقدم لى ضمن من قدم من ضيوفه نائباً فى البرلمان الهندى وزوجته وهى أيضاً نائبة مثله وكلاهما شيوعى ومن أشد المعارضين لنهرو — هذا ما كنت أعلمه علم اليقين فقد سبق أن تعرفت بهما فى القاهرة ونشأت بيننا صداقة ولذلك ذهلت عندما رأيت الرجل يقبل نهرو من خديه ونفس الشىء تفعله زوجته من بعده . . لم يكن نهرو يعلم أنى أعرفهما فقال لى مداعباً وهو يشير إليهما « كن على حذر يا مستر سادات فهما شيوعيان وأرجو أن لا يتمكنا من بلشفتك »

قالها بروح أبوية خالصة وهو يبتسم فى سماحة وحب فضحكا وقالا بنفس روح المحبة واحترام الابن لأبيه : —

— « لا بأس ولكنا سنرد عليك فى البرلمان » .

أخذت بما رأيت وسمعت ؛ فلا شىء يستطيع أن يستولى على أو يأسرنى بالفعل مثل الجمال . . وقد كانت الصورة جميلة بكل ما تحمل من حب ولمسات انسانية وقيم نشأت عليها فى قريتى الصغيرة . . حيث الكل عائلة واحدة

يحترم فيها الصغير الكبير مهما اختلف معه فى الرأى لأنه كبير العائلـــة . . وبالمثل يقود الكبير الصغير ولا يغضب منه إذا اختلف معه لأنه أولا وقبل كل شىء أب ولا يمكن للأب أن يتخاصم مع إبنه .

خرجت من الاستقبال ذلك اليوم وأنـــا فى قمـــة السعادة بالصورة الجميلة التى رأيتها والتى ظلت عالقة بوجدانى تسعدنى كلما استدعيتها . . إلى أن وصلت مصر . . فإذا بكل شىء على نقيض تام مع صورتى الجميلـــة . . صراع وتشاحن لا على شىء معين بل على كل شىء مهما بلغت تفاهته . .

لم أشترك طبعاً فى هذه المشاحنات – فقط كنت أراقبها من برجى العالى وأسخر حيناً وأدهش حيناً آخر ولكننى فى جميع الأحيان كنت أتألم لهـــا . .

آه للنفس البشرية ما أضعفها وأتفهها عندما تطغى المصلحة الشخصية فتحجب عنها رؤية الأشياء على حقيقتها . إنهم يحقـــدون على عبد الناصر لأنه قد حقق نجاحاً كبيراً فى باندونج وارتفعت مكانته فى عيـــون العالم . . أليست مكانته هى مكانة مصر ؟ ونجاحـــه أليس نجاحاً لنا جميعـــاً ؟ ولكنهم لا يبصرون . .

بعنوان « الحبيب العائد » كتبت مقالا صغيراً بجريدة الجمهورية بمناسبة عودة عبد الناصر من باندونج . . ولو أعاد التاريخ نفسه وتكررت نفس الظـــروف لفعلت ما فعلت مرة ثانية – فتكوينى الأساسى قوامه الحب ولذلك عندما ألجأ إليه أرتاح وأجد الحل لأية مشكلة وعندما يبتعـــد عنى يختل توازنى ويستولى على إحساس بالعجز مرير . . ومن هنا كانت قوتى لا تتجلى بأكملها إلا من خلال الحب .

بهذا التكوين الذى فطـــرت عليه – وبالصورة الجميلـــة التى عدت بها من عند نهرو من الهند . . وفى جو الحقد والصراع على السلطة الذى سيطر بشكل واضح على مجلس قيادة الثورة فى سنة ١٩٥٥ أصبح من الصعب على أن أحتفظ بمركز المتفـــرج من البرج البعيـــد كما اعتدت . . فقد ضاقت نفسى بما ترى من صراعات لا تكف لحظة ولا تنتهى ، فكتبت استقالتى وقدمتها لإخوانى بمجلس القيادة ونقلت فيها إليهم اللوحة الجميلة التى شاهدتها بالهند عسى أن يتعظوا . .

كانت هذه هى الاستقالة الثانية بعـــد استقالة سنة ١٩٥٣ .

والآن وأنا أعيش تلك الأيام البعيدة فى ذاكرتى مـــرة أخرى ، أستطيع أن أرى بكل وضوح أن الاستقالة الثانية كانت مثل الأولى تنبع من نفس المنبع فكلاهما احتجـــاج صريح على جـــو الصراعات الذى كان يسود المجلس وهما فى نفس الوقت دعوة لا تقل صراحة إلى تصحيح مسار الثورة بعد أن بدأت الأحقاد تعصف بها وتحرفها عن أهدافها التى قامت من أجل تحقيقها . .

كان التصارع على السلطة قد صرف الاهتمام ولو جزئياً عن مصالح الشعب ، مما أدى إلى إشاعة جو يصعب فيه التمييز بين من يصلح ومن لا يصلـــح . فأصبح الإنسان يؤخذ بجـــرم غيره أو بدون جرم على الاطلاق . . وكانت الإشاعات وحدها كافية للقضاء على أى إنسان . . وكان يساند هذا الجو الرهيب اعتقـــاد القادة بأن لهم الحق فى أن يفـــرضوا على البلـــد ما يشاؤون بحجة المستبد العادل . . ولم لا . . أليسو هم الذين صنعوا الثورة ؟

كان من الواضح أن نشوة الحكم قد بدأت تلعب برؤوسهم فقسموا البلاد إلى مناطق نفـــوذ لهم ولمن يلتف حولهم من أقارب وأصدقاء . . ومن الأمثلـــة الحية على ذلك . . مثال وزارة الخارجية التى جنت الثورة عليها . . فقد اتخذها عبد الحكيم عامـــر مقراً يرسل إليه الضباط المتقاعـــدين حتى يتسنى لهم أن يتمـــوا بها سن المعاش الخاص بالمدنيين وهو سن الستين .

على هذا المنوال سارت الأمور فى كل اتجاه ، فليست العبرة بما يفيد البلاد بل العبرة بمن سوف يستفيد من أقارب وأصدقاء وأتبـــاع الحكام . . وهكذا فقدت القيم واستولت الحيرة على الناس فأصبحوا لا يعـــرفون ماذا سيأتى به الغـــد أو كيف سينتهى اليوم . .

انتهى مجلس الثورة فى ٢٢ يونيو ١٩٥٦ ، عندما انتخب جمال عبد الناصر رئيساً للجمهورية بالاستفتاء . . ولكن قبل أن ينتهى المجلس كان الشعور بالخوف قد عم البلاد . . وهذا فى رأيى أبشع ما يمكن أن يصيب الإنسان . . فالخوف يقتل الشخصية ويشل الإرادة ويمسخ تصرفات البشر .

هل كان أعضاء مجلس الثورة يدركون ما فعلـــوا بشعب مصر ؟ لا أعرف . . ولكن الذى أعـــرفه أن الشعب كان يدرك تمام الادراك ما يفعله حكامه به

وبأنفسهم . . وليس أدل على ذلك من النكتة التى انتشرت فى تلك الأيام عبر البلاد معبرة أحسن تعبير عن رأى الشعب فى قـــادته . .

« كان فيه مرة ثعلب عدى الحدود ودخل ليبيـــا — مسكوه هناك وقالوا له : أنت جاى هنا ليه : قال لهم : أصلهم فى مصر بيمسكوا الجمـــال . . قالوا له : لكن أنت ثعلب . . قال لهم : حلنى على ما يعــرفوا انى ثعلب . . »

نقلت إلينا النكتة ونحن فى مجلس الثورة فضحكنا طويلا . . وكان الأجــدر أن نعى ما تتضمنه من إدانة الشعب لنا . . فنتدبر أمورنا قبل فــوات الأوان . .

ولكن هل كان هذا فى الإمكان بعد أن تغلبت العـــوامل البشرية على المثالية التى بدأت بها الثورة فحجبت الرؤيـــا حتى عن ذاتنا ؟ لا أعرف . . ولكن الذى أعرفه جيداً هو أننى كنت سعيداً بانتهاء مجلس قيادة الثورة — ولذلك هرعت إلى عبد النـــاصر صبيحة اليوم التالى لانتخابه رئيساً لأطلب منه عدم اشتراكى فى الحكومة التى كان بصدد تشكيلها . . ومع ذلك فأنا تحت أمره فى أية مشورة أو رأى . . فنحن أصدقاء وسنظل دائماً كذلك . .

لقد ضقت بما شهدته من صراعات على مدى أربع سنوات كانت حمـــلا ثقيـــلا ناءت تحته نفسى حتى كادت تتحطم . . هكذا اكتشفت فيما بعـــد . فحيث لا يوجد الحب لا مكان على الاطلاق لى .

الفصل السادس

١

عجـــز القـــوة

(مصر فى حكم عبد الناصر من يوليو ٥٦ إلى يونيو ٦٧)

بانتخاب عبد الناصر رئيساً للجمهـــورية فى ٢٢ يونيه سنة ٥٦ حل مجلس قيادة الثورة وأصبح عبد الناصر المسئول الأول والأخير عن مصر سواء من ناحية السياسة الداخليـــة أو السياسة الخارجية . .

فى ١٩ يوليو من نفس السنة أشهر دالاس وزير خارجية أمريكا إفلاس الاقتصاد المصرى وتراجـــع أمريكا والبنك الدولى عن تمويل السد العالى ، وفى ٢٣ يوليو شارك فى الإحتفالات بذكرى قيام الثورة شبيلوف وزير خارجية الاتحـــاد السوفيتى . . وكان وقتها نجمـــاً صاعداً فى سماء الإتحاد السوفيتى واتصل بعبد الناصر ليعلن استعداد السوفييت لتنفيذ السد العالى . .

رفع هذا روح عبد الناصر المعنـــوية بينما كان يستعد للسفر إلى الإسكندرية للإحتفـــال بذكرى ٢٦ يوليو كعادته فاتصل بى فى صبيحة ذلك اليوم يدعونى للسفر معـــه . . حيث كان ينوى إلقاء خطابه فى ميدان المنشية . . كنت مريضاً بنزلة معـــوية حادة فاعتذرت له . . فقال — « ما دام الأمر كذلك أرجو أن تستمع إلى خطابى فى الراديـــو » .

قلت له طبعاً سأفعـــل ، واندهشت لطلبه ، فقد كان أمراً طبيعياً أن أستمع إلى خطابه دون أن يطلب منى ذلك . فما الذى جعلـــه يطلب هذا الطلب الغريب ؟

لم أعر الأمر كثيراً من الاهتمام إلى أن جـــاء وقت الخطـــاب . . ففتحت الراديو وجلست إلى جواره . . كان خطاباً طويلا كالعادة ولم يكن به شىء يلفت النظـــر إلى أن جاء نصف الخطاب تقـــريباً . . فسمعته يتحدث عن (فرديناندى دى ليسبس) . . ساعتها أدركت ماذا ينوى فعله . . ولم تمض دقائق

بعد ذلك حتى تحقق ما أدركت . . فقد سمعت عبد الناصر يعلن تأميم قناة السويس رداً على جون فوستر دالاس . .

الحقيقة أنى شعرت بالفخر . . فها هى مصر الدولة الصغيرة ترفع صوتها أخيراً لتتحدى أكبر قوة فى العالم . . كانت هذه نقطة تحول فى تاريخ ثورتنا بل وفى تاريخ مصر بأجمعه . . فقد أحدث القرار دوياً هائلا فى خارج مصر وداخلها وأصبح عبد الناصر منذ تلك اللحظة بطلا أسطورياً من أبطال الشعب المصرى الذى كان تواقاً إلى أن يرفع رأسه ويشعر بذاته بعد ما ذاقه من هوان وقهر على أيدى الاستعمار البريطانى طوال قرن تقريباً .

فى اليوم التالى استقل عبد الناصر القطار عائداً إلى القاهرة فوجد الشعب المصرى كله فى استقباله — ذهب إلى مجلس الوزراء ومن الشرفة هناك ألقى خطاباً زاد نار الحماس اشتعالا . . ودخل بعد الخطاب مكتبه فقلت له : اسمع يا جمال . .

قال : نعم

قلت : أنت ما قلتليش على هذا القرار وأنت خلاص أخدته . . لكن أنا عاوز أقول لك حاجة .

قال : إيه ؟

قلت : لو سألتنى كنت حاقول لك حاسب . . لأن هذه الخطوة معناها الحرب واحنا مش جاهزين . . دا احنا لسه واخدين السلاح من روسيا — فى سبتمبر من السنة الماضية (١٩٥٥) انعقدت الصفقة ولم يبدأ التوريد إلا فى أكتوبر ونوفمبر ولسه ما اتدربناش عليه بالقدر الكافى ، لأن كل تدريبنا كان إنجليزى غربى . . فلم يأت الوقت بعد الذى يسمح لنا بتغيير العقيدة العسكرية بتاعتنا من غربية إلى شرقية . . لو كنت سألتنى عن رأيى كنت حاقول لك حاسب يا جمال . . ولكن بما أنك أتخذت القرار خلاص فيجب أن نقف جميعاً إلى جانبك وأنا أولهم . .

وفعلا من يوم ٢٧ يوليو أخذت أهاجم فى مقالاتى بجريدة الجمهورية دالاس وأمريكا بضراوة وعنف . . الإتحاد السوفييتى سعد بكل هذا أعظم سعادة

لأنه وجد من يحارب له معركته — من يوقظ له دول العالم الثالث والمستعمرات — بينما لم يدفع السوفييت مقابل هذا كله إلا أسلحة يتقاضون ثمنها بالكامل . . ويبدو أن الإتحاد السوفييتى استمرأ هذا فقد دأب على أن نحارب نحن معركته فى كل مكان ، وهو يعطينا السلاح ويأخذ ثمنه — دون أن يخسر شيئاً . . بل كما تبين فيما بعد كان هو الرابح أولا وأخيراً . . فالسلاح الروسى أغلى من السلاح الغربى لأن عمره أقل من عمر السلاح الغربى وإذا أضفنا إلى هذا فائدة الـ ٢ ½ ٪ التى يتقاضاها السوفييت لاتضح لنا أن السلاح الغربى أرخص على المدى الطويل . .

سمع إيدن بخبر تأميم القناة أثناء مأدبة عشاء أقامها الملك فيصل ملك العراق ونورى السعيد رئيس وزرائها ففض المأدبة وبدأ يتصل بجى موليه فى فرنسا وبن جوريون فى إسرائيل — فى ذلك الوقت كان الإنجليز قد جلوا عن القناة ، ولكن نصف أسهم القناة كانت ملك الإنجليز والنصف الآخر لفرنسا . .

لم يكن هذا وحده الذى أغاظ إيدن فالموقف الذى اتخذه عبد الناصر بعد أن أفسد عليهم حلف بغداد ثم قام بتأميم القناة لم يكن من السهل على (إيدن) بعقليته الاستعمارية التقليدية أن يتقبله . . فاتفق مع جى موليه وبن جوريون على استخدام القوة ، ولكنهم لم يعلنوا ذلك . . بل قاموا بمحاولات متعددة مثل المؤتمر الذى عقده إيدن فى لندن وجمعية المنتفعين وغير ذلك . . إلى أن أحيل الموضوع فى النهاية إلى الأمم المتحدة . . واتفق على أن يجتمع الدكتور محمود فوزى وكان فى ذلك الوقت وزير خارجيتنا مع وزير خارجية إنجلترا سلوين لويد وبينو وزير خارجية فرنسا يوم ٢٩ أكتوبر ليضعوا سوياً الحل السلمى والتعويضات المالية . .

لم يحدث طبعاً شىء من هذا ، إذ أن يوم ٢٩ أكتوبر كان هو اليوم الذى اختاره إيدن وجى موليه وبن جوريون لتنفيذ خطتهم . . وفعلا هاجمت إسرائيل سيناء وأطلقت صفارات الإنذار فى القاهرة فى آخر ضوء يوم ٢٩ أكتوبر (الذى كان محدداً للتسوية السلمية فى الأمم المتحدة !) وكان عبد الناصر فى بيته فطلع إلى سطح المنزل وشاهد بنفسه الطائرات وهى تقصف مطار ألماظة القريب

من منزله وهى تحمل علامات إنجليزية وفرنسية — فأدرك عبد الناصر أن المؤامرة قد تمت . . وذهب إلى القيادة فى مساء نفس اليوم وأصدر أمره بانسحاب قواتنا فوراً من سيناء تفادياً للفخ الذى كانت ستقع فيه . . إسرائيل فى المواجهة فى سيناء والإنجليز والفرنسيين من الخلف . . ونفذ الأمر بمنتهى الدقة وعلى مدى ثلاثة أيام . . بحيث حفظ لنا أكثر من ثلثى قواتنا المسلحة . . ولذلك يجب أن نذكر هذا القرار لعبد الناصر كقرار عبقرى — صحيح أن جميع طائرتنا قد دمرتها فرنسا وإنجلترا بضربة واحدة وهى ما تزال على الأرض — وكنا قد اشتريناها من الاتحاد السوفيتى منذ أقل من سنة ونعتز بها غاية الاعتزاز . . ولكن لم يكن عبد الناصر أو غيره يستطيع أن يفعل شيئاً وقد باغتتنا إنجلترا وفرنسا بالعدوان وبالإنذار الذى وصفته بأنه قذر فى مقالاتى فى جريدة الجمهورية إذ أرسلوه إلينا فى نفس اليوم الذى اعتدوا فيه على مطاراتنا .

كانت مدة الإنذار ١٢ ساعة وقد أحدث بلبلة عند بعض السياسيين القدامى فى مصر . فقرروا أن يتجمعوا فيرسلوا رسالة إلى عبد الناصر لإقناعه بقبول الإنذار تحت شعار إنقاذ ما يمكن إنقاذه . . سمع عبد الناصر بهذا فأرسل فى طلب كتيبة ضرب نار من الحرس الجمهورى ووقفت فى ساحة مجلس الوزراء وأقسم أن يعدم رمياً بالرصاص أى إنسان يأتى ليقترح عليه قبول الإنذار . .

طبعاً كانت الخطوة التالية أن أعلن عبد الناصر على العالم رفض مصر للإنذار البريطانى الفرنسى وتصميمها على القتال وليكن ما يكون . . وكان ذلك فى خطاب ألقاه فى الأزهر يوم ٢ نوفمبر . . والشعب كله ملتف حوله بعد أن خرج إليه فى عربة مكشوفة . . وفى نفس اليوم كان الشعب الإنجليزى يضرب مقر رئيس وزراء بريطانيا (١٠ داونتج ستريت) بالطوب والحجارة احتجاجاً على العمل اللاأخلاقى الذى قام به . .

بعد رفض الإنذار أرسل عبد الناصر فى طلب سفير أمريكا رايموند هير وبعث رسالة لأيزنهاور يقول له فيها . . « أرجو أن تتكفل أنت بحلفائك بريطانيا وفرنسا واترك لى أنا إسرائيل أتكفل بها » . . رد إيزنهاور وقال إنه سيفعل كل ما يمكن فعله . .

ونحن فى أوج المعركة بين يومى ٢٩ أكتوبر و ٢ نوفمبر ١٩٥٦ كان شكرى القوتلى رئيس سوريا فى ذلك الوقت فى زيارة رسمية للإتحاد السوفيتى فتحدث إلى الزعماء السوفييت بشأن معركة القناة وطلب منهم مد يد المساعدة لمصر ، ولكن السوفييت تخاذلوا تخاذلا تاماً . . فأرسل القوتلى إلينا بذلك ونصحنا بالاعتماد على أنفسنا فلا أمل اطلاقاً فى السوفييت — وهذا ما جعلنى منذ تلك اللحظة أومن بأن من يتغطى بالسوفييت فهو دائماً مكشوف— وفى ٥ نوفمبر تدخل أيزنهاور وطلب من إنجلترا وفرنسا وإسرائيل الانسحاب فوراً . .

عندما علم السوفييت باستجابة هذه الدول لطلب الرئيس الأمريكى أرسلوا الانذار المعروف باسم خروشوف وبولجانين إلى إنجلترا وفرنسا . . والذى لم يكن فى الواقع إلا مجرد استعراض عضلات ومحاولة للظهور بمظهر المنقذ . . مع أن الذى أنقذ الموقف حقيقة كان أيزنهاور فقد استجابت لأوامره كل من إنجلترا وفرنسا فانسحبتا فى ٢٣ ديسمبر سنة ٥٦ وتلتهما إسرائيل فى مارس سنة ٥٧ بعد أن كانت جولدا مائير وزيرة خارجية إسرائيل فى ذلك الوقت قد أعلنت رسمياً فى الكنيست ضم سيناء وإعطاء اسم جديد لشرم الشيخ مما جعل بن جوريون يقول مقولته المشهورة « لابد من الخوف مما لابد من الخوف منه » . . يعنى أمريكا بطبيعة الحال . . فلم يكن فى استطاعة اسرائيل أن تفقد تأييد أمريكا وهى القوة العظمى فى العالم . .

وهنا يجب أن نتوقف للعودة إلى الوراء قليلا حتى نتبين خط إسرائيل منذ أن نشأت. فقد كانت دائمة الاستناد إلى القوة العظمى فى العالم فى أى وقت من الأوقات . . كانت بريطانيا ما بين الحربين العالميتين الأولى والثانية هى القوة العظمى فى العالم ولذلك استندت إسرائيل إليها ولكن بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية تقهقرت بريطانيا وفرنسا وتقدمت أمريكا فأصبحت القوة الأولى . . ولذلك نجد بن جوريون يلجأ إلى نقل نشاط الحركة الصهيونية كاملا إلى أمريكا — بل ويسعى جاهداً إلى أن ينفرد بتأييد أمريكا فلا يسمح للعرب بأن تكون لهم صداقة قوية مع أمريكا . . كما حاول أن يبنى سياسته بعد قيام ثورتنا على ضرورة الإيقاع بين مصر وأمريكا . . ولذلك انزعج بن جوريون عندما وطدنا علاقتنا بأمريكا

في بداية الثورة كما رويت . . فاتفق مع لافون وزير الدفاع في حكومته على عملية سرية وهي أن يرسلوا إلى مصر بعض العملاء ليضربوا المصالح أو المراكز الأمريكية في مصر . . وفعلا حدث في سنة ٥٣ اعتداء على سينما مترو الأمريكية بالقاهرة والقنصلية الأمريكية في الاسكندرية . . ولكن البوليس المصري تمكن من الإمساك بالجناة وكانا شابين من شباب إسرائيل اعترفا بالمؤامرة فحوكما ولكنهما انتحرا في السجن وهما في انتظار حكم الإعدام . . وكانت فضيحة أبلغنا بها الأمريكان . وقد اختلف لافون مع بن جوريون بعد ذلك واستقال بفضيحة تعرف في التاريخ الإسرائيلي بفضيحة لافون .

كان على عبد الناصر أن يتعلم درساً مما حدث فيدرك أن استراتيجية إسرائيل هي أن نكون على خلاف مع أمريكا . . ولكنه بدلا من أن يفعل ذلك فعل العكس تماماً فنجده بعد عدوان سنة ٥٦ يشيد بالإنذار الروسي وينسب إلى السوفييت كل شيء ويهمل الإشارة إلى قرار أيزنهاور بالانسحاب رغم ما في هذا من مجافاة للحقيقة ؛ فالذي جعل هزيمتنا تنقلب إلى نصر كان القرار الأمريكي وليس الإنذار الروسي . . هذا إلى جانب أن عبد الناصر وهو الرجل السياسي المحترف ؛ كان عليه أن ينتهز هذه الفرصة لتوطيد العلاقات بين مصر وأمريكا — ولو من باب ضرب استراتيجية إسرائيل التي كانت تسعى إلى العكس .

ولكن هكذا كان عبد الناصر . . تختلط عليه الأمور ويفقد البصيرة وخاصة لأنه كان يتأثر جداً بتحليلات المحيطين به والذين لم يكونوا شرفاء في تقديم النصح له فقد كان كل همهم أن يضخموا ذات عبد الناصر حتى تبقى لهم مناصبهم ونفوذهم .

٢

إلى يوم ٣١ ديسمبر سنة ٥٦ كانت المعاهدة المصرية البريطانية ما زالت قائمة . . كنا قد قمنا أثناء المعركة بوضع الخبراء الإنجليز البالغ عددهم ١٢٠٠ تحت الحراسة وأصبحوا معتقلين . . وكانت المعاهدة تنص على بقاء الخبراء بالقناة لمدة سبع سنوات ونصف ابتداء من عام ٥٤ وهو تاريخ عقد المعاهدة .

انسحبت القوات البريطانية المعتدية في ٢٣ ديسمبر ١٩٥٦ بناء على أوامر أيزنهاور وفي أول يناير سنة ٥٧ أعلن عبد الناصر سقوط المعاهدة المصرية البريطانية وانتهى بذلك ما علينا من التزامات وأصبح الخبراء أسرى فتبادلناهم بعد ذلك في عملية تبادل الأسرى بيننا وبين بريطانيا — وفي نفس اليوم أعلن عبد الناصر قراراً آخر أهم من القرار الأول وهو تمصير الاقتصاد المصري كرد فعل للتخريب الذي أحدثته الغارات الجوية البريطانية والفرنسية . . كانت هذه ضربة كبرى فإلى ذلك الوقت كانت جميع شركات التأمين والبنوك والبيوت التجارية الكبرى إما فرنسية أو إنجليزية أو بلجيكية أي أوروبية بصورة أو أخرى .

تلت ذلك عملية تصفية ديون القناة لمستحقيها من حملة الأسهم فدفعناها بالتقسيط وكانت في مجموعها لا تزيد على دخل القناة في سنة واحدة . . وفي مقابل هذا أفرجت إنجلترا عن ٤٠٠ مليون جنيه استرليني كانت قد جمدتها نتيجة لتأميم القناة . .

وهكذا بدأنا سنة ٥٧ ونحن نملك اقتصادنا بالكامل . . بالإضافة إلى أرصدتنا من الاسترليني أي الـ ٤٠٠ مليون جنيه التي أفرجت عنها بنوك إنجلترا .

كان يجب أن تكون هذه مرحلة انطلاق فالأرصدة متوفرة . . وكذلك الاحتياطي . . كان كل شيء في الواقع معدا لكي نخطط ونبدأ بناء أنفسنا من الداخل بناء ضخماً يعوض على مصر ما فاتها في سنوات التخلف والاحتلال . . ولكن للأسف لم يتم شيء من هذا فقد كان عبد الناصر مشغولاً بالخرافة التي أصبح اسمه مقترناً بها . . خرافة كبيرة جداً في مصر والعالم العربي فهو البطل الذي حقق النصر على إمبراطوريتين كبيرتين « بريطانيا وفرنسا » فبعد أن أغفل عبد الناصر الدور الحقيقي الذي لعبه أيزنهاور في هذا المجال مما حول الهزيمة العسكرية إلى نصر سياسي أصبح كما يبدو أول المصدقين لأنه انتصر . . لا للحقيقة وهي الهزيمة العسكرية .

تلت بعد ذلك محاولات من جانب دالاس لإضفاء البطولة على الملك سعود ملك المملكة العربية السعودية وجعله الرجل الأول في المنطقة

حتى يقضى بذلك على عبد الناصر ويعزل مصر تمهيداً للاجهاز عليها . .
ولكن هذه المحاولات باءت بالفشل رغم ما بذله دالاس من جهود لتخويف سعود من عبد الناصر وكل من يلوذ به ، فمثلا أطلعنى سعود على تقرير للمخابرات المركزية الأمريكية عنى يقول إننى العميل الأول للسوفيت فى مصر . لا لشىء سوى أننى كنت أكتب مقالا يومياً بالجمهورية أهاجم فيه أمريكا لمحاولاتها تعويق سير ثورتنا ، وكان هجومى مركزاً على دالاس وزير خارجية أمريكا وكان مدير المخابرات هو شقيقه ألان دالاس . . وإن دل ذلك على شىء فإنما يدل على أن المخابرات المركزية كانت تستقى معلوماتها من مصادر تافهة تشبه المصادر التى يستقى السوفيت اليوم معلوماتهم منها .

٣

لم ييأس دالاس بعد أن فشلت مساعيه فى عزل مصر والقضاء على عبد الناصر . . فأوعز إلى تركيا بحشد جيوشها على حدود سوريا وبدأوا فى تصعيد الوضع هناك تصعيداً سريعاً – فى هذا الوقت كانت بيننا وبين سوريا اتفاقية دفاع مشترك ، وهكذا صحا العالم ذات صباح على خبر وصول سفن حربية مصرية إلى ميناء اللاذقية وإنزال حوالى خمسة آلاف جندى بعتادهم وعدتهم مما فاجأ الأمريكان والأتراك معاً إذ أن القوة قامت من الاسكندرية بحراً إلى اللاذقية دون أن يشعر بها أحد مع وجود الأسطول السادس والقوات الإسرائيلية فى شرق البحر الأبيض .

طبعاً كان لهذه الحركة أثرها فى إشعال العالم العربى ، فقد أصبح عبد الناصر بطلا قومياً لا يمكن لأحد أن يقف فى طريقه ومن هنا نشأت فكرة الوحدة بين مصر وسوريا . .

بعد ذلك أخذنا فى الاستعداد لانتخابات مجلس الأمة – وراعينا فى هذا شيئين . . أولهما حق الاعتراض لمجلس قيادة الثورة . . وفعلا بعد أن تمت الترشيحات اعترضنا على أعداد كبيرة ، وكان المقياس فى الاعتراض الانتماء إلى الأحزاب القديمة أو عداء المرشحين للثورة – أما الإجراء

الثانى فقد كان إغلاق بعض الدوائر على الضباط الأحرار الذين تركوا الجيش وخرجوا إلى الحياة السياسية والمدنية . . وفعلا أغلقنا ٦٠ دائرة من الـ ٣٥٠ ، ثم أجريت الانتخابات . . واجتمع فعلا أول برلمان فى ظل الثورة فى سنة ٥٧ . . أى بعد خمس سنوات من قيامها .

قبل الاجتماع بثلاثة أيام كنت مع عبد الناصر فى استراحة برج العرب . . فإذا بى أفاجأ بطلب منه بأن أستعد لرئاسة المجلس وقبلت . . ولكن قبل افتتاح المجلس بليلة واحدة دعانا عبد الناصر للاجتماع به فى القاهرة . . وقال إنه يفكر فى إسناد رئاسة المجلس إلى عبد اللطيف بغدادى بصفته أقدمنا . . كيف غير عبد الناصر رأيه فى خلال يومين فقط . . وما الذى دعاه إلى ذلك؟ . . لا أعرف إلى الآن . . ولكن الذى يعرف جمال عبد الناصر يعرف أنه كان يمكن أن يغير رأيه فى آخر لحظة ، ولذلك كان بعضنا يحرص على ألا يذيع رأياً أو قراراً لعبد الناصر إلا بعد أن يعلنه عبد الناصر بنفسه على الناس أجمعين .

طبعاً لم أهتم أنا برجوع عبد الناصر عن قراره فى مسألة تعيينى رئيساً لمجلس الأمة ، فأنا عضو به على أى حال – ولم أكن فى حياتى أسعى إلى منصب أو مركز ما . . ويكفى أننى عندما انتخب عبد الناصر رئيساً للجمهورية كنت أول من اعتذر له عن الاشتراك معه فى الوزارة . . بل وطلبت منه صادقاً أن لا يعهد إلىّ بمنصب من مناصب الدولة . .

كان لابد على أى حال أن يتولى منصب وكيل المجلس أحد الضباط الأحرار فعرض عبد الناصر هذا على أكثر من واحد ولكن الجميع رفضوا . . فلم يجد مفراً من أن يتقدم بهذا الطلب إلى . . وقبلت . . وقد تعجب إخوانى كيف أقبل العمل تحت رئاسة البغدادى وقد كنا – على الأقل – زملاء فى مجلس الثورة لا يتميز أحدنا عن الآخر فى شىء . . طبعاً لم يكن هذا تفكيرى . . فلم يحدث فى حياتى أن ميزت عملا عن آخر – مادام العمل من أجل مصلحة مصر – وسواء كنت عضواً بالمجلس أو رئيساً أو وكيلا له . . فالعمل عندى يتساوى والعبرة بالعمل لا بالمنصب . .

فى أواخر سنة ٥٧ جاءتنا دعوة من البرلمان السورى الذى كان يرأسه أكرم حورانى لزيارة دمشق . . قبلنا الدعوة واتفق جمال مع البغدادى على أن أرأس الوفد المسافر إلى سوريا — وفعلا سافرنا فى نوفمبر سنة ٥٧ ووجدنا المسائل تتصاعد بسرعة مذهلة — كان شكرى القوتلى فى ذلك الوقت رئيساً للجمهورية ولكن كان الجيش مختلفاً عليه — والجيش ممزق إلى فرق وكل فريق عليه أن ينام فى المعسكر الخاص به خشية حدوث أى انقلاب فالجميع يتربصون بعضهم بالبعض .. المهم . . فوجئنا فى أوائل فبراير سنة ١٩٥٨ بخمسة من قادة القوات السورية يصلون إلى القاهرة ويلتقون بعبد الناصر فى نفس الليلة التى وصلوا فيها ويطلبون الوحدة مع مصر . . حاول عبد الناصر جاهدا أن يثنيهم عن عزمهم إذ لا يمكن أن تتم الوحدة هكذا فجأة وبدون تمهيد . . خاصة وأن البلدين مختلفين فى أوجه كثيرة . . ولكن عبثاً حاول ليلة بعد أخرى إلى أن كانت الليلة الثالثة فلم يجد أمام اصرارهم مناصاً من الموافقة على الوحدة — فعقدت فى ٢٢ فبراير سنة ١٩٥٨ .

معظم البلاد العربية لم تستقبل الوحدة بارتياح . . فالسعودية على وجه الخصوص كان يهمها أن تظل سوريا محايدة لا تنضم إلى أحد ، فبين البلدين حدود مشتركة . . ولذلك كانت السعودية تصرف رواتب منتظمة لبعض رؤساء الأحزاب والحكومات والوزراء فى سوريا حتى يظل الوضع القائم كما هو . . وبانضمام سوريا إلى مصر بدأ الخوف يتزايد فى البلاد العربية الأخرى خشية أن يفعل بها عبد الناصر ما فعل بسوريا . . وهكذا كان أيضا وضع الملك حسين فى الأردن والملك فيصل فى العراق وشمعون فى بيروت . . الكل يخشى القوة الجديدة التى ظهرت بالوحدة بين مصر وسوريا فقلبت الموازين فى المنطقة — ليس فقط بالنسبة للبلاد العربية بل بالنسبة لإسرائيل أيضاً والإمبريالية الغربية . .

بالصدفة ، وقبل أن تتم الوحدة بأيام ، كان الملك فيصل رحمه الله (وكان ولياً للعهد) فى زيارة مصر . . كان فى ذلك الوقت ما زال أميراً وكنا أصدقاء اعتدنا فى زياراته المتكررة لمصر أن نتناول طعام عشائنا البسيط فى بيتى بالهرم . . وفى هذه المرة قال لى فيصل على مائدة العشاء :

« أنتم رايحين فين ؟ » . . مشيراً بذلك إلى الوحدة مع سوريا . . فقلت له : « العملية انتهت خلاص » . . قال : — « أنا فى عرضك قل للأخ جمال ان البلاد دى عشائر واحنا أدرى بيها منكم . . هذه الوحدة لن تستمر ولن تتمشى مع التيارات السياسية هنا وستضركم . . أنا واثق من هذا وأنا باكلمك كصديق وأخ . . الوحدة دى حاتخدوا فيها ضربة » . .

أنصت طبعاً إلى كلام فيصل فقد كان مخلصاً فى نصيحته . . وكان دائماً شخصية متزنة عاقلة . . ثم هو قبل هذا وذاك صديق حقيقى فعلا . . ولكن ماذا كنت أستطيع أن أفعل ؟

قلت له : يا فيصل دى انتهت خلاص . . بعد غد سيأتى القوتلى وستعلن الوحدة ولا رجوع فيها الآن . .

قال : أنا باكلمك علشان أريح ضميرى . . ولكن ثق — وسوف أذكرك — هذه الوحدة ستنتهى بكارثة . .

وقد حدث فعلا . .

المهم . . جاء يوم ٢٢ فبراير ووقف جمال والقوتلى فى شرفة مجلس الوزراء حيث ألقى كل منهما خطاباً يعلن فيه قيام الوحدة . . وقبل ذلك بدقائق كان جمال والقوتلى قد وقعا على وثيقة الوحدة وكنت أنا ضمن الموقعين أيضاً نزولا على رغبة عبد الناصر برغم أننى لم أكن فى ذلك الوقت أشغل أى منصب رسمى فى الحكومة . .

بعد ذلك حل مجلس الأمة فى مصر ونظيره فى سوريا . . تمهيداً لتشكيل مجلس موحد بين البلدين . . ثم أعددنا طائرة كوميت عادية من طائراتنا استقلها عبد الناصر وأنا بصحبته وسافرنا بها فى منتهى السرية إلى دمشق خشية أن يتسرب خبر السفر إلى إسرائيل ، فقد كان وقع الوحدة عليها كالكارثة تماماً . حتى أن بن جوريون لم يستطع أن يخفى هذا فكان من تصريحاته المشهورة أن مصر وسوريا قد وضعتا إسرائيل فى كسارة البندق . .

وصلنا دمشق وقضينا أسبوعاً بقصر الضيافة هناك . من الصعب علىّ أن أصفه — فقد كان عبارة عن هذيان لا ينقطع ليل نهار ولا يتوقف لحظة واحدة —

كان عبد الناصر يخطب إلى أن يصيبه التعب . . ثم يخطب القوتلى – ثم أخطب أنا . . وهكذا واحداً بعد الآخر نواصل الخطابة ومعنا بعض الزملاء من قادة الشعب السورى لا نتوقف . . والشعب السورى ينصت إلينا ويطلب المزيد . . لا يمل ولا يشبع وكل ما كان يقال مقبول وعظيم يلهب الحماس وترتفع له الحناجر بالهتافات ولا تكل الأيدى عن التصفيق إعجاباً واستحساناً تطلب المزيد . . أسبوعاً بأكمله لم تتزحزح فيه جماهير الشعب المختلفة حول قصر الضيافة شبراً واحداً . . فكانوا يأكلون ويشربون وينامون وهم وقوف أو جلوس فى أماكنهم بالميدان الذى يطل عليه القصر . . ومن نفس هذا الميدان فى نهاية الأسبوع أعلنا الدستور المؤقت . . أعلنته أنا بصوتى فقرأت مواد الدستور مادة مادة . . والناس تحت شرفة القصر سكارى بالحماس يهللون ويكبرون لكل فقرة وكلمة ومقطع من كلمة .

٤

فى يوم ١٤ يوليو سنة ٥٨ كان عبد الناصر فى طريق عودته من جزيرة بريونى حيث كان فى زيارة للمارشال تيتو ، عندما تلقى رسالة من عبد الحكيم عامر نائبه فى مصر يخبره فيها أن الثورة قد قامت فى العراق ، وفى نفس الوقت تلقى رسالة أخرى من تيتو ينصحه فيها بأن يقطع رحلته ويعود إلى بريونى ، فالأسطول السادس فى البحر الأبيض وقد يعتدى عليه الأمريكان نتيجة لثورة العراق . . اتصل عبد الناصر بتيتو فوراً ليجهز له طائرة فى مطار (بولا) ثم استقل الطراد الذى كان يحرس يخته وانطلق عائداً إلى بريونى فى حين واصل اليخت وعليه عائلة عبد الناصر رحلته إلى الإسكندرية .

من مطار (بولا) فى يوغوسلافيا أخذ عبد الناصر الطائرة واتجه إلى موسكو حيث التقى بخروشوف وطلب منه مساندة ثورة العراق ضد ضغوط الغرب وتآمره وشراسته التى بدأها بعدوان سنة ٥٦ .

وكما قال لى عبد الناصر شخصياً – استمر الحديث بينه وبين خروشوف ١٦ ساعة كاملة حاول فيها عبد الناصر إقناع خروشوف بنجدة الثورة العراقية

ولكن عبثاً ذهبت كل محاولاته . . فقد رفض خروشوف تقديم أى نوع من المساعدة . . نفس ما حدث فى سنة ٥٦ عندما حاول شكرى القوتلى حث السوفييت على مساعدتنا ضد العدوان الثلاثى . .

خرج عبد الناصر من هذا اللقاء وهو حزين حزناً عميقاً لم يطلع عليه أحداً إلا أنا وعامر ثم توجه إلى دمشق حيث أعلن على الشعب السورى والعربى فى كل مكان أن الاتحاد السوفييتى يقف إلى جانب ثورة العراق وذلك تغطية لموقف السوفييت ومحاولة منه لإيهام الغرب بأن ثورة العراق لها من يساندها . .

بقى عبد الناصر فى دمشق فترة إلى أن استتبت ثورة العراق ثم عاد إلى القاهرة ولكنه أثناء زيارة أخرى لدمشق عام ٥٩ فوجىء بهجوم عنيف من جانب خروشوف على الوحدة بين مصر وسوريا . . فكلنا نعرف أن النظرية الشيوعية لا تعترف بالوطنية ولا بالقومية . . تصدى جمال لهجوم خروشوف وهو فى دمشق واتصل بى من هناك لشن حملة مماثلة وكنت وقتها سكرتير الاتحاد القومى (التنظيم السياسى الوحيد) فألقيت خطاباً فى ميدان عابدين – ثم ذهبت إلى الإسكندرية حيث ألقيت خطابا كان مشهوراً فى ذلك الوقت بعنفه عبأت فيه الشعور ضد السوفييت كما لم يعبأ من قبل – وقد روى لى جمال بعد عودته من دمشق أنه لما بدأ المعركة ضد السوفييت ، اتصلت به وكالة المخابرات المركزية الأمريكية وقالت إن الأمريكان يضعون كل إمكانياتهم تحت أمره وإنهم على استعداد لتقديم أية معونة يطلبها فقال لهم إنه سيحارب معركته وحده وإن كل ما يطلبه من أمريكا هو أن تعينه بالنسبة للقمح والزيوت وما شابه ذلك . . وفعلا كانت المعونة الأمريكية تقوم بدور هام فقد كانت توفر لنا الكثير من الميزانية بحيث أنها لما توقفت فى سنة ٦٥ كان لذلك أثر على الاقتصاد المصرى . .

بعد قيام ثورة العراق بفترة استولى على الثورة عبد الكريم قاسم . . وهو عميل شيوعى مسجل بالحزب الشيوعى فألقى السوفييت بكل ثقلهم وراءه . . وكان هذا أحد العوامل التى دعتهم إلى تصعيد حملتهم ضدنا وضد الوحدة

مع سوريا . . وهى الحملة التى قابلناها بالمثل – فكلما صعدوا صعدنا ، مما جعل خروشوف يقول مقولته المشهورة وهى مثل روسى شعبى قديم مؤداه « لا تبصق فى بئرك لأن مصيرك أن تشرب منه مرة ثانية » . يقصد بهذا نصح عبد الناصر بأن لا يعكر علاقاته مع السوفييت لأنه سيضطر إن عاجلا أو آجلا إلى أن يعود إليهم .

٥

بانتهاء الخمسينات ودخول الستينات بدأت الثورة فترة المعاناة والآلام والهزائم والنكسات والأخطاء البشعة من جانبنا . . وكما أقول دائماً – كما كانت ثورة ٢٣ يوليو عملاقة فى إنجازاتها فى الخمسينات فإنها كانت عملاقة فى أخطائها فى الستينات . .

الشيء المضيء الوحيد فى سنة ٦٠ كان إتمام كهربة خزان أسوان القديم ثم التفجير الأول لبدء السد العالى بحضور الملك محمد الخامس ملك المغرب الله يرحمه . . فيما عدا ذلك بدأت الصراعات تطفو على السطح فيما بين أعضاء ما كان يسمى بمجلس الثورة ويجب أن أقرر هنا أنى إلى هذه اللحظة لا أستطيع أن أدرك لماذا كان عبد الناصر يترك خلفه كمية رهيبة من الأحقاد . . أما بالنسبة لى فلم يكن هذا حالى فى يوم ما فلا أذكر أنى حقدت يوما على عبد الناصر رغم أن بعض تصرفاته معى كان يمكن لغيرى أن يفسرها تفسيرا سيئاً . . ولكنى لم أكن أريد شيئاً لنفسى ولذلك لم أعرف الحقد . . أما بالنسبة للآخرين فأنا أعرف أن كلا منهم كان بل وما يزال يحمل فى نفسه كمية هائلة من الحقد على عبد الناصر . . حتى عبد الحكيم عامر صديق العمر الوحيد لعبد الناصر انتهت علاقته بعبد الناصر فى أواخر أيام حياته إلى عملية حقد رهيبة .

المهم . . بدأنا الستينات بأحقاد تطفو على السطح وفى نفس الوقت فوجئنا بالوحدة مع سوريا وقد بدأت تتفكك . . كان قد انقضى على قيام الوحدة عامان وضح بعدهما أن الأمور غير مستقيمة . . كنا قد ألغينا الأحزاب فى سوريا

وكان من ضمنها حزب البعث الذى قبل مع الأحزاب الأخرى عملية الإلغاء آملا أنه (أو أى حزب سورى آخر) سوف يستطيع أن يحقق ما يريد من خلال الوحدة . . فلما اتضح أن هذا غير ممكن بدأوا يتذمرون بالاتحاد القومى ويتآمرون على الوحدة . . أحس عبد الناصر بهذا فى سنة ٦٠ ولكنه لم يكن يستطيع أن يمنعه . . كان يشعر أنه أمام طريق مسدود وأن أمراً ما سوف يحدث ليدمر هذه الوحدة بل ربما دمر الأوضاع فى مصر نفسها . .

فى نفس هذه السنة أصيب عبد الناصر بمرض السكر نتيجة لحالة اليأس والعجز التى وجد نفسه يواجهها ويشاء الله أن أصاب أنا أيضاً بنوبة قلبية فى ١٥ مايو من نفس السنة . . نتيجة الإرهاق سنوات عديدة متتالية وللإرهاق الذى أصابنى فى تلك السنة بالذات عندما ذهبت إلى كوناكرى كرئيس لمؤتمر التضامن الآسيوى الإفريقى حيث طفا على السطح لأول مرة الخلاف بين الاتحاد السوفييتى والصين الشيوعية .

قبل أن أذهب إلى كوناكرى كنت قد تركت الاتحاد القومى لأننى شعرت أن عبد الناصر قد بدأ يأخذ موقفاً منى ربما نتيجة لوشايات مغرضة وصلته – فقد كانت لديه عادة الاستماع إلى الوشايات وعندما تمس شخصه أو بيته أو أمنه يصبح من السهل التأثير عليه . . المهم أنى كالعادة فى مثل هذه الأحوال كنت أنا أيضاً آخذ موقفاً منه فأعتكف أو أبتعد عنه إلى أن يعود الصفاء إلى نفسه فيتصل بى . . وتزول الجفوة . .

وكان هذا ما حدث هذه المرة فبعد عودتى من كوناكرى ومرضى جاء لزيارتى . . وكان صلاح سالم قد أشاع فى تلك الأيام أن سبب إصابتى بالقلب كان عبد الناصر فسألنى إذا كان ما يشيعه صلاح سالم صحيحاً . . فقلت له : لا . . غير صحيح فالسبب على ما أرجح هو تراكم سنوات عديدة بأكملها من الإرهاق والتعب الشديد قبل الثورة وبعدها ثم مناخ كوناكرى الحار الشديد الرطوبة الذى عانيت منه كما لم أعانى من شيء فى حياتى . .

٦

فى صيف سنة ٦٠ طلب منى عبد الناصر أن أرشح نفسى لرئاسة مجلس الأمة الإتحادى الذى كان أعضاؤه مصريين وسوريين أى كان بمثابة برلمان للوحدة ففعلت وانتخبت رئيساً للمجلس وكان هذا أول عمل أباشره بعد فترة نقاهتى من النوبة القلبية التى أصابتنى . . وفى نفس الوقت تقريباً عين عبد الحكيم عامر قائداً عاماً للجيشين الأول والثانى — أى الجيش السورى والجيش المصرى — برتبة مشير وخلع عليه عبد الناصر لقب نائب رئيس جمهورية . .

دخلنا سنة ٦١ والطريق المسدود الذى سلكته الوحدة يزداد انسداداً ، فالأحزاب كلها قد بدأت تنشط والتذمر السياسى أخذت رقعته تتسع . . فقد كان عبد الناصر يعتمد فى سوريا على شخص واحد هو عبد الحميد السراج — وكان الشعب السورى قبل الوحدة يعانى مما كنا نعانى منه فى مصر إلى وقت غير بعيد من كبت للحريات وسجن وتعذيب وإهانات وتصفيه جسدية تبلغ حد القتل — فبعد أن تمت الوحدة كان أملهم كبيراً فى أن تتغير الأحوال ولكن هذا لم يحدث للأسف ، فلما استمر الحال على هذا المنوال بدأت الناس فى سوريا تضج وتضيق وتزداد شقاء وسخطاً ، وفكر عبد الناصر وتشاور معنا فى أن يرسل إلى سوريا عبد الحكيم عامر بصفته الرجل الثانى فى الدولة الجديدة وقائد عام قواتها المسلحة عسى أن تستقيم الأمور هناك وتجتاز الوحدة الطريق المسدود الذى وصلت إليه . . ووافقناه على رأيه . . وفعلا سافر عامر إلى سوريا رغم أن عبد الناصر كان قد ترك بها عبدالحميد السراج كما هو . . وكان هذا خطأ فاحشاً لأن السراج كان يعتبر نفسه أحق من عامر بحكم سوريا . .

كانت لعبد الحكيم عامر أخطاؤه بطبيعة الحال ولكن الأهم من ذلك أنه كان يسىء اختيار معاونيه بشكل فاضح . . وكان من أبرز ملامح شخصيته روح القبيلة فهو يساند من يعاونه على حق كان أم باطل .

ونتيجة لكل هذا نشب صراع خفى بين عامر والسراج . . ثم أخذ يتصاعد إلى أن نزل إلى رجل الشارع فى دمشق . . بينما كان عبد الناصر كعادته

يناصر عامر ظالماً أو مظلوماً . . فإذا أضفنا إلى هذا أن الملك سعود دفع سبعة ملايين جنيه أوصلها الملك حسين ملك الأردن للمتذمرين والمتآمرين فى سوريا ثم القوانين الإشتراكية التى أصدرها عبد الناصر فى ٢٣ يوليو سنة ٦١ وأثرها على المجتمع السورى الذى هو بطبعه تجار لأدركنا مدى سخط الشعب السورى على عبد الناصر والوحدة وهو السخط الذى بلغ أقصاه عندما صحا الناس فى دمشق فى يوم ٢٦ سبتمبر سنة ٦١ على وحدات من الجيش السورى وهى تحاصر القيادة العسكرية هناك . . كان عبد الحكيم يعيش فى فيلا ملاصقة فهرع إلى القيادة . . ولكن الجيش السورى ضيق الحصار عليه وبدأوا يكلمونه عن طريق الميكرفون مهددين متوعدين ثم بدأوا فى إصدار بلاغات حربية — بلاغ رقم ١ ، بلاغ رقم ٢ . . . إلخ . . وكأن البلاد فى حالة حرب — علم عبد الناصر بهذا فحاول إنقاذ الموقف . . ولكن عبثاً ذهبت كل محاولاته بعد أن ألقوا القبض على عامر وشحنوه فى طائرة إلى مصر . . وبهذا تم الانفصال وذهبت الوحدة بين مصر وسوريا كأنها لم تكن . . وتحققت نبوءة فيصل لى .

٧

على مستوى رجال الثورة كان الانفصال شماتة كبيرة فى جمال عبد الناصر وعبد الحكيم عامر — أما على المستوى الشعبى فقد بدأت الناس تتململ وتسأل : لماذا حدث هذا ؟ ومن المسئول ؟ صحيح أن الانفصال قد سبقته بفترة وجيزة القوانين الاشتراكية (صدرت فى ٢٣ يوليو ١٩٦١ ووقع الانفصال فى ٢٦ سبتمبر ١٩٦١) تلك التى صدرت من أجل مصلحة الجماهير . . ولكن مجموع الشعب كان ما زال يفتقد شيئاً هاماً فى حياته . . وهو الحرية . . فعندما لا يكون الإنسان آمنا على نفسه لا يمكن أن يعوضه شىء عن هذا . .

هذه حقيقة لم يدركها عبد الناصر إلى يوم أن مات . . كان يتصور أن الشعب مرتاح وسعيد وراض عن أسلوب الحكم لأن الناس عندما تراه كانت تهتف له وتهلل وتصفق . . ولكنه نسى أن فى ضمير كل مواطن — حتى فى الطبقات

التى كان يعتقد أنه يخدمها — حقيقة أساسية تطغى على كل حقيقة أخرى . .
وهى الإحساس بالحاجة إلى الحرية والأمن .

بعد عودة عامر من سوريا بعد أن عومل معاملة مهينة التى بعبد الناصر وقال إنه لا يستطيع أن يستمر كقائد عام للقوات المسلحة بعد الإهانات التى وجهت إليه من جيش سوريا فكرامته كقائد عام لا تسمح له بالاستمرار فى عمله . . رحب عبد الناصر بهذا أشد الترحيب فقد كان ينتظره أو يتمناه منذ معركة سنة ٥٦ وبعد الموقف المتخاذل الذى وقفه عامر آنذاك والحالة التى كانت فيها القوات المسلحة فى ذلك الوقت وعند الانفصال ، ولكنه لم يشأ أن يظهر لعامر ترحيبه باستقالته حتى لا يتراجع فيها فقد كان كل منهما يعرف الآخر حق المعرفة ويتربص بالآخر فى غيابه وحضوره . .

انقضى أسبوع بعد ذلك وعامر لا يذهب إلى القيادة وعبد الناصر يجهز الخطاب الذى سيلقيه ليعلن أن هذا هو الطريق الذى اختارته سوريا فليحفظها الله ويبارك خطواتها وعلى الجميع أن يحترموا إرادتها وما اختارته . . وفعلا ألقى عبد الناصر خطابه وكان له صدى طيب فى البلاد العربية ، ولكنه لم يمض يوم أو يومان بعد ذلك إلا ويفاجأ بعبد الحكيم عامر يطلب منه سد حاجات النقص فى القوات المسلحة وغير ذلك مما يشير إلى أنه مستمر فى عمله كقائد عام . . حينئذ أسقط فى يد عبد الناصر ولم يدر ماذا يفعل . . طبعاً كان وراء تراجع عبد الحكيم مستشاروه من أمثال شمس بدران وبعض خاصته وأهله وكان لهم تأثير سىء عليه . . وإحساسه بأنه شريك عبد الناصر فما دام عبد الناصر يحكم ، يجب أن يظل عامر قائداً عاماً للقوات المسلحة . .

حينما سمع عبد الناصر هذا من عامر جن جنونه ، ولكنه أخفى شعوره ودعانا جميعاً للاجتماع به وطرح الأمر علينا . . قلنا له ببساطة إن هذا الأمر لا يحتاج إلى مناقشة فرأينا يا جمال أن عبد الحكيم كان يجب أن يترك القيادة منذ ٥٦ لا فى ٦١ . . صحيح أنه شهم ولطيف إلى آخره . . لكنه لا يصلح من ناحية العمل العسكرى . . باختصار قلنا جميعا وفى نفس واحد لجمال إن استبعاد عامر من الجيش مسألة مفروغ منها ولا تقبل الجدل .

لم يمنعنا هذا بطبيعة الحال من أن نتساءل فيما بيننا بعد خروجنا من الاجتماع لماذا استدعانا جمال عبد الناصر ؟ فقد كان من الطبيعى وهو رئيس للجمهورية أن يصدر بعد الانفصال مباشرة قرارا بتعيين قائد عام جديد للقوات المسلحة والاكتفاء بأن يكون عامر نائباً لرئيس الجمهورية كما كان . . اتضح لنا فيما بعد أن عبد الناصر كان يريد أن يأخذنا كرأى عام ضد عامر . . بينما لم تكن المسألة فى نظرنا تحتاج إلى هذا . . فنحن لسنا الشعب . . أما الشعب فقد كان يطالب برأس المسئول عن السبب فى كل هذا . .

بعد خروجنا قام عبد الناصر باستدعاء عامر وجعلا يناقشان الأمور فيما بينهما . . وبعد عدة اجتماعات بينهما اختفى عامر فاستدعانا عبد الناصر مرة أخرى وقال لنا إنه أبلغ عبد الحكيم بالقرار الذى اتخذناه ولكنه رفض الاستجابة له . . ثم اختفى حيث لا يعلم أحد ولو أنه عرف بعد ذلك أنه كان فى مرسى مطروح . . كان ردنا على عبد الناصر أنه لو تراجع فى القرار الذى اتخذناه بالإجماع فهو بصراحة يتنكر لمصلحة مصر . . ثم لماذا يسألنا الرأى . . إنها مسئوليته وحده كرئيس للجمهورية .

فى هذه الأثناء — وإغاظة فى عبد الناصر — قدم عامر له الاستقالة المشهورة التى طبعها بعد ذلك فى سنة ٦٧ وقال فيها إنه استقال من أجل الديمقراطية فى سنة ٦٢ وغير ذلك من أمور كان يعلم جيداً أنها تثير حنق عبد الناصر . فمثلا قال إنه لا يقبل أن تحكم البلد هكذا بدون أحزاب وبدكتاتورية مطلقة . .

كان عامر يعرف جيداً أن عبد الناصر لن يقبل أن تخرج هذه المسائل إلى البلد لأن الشعب كله كان يريد الديمقراطية . . فإذا قبلت هذه الاستقالة . . ستجعل من عامر بطلا قومياً . . فاستدعانا عبد الناصر مرة أخرى وعرض علينا الاستقالة — وكان ردنا عليه أنه هو الرئيس المسئول وما كان بحاجة إلى أن يستدعينا قبل ذلك أو فى هذه المرة . .

أرسل عبد الناصر فى طلب عامر والتقيا . . وهنا تظهر علامة استفهام كبيرة فى علاقات عبد الناصر وعامر . . فقد حدث عكس ما كنا نتوقعه تماماً . . إذ اتفقا على أن يترك عامر منصب قائد عام القوات المسلحة ويتسلم

منصباً آخـــر اسمه نائب القائد الأعلى للقوات المسلحة . . فالقائد الأعلى هو دائماً رئيس الجمهورية — وهـــذه وظيفة شرفية حسب الـــدستور ولكنها ليست كذلك فى وقت الحرب . . فالقائد الأعلى عليه أن يوقـــع أمر القتال كما عليه أن يوقع الأمر الاستراتيجى لقائد القوات المسلحة الذى يحدد فيه استراتيجيته للمعركة ، ومع ذلك أصر عامـــر على أن يتولى القيادة الفعلية — فلا يعين قائد عام بدلا منه . . وقد سلم له جمال بذلك بينما كان ينوى أن يعين محمد فوزى قائداً عاماً فى ٢٣ يوليـــو سنة ٦٢ (وكنا فى ذلك الوقت فى ديسمبر سنة ٦١) فلمـــا أتى ٢٣ يوليو ، وجدنا أن الوضع ما زال كما كان .. فما زال فوزى رئيس أركان حـــرب وجميع الضباط الكبار الذين كانوا مع المشير عامر كما هم لم يتغيروا — فبدأنا نتساءل فيما بيننا . . فيم كان إذن استـــدعاء عبد الناصر لنا وأخذه مشورتنا المـــرة بعدالأخرى ؟ لقد عادت المياه إلى مجاريها بين عبد الناصر وعامر وكأن شيئاً لم يكن . . كل ما حدث هو أن رقى عامر من منصب قائـــد عام القوات المسلحة إلى نائب القائد الأعلى بسلطات القائد العام . .

واستمر الحـــال على ما هو عليه حتى وقعت كارثة ٦٧ . .

ولما كان عبد الناصر قد أبلغ عبد الحكيم بأن الذى اتخذ قرار تنحيته عن القوات المسلحة هم إخوانه أعضاء مجلس الثورة — بدأت المياه بيننا وبينه تتعكر . . ولكنه بعـــد أن فكر فى الأمر مليا اهتدى إلى أننا لم نتخذ هذا القرار وحدنا فلابد أن عبد الناصر هو الذى دعانا إلى اتخاذه — أضف إلى هذا أنه عرف بالاجتمـــاع الذى تم بيننا وبين عبد الناصر فى بيته ، ولذلك نجد أن عبد الحكيم عامر بدأ منذ ذلك الوقت — أى أول سنة ٦٢ — بأخذ احتياطه من عبد الناصر كما بدأ عبد الناصر بأخذ احتياطه من عبد الحكيم بدلا من أن يحسم الأمور كرئيس للجمهـــورية وهكذا نشأ أول مركز قوة فى مصر يباشر عملـــه بصراحة . . فقد أصبح هم عامـــر الأول أن يؤمن نفسه ضد عبد الناصر بعـــد ما تأكد لديه المعنى الذى كان دائم الاحساس به وهو أن هناك صراعاً وعدم ثقة وفجـــوة بينه وبين عبد الناصر وبينه وبين الباقين من مجلس قيادة الثورة . .

وهكذا نجد أن الصراع الذى بدأ فى أول الستينات قد ازداد اتساعاً وازداد معـــه التمـــزق لأن الحقد أصبح دفيناً بين عبد الناصر وعامـــر ، وعامر

وحده والباقين ، وعبد الناصر وحده والباقين وأنا واقف أتأمل موكب الصراع هذا وقلبى يتمـــزق ألمـــاً . .

كان هـــذا الموقف هو المقدمة الأولى لهزيمة ٦٧ . . فقد انصرف عبد الحكيم عامر إلى تثبيت مركـــزه ليس فقط داخـــل القوات المسلحة بل فى البلـــد كلها . . وهكذا دخلت مصر أسوأ دوامة يمكن أن تدخلهـــا . .

فالقوات المسلحة التى فاجأها الانفصال وهى فى حالة عدم استعداد زاد فيها الإهمـــال ثم جاءت حرب اليمن فبدلا من أن تكون مجال تدريب وتجهيز لقواتنا المسلحة أصبحت عملية انتفاع واستغلال . . ولم يكتف عامـــر بهذا فلكى يثبت أقدامـــه فى جميع المجالات سعى إلى أن يعهـــد بالمؤسسات المدنية إلى الضباط وكذلك كان لابد أن يكون رؤساء المؤسسات من الضباط السابقين — ونفس الشىء بالنسبة لرؤساء المدن وجميع المراكز الحساسة فى البلـــد حتى الشقق عندما تكون خالية يتدخل الجيش فى توزيعهـــا . .

كان عبد الحكيم عامر يتصور أنه بهـــذه الإجراءات يثبت نفسه عند الشعب ولكنه لم يكن يعلم أن العكس هو الذى حدث . . فقد زادت هذه التصرفات من سخط الناس عليه وتبرمهم بالنظام بأجمعه . . وفى أعقاب الإنفصال كانت البلـــد ممزقة نتيجة لكبت الحـــريات وعدم وجود الديمقـــراطية بأى شكل من الأشكال . . ممـــا شجع العناصر الغير راضية على أن تتحرك وهكذا ازداد تململ الشعب وقلقه . . وقد صور كل هذا إلى عبد الناصر على أنه ثورة مضادة وبناء عليه فرضت الحراسات على السياسيين القدامى . . ولكن لم يكن هذا الإجراء كافياً لامتصاص غضب الناس وتذمرهم بل على العكس ربما زاده وعمقه . . ولذلك لجأ عبد الناصر إلى إجراء آخر وهو إنشاء لجنة تأسيسية أو كما أسموها لجنة حوار مكونة من أكثر من مائتى شخص أغلبهم من المثقفين . . عهـــد بأمانتها إلىّ وكنا نجتمـــع فى قاعـــة مجلس الأمة وكان عبد الناصر يحضر أغلب جلسات هذه اللجنة ويشترك فى مناقشاتها التى نشرت على الناس فى الصحف فقد كان الهدف من العملية كلهـــا أن يظهـــر عبد الناصر بمظهـــر من يشارك الناس همومهم ويسعى إلى حـــل مشاكلهـــم ولذلك نجده يرحب بما استقر عليه رأى

اللجنة فى النهاية وهو إصدار ما يسمى بالميثاق يحدد فيه خط الثورة وأهدافها وسياستها فقد كان هجوم أعضاء اللجنة من المثقفين منصباً على عدم وجود أى منهج وفعلا وضع الميثاق وتقدم به عبد الناصر إلى المؤتمر القومى الكبير الذى عقدناه .. وقرأه مادة مادة وصدق عليه الحاضرون وحقق بعض الغرض من صدوره فقد شغل الناس بمحاولة استيعابه وتفهم النواحى الأيديولوجية التى كان يحتويها .

فى هذه الأثناء كان التنظيم السياسى موجوداً ولكنه كان بالتعيين لا بالانتخاب فهو أعرج لا يملك من أمر نفسه الكثير .. لذلك نجده لا يقوى على أن يضع الميثاق موضع التنفيذ .. لقد صدر الميثاق فعلا وأصبح يدرس فى منظمات الشباب والجامعات ولكن شيئاً مما نص عليه لم ينفذ . .

٨

فى صيف سنة ٦٢ عقد فى لبنان مؤتمر شتورة الذى ضم السعودية وسوريا والأردن والعراق ولبنان بقصد مهاجمة مصر وعزلها ثم ضرب النظام .

موقف مؤسف للغاية – ولكن يشاء الله أن تقوم ثورة اليمن بعد ذلك بفترة وجيزة فى ٢٦ سبتمبر سنة ٦٢ (وهو تاريخ الانفصال قبل ذلك بسنة) فكانت هذه فرصة مناسبة لردع الملك سعود الذى مول الإنفصال والذى كان فى ذلك الوقت يتزعم الحملة ضدنا ، فاليمن على حدوده مباشرة . . ولذلك عندما اجتمع مجلس الرئاسة هنا للنظر فى طلب ثوار اليمن للنجدة كنت أول المتحمسين وأقنعت المجلس بضرورة مساندة الثورة – وفعلا تم هذا .

كنت أنا المسئول عن الجانب السياسى فى الثورة اليمنية وكان عامر هو طبعاً المسئول عن الناحية العسكرية – ولكنه كعادته أساء التصرف فبدلا من أن يجعل من حرب اليمن ميداناً لتدريب قواتنا على حرب العصابات وعلى تكتيكات جديدة ، انقلبت الحرب إلى تجارة ومنفعة وأصبحت مسرحاً جديداً يثبت عليه عامر أقدامه وينشر نفوذه بحيث لا يستطيع أحد أن يزحزحه عن مكانه كمركز القوة الأول فى مصر . . هذا إلى جانب أنه تورط فى المعونة العسكرية

من لواء إلى لوائين إلى أن أصبح لنا فى يوم من الأيام ٧٠ ألف جندى هناك لم يتم سحبهم إلا بعد هزيمة ٦٧ عندما اتفق الملك فيصل مع عبد الناصر فى مؤتمر الخرطوم على ذلك . .

فشلت حرب اليمن عسكرياً فقد كنا نحارب بجيش نظامى عدواً متمرساً فى حرب العصابات ، ولكن رغم كل شىء لا أستطيع القول بأن تضحياتنا ذهبت هباء ، فاليمن قد تخلصت من حكم الإمام الذى كان أسوأ من أى حكم فى العصور الوسطى . . ثم إن عدن نالت استقلالها كنتيجة طبيعية لمعركتنا فى اليمن .. صحيح أن الحرب قد استنفدت جزءاً كبيراً من رصيدنا من العملات الصعبة ، وأنها عاقت فرقتين من أكفأ الفرق العسكرية عندنا عن الاشتراك فى حرب ٦٧ . . ولكن هذا كله لا ينفى أن التدخل فى ثورة اليمن كان ضربة سياسية لابد منها . . فقد كانت من العوامل الهامة التى كبحت جماح سعود وهزت مكانته بين أهله وعائلته مما أدى فى النهاية إلى أن يحل الملك فيصل مكانه . . وكان هذا مكسباً رائعاً لا للسعودية فحسب بل للقومية العربية كلها .

٩

فى سنة ١٩٦٥ كانت حالة البلاد الداخلية قد وصلت إلى مرحلة يرثى لها فعلى صبرى كرئيس للوزراء لا يتخذ قراراً فى أى شىء . . لأنه بطبعه يخشى المسئولية وربما لهذا السبب وقع اختيار عبد الناصر عليه . . فعبد الناصر بطبيعته الديكتاتورية كان يتطلب من رئيس وزرائه أن يكون مجرد مدير مكتب ينفذ أوامره وحسب . . وهكذا كان على صبرى . . فإذا أضفنا إلى هذا ميله الطبيعى إلى التجسس على الناس وتدبير المؤامرات والعمل فى الخفاء لأدركنا سر تبرم الناس به . . فماذا يمكن للبلد أن تستفيد من حكومة هذا شأن رئيسها . . ومما جعل الحالة تزداد سوء أن مشاكل الخدمات عندنا من تليفونات ومواصلات وإسكان وخلافه أخذت تؤجل ابتداءً من سنة ٦٢ على أساس حلها بخطط طموحه لم تكن قابلة للتنفيذ . . مما جعل هذه المشاكل تزداد

وتراكم سنة بعد أخرى . . بحيث أصبح من العسير حلها . . وكان العذر الذى يتذرع به المسئولون فى هذا أن الخدمات والمرافق يمكن التضحية بها فى سبيل إقامة مصانع للانتاج بالاشتراك مع السوفييت .

فى نفس السنة قطع جونسون المعونة الأمريكية عن مصر . . فوضعنا فى موقف حرج . إذ كشف بهذا خططنا فقد كنا معتمدين على أمريكا فى القمح الذى كنا نستورده منها بالجنيه المصرى فيوفر لنا حوالى ٨٠ مليون استرلينى نستفيد منها فى مشاريعنا .

لم نجد إزاء قطع المعونة الأمريكية سوى أن نلجأ إلى الاتحاد السوفييتى فذهبنا إلى موسكو فى سبتمبر ١٩٦٥ . . عبد الناصر وأنا وزكريا محيى الدين . .

كان قد حدث تغيير فى القيادة السياسية للاتحاد السوفييتى سنة ٦٤ عندما عزل خروشوف . . الرجل الذى كان يدرك قوة مصر بعد معركتين لنا معه فى سنة ٥٩ ثم سنة ٦١ وبدأ يستجيب لمطالبنا واتخذنا منه صديقاً — إن لم يكن لأى سبب — فلأنه كان حاسماً صادقاً معنا لا يراوغ مثل من سبقوه . . لذلك حملنا حملة شديدة على السوفييت فأرسلوا لنا شيليبين الذى قام بالإنقلاب ضد خروشوف . . ليمهد الجو للمصالحة بيننا وبين السوفييت فلما ذهبنا إلى موسكو فى سبتمبر ١٩٦٥ وجدناهم — أى القيادة الجديدة — حريصين كل الحرص على إرضائنا لكى يصلحوا ما تركته عملية عزل خروشوف فى نفوسنا من ناحية ومن ناحية أخرى لكى يعادلوا أو يمحوا أثر زيارة (شواين لاى) لمصر التى استغرقت أسبوعين كان ينتظر فيها ما سوف يحدث بالنسبة لمؤتمر التضامن الآسيوى الأفريقى الذى كان من المفروض أن يعقد بالجزائر ثم قام بومدين بالانقلاب على بن بيللا قبيل انعقاد المؤتمر مباشرة .

كان هدفنا من زيارة موسكو أن نقنع السوفييت بتأجيل الأقساط التى علينا حتى يمكننا بما عندنا من مال تعويض قطع المعونة الأمريكية عنا وكذلك استكمال خططنا الطموحة . وقد استجاب السوفييت لمطالبنا بصورة لم نكن نتوقعها . . وكانت الديون التى علينا تعادل ٤٠٠ مليون جنيه استرلينى — فقرروا حلف نصفها بحيث يكون ما يتبقى لهم من ديون ٢٠٠ مليون جنيه فقط . . ونتيجة لهذا تخفض الأقساط بطبيعة الحال . .

١٠

استجاب عبد الناصر لمشاعر الجماهير فى نهاية سنة ١٩٦٥ فعزل على صبرى من رئاسة الوزارة وعين بدلا منه زكريا محيى الدين . . ولكن زكريا لم يمكث فى منصبه إلا شهوراً قليلة ، إذ سرعان ما اختلف مع عبد الناصر . . ولو أن وراء هذا الخلاف كان عبد الحكيم عامر الذى كان يكره زكريا ويفضل أن يرأس الوزارة رجل من أتباعه . . وقد تحقق له ما أراد فعين صدقى سليمان رئيسا للوزارة بدلا من زكريا . . ولكن هذالم يمنع عامراً من استمرار زحفه على السلطة حتى أصبح كل شىء فى البلد يعهد به إلى القوات المسلحة أو البوليس الحربى . . النقل العام مثلا فى حالة سيئة فيتبع للقوات المسلحة لاصلاحه — الثروة السمكية تشرف عليها القوات المسلحة وفى سنة ٦٥ عندما قيل إن هناك مؤامرة يدبرها الإخوان المسلمون تولى أمرهم البوليس الحربى وشمس بدران أهم معاونى عامر . . وكما اتضح بعد ذلك كان هناك تعذيب وإهانة وامتهان لكرامة الإنسان .

لا أستطيع أن أجزم بأن عبد الناصر كان على علم بما حدث . . ولكنى فى الوقت نفسه لا أستطيع تبرئته من المسئولية فالرئيس دائماً هو المسئول مهما كانت أخطاء معاونيه ومساعديه ومهما كانت نواياه هو .

وكالعادة فقد كان عبد الناصر يعتبر أن أى احتجاج أو اعتراض أو نقد أو حتى محاولة لتقصى الحقائق ومناقشتها أو مجرد التنفيس عما بالصدور ثورة مضادة . . ولابد من إجراءات لمواجهتها . . ولذلك فإنه بعد عملية الإخوان كان لابد فى نظره من إجراء مضاد ، وكان الإجراء هذه المرة أقسى وأعنف ما شهدته مصر فى تاريخها ، فقد شكلوا لجنة أطلقوا عليها اسم لجنة تصفية الإقطاع وطبعاً تولى رئاستها عبد الحكيم عامر .

كانت لجنة تصفية الإقطاع تمثل قمة الإرهاب والكبت والإذلال .. فقد اعتدوا على كرامة الإنسان وهو ما لا يقبله شعبنا تحت أية ظروف ولأى سبب . . فالشعب المصرى يقبل الجوع والفقر والحرمان . . ولكنه لا يقبل امتهان

الكرامة . . ولقد وضعوا تحت نظرى فى ذلك الوقت عدة حالات تدل على ما كانوا يفعلون ولكنى لهولها لم أصدق إلى أن مارست التجربة بنفسى . .

فى يوم وأنا فى زيارة لقريتى ميت أبو الكوم وكان ذلك فى سنة ٦٦ التقيت بأحد أبناء القرية وهو مهندس زراعى فسألنى إذا كنت قد اطلعت على قرار لجنة الإقطاع بالنسبة لمركز تلا وهى بلدة قريبة من قريتى . . فقلت لا لم أقرأ شيئاً بهذا الصدد فأطلعنى على إحدى الصحف اليومية فإذا بى أفاجأ بأن عددا من العمد وأهل المنطقة قد وضعوا جميعا تحت الحراسة وعزلوا من مراكزهم . . كنت أعرفهم واحداً واحداً . . وكنت أعلم علم اليقين أنهم من خيرة الناس وأنهم جميعا يؤيدون الثورة بما لا يقبل الشك . .

لم أكن أتصور أن الأمور قد وصلت إلى هذا الحد .. فأخذت سيارتى وعدت فى الحال إلى القاهرة وأنا غاضب كل الغضب . . وبحثت عن عبد الحكيم عامر إلى أن وجدته ، فاتصلت به تليفونياً وقلت له كيف يحدث هذا ؟ إنه عبث بمقادير الناس و . . و . . فرد على بهدوء : وفيم الغضب ؟ نلغى القرار . . وفعلا ألغى القرار فى نفس اليوم الذى صدر فيه . . وكان هذا هو القرار الوحيد الذى تراجعت عنه لجنة تصفية الإقطاع فى نفس يوم صدوره . .

كانت هذه تجربتى مع لجنة تصفية الإقطاع — ولكننى سمعت بعد ذلك قصصاً رهيبة تدل كلها على مدى امتهان السلطة للإنسان المصرى والقيم التى نشأ عليها . . فمثلا كانوا يقتحمون البيوت بالليل ويطردون النساء فيخرجن مع أطفالهن فى الطرقات والأزقة يبحثن عن مأوى يسترهن .

١١

هكذا كان حال مصر داخلياً فى سنة ٦٦ . . أما من الناحية الخارجية فقد كنا فى حالة مواجهة كاملة مع أمريكا وكان عبد الناصر عنيفاً فى خصوماته لا يعرف لها حداً فاندفع فى هذه الخصومة إلى نقطة اللاعودة معتمداً على مساندة السوفييت له — ولكن حدث فى هذه الأثناء أن وجهت

الحكومة الأمريكية الدعوة إلىّ لزيارة أمريكا بصفتى رئيساً لمجلس الأمة — رغبة منهم فى أن يحققوا شيئاً من الهدنة أو التقارب . .

رحب عبد الناصر بالفكرة فقد بدأ يشعر أنه أخطأ فى حق الأمريكان أكثر من اللازم عندما وجه الكلام إلى أمريكا فى إحدى خطبه قائلا : « فلتشرب من البحر الأبيض وإذا كان هذا لا يكفيها فهناك البحر الأحمر . . » فقبلت الدعوة وسافرت مع زوجتى إلى أمريكا حيث استقبلونا أحسن استقبال . . وعندما زرت الكونجرس أجلسونى على مقعد الرئيس وهو نفس الكرسى الذى جلست عليه عند زيارتى لأمريكا عام ١٩٧٥ . .

ولكن فى عشاء رسمى أقامه هاريمان أكبر مستشارى الرئيس الأمريكى فاجأتنى صحفية أمريكية بسؤال لم يكن يخطر على بالى . . قالت وفى يدها إحدى الصحف : ما رأيك فى هذا التصريح ؟ قلت : أى تصريح ؟ فقرأت من الصحيفة التى معها تصريحاً لعبد الناصر يهاجم فيه أمريكا بأعنف الألفاظ . . قلت لها وقد وجمت :

« ليس عندى أى تعليق . . » وتساءلت فى نفسى لماذا يفعل عبد الناصر ما فعله ؟ بعد أن اتفقنا على أن نبذل مجهوداً لتحسين العلاقات وبعد تشجيعه لى على اتمام الزيارة ؟

وإذا كان هذا قصده فلماذا وافق على الزيارة أصلا . . ؟

أمور غريبة لا يمكن فهمها أو تبريرها . . ولكنها لم تؤثر على زيارتى لأمريكا . . فقد بذل الأمريكان أقصى جهدهم لانجاح الرحلة . . وأذكر أننا فى زيارتنا لسان فرانسيسكو كانت مديرة المراسم يهودية فحاولت أن تعتذر لمرضها عن استقبال ومصاحبة زوجتى . . ولكن وزارة الخارجية الأمريكية لم تمكنها من ذلك .. فقد أمروها بأن تؤدى واجبها أولا ثم تدخل المستشفى بعد ذلك . .

١٢

انتهت سنة ٦٦ والصراع بين عبد الناصر وعامر على أشده فكل منهما متربص بالآخر وخاصة أن عامر كان كل يوم يوسع رقعة سلطانه . فعن طريق لجنة الإقطاع والتعلل بالثورة المضادة استطاع أن يضرب من يشاء وأن يعزل أو يبقى من يشاء فى مؤسسات الدولة وجميع مناصبها بما فى ذلك النوادى الرياضية بل إن شكاوى الهيئات العامة أو الأفراد كانت تحال إلى القوات المسلحة للنظر فيها وحلها حسب ما يتراءى لها . . وهكذا تراكمت السلطات فى يد عامر حتى أصبح الآمر الناهى والمتحكم فى مصير الناس وفى كل ما يتعلق بالبلد من أحداث .

هذه هى الصورة التى كانت عليها مصر فى مستهل سنة ١٩٦٧ فكيف كانت فى عيون من تبقى من رجال الثورة فى الحكم ؟

خرج زكريا محيى الدين من رئاسة الوزارة وفى حلقه غصة . . ولكنه من النوع الكتوم لا يتكلم كثيراً . . أما عبد الناصر فكان يراقب ما يفعله عامر وهو أيضاً ملىء بالمرارة ، عاجز لا يستطيع أن يفعل شيئاً — بينما كان عامر يزيد كل يوم من رقعة سلطته بل كان يسعى إلى رئاسة الوزارة ليضع السلطة فى يده كاملة . .

هكذا دخلنا سنة ٦٧ والكآبة تخيم على مصر فالبلاد مفلسة لأن الخطة طموحة ولا يوجد المال الكافى لتمويلها ومشاكل الخدمات التى أجل على صبرى حلها منذ سنة ٦٢ تتراكم يوماً بعد يوم وذلك حتى يتظاهر أمام عبد الناصر بأنه يبنى صناعات لم تكن تقوم فى الحقيقة على أى أساس وأخطر من هذا كله الصراعات التى بلغت أشدها بين من يحكمون من رجال الثورة وأذنابهم .

فى يوم جمعة فى فبراير سنة ٦٧ ذهبت لزيارة عبد الناصر على غير موعد كعادته معى . . فسألت الضابط المختص إذا كان عبد الناصر قد استيقظ من النوم فأجابنى بأنه استيقظ منذ مدة وهو الآن فى حجرة مكتبه فدخلت الحجرة ورأيت عبد الناصر يجلس وقد وضع رأسه بين يديه حزيناً مهموماً . . وقفت أراقبه حوالى دقيقتين ثم فاجأته بسؤالى : « جرى إيه يا جمال ؟ مالك ؟ »

التفت إلى فى دهشة فقد كان واضحاً أنه لم يحس بدخولى الحجرة وقال :

— إيه اللى جابك النهارده يا أنور ؟

قلت : النهارده الجمعة — وأنا لى مدة لم أرك — قلت أفوت عليك أدردش معاك شوية وأنا عارف إنك يوم الجمعة بتبقى لوحدك . .

قال لى : والله عملت طيب . . اقعد .

جلست وسألته مرة أخرى : مالك شايل الدنيا على دماغك ليه يا جمال ؟ واضح أنك شايل الدنيا على دماغك . .

قال : أيوه . . فعلا أنا شايل الدنيا على دماغى . . يا أنور البلد بتحكمها عصابة وأنا مستحيل أكمل بهذا الشكل . . أنى أبقى الرئيس المسئول واللى بيحكم هو عبد الحكيم وبينفذ اللى عاوزه . . طيب أخرج أنا أحسن وأروح أقعد فى الاتحاد الاشتراكى . . ويتولى هو رياسة الجمهورية وأنا مستعد لأن أسأل عن الفترة اللى قعدتها لغاية ما حاخرج . . أجاوب عن أى شىء . .

كان واضحاً أن عبد الناصر كان على معرفة بما يجرى فى البلد ، المشاكل المتراكمة منذ سنة ٦٢ وما تفعله لجنة الإقطاع بالناس — وضراوة مراكز القوى سواء من ناحية عامر أو شعراوى جمعة وسامى شرف أو على صبرى أو مستشاره الصحفى . . وحجرهم على الحريات واحتكارهم لجميع الإمتيازات . .

قلت له : مش معقول يا جمال تسيب رياسة الجمهورية وتقعد فى الاتحاد الإشتراكى عشان عبد الحكيم وأعوانه يحكموا مصر . . أنت عارف أن عبد الحكيم أسوأ من يختار معاونيه — هم اللى تسببوا فى فشل الوحدة مع سوريا — ومع ذلك فعبد الحكيم متعصب لمعاونيه تعصب قبلى تقول له تشيل صدقى قائد الطيران يقول قبل ما تشيلوه شيلونى أنا . . خلقته كده . . ولذلك أعتقد أنه أفضل شىء إنك تجيبه وتكلمه بينه وبينك وبالشكل ده ممكن توصلوا لحل مع بعض .

قال جمال : والله الصورة سيئة يا أنور وأنا حاسس أن احنا داخلين على كارثة .

بعد ذلك ببضعة أيام ذهبت لزيارة عبد الناصر فقالوا لى إن عنده ضيفا وانتظرت فى حجرة مكتبه إلى أن يخرج الضيف . . وبعد فترة جاء عبد الناصر وبادرنى بالسؤال :

تعرف يا أنور مين اللى كان عندى دلوقتى ؟ قلت : مين ؟ قال : شمس بدران – فاكر حديثنا اللى قلت لك فيه على حكاية العصابة ؟ قلت له : آه .

قال لى : يا سيدى الحكاية كملت .. شمس بدران جاى لى دلوقتى بيطلب رسمى إن المشير يأخد رئاسة الوزارة . . وحجته إيه ؟ إن البلد بتشتكى . . مش عارف أن معظم الحاجات اللى بتشتكى منها الناس هى من تصرفاته وتصرفات أتباعه ؟

قلت له : طيب أنت قلت إيه ؟

قال : والله أنا حدت الموضوع ببساطة . . قلت له أنا ما عنديش مانع . . قل له أنا موافق بس يترك القوات المسلحة وياخد رياسة الوزارة – أنا حلاقى مين يمسك الوزارة أحسن من عبد الحكيم ؟

قلت له : أنا ما زلت عند رأيى إنك تقابله وتتكلموا مع بعض وأنت عارف أنه بيقبل منك ما لا يقبله من أى شخص آخر – بالشكل ده ممكن الموضوع يتلم والمسائل تتحل .

عبد الناصر قال : لا يا أنور . . العملية ماشية فى اتجاه غلط . .

طبعاً كان رد عامر على رسالة عبد الناصر بالنسبة لرئاسة الوزارة هو الصمت فهو يعتبر القوات المسلحة مكانه الطبيعى ولا يمكن أن يتخلى عنها لأى سبب من الأسباب فهى مركز القوة الأول . . بعد ذلك تطورت الأمور فى لجنة الأقطاع فبلغت أقصى الضراوة فى مارس وإبريل ومايو حيث عقدت آخر اجتماعاتها وكانت متجهة فى تلك الفترة بالذات إلى تصفيه العائلات . . وهى فى رأيى مسألة خطيرة . . فى تقديرى – والله أعلم – أن مستشارو جمال كانوا يغذون هذا الاتجاه فى نفس عبد الناصر . . وكان أهمهم وهو مستشاره الصحفى فهو يمقت العائلات ويتحين الفرصة للشماتة فيها . . ولذلك كان يطيب له ضرب العائلات كلها وإذلال وامتهان كرامة الإنسان . . حتى أن أهل

الصعيد عندما كانت تفرض عليهم الحراسة كان الرجل يصرخ محتجاً «آخد نفقه زى الست» ؟

فقد كانوا يطلقون على المبالغ الضئيلة التى يدفعونها لمن تفرض عليه الحراسة مقابل ما أصابهم كلمة (نفقة) وهى نفس الكلمة التى تطلق على المبلغ الذى يدفعه الزوج ليعول مطلقته . .

استمر الحال على هذا النمط إلى منتصف مايو حيث كان من المقرر أن يتم القضاء على العائلات جميعها ابتداء بعائلات محافظة البحيرة . . ولكن دخلت علينا السحابة الرهيبة القائمة فى أواخر مايو وأوائل يونيو فأوقفت تلك الإجراءات فكل كارثة لها جانب آخر . . يقول المثل الإنجليزى «كل سحابة داكنة لها شريط فضى يبرق وسط العتمة» . .

سافرت فى ذلك الشهر وهو مايو سنة ١٩٦٧ إلى كوريا الشمالية ثم إلى موسكو، حيث استمعت هناك إلى عبد الناصر وهو يلقى خطابه فى أول مايو . . كان يتكلم عن الثورة المضادة والإقطاع . ويستشهد بحادث وقع فى قرية مجاورة لقريتى وسمعته يذكر اسمى فكنت أعجب كيف تنقل الحقائق إلى عبد الناصر ثم تصدر الأحكام بدون فحص لهذه الحقائق .

القرية كانت هى كمشيش وقد كانت مسرحاً فعلا لإقطاع لم تشهد له البلاد مثيلا ، ولكن أولئك الذين كان يستشهد بهم عبد الناصر كانوا فى الواقع أسوأ من الإقطاع الذى نشهد به جميعاً فى المنطقة . إذ كانوا شيوعيين ماركسيين يريدون أن يتوصلوا عن طريق مكافحة الإقطاع إلى تطبيق الماركسية وفى هذا السبيل لم يتورعوا عن امتهان كرامة المواطنين بأسوأ مما كانت تفعله لجنة تصفية الاقطاع ولم يكن هناك ما يدعو لذلك لأننا صفينا الاقطاع فى هذه القرية ووزعت الأرض على الفلاحين قبل هذا التاريخ بسنوات طويلة . .

لقد كانت هذه القرية فى ذلك الوقت مركزاً من مراكز النشاط الشيوعى فى الدلتا حتى أن الشيوعيين أخذوا بجان بول سارتر إلى كمشيش تفاخراً بما صنعوا منها . .

تضايقت وأنا أستمع للخطاب فعبد الناصر كان معى منذ سنتين ونحن نمر بهذه البلدة ضمن بلاد المنوفية الأخرى وذلك أثناء انتخابات الرئاسة ، وقد أفهمته حينذاك حقيقة الضجة التى أثارتها العناصر الشيوعية وعنف مساعديه على ذلك فى ذلك الوقت .

على أى الأحوال فإنه بعد ١٥ مايو ٦٧ لم تنعقد لجنة الإقطاع إذ ابتداء من ٢٠ و ٢١ و ٢٢ مايو دخلنا معركة التمهيد لكارثة ٥ يونيو ١٩٦٧ .

١٣

فى عودتى من موسكو كان يرافقنى إلى المطار سيمينوف نائب وزير الخارجية ومعه رئيس البرلمان السوفيتى . . وتحدثنا طويلا إذ تأخرت الطائرة ساعة أو أكثر وكان حديثهما معى يدور حول موقف سوريا وكيف حشدت إسرائيل عشر لواءات على حدودها . . وعندما عدت إلى مصر وجدت أنهم قد أبلغوا عبد الناصر نفس الخبر وبعدها صرح أشكول رئيس وزراء إسرائيل أنه إذا اقتضى الأمر فسوف تحتل القوات الإسرائيلية دمشق .

فى ذلك الوقت كانت بيننا وبين سوريا إتفاقية دفاع مشترك . . وإلى جانب هذا كان الروس على طريقتهم يمارسون لعبة ضرب الزعماء العرب بعضهم بالبعض . . كما حدث أثناء حكم عميلهم قاسم فى العراق . . وفى هذه المرة استثاروا عبدالناصر وضربه بالقيادة السورية على أنها أكثر تقدمية ولذلك أعطى الأوامر لعبد الحكيم عامر بحشد قواتنا فى سيناء وكان الهدف الحقيقى من هذا تخويف إسرائيل . .

ولكن ما لبث زمام الأمور أن أفلت من يده ففى ذلك الوقت كان الكثيرون من إخواننا العرب يعايرون مصر بأنها تركت مضايق تيران مفتوحة حتى أن عامر وهو فى زيارة لباكستان تضايق من المزايدات العربية بالنسبة لمضايق تيران فأرسل برقية يطلب فيها إغلاق المضايق . . على أى الأحوال جمعنا عبد الناصر على هيئة لجنة تنفيذية عليا فى أواخر مايو سنة ١٩٦٧ كان فيها عامر وزكريا محي الدين وحسين الشافعى وأنا وعلى صبرى وصدقى سليمان رئيس الوزارة فى ذلك الوقت . . وقال لنا : — « إن حشودنا فى سيناء تجعل الحرب محتملة ٥٠٪ أما

إذا أقفلنا المضايق فالحرب مؤكدة مائة فى المائة » . . ثم التفت إلى عامر وقال له : — « هل القوات المسلحة جاهزة يا عبد الحكيم ؟ فوضع عامر يده على رقبته وقال : — « برقبتى يا ريس . . كل شىء على أتم استعداد » .

كنا نعلم أن تسليحنا كامل دون شك . . وقد كان سلاحنا بالفعل حينذاك أقوى عشرات المرات من سلاحنا فى حرب أكتوبر ٧٣ ولذلك عندما سألنا عبد الناصر عن رأينا وافقنا بالإجماع على اغلاق المضايق ما عدا صدقى سليمان رئيس الوزراء فى ذلك الوقت الذى طلب التروى وأن نأخذ فى الاعتبار حالتنا الاقتصادية والخطط الطموحة التى لم تستكمل وأكثرها لم ينفذ وخاصة بعد قطع المعونة الأمريكية . لم يعر عبد الناصر اعتراض صدقى سليمان أى اهتمام فقد كان ميالا إلى إغلاق المضايق حتى يوقف مزايدات العرب عليه وحتى يحتفظ بمكانته الكبيرة فى الأمة العربية — وبهذا أصدرت الأوامر بإغلاق مضايق تيران وسحب قوات الطوارىء الدولية .

وقد صنع عبد الناصر من كل هذا دراما عنيفة الوقع فى حين كان السوفيت لايكفون عن التنبيه بأن توقيت الأحداث أسرع مما يجب ولكن عبد الناصر كان مصراً على اندفاعه وأنزل الستار على هذه الدراما الصاخبة بالمؤتمر الصحفى الذى عقده على مستوى عالمى وكان قمة فى التحدى والعنف . .

ارتبك الموقف الدولى نتيجة لهذا . . وساعد السوفيت على بلبلة الرأى العالمى كما هى عادتهم فى مثل هذه المواقف خوفاً من أن نورطهم فى شىء أو آخر وبدأت إسرائيل فى نفس الوقت تستخدم سياسة الاستكانة والصراخ والاستنجاد .

بعد إغلاق مضايق تيران أصبحت الحرب مؤكدة ولذلك كنا نتوجه للاجتماع فى القيادة العامة يومياً . . كانت هذه الاجتماعات تضم جميع قادة القوات المسلحة بينما كانت قواتنا كلها محتشدة فى سيناء . . وأرسل السوفيت فى طلب أحدنا فسافر إليهم شمس بدران بصفته وزيراً للحربية . . وفى الكرملين سألوه كيف سيكون تصرف مصر لو تدخل الاسطول السادس الأمريكى فأجاب بلا تردد : « عندنا ما يدمره » مشيراً بذلك إلى الطائرة تى يو ١٦ حاملة الصواريخ وسرعتها وهى تحمل الصاروخ ٥٠٠ كيلو أى نصف سرعة البوينج التجارية . .

وكانت نكتة تندروا بها فى الكرملين كما تندرنا بها نحن هنا كثيراً . . المهم عاد وزير الحربية من روسيا بعد أن عقد مع السوفييت صفقة أسلحة غير مقيدة بزمن محدد كما هى عادتهم ، فهدف السوفييت دائماً وفى كل الظروف أن يربكوا الموقف ارتباكاً ولكن الأهم من هذا أن يكون التوقيت فى أيديهم هم حتى تكون لهم السيطرة وهذا ما جعلنى أتخذ ما أخذت من قرارات بالنسبة للخبراء السوفييت أو غير هذا فأنا أدرى بمصلحة بلادى منهم . . ثم إننى أرفض أن يكون لنا ولى أمر يتولى عنا شئوننا .

فى يوم الجمعة ٢ يونيو صدق جمال عبد الناصر على الخطة بصفته رئيساً للجمهورية والقائد الأعلى للقوات المسلحة . . هذا إلى جانب أنه كان عسكرياً ممتازاً وخدم وحارب فى سيناء ويعرفها شبراً شبراً . . وأذكر فى ذلك اليوم أن عبد الناصر قال لقائد الطيران صدقى محمود إن أول ضربة ستقع على الطيران . . فالتفت هذا إليه وقال فى عصبية واضحة : يا فندم احنا عاملين حسابنا ولن تزيد الخسارة على عشرة فى المائة . . »

فى نفس اليوم قال عبد الناصر إن الهجوم سيقع يوم السبت أو يوم الأحد أو على أكثر تقدير يوم الإثنين ٥ يونيو فقد تغيرت الحكومة الإسرائيلية وشكلت وزارة ائتلافية دخلها موشى ديان وزيراً للدفاع واشترك مع أشكول وجونسون فى عملية تعمية متعمدة حتى يوهموا العرب أنه ليس فى نيتهم دخول الحرب ولكن المسألة كانت أوضح من أية تعمية .

عندما وقعت الكارثة يوم ٥ يونيو علمت أن الخطة التى صدق عليها عبد الناصر غيرها بعد ذلك عبد الحكيم عامر بالكامل . . وكان هذا واضحاً كل الوضوح فقد احتلت إسرائيل العريش مساء ٥ يونيو مع أنها لم تستطع ذلك فى سنة ١٩٥٦ بينما كانت قواتنا فى ذلك الوقت أضعف عشرات المرات مما كانت عليه فى سنة ٦٧ .

وفى يوم الإثنين ٥ يونيو وبناء على تغييره لخطة أخذ عامر جميع القادة معه فى طائرة وراح يفتش على سيناء — ومن الطبيعى أنه عندما يكون القائد العام فى الجو تصدر الأوامر للصواريخ بالتوقف عن العمل وفى هذه الأثناء ضربت إسرائيل

جميع مطاراتنا وطائراتنا وهى على الأرض . . وهكذا يمكن أن نقول إن الحرب بدأت وانتهت وعامر فى الجو .

كيف علمت أنا بالكارثة وكيف استقبلتها ؟ فى صباح الإثنين ٥ يونيو عرفت من الراديو أن إسرائيل قد بدأت الهجوم فقلت فى نفسى . . حسناً . . سوف يتعلمون درساً لن ينسوه مدى الحياة — كنت مطمئناً كل الاطمئنان . . فحلقت ذقنى وارتديت ملابسى على مهل وتوجهت بسيارتى إلى القيادة — كنت قد حضرت إعداد الخطة بالكامل وكانت ثقتى بالنصر أكيدة . . فعدتنا أكثر من كافية والخطة محكمة للغاية . . وصلت القيادة حوالى الساعة الحادية عشرة صباحاً وشاهدت سيارة السفير الروسى تتقدم سيارتى فقلت لابد أن السفير قد أتى ليقدم تهانيه . . سألت ما الأخبار . . فقال بعض الضباط إننا أسقطنا ٤٠ طائرة إلى تلك اللحظة . . قلت : عظيم ! . . دخلت مكتب عبد الحكيم عامر فوجدته واقفاً يتطلع حواليه بعينين زائغتين . . قلت له : صباح الخير فلم يرد — أعدت التحية فردها بعد دقيقة — على التو أدركت أن فى الأمر شيئاً . . سألت بعض الموجودين فقالوا إن سلاح الطيران قد ضرب بأكمله وهو على الأرض . . وبعد قليل رأيت جمال عبد الناصر يخرج من الصالون — ثم بدأ عامر يلقى باللوم كله على الأمريكان قائلا إن سلاح الطيران الأمريكى هو الذى ضربنا وليست إسرائيل . . ورد عبد الناصر :

« أنا لست مستعداً لتصديق هذا الكلام ولا لإصدار بيان رسمى بأن أمريكا هى التى اعتدت علينا إلا إذا أتيت إلى بجناح طائرة واحدة عليها العلامة الأمريكية » .

كان إصرار عبد الناصر على موقفه هذا قوياً لا يقبل الشك أو التردد — ولكنه بعد ذلك عندما أدرك مدى الكارثة تراجع وأصدر بياناً يتهم فيه أمريكا بالعدوان علينا وكان هدفه من هذا تغطية الموقف سياسياً أمام الشعب . .

من الأمور العجيبة أيضاً التى حدثت يوم ٥ يونيو المشئوم أنه بمجرد هبوط طائرة عامر وإدراكه ما حدث أرسل فى طلب السفير السوفييتى لكى يطلب منه وقف إطلاق النار بعد بدء الحرب بساعة واحدة . . وكان هذا سر وجود

السفير السوفيتى فى غرفة العمليات صباح ذلك اليوم . . ماذا كان بيدى أن أفعل ؟
عدت إلى بيتى وبقيت به إلى يوم ٩ يونيو وهو اليوم الذى حدده عبد الناصر لإعلان بيان منه فى الراديو والتلفزيون الساعة السابعة مساء – كنت وأنا فى البيت دائم الاتصال بعامر وعبد الناصر – فاتصلت بعامر فى الساعة الخامسة مساء فقال لى فى خشونة وضيق إن إسرائيل قد وصلت إلى العريش واستولت عليها . . لم أكن أعرف ماذا أفعل بنفسى . . كنت معتاداً على أن أخرج للمشى أربعة كيلومترات يومياً . . ولكن بعد ٥ يونيو كنت أسير وحسب . . لم أكن أدرى كم من الزمن أسير – عشرة كيلو مترات أو أكثر أو أقل لا أعرف . . فقد استولى على ذهول غريب لم أعد أستطيع معه أن أتبين الزمن أو المسافات أو حتى المكان نفسه فى بعض الأحيان .

ومما كان يزيد فى ذهولى وتمزق نفسى ما كنت أشاهده يومياً من جماهير الشعب وقد امتلأت بها اللوريات قادمة من مديرية التحرير أو وهى تسد شارع الهرم الواسع العريض . . كانت تسير متراصة والجميع يهتفون ويهللون ويرقصون فرحاً بالنصر المزعوم الذى تذيعه عليهم أجهزة الإعلام ساعة بعد ساعة . .

كانت فرحتهم بالنصر تثير فى نفسى إحساساً قوياً بالإشفاق عليهم والأسى لهم والحنق على من كانوا السبب فى خداعهم وخديعة مصر بأكملها . . لقد تمنيت على الله وأنا أراقب مواكب النصر هذه ، الصادقة الزائفة معاً ، أن يصيبنى بأزمة قلبية كالتى أصابتنى سنة ٦٠ حتى لا أعيش لأرى حال هذا الشعب الطيب الكريم عندما يفيق على الحقيقة ويعرف أن هذا النصر الذى زينوه لهم ليس إلا كارثة رهيبة نزلت بهم .

فى يوم ٧ يونيو اتصلت تليفونيا بعبد الناصر فوجدته فى بيته يتابع سير المعركة عن طريق القيادة . . الحقيقة أنى ذهلت . . لماذا لم يتول عبد الناصر القيادة بنفسه يوم ٥ يونيو ؟ صحيح أننا كنا قد فقدنا الطيران ولكن كان فى إمكاننا أن نقف فى خط المضايق . . ثم لماذا وقف مكتوف الأيدى أمام القرار الذى الذى أصدره عامر للقوات بالإنسحاب غرب القناة ؟ فليس هكذا يكون

الإنسحاب – أى عسكرى يعرف أن الذى يبلغ بقرار الإنسحاب هو مدير العمليات الذى عليه بدوره أن يضع الخطة اللازمة والجدول الزمنى المناسب لتنفيذ الانسحاب ويعطيه للوحدات لتنسق كل وحدة انسحابها حسب الجدول والخطة . . ولكن هذا لم يحدث ولذلك كان أمر الانسحاب الذى أصدره عامر هو فى الحقيقة أمراً بالانتحار . .

هذه الصورة كانت واضحة عسكرياً أمام عبد الناصر فلماذا لم يتصرف ولماذا لم يتدخل وأقول مرة أخرى لماذا لم يعزل عامر يوم ٥ يونيو ويتولى هو القيادة أو يعهد بها إلى قائد آخر ؟ لا إجابة . . فقط علامة الاستفهام التى تظهر فى الأفق كبيرة واضحة كلما كان الأمر عند عبد الناصر يختص بعبد الحكيم عامر !

لم أكتم تساؤلاتى هذه عن عبد الناصر فقلت له على التليفون : –

« يا جمال ما تحاول تنقذ ما يمكن انقاذه . . المسألة فى وشك على أى حال فلماذا لا تطلب من عامر أن يبقى فى بيته وتقعد أنت فى القيادة وتشتغل ؟ »

قال : « والله يا أنور أنا عرفت أنه أعطى أمر بالانسحاب وقلت له إزاى تعمل كده يا عبد الحكيم – ليه ما تقفش فى خط المضايق قال لى الخط مش جاهز » .

وكان اليهود قبل هجومهم قد أنشأوا ثلاث خطوط دفاعية للرجوع إليها إذا تطورت المعارك ضدهم وكانت الصور الفوتوغرافية تعرض علينا ونحن نزور القيادة قبل ٥ يونيو . .

أما نحن فلم يكن حتى خط المضايق – خط وسط سيناء – وهو المفروض أن يكون مستعداً فى حالة السلم وفى حالة الحرب – لم يكن فى الحسبان أن يعمل . .

عاودت الاتصال بعبد الناصر يوم ٨ يونيو فقال لى : « إن الوضع قد انتهى فقوات إسرائيل فى طريقها إلى القنطرة شرق بعد أن احتلت العريش والطريق ممهد ولا مقاومة على الإطلاق . . المسألة كلها مسألة ساعات قليلة وتحتل القنطرة هى الأخرى وقواتنا فى شرم الشيخ صدر لها الأمر بالانسحاب حتى لا تدمر – وبذلك بدأت إسرائيل تزحف على سيناء من الجنوب أيضاً » . .

وفى نفس اليوم علمت من عبد الناصر أيضاً أن الفرقة الرابعة المدرعة وهى أفضل الفرق عندنا قد عبرت من الغرب للشرق حسب أوامر عامر فدمرت . . وبذلك انتهت قواتنا المسلحة وحلت الفوضى . . ترك الجنود الدبابات والعربات وفروا إلى غرب القناة بل وصل بعضهم أسوان تطاردهم طائرات العدو فتزيدهم رعباً على رعب . .

وفى يوم الجمعة ٩ يونيو بينما أنا جالس إلى جانب الراديو فى حالة الشرود التى كنت فيها سمعت بياناً من القيادة العامة يقول إن اليهود قد عبروا الضفة الشرقية إلى الضفة الغربية ويشهد العالم على ذلك — كان بياناً كله استخذاء واستسلام ومهانة مما جعل الدم يغلى فى عروقى فقمت للتو وارتديت زى المقاومة الشعبية وأخذت بندقيتى ذات التلسكوب وركبت عربة فيات صغيرة كنت قد استعرتها من المخابرات ومضيت لأحارب معركتى — فقد كان من الأشرف لى أن أموت وأنا أقاتل العدو من أن أقبع فى دارى بلا عمل . . توجهت إلى مجلس الأمة وكنت فى ذلك الوقت رئيس المجلس فأصدرت تعليماتى إلى أمين عام المجلس بأن يخطر جميع النواب وخاصة الذين لهم ثقافة عسكرية بأن يجمع كل واحد منهم من مائة إلى مائتى رجل . . كل فى دائرته وأن يقوم بتجهيزهم لمقاومة الإسرائيليين فى المكان الذى أحدده لهم . . ذهبت بعد ذلك للقاء عبد الناصر فوجدته جالسا فى حجرة مكتبه فى بيته بمنشية البكرى فقلت له : —

— « أنت قاعد هنا مستنى إيه ؟ لازم يا جمال تقوم علشان نوديك الصعيد لأن احنا حنكمل المقاومة من هناك . . وحتى لوسقطت القاهرة ضرورى نقاوم لغاية آخر نفس فينا » .

رويت له ما فعلته فى مجلس الأمة وكيف أعددت النواب للمقاومة الشعبية ثم سألته : —

— أنت سمعت البيان الأخير بتاع القيادة ؟

كل ذلك وعبد الناصر ينظر إلىّ دون أن يرد . . وأخيراً أشار إلى كرسى بجانبه وقال لى :

« أقعد يا أنور . . أقعد »

قلت له : — أقعد إزاى يا جمال ؟ دانت قعادك هنا غلط — أنت ضرورى تكون فى الصعيد دلوقت عشان أنت حتكون رمز للمقاومة وزى ما قلت لك ضرورى نحاربهم لغاية ما نفنى كلنا أو نفنيهم كلهم وما تنساش أن الكثافة السكانية سلاح فى أيدينا وسلاح قوى جداً . .

قال لى : « والله أنت مسكين يا أنور . . زيك زى الشعب تمام . . أنت صدقت البيان ؟ أنا عارف البيانات بتصدر إزاى . . دى كلها كلام فارغ . . اليهود ماعدوش إلى غرب القناة . أنا سمعت البيان زيك وقلت لزكريا يا زكريا روح القيادة وشوف لى إيه الحكاية لأنى أنا عارف القيادة انفلت عيارها وانهارت وانتهت خلاص — زكريا راح القيادة ورجع قال لى ضباط من ضباطنا هم اللى عبروا القناة من الضفة الشرقية إلى الغربية لما شافوا اليهود قدامهم على الضفة الشرقية . . ما تمالكوش أعصابهم وراحوا ضاربين فيهم بالمورتر فردوا اليهود بغارة جوية على مصنع بويات فى الإسماعيلية — أقعد يا أنور أقعد — أنت مش محتاج تحارب — العملية خلصت خلاص — الدور مرسوم بين إسرائيل وأمريكا وأهو اتنفذ تمام . . يقعدوا على الضفة الشرقية لكن ما يدخلوش الغربية لاعتبارات كثيرة أهمها خطورة الكثافة السكانية — وعلى العموم هم عاوزين إذلال لنا أكثر من كده أيه ؟ أقعد — أقعد معايا لما أخلص البيان اللى هأذيعه الليلة دى .

جلست وقرأت البيان قبل أن يقرأه أى إنسان آخر — وفى هذه الأثناء اتصل عامر بعبد الناصر وقال له على التليفون : —

— حطنى فى الخطاب معاك .

رد جمال قائلا : — « سيبنى يا عبد الحكيم أعمل آخر عملية لوحدى . . أنا بأخلص مسئوليتى وبعد ذلك إذا كنت عاوز تقدم استقالتك ابقى قدمها . . »

لم أفهم الدافع وراء طلب عامر الغريب هذا . . ولكن بعد فترة أدركت أنه كان يخشى أن يبرئ ناصر نفسه فى البيان فيصبح عامر المسئول الوحيد . .

لكن لم يكن ما توقعه عامر صحيحاً فالبيان واضح وفيه يقول عبد الناصر إن هناك قوة واحدة تريد أن تحكم مصر والعالم وهى أمريكا وأنه لا يستطيع

أن يجيبها إلى ما تطلب ولذلك فليس أمامه سوى أن يتنحى ويعهـد برئاسة الدولة إلى زميلـه زكريا محيى الدين . .

بمجـرد أن انتهى عبد الناصر من إلقاء خطابه القصير كانت شوارع القاهرة قد امتلأت بجماهير الشعب بحيث لم يعـد هناك موضع لقـدم – نساء ورجال وأطفـال من جميع الطبقات ومختلف نواحى الحياة . . وحدت بينهم المحنة فأصبحوا كتلـة واحدة تتحرك بإيقاع واحد وتتكلم بلسان واحـد . . الكل يطالبـون ببقاء عبد الناصر – فالكارثة عظيمـة . . إذ فجأة عاد الزمن إلى الوراء فى غمضة عين . . فبـدلا من الاستعمار الإنجليزى سوف يكون هناك استعمار أمريكى . . هكذا أوحى خطاب عبد الناصر إلى الشعب فحرك لواعجه وألهب شعوره وأعاد إليه إرادة الرفض التى هى من أمضى أسلحتـه عبر آلاف السنين . . فخـرج يتحدى الهزيمة ويعلن رفضه للانصياع لأية إرادة أجنبية مهما بلغت قوتها – لقد ضربت قواته المسلحة ولكن إرادة الشعب لم ولن تضرب . .

سبع عشرة ساعة كاملـة وجمـوع الشعب ترفض أن تترك أماكنها فى شوارع القاهرة . . وقد نسيت كل شيء.. الطعام والشراب والمبيت والمأوى . . نسيت كل شيء إلا شيئاً واحـداً فقط وهو التمسك بوحدتها وتحدى إرادة الدولة العظمى التى تريد أن تتحكم فيها . .

اتصلت بعبد الناصر أكثر من مرة وفى كل مـرة كنت أجده أسوأ حالا عن ذى قبل . . كنت أشعر أن صوته صوت رجل يتكلم من غياهب الماضى . .

لابـد أنه فى الفـراش وأنه يعانى كثيراً ، فأهم ما لـدى عبد الناصر هى كبرياؤه ولقـد طعن فيها كما لم يحدث له من قبل . . فبعـد أن كان العالم يلهث وراءه عندما عقد مؤتمـره الصحفى المشهور أصبح الناس الآن فى كل مكان فى العالم يتهكمون عليه ويسخرون منه ، ولذلك كان ٥ يونيو طعنة أصابته فى الصميم فانتهى . . ومن يعـرف عبد الناصر لابد أن يدرك أنه لم يمت يوم ٢٨ سبتمبر سنة ٧٠ بل مات يوم ٥ يونيـو سنة ٦٧ ، بعـد المعركة بساعة واحـدة . .

هكذا كان يبدو بل وظل يبدو لفترة طويلـة . . الميت الحى . . صفرة الموت تغطى وجهه ويديه رغم أنه كان يسير ويتحرك وينصت ويتكلم . .

الفصل السابع

فترة انتقالية الكفاح من أجل البقاء

لم تكن الفترة ما بين يونيو ٦٧ وسبتمبر ٧٠ غنيـة بالأحداث ولكنها كانت فترة معاناة رهيبة لا أعتقد أن مصر شهدت مثلهـا – فقد كانت المعاناة وليدة الإحباط على المستوى القومى والسياسى والعسكرى مما جعل الكفاح من أجل البقاء السمة المميزة لهذه الفترة . . فليس مثل الإحساس بالإحباط شيء يحفـز الإنسان إلى أن يكافح من أجل البقـاء .

صحيح أن هـذا الكفاح أخذ أشكالا متعـددة ولكنها كانت تهدف جميعاً إلى شيء واحـد وهو تخطى العقبات التى تعترضها حتى تسترد كيانها وتستعيد وجودها فتبقى . .

وكثيراً ما نجد هذه المحاولات تتشابك وتتصارع بحيث يصعب تمييز خطوطها بعضها عن البعض . . فمثلا نجد أن كفاح عبد الناصر من أجل البقاء بطلا عظيماً – كما كان قبل هـزيمة يونيو يتصارع مع إصرار عبد الحكيم عامر على البقاء قائـدا عاماً للقوات المسلحة – يتشابك مع الرغبـة فى إعادة بناء القـوات المسلحة ويتشابك بشكل أو بآخـر مع تعمد السوفييت أن يظلوا هم سادة الموقف يمنحـون ويمنعون كما يشاؤون . .

فخروج الشعب فى ٩ و ١٠ يونيو وإصراره على عودة عبد الناصر إلى الحكم لم يكن فى الواقـع إلا صورة من صور الكفاح من أجل البقاء . . بقاء مصر الأرض والشعب والإرادة . . رغم كل شيء . . فإلى أى مدى حققت مصر عزيمتها على البقاء وإلى أى مدى تصارعت هـذه العزيمة مع عـزائم أخرى كانت هى أيضاً تكافح من أجل البقاء ؟

٢

يوم ١٠ يونيو وأنا بمكتبي بمجلس الأمة سمعت صوت قنابل تفجر قريبة منا — كانت الساعة الثانية عشرة ظهـراً ، فلمـا سألت قالوا لى إن البوليس يفجـر قنابل دخان على السفارة الأمريكية ليفرق جمـوع الشعب التى التفت حولهـا لتحرقها . . فاتصلت فوراً بعبد الناصر وجعلته يستمع إلى الإنفجارات وحكيت له القصة . . ثم قلت : —

— الجمـوع دى بقى لهـا دلوقتى أكثر من ١٧ سـاعة فى الشوارع . . هل تحب يا جمـال أن تحترق القـاهرة تانى زى يوم ٢٦ يناير سنة ١٩٥٢ ؟ إحنا على وشك كده دلوقت — لازم ترجـع يا جمال لأن إرادة الشعب هى الصمود ومفيش هروب من هذه المسئولية النهارده . . .

اقتنع جمال فرد علىّ بالموافقة . . ولكن صوته كان بعيداً كأنه يأتى من أعماق القبر . . ولم يمض وقت طـويل بعد ذلك حتى اتصل بى مستشاره الصحفى ليبلغنى بيان عبد الناصر الذى يقـرر فيه العودة فكتبته وأمـرتهم فى المجلس بدق الأجراس للإجتمـاع . .

كنا قبل ذلك قد قررنا عدم قبول استقالة عبد الناصر فلمـا اكتمل الاجتماع أعلنت للأعضاء أن عبد الناصر قد قـرر العودة بناء على رغبة الشعب وأنه كان بوده لو يستطيع أن يقـرأ عليهم القرار بنفسه . . وكان لهذا أثر رائـع على النواب فتملكتهم فرحـة مفاجئة صفقوا معها وهللوا وصرخوا وبكوا . .

بعـد ذلك بفترة وجيزة اتصلت بزملائى فى القيـادة جميعـاً وطلبت منهم أن يجهزوا استقالتهم ومن ضمنها استقالتى حتى نعطى الفرصة لعبد الناصر لاختيار معاونيه فى هـذه المرحلـة الحرجة وكفانا الصراعات وما أدت إليها من هـزيمة وإحباط . . فوافقـوا جميعاً . .

اتصلت بعبد الناصر وأخبرته بما حدث وأن الاستقالات كلها جاهزة ما عدا استقالة عامر (التى وعد بإرسالها إلى عبد الناصر مباشرة) فطلب إلىّ عبد الناصر تأجيل إعلان الاستقالات لأنها لو أعلنت فسوف يحس هو بأن الدنيا كلهـا

انهارت وسوف يكون هذا إحساس الشعب نفسه أيضاً . . لم أقتنع بكلامه فناقشته فيه ولكنه عاود الرجـاء بتأجيل إعلان الاستقالات حتى يهتدى إلى نقطـة البداية . .

فكما قال لى لم يكن يعرف — بعـد كل ما حدث — من أين يبـدأ . .

فى يوم ١١ يونيو اتصل بى عبد الناصر وقال إنه قد اهتدى أخيراً إلى نقطـة البداية وهى إعادة بناء القوات المسلحة ، ولكنه فوجىء بعدد كبير من الضباط فى بيته يطلبون منه عودة المشير عامـر .

حاول عبد الناصر الاتصال بعامر ولكنه كان قد اختفى فأمر بصرف الضباط . . جاءت إليه بعد ذلك أخبار بأن البوليس الحربى يتحرك من قشلاق الحلميـة فى طريقه إلى بيت عبد الناصر ليطالب بعـودة عامر — فى ذلك الوقت لم يكن لدى عبد الناصر أى حرس ، فالحرس الجمهـورى كان قد اشترك فى المعركة وعـاد إلى الإسماعيلية ولكنه لم يصل إلى القاهـرة بعـد . .

كان عبد الناصر كما هو معروف كثير الشك بطبعه وخاصة إذا كان الموضوع يتصل بأمنه الشخصى . . وربما كانت هذه النظـرة إلى الأمن الشخصى وراء كل الإجراءات الاستثنائية التى حدثت وتطورت من مرحلة إلى مرحلة حتى ناء كاهل الناس بثقلهـا . . فلمـا سمع بأن البوليس الحربى قادم إلى بيته — وهذه روايته لى — أخذ طبنجة ووضعها جوار فراشه وجلس ينتظـر . . وفى هذه الأثناء حاول الاتصال بعامـر مرة أخرى ولكن دون جدوى فاتصل بمحمـد فوزى رئيس أركان حرب القوات المسلحة فى القيادة الذى أخبره بأن هناك ٦٠٠ ضابط وأربعة فرقاء متجمعين فى القيادة ويطالبون بعـودة عامـر — على الفور أصدر عبد الناصر أمره إلى فوزى بأنه قد عينه قائداً عاماً للقـوات المسلحة وعليه أن يبلـغ الفرقاء الأربعـة بأن عبد الناصر قد استغنى عن خدماتهم ثم يتصرف مع الستمائة ضابط فيصرفهم أو يلقى القبض عليهم . . نفـذ فوزى الأوامر وأبلغ عبد الناصر بذلك فطلب منه الحضور لمقابلته ومعه عبد المنعم رياض مساء نفس اليوم . . حيث وضعوا الجدول الزمنى الذى بمقتضاه يعاد بناء القوات المسلحة . . وكان ذلك أول عمـل يباشره عبد الناصر بعد عودته . . ويعبر به عن الكفاح من أجل البقـاء .

٣

دهم إحساسى بالهزيمة نفسى بحيث استغرق شعورى فكنت أعيش الهزيمة فى يقظتى ومنامى . . وكنت فى كل يوم يمر أتكشف أبعادها فيتمزق صدرى ولكنى لا أعرف ماذا أفعل .

حبست نفسى فى بيتى بالهرم ثلاثة أسابيع كاملة عشتها فى عزلة تامة عن الناس أتأمل ما حدث وأتحمل على مضض حملة التشكيك فى قواتنا المسلحة وهى الحملة التى كانت تشن علينا بضراوة من العدو والصديق على حد السواء . .

كانوا يقولون إن الجندى المصرى لا يصلح للقتال وأنه لن تكون هناك معركة أخرى نسترد بها أرضنا وكرامتنا وهذا معناه الموت والدمار لشعبنا إلى آلاف السنين بحيث ننتهى كما انتهى الهنود الحمر فى أمريكا . . أى هوان هذا ؟ وأية مذلة ؟ لقد نشأت على حب مصر والإيمان المطلق بالإنسان المصرى فهل يذهب كل هذا فى لحظات ؟ وإذا ذهب فسوف أذهب أنا الآخر . . لن أعرف بعد ذلك من أنا ولن أتعرف أبداً على ذاتى بل سأعيش فاقد الكيان أهيم على وجهى غريباً بين غرباء . . ففيم الحياة إذن ؟ !

كان لابد من الخروج من السجن الذى وجدت نفسى فيه فجأة . . وهنا تغلب حبى لبقاء مصر على كل شىء آخر فقررت أن أرى بنفسى بعض من اشتركوا فى الحرب وأسألهم هل استطعنا أن نحارب أم لم نستطع ؟

اتصلت فوراً بمستشفى المعادى العسكرى . . رد على القائد فسألته إذا كان عنده أحد ممن حاربوا فى سيناء فأجاب إن عنده لواء اسمه كمال حسن على . . كان قائداً للواء دبابات حارب فى سيناء ومعه بعض ضباطه وهم فى المستشفى على وشك إجراء عمليات جراحية له ولهم . . قلت للقائد : انتظر سأكون معكم حالا وأخذت سيارتى وتوجهت إلى مستشفى المعادى . . سألت كمال حسن على . . قل لى يا كمال بصراحة : أنت حاربت فى سيناء ؟ قال لى : أيوه يا افندم وعملت هجوم مضاد يوم ٧ يونيو قلت له : « طيب طمنى . . سلاحنا كان ناقص؟ »

قال لى : « أبداً ! الطلقة بتاعتنا مش بس كانت بتصيب الدبابة . . دى كانت من عنفها بتقلبها » . . قلت له : « طب احكى لى على الهجوم » فقال — مشيراً إلى ضابطين صغيرين كانا فى انتظارى معه قبل إجراء العملية لهم — : « دعهم يقصون عليك ما رأوا وما حققوا . . فهم اللذين فعلوا كل شىء أما أنا فكان عملى يقتصر على إصدار الأوامر . . »

كنت قد سمعت عن الهجوم المضاد الذى قام به لواء مصرى يوم ٧ يونيو . . صحف العالم كلها أشادت به ، وحتى موشى ديان كتب عنه ولكن الجميع كانوا يعتبرونه مجهوداً فردياً — أمراً شاذاً لا يصح أن يقاس عليه استعداد قواتنا المسلحه أو قدرتها على القتال . .

ولكننى بعد أن أدرت حواراً طويلا مع ضباط اللواء وقائدهم أدركت الحقيقة وهى أن كل ما قام به اللواء من بطولات كان يجب أن يكون القاعدة وكل ما عداه الاستثناء لولا تخبط القيادة وضعفها . . فقد اتضح أنه بناء على أوامر القيادة المرتبكة قطع اللواء فى الثلاث أيام الأولى ١٠٠٠ كيلو فى عملية ذهاب وإياب فقط من شأنها أن تضعف قدرة الدبابة على السير . ولكن هذا لم يمنعهم من إسقاط ٧ طائرات للعدو . . ورغم السيادة الجوية المطلقة لإسرائيل لم يفقد هذا اللواء إلا ٢٠ دبابة على مدى ثلاثة أيام — أى خمس قوته فقط . .

« إذن فى حرب ٦٧ لم يكن ينقصنا التدريب أو التكتيك أو السلاح أو القدرة على القتال . . الحمد لله . . فالمسألة كلها كانت مسألة إهمال من القيادة » . . هكذا وجهت كلامى إلى الضباط وقائدهم وتركتهم لأطباء المستشفى وانصرفت لأقضى يوماً من أسعد أيام حياتى وهى قليلة جداً بعد حرب ٥ يونيو سنة ٦٧ وقبل ٦ أكتوبر سنة ٧٣ . . وكان مصدر سعادتى أنى عرفت الحقيقة .

بعد ذلك وفى يوم ٢١ نوفمبر سنة ١٩٦٧ على وجه التحديد عرفت أن جنودنا قد استوعبوا الأسلحة التى أرسلها لنا السوفييت بعد الهزيمة فى ٥ شهور وكان مقدراً لها أن تستوعب فى ثلاث سنوات تكون فيها الأحوال قد هدأت ، فلم يكن فى نية السوفييت أن تكون هناك معركة ثانية وإنما كانوا يجاملون عبد الناصر

لوقفته ضد أمريكا والإمبريالية ويحرصون على بقاء الوجود السوفييتى فى المنطقة — هذا كل ما فى الأمر . . ولكن خاب ظنهم كما خاب ظن الكثيرين غيرهم فبعد أن عين عبد الناصر محمد فوزى قائداً عاماً للقوات المسلحة وعبد المنعم رياض رئيس أركان حرب وأحمد إسماعيل قائداً للجبهة فتحت مراكز التدريب على الفور وعملت على أحسن صورة — وهذا مجد يكتب لأولادنا فى التاريخ فليس من السهل أن تجد جيشاً يهزم هذه الهزيمة ثم ينهض ليستوعب كية ضخمة من الأسلحة فيا لايزيد عن خمسة شهور ويقف بها على خط دفاعى كامل طوله ١٨٠ كيلو متر من بورسعيد شمالا إلى السويس جنوباً على استعداد لرد أى عدوان .

كم فرحت بما رأيت فقد أكد إيمانى بأن قواتنا المسلحة ذهبت ضحية لهزيمة يونيو سنة ٦٧ ولم تكن أبداً أحد أسبابها . . ومما يدل على ذلك عملياً أن مواتنا العسكرى لم يستمر أكثر من شهر وبضعة أيام . . فى أغسطس سنة ٦٧ وقعت معركة رأس العش التى تصدت فيها قوات الكوماندوز المصرية لقوات إسرائيلية من القوات الخاصة وأبادتها ومنعتها من التقدم نحو بور فؤاد وهى شاطىء بورسعيد الشرقى ، وشهد هذه المعركة جمع من محطات تلفزيون أمريكية استقدمهم اليهود معهم لتصوير دخولهم بورفؤاد ثم لم يلبثوا بعد الضرب العنيف من قواتنا والخسائر الشديدة التى لحقت بهم أن احتموا برجال التلفزيون الأمريكى لوقف الضرب .

طبعاً لم نكن بعد قد استعدنا قواتنا بالكامل ولكن كانت الجذوة ما زالت متقدة . . فى ٢١ أكتوبر من نفس السنة (١٩٦٧) قامت زوارقنا الخفيفة بضرب المدمرة الإسرائيلية إيلات فشطرتها نصفين وأغرقتها فى مياه بورسعيد حيث ما زالت ترقد فى الأعماق . .

ولكن حتى قبل معركة رأس العش وقبل إغراق إيلات كنت قد تيقنت أننى ما زلت بين أهلى فى مصر الأرض الطيبة التى لا وجود لى بدونها . . وأن واجبى فى الحياة هو الكفاح من أجل بقائها . . ليس فقط لأنها بلدى . . بل لأنها فعلا تستحق البقاء . .

٤

من صور الكفاح من أجل البقاء فى تلك الفترة صورتان كل منهما تختلف عن الأخرى ولكنها تحمل طابعاً مميزاً له مغزاه . .

الصورة الأولى وهى خاصة بالسوفييت تروى قصة مساعداتهم الحربية لنا بعد الهزيمة فقد أرسلوا لنا من الأسلحة ما استوعبه الجندى المصرى فى خمسة شهور كما سبق أن رويت . . ولكن لم يكن فى هذا الكفاية فقد كنا مقدرين ثلاث سنوات على الأقل لكى نؤمن بلدنا ونرد العدوان . . فأرسل عبد الناصر إلى السوفييت يطلب المزيد من العون . أرسل مرة ومرات ولكن لا استجابة بأى شكل من الأشكال . . فقد كانت خطتهم أن يسدوا رمقنا بالقدر الذى يكفل لهم الوصاية علينا ويحقق لهم البقاء فى المنطقة وهذا هو الأهم .

كنا فى أغسطس وكان تيتو قد أتى لزيارتنا زيارة ودية ليواسينا ويشد أزرنا وقد كان صديقاً شخصياً لعبد الناصر ولذلك ذهلت عندما رأيت عبد الناصر يفقد أعصابه مع تيتو ويقول له بعد أن كفر بالسوفييت : روح للسوفييت أرجوك وقل لهم أنا مستعد أقبل الهزيمة وأقبل أى شىء ولكنى لا أقبل هذه المعاملة منهم أبدا . .

لا أعرف ماذا فعل تيتو بعد ذلك ولكن الذى أعرفه أن القادة السوفييت لم يغيروا موقفهم فكل ما كان يهمهم هو الحفاظ على البقاء فى المنطقة وقد تحقق لهم ما أرادوا . .

الصورة الأخرى وهى أكثر إشراقاً هى صورة مؤتمر القمة العربى الذى عقد بالخرطوم فى نفس السنة . . لم يكن عندى أمل كبير فى المؤتمر ولكننى فوجئت كما فوجىء العالم بنتائجه . . فقد خرج الشعب السودانى لتحية عبد الناصر بصورة لا تقل عما حدث فى مصر يومى ٩ و ١٠ يونيو . .

طبعاً خرج الشعب لتحية باقى الملوك والرؤساء العرب ولكن استقبال الشعب لعبد الناصر كان يفوق كل وصف حتى أن مجلة التايم أو النيوزويك لا أذكر وضعت صورة عبد الناصر على الغلاف وكتبت تحت الصورة (تحية

المهزوم) غير مدركين سر ارتباط الشعوب العربية بعبد الناصر فقد كان فى نظرهم رمزاً للحفاظ على الأمة العربية ضد أى تدخل أو عدوان خارجى . .

كانت علاقتنا مع أكثر الدول العربية حينذاك علاقة خصومة وخاصة مع الملك فيصل عاهل السعودية الذى هاجمه عبد الناصر وندد به فى أكثر من خطاب له ولذلك كان الموقف حرجاً بالنسبة لعبد الناصر . . فها هو فى النهاية يلجأ إلى إخوانه العرب وهو فى حالة هزيمة وانكسار . .

لم تفت فيصل هذه الحقيقة فعندما بدأوا الحديث عن الدعم المالى لمصر مقابل إغلاق قناة السويس . . أخذ فيصل المبادرة فقرر أن تدفع السعودية ٥٠ مليون جنيها سنويا كما تقرر أن تدفع الكويت ٥٥ مليون سنويا وليبيا ٣٠ مليون سنويا . .

أما قرارات المؤتمر فيما عدا ذلك فكانت لا صلح ولا اعتراف بإسرائيل ولا مفاوضات معها فإرادة الأمة العربية كلها هى الصمود . .

وكانت هذه هى المرة الأولى فى التاريخ الحديث التى تجتمع فيه الأمة العربية على الكفاح من أجل البقاء . .

٥

كان تعيين محمد فوزى قائداً عاماً للقوات المسلحة القرار الوحيد الذى استطاع عبد الناصر أن يتخذه بعد سنوات عديدة من الصراع مع عامر . .

طبعاً لم يستقبل عامر هذا القرار بأى ترحيب ، فى أول لقاء له مع عبد الناصر بعد ذلك رفض منصب نائب رئيس الجمهورية الذى عرضه عليه عبد الناصر وتمسك بأن يشغل منصب القائد العام للقوات المسلحة الأمر الذى لم يقبله عبد الناصر على الإطلاق . .

تدخل بعض وسطاء الخير فى الموضوع وأقنعوا عامر بأن يذهب إلى (أسطال) بلدته فى الصعيد ويقيم بها إلى أن تستريح أعصابه وفعلا أخذ عامر بالوصية وذهب إلى بلدته ولكنه عاد بعد أسبوع إلى منزله بالجيزة وبدأ الاتصال بالضباط وتكوين ما يمكن أن نسميه جبهة معارضة لعبد الناصر ، وليته اكتفى

بهذا ولكنه جمع الكثير من الأسلحة فى بيته وراح يعقد الندوات مع الضباط يتحدث فيها عن الهزيمة وكيف أنه ليس مسئولا عنها كما أنه ليس مسئولا عن الأوضاع الداخلية والإجراءات الإستثنائية التى أدت إلى إذلال الناس وضيقهم بالنظام كله . .

لم يكن من السهل تصديق ذلك فالجميع يعرفون أنه كان وراء لجنة تصفية الإقطاع والبوليس الحربى وهى أجهزة أهدرت كرامة الإنسان واستفحل شرها إلى أن جاءت الهزيمة فخلصت الناس منها ولو إلى حين ، ولكن هذا لم يمنع الناس من الاستماع إليه أو إلى مجاملته فازداد إمعاناً فى الإتصالات بالضباط وبأعضاء مجلس الأمة الذين كانوا ينقلون ما يدور بينه وبينهم إلىّ شاكين متبرمين فلم أجد بداً من الاتصال به ونصحه بأن يكف عما يفعل حفاظاً على مصر ووحدة الصف وإشفاقاً بعبد الناصر وما هو فيه من محنة . . فدعوته إلى العشاء عندى فى البيت ورحبت به واستقبلته أسرتى أحسن استقبال كما كنا نستقبله دائماً عندما يأتى لزيارتنا . . ولكنى لاحظت أنه قد تغير تغيراً كاملا . . كان قد فقد الثقة فى نفسه وفقد معها استقباله للحياة وأصبح شخصية مهتزة تكاد تكون مفقودة الكيان ، وقد آلمنى هذا كثيراً وخاصة عندما التفت إلىّ وأبنائى يداعبونه كعادتهم وقال : « أنتم بتكرمونى قوى يا جماعة . . لسه لغاية دلوقتى بتكرمونى ؟ فقلت له : دلوقتى يعنى ايه يا عبد الحكيم ؟ علشان أنت ما بقتش قائد عام ؟ هو أنا كنت صاحبك عشان أنت كنت قائد عام ؟ ده برضه كلام حد يقوله . . ؟ »

فى نهاية لقائنا رجوته أن يقبل منصب نائب رئيس جمهورية الذى عرضه عليه عبد الناصر ولكنه قال بجفوه : لا . . طول ما جمال عبد الناصر بيشتغل رئيس جمهورية أنا لازم أشتغل قائد عام القوات المسلحة . . لا كده لا بلاش . .

بعد ذلك فى أغسطس أثناء زيارة تيتو لنا استدعانى عبد الناصر ونحن فى قصر رأس التين بالإسكندرية فذهبت إليه . . ووجدت علامات الحيرة على وجهه قال : « والله أنا عايز أقول لك على موضوع يا أنور . . أنا مشغول

قوى بحكاية عبد الحكيم وأنا اتكلمت مع تيتو وحكيت له الحكاية كلها . . تيتو قال لى ضرورى تأخذ إجراء فى العملية دى وإلا البلد مجروحة وبعدين أى صراع داخلى وخصوصاً إذا كانت فيه القوات المسلحة . . حيتوسع وينقلب إلى صراع كبير » قلت له : يا جمال أنت سمعت مننا كلنا رأينا فى الموضوع ده وفعلا ضرورى أنت بالذات تواجه عبد الحكيم باللى بيعمله وتحسم الموضوع نهائيا » قال : « فعلا أنا لازم آخد إجراء . . »

كان ذلك فى ١٣ أغسطس ولم يفصح عبد الناصر عن نوع الإجراء الذى سيتخذه — كل ما حدث أن الإجراء تأجل إلى يوم ٢٥ أغسطس . . لماذا تردد رغم خطورة الموقف ؟ هنا مرة أخرى تظهر علامة الاستفهام الكبيرة فى كل ما يختص بالعلاقة بين عبد الناصر وعامر . .

كان عامر يعرف جيداً أن لا شىء يغيظ عبد الناصر مثل الحديث عن الديمقراطية وأنه ديكتاتور . . فلجأ إلى طبع الاستقالة التى كان قد قدمها لعبد الناصر سنة ٦١ فى شكل كتيب ووزعها على أوسع نطاق ليعلن فيها أنه لا يؤمن بحكم الفرد وأن لابد من إعادة الأحزاب . . كلام لا يؤمن به عامر بل ولا يطرأ على فكره . . ولكن كانت آثاره على الناس غير حميدة فانتشرت الإشاعات بأن الأحوال الداخلية غير مستقرة وأنه من المتوقع حدوث انقلاب فى أى وقت . . لدرجة أن (جاكوب مالك) مندوب روسيا فى مجلس الأمن كان فى زيارة لمصر فطلب مقابلة عبد الناصر ليحذره من أن غداً سيحدث انقلاب عسكرى فى مصر . .

فى هذه الأثناء كان عامر قد جعل من بيته المطل على النيل فى الجيزة قلعة بكل معنى الكلمة مما جعل عبد الناصر يقرر أخيراً تحديد إقامة عامر فى بيته بعد أن تسحب منه جميع الأسلحة وبناء عليه أرسل إليه يطلب حضوره للقائه فى منزله مساء الجمعة ٢٥ أغسطس . . وقال لنا : « اسمعوا يا جماعة أنا عاوزها جلسة مواجهة وأنتم تكونوا موجودين » وفعلا أنا وزكريا محيى الدين وحسين الشافعى كنا موجودين فى هذه الجلسة . .

وكانت ترتيبات عبد الناصر أنه بمجرد وصول سيارة عامر ونزوله منها

ودخوله لى الصالون تنزع منها الأسلحة فى هدوء ويلقى القبض على من فيها من حراس ثم تستبدل بسيارة أخرى تقله إلى بيته حيث يبقى فيه تحت الحراسة .

وفى نفس الوقت كان عبد الناصر قد كلف محمد فوزى القائد العام وعبد المنعم رياض رئيس الأركان بإخلاء بيت عامر من الأسلحة والضباط والجنود المرابطين فيه بحيث يجد البيت عند عودته خالياً إلا من أسرته والضباط المكلفين بحراسته . . وفعلا تم ذلك . . أتى عامر فى الساعة التاسعة إلا ثلث ففوجىء بوجودنا . . وبدأ الحوار الذى لم يشترك فيه طول المدة لا زكريا ولا حسين الشافعى — طبعاً أنكر عامر كل شىء ، ورغم أن عبد الناصر واجهه بالمنشورات التى كان يصدرها وبعدد الضباط المقيمين عنده فى البيت وأنواع الأسلحة وغير ذلك من الحقائق التى لا تقبل الجدل إلا أن المناقشة استمرت من التاسعة تقريباً إلى الثانية صباحاً . .

قبل ذلك بدقائق أحس عامر أن فى الأمر شيئاً فقرر العودة إلى منزله ولكنه فوجىء عند البوابة بالحرس يمنعونه من الخروج ووجد عند باب البيت سيارة أخرى غير سيارته التى حضر بها . . وبها بعض الحرس . . فأدرك أنه مقبوض عليه وعاد إلى حيث كنا . .

أحس عبد الناصر بالإعياء أو خشى أن يتراجع فى قراره فانسحب إلى حجرة نومه ولحق به زكريا والشافعى على ما اعتقد فوجدت نفسى وحدى وجها لوجه مع عامر الذى قال لى إنه ذاهب إلى دورة المياه فصاحبته ثم عدنا إلى الحجرة فإذا به يفاجئنى بقوله إنه تناول سيانور لينتحر . . ودهشت فأنا أعرف من قراءاتى أن السيانور إذا لمس الفم يموت من يتناوله فى أقل من الثانية . . ومع ذلك أرسلت فى طلب الأطباء لإسعافه وفعلا حضروا وأسعفوه . .

كان الموقف عصيباً للغاية فقد آلمنى أن أرى عامر على هذه الحال وآلمنى أكثر إحساسى بأنه يحاول أن يفلت من المأزق الذى شعر أنه سعى إليه بنفسه على أمل أن يعود إلى بيته ويتحصن فيه فهو لم يكن على علم بالإجراءات التى تمت أثناء تغيبه عنه فى جلستنا هذه . .

كانت ليلة مؤلمة للشعور تعذبت فيها كما لم أتعذب فى حياتى فقد طلع علينا الصباح وأنا وحدى مع عامر أشاهده يعانى ولا أستطيع أن أمد إليه يد المساعدة .

فى الساعة السادسة والنصف صباحاً نزل زكريا والشافعى من منزل عبد الناصر وأخذا عامر إلى بيته حيث تحددت إقامته .

لماذا استجاب عامر لدعوة عبد الناصر وذهب للقائه فى منزله ؟ سؤال كان ينبغى أن يطرح نفسه على أى إنسان ولكن لم تكن الإجابة عليه صعبة أو مستحيلة . . على العكس فقد تصور عامر أن عبد الناصر يريد أن يلقاه ليصالحه كعادتهما عقب أى سوء تفاهم يحدث بينهما . . كان عامر واثقاً من هذا وأن عبد الناصر سوف يستجيب لطلبه ويأخذه معه إلى مؤتمر القمة فى الخرطوم الذى انعقد بعد ذلك اللقاء بيومين . . وكان عبد الناصر يعرف هذا كله مقدماً من مكالمات تليفونية بين عامر وبعض أصدقائه كان عبد الناصر قد أمر بتسجيلها . .

فى سبتمبر كانت التحقيقات التى أجريت مع أعوان عامر قد بدأت تأخذ شكل القضية ثم وصلت عبد الناصر بعض التقارير التى تقول إن عامر كان ما زال يجرى بعض الإتصالات مع أعوانه وأتباعه عن طريق أبنائه فكلف عبد الناصر محمد فوزى وعبد المنعم رياض بنقل عامر إلى مكان بعيد عن بيته . . وفعلا ألقى القبض على عامر فى منزله ولكنه كان يشكو بعض الألم فأخذاه إلى مستشفى المعادى حيث وجد الأطباء بفمه مخدراً — كما يقول التقرير الطبى — فأخرجوه وذهبا به إلى فيلا على ترعة المريوطية كانت قد جهزت كمعتقل فأحيطت بالأسلاك الشائكة ووسائل الحراسة المختلفة . .

بعد أن اطمأن عبد الناصر إلى أن عامر قد استقر فى المعتقل انتقل إلى الإسكندرية حيث أقام فى المعمورة وانتقلت أنا كذلك إلى شقتى بشاطىء ستانلى . .

فى يوم الثلاثاء ١٢ سبتمبر اتصل بى عبد الناصر تليفونياً ليقول لى إن

عامر يريد أن يرانى اليوم أو فى الغد الأربعاء على أكثر تقدير — قلت له لازم أشوفه . . لازم أروح له قال لى : طيب ما تفكر . . قلت له : لأ أنا فى هذا قاطع . . بس أنا رأيى ندى أمر للناس اللى بيعملوا التحقيق يبعتوا لى صورة من التحقيق بكرة الصبح أقراها وأعرف ايه الأقوال علشان أواجه عبد الحكيم بيها وبعدين أروح له المعتقل يوم الجمعة .

وافق عبد الناصر وأرسل إلى ملفات القضية صباح الأربعاء وكانت فى ذلك الوقت قد وصلت إلى آلاف الصفحات فتوفرت على دراستها واستغرقت منى الأربعاء بأكمله ونهار الخميس أيضاً . .

كل هذا وأنا أعد نفسى للقاء عبد الحكيم عامر فى المعتقل يوم الجمعة حيث كان فى نيتى أن أنصحه بالتصالح مع عبد الناصر وكفانا تصارعاً فالمصيبة التى نحن فيها أكبر وأخطر من أى شىء ، كما كنت مصمماً على أن أبقى معه فى المعتقل إلى أن تحل الأمور إما بالصلح أو بالمحاكمة . .

وفى مساء الخميس ١٤ سبتمبر سنة ١٩٦٧ تناولت طعام العشاء ورأسى ما زال مشغولا بلقاء يوم الجمعة فإذا بجرس التليفون يدق وعبد الناصر يتكلم . .

قال : أنور .

قلت : أيوه يا ريس خير .

قال : « أنور »

وسكت لمدة دقيقة . . دهشت

فقلت : جمال . . أنت على الخط ؟

قال : آه

قلت : أمال سكت ليه ؟ فيه ايه ؟

قال : عبد الحكيم عامر انتحر ومات الساعة ٧ مساء وبلغونى دلوقت من المعتقل . .

قلت : والله إذا كان ده حصل فعلا يبقى ده أحسن قرار اتخذه عبد الحكيم عامر كقائد خسر معركة . . لأنى لو كنت مكانه كنت عملت كده يوم ٥ يونيو . .

جمال سكت قليلا ثم قال : إزاى بتاخد الموضوع بالشكل ده ؟

قلت له : فى التقاليد العسكرية أى قائد بيتهزم بيعمل كده . .

طلب منى عبد الناصر فى نهاية الحديث أن اتصل بحسين الشافعى وعلى صبرى وأطلب منهما الذهاب إلى المعمورة معى لكى نسافر جميعاً إلى القاهرة وكان زكريا محيى الدين فى القاهرة . . ولكن دون أن أذكر لهما الأسباب . .

وصلنا القاهرة بعد منتصف الليل فتركت جمال فى منشية البكرى وتوجهت إلى معتقل عامر الذى لم يكن يبعد عن بيتى فى الهرم بأكثر من خمس دقائق . . هناك وجدت النيابة والطبيب الشرعى وشقيق عبد الحكيم عامر وكان مستشاراً فى القضاء — حضرت التحقيق وأثبتوا ذلك فى المحضر ثم بدأت أسأل الطبيب الذى كان يصاحبه فى المعتقل وهو الدكتور بطاطا الذى ما زال إلى يومنا هذا طبيبى الخاص . .

كانت إجابة الطبيب أن عامر وهو فى الحمام أصيب بما يشبه أزمة فوقع على الأرض — حملوه إلى فراشه حيث كان يرقد أمامى . . وحاولوا إسعافه ولكن عبثاً فقد مات بمجرد أن وقع على الأرض .. لم يكن هناك أى شىء غير عادى فى جسمه سوى ما لاحظه الطبيب الشرعى عندما كشف عليه فوجد عند مفصل فخذه الشمال مع جسمه بلاستر وتحته حبتان . . ماذا كانا ؟ أعتقد أن هذا جاء فى تقرير الطبيب الشرعى . .

تأملت وجه عامر قبل أن أغادر المكان . . فلم أشاهد عليه صفرة الموت — بالعكس كان وجهه يبدو طبيعياً وكأنه مستغرق فى نوم عميق فلا انفعال ولا تقلصات ولا أى شىء من هذا القبيل — بالعكس عادت السماحة إلى وجهه فرأيت أمامى عبد الحكيم الأسمر اللون العادى الهادئ اللطيف الذى رأيته أول ما رأيته فى رفح . . وهو فى مقتبل عمره منذ سنوات وسنوات . .

عندما دخلت بيتى فى الصباح المبكر سمعت جرس التليفون يدق كان عبد الناصر على الطرف الآخر للخط يحاول أن يطمئن على ما حدث رويت له ما رأيت وقلت إنى سأغير ملابسى لكى ألحق بالجنازة فى بلدة عامر (اسطال) فتشييع الجثة هناك بعد خروجها من المشرحة .

ولكن عبد الناصر لم يوافق . . فقد كان يخشى أن يخرج أولاد عامر عن حدودهم عندما يعلمون بالخبر — وليس هذا من المصلحة فى شىء فالوقت الذى نمر به يحتم علينا الحفاظ على هيبة الحاكم . .

ختم عبد الناصر حديثه معى بقوله ورنة الأسى فى صوته : —

« تصور يا أنور عبد الحكيم وأنا وأنت — احنا الثلاثة أصدقاء لكن تصور يا أنور أن عبد الحكيم يموت وأنا واثق أن ما حدش حا يمشى فى جنازته هناك واحنا كمان مش قادرين نمشى فى جنازته . . تصور » .

لم أكن أتصور فعلا أن شيئاً من هذا يمكن أن يحدث وأن الصراع من أجل البقاء يمكن أن ينتهى بين الأصدقاء بمأساة ولكن يبدو أن هذا هو شأن الحياة . .

٦

كانت محاكمة أعوان عبد الحكيم عامر أمراً لا مفر منه . . فقد بدأت الناس تفيق بعد ٩ و ١٠ يونيو وتتساءل من المسئول عن الهزيمة ؟ ولماذا حدثت ؟ كما بدأوا يدركون أن عملية الصراع بين عامر وناصر لعبت دوراً رئيسياً فى الكارثة التى حلت بمصر .

رأس المحكمة حسين الشافعى وقد جعلها علنية كما طلب هو من عبد الناصر وطبعاً حاول المتهمون إنقاذ رقابهم فحولوا القضية إلى محاكمة لثورة ٢٣ يوليو فكانت النتيجة أن اختفى الوجه الجميل للثورة وهو إنجازاتها ولم يظهر غير وجهها القبيح وهو تضاعف الإجراءات الإستثنائية وكبت الحريات وكل ما جعل الناس تضيق بالثورة .

رأى الناس هذا الوجه للثورة وكأنه وجهها الوحيد فزاد سخطهم وخاصة أن جروح الهزيمة كانت ما زالت تدمى فى قلوبهم فكانت النتيجة الحتمية لهذا إنفجار الطلبة فى فبراير سنة ٦٨ الذى ما لبث أن عم جميع فئات الشعب .

حاولنا حصار الإنفجار وانتهت عملية الحصار عندى فى مجلس الشعب عندما أرسلت فى طلب الطلاب وكانوا معتصمين فى الجامعة وجلست معهم خمس ساعات ذهب بعدها كل منهم إلى منزله . .

لجأ عبد الناصر كعادته إلى احتواء الانفجار فأصدر بيان ٣٠ مارس الذى حاول فيه أن يمتص غضب الشعب بمعالجته لكل الأمور التى تشكو منها الناس بعد أن كشفت لهم القضية عن الوجه القبيح للثورة – ولم يكتف عبد الناصر بإصدار البيان بل طلب من الشعب الاستفتاء عليه فخرجت البلد بأكملها لتأييده مما أذهل المراسلين الأجانب فقد كانوا مؤمنين بأن أحداً من الناس لن يذهب للاستفتاء وهم ما زالوا جميعاً يعانون من الهزيمة وآثارها . .

صورة أخرى من صور فترة الانتقال هذه كانت حرب الاستنزاف التى بدأناها فى سبتمبر ٦٨ بعد أن كان اللواء أحمد اسماعيل قد انتهى من بناء خط الدفاع المصرى وكنا قد سرنا شوطاً لا بأس به فى تدعيم قواتنا المسلحة . . بدأنا الحرب بالمدفعية فردت علينا إسرائيل بضرب محطة المحولات فى نجع حمادى وقناطر نجع حمادى وكوبرى قنا فى الصعيد . . فاضطررنا إلى التوقف من سبتمبر ٦٨ إلى مارس ٦٩ حيث استطعنا فى تلك الفترة من حماية جميع المنشآت ثم استأنفنا فى سنة ٦٩ رغم أن الاتحاد السوفيتى كان ضد هذا ولم يعوضنا عن الذخيرة التى استنفدناها حينذاك إلا مع الكوبرى الجوى عند بدء معركة ٦ أكتوبر سنة ٧٣ . وكان هذا عقاباً لعبد الناصر لأنه بدأ حرب الاستنزاف واستمر فيها ضد رغبة السوفييت . .

من أحداث تلك الفترة التى كانت ذات أثر بعيد فيما بعد – أن عبد الناصر فى ساعة صفاء وإلهام قال لى وكان ذلك يوم ١٩ ديسمبر ٦٩ : أنا مسافر يا أنور لحضور مؤتمر القمة العربى فى المغرب يوم ٢٠ ديسمبر . . وزى ما أنت شايف المؤامرات حولى كثيرة ومحتمل جداً أن أصاب فى إحدى هذه المؤامرات وأنا مش عايز البلد تبقى تايهة ومش عايز أسيب البلد فى فراغ . . ولذلك قررت أن أعينك نائب رئيس جمهورية وتحلف اليمين قبل ما أمشى .

كنت أعرف أن مؤامرات عملاء الإتحاد السوفيتى قد بدأت بعد أن أتى الطبيب الروسى شازروف إلى مصر ورأى عبد الناصر وأسر إلىّ وإليهم دون شك بأن الأزمة القلبية التى أصابت عبد الناصر من النوع الخبيث وأنه لن يعيش بها طويلا . . فسمعت ما قاله لى عبد الناصر وأجبته : –

– فكرت يا جمال ورسيت ؟ أنا مش عاوز يا جمال أبقى نائب رئيس جمهورية . . أنا حاكمل معاك وأشتغل وإذا كان لابد من لقب كفاية على مستشار رئيس الجمهورية .

قال : « لأ . . بكرة تفوت علىّ عشان تحلف اليمين . . . » وفعلا ذهبت إليه فى اليوم التالى ومعى حسين الشافعى كعادتنا لاصطحابه إلى المطار . . فى المنزل طلب أن أحلف اليمين وكان ذلك فى وجود حسين الشافعى ففعلت وحينما ذهبنا إلى المطار لتوديعه أعلنها عبد الناصر على الجميع . .

٧

من أوضح مظاهر الصراع من أجل البقاء فى هذه الفترة صراع عبد الناصر مع السوفييت من أجل بقاء مصر وصراع السوفييت مع عبد الناصر من أجل بقائهم فى المنطقة . .

ففى أول يناير سنة ١٩٧٠ حينما ضربت إسرائيل مصنع أبو زعبل وقتل فيه أكثر من ٧٠ عاملا بريئاً استدعى عبد الناصر السفير السوفيتى وكبير الخبراء وأخبرهما أنه ليس فى إمكانه الانتظار إلى يونيو وهو ميعاد تسليم بطاريات الصواريخ سام ٣ وخاصة بعد أن وصلت إسرائيل إلى العمق وضربت التجمعات العمالية والسكانية ، فحدد له القادة السوفييت ميعاداً فى ٢٢ يناير وسافر إلى موسكو فى زيارة سرية استغرقت أربعة أيام عاد بعدها وهو فى قمة السعادة . .

قلت له : خير يا جمال . .

قال : الدور ده الظاهر حيصدقوا معانا . . فأنا لما قلت أن الأمر عاجل وملح وطلبت منهم يبعتوا لنا صواريخ سام ٣ بأطقم سوفيتية إلى أن يتم تدريب أطقمنا فى أغسطس جمعوا القيادة السياسية وأخذوا قراراً بإرسال سام ٣ ابتداء من شهر مارس سنة ٧٠ .

كنا منذ الهزيمة نلح على السوفييت أن يعاونونا فى الدفاع الجوى حتى أن عبد الناصر طلب منهم حينذاك أن يتولى الدفاع الجوى عن مصر قائد سوفيتى . . فقد كان الدفاع الجوى عندنا نقطة ضعف بارزة كما ثبت فى عامى ٦٩ ، ٧٠ عندما ضربت إسرائيل مصنع أبو زعبل ومدرسة بحر

البقر للأطفال . . ولذلك اعتبرنا دخول سام ٣ مصحوباً بجنود سوفييت نقطة تحول فى تعامل السوفييت معنا . .

ولكن جاء إبريل موعد وصول الطائرات فى يو ١٦ التى كانوا قد وعدوا بإرسالها مع الصواريخ ولم يظهر لها أثر وسألنا مرة ومرات أين الطائرات التى وعدتم بها ؟ ولكن لا اجابة . . نفس الأسلوب القديم الذى كنا قد تصورنا أنهم غيروه . . ضاق عبد الناصر بالموقف كله وقال لى :

ــ اسمع يا أنور أوراق اللعبة كلها فى أيدى أمريكا شئنا أم أبينا ولقد آن الأوان عشان نتكلم وندخل أمريكا فى العملية .

وكنا فى ذلك الوقت قد فوضنا الاتحاد السوفييتى بالتحدث مع أمريكا لإزالة شكوكهم الرهيبة . .

ولذلك فى أول مايو سنة ٧٠ وهو عيد العمال وجه عبد الناصر أغلب كلامه فى الخطاب الذى ألقاه بمناسبة عيد العمال إلى نيكسون وقال له . . هل أنت غير قادر على حل المشكلة أم غير راغب فى هذا ؟ . . كانت لهجة الخطاب رقيقة أو على الأقل خالية من العنف كما كان بها قدر كبير من الدبلوماسية التى تفصح عن رغبة عبد الناصر فى أن يفتح باب الحوار مع أمريكا . .

وفعلا بدأت أمريكا الحوار فى يونيو سنة ٧٠ بمبادرة روجرز التى تنص على نقطتين هما الانسحاب ووقف اطلاق النار لمدة ٩٠ يوماً يجرى فيها وسيط من الأمم المتحدة المفاوضات بين الأطراف المعنية من أجل تسوية مشكلة الشرق الأوسط . . كان الوسيط جونار يارنج منذ أن صدر قرار مجلس الأمن ٢٤٢ فى نوفمبر ١٩٦٧ وكنا نعرف أن مهمته محكوم عليها بالفشل بسبب تعنت إسرائيل ، وفعلا لم يستطع أن يحقق شيئاً وانتهت مهمته فى سنة ٧١ .

بعد إعلان مبادرة روجرز بقليل قام عبد الناصر بزيارة إلى موسكو أعددت له أنا مع السفير السوفييتى فينوجرادوف إعداداً كاملا حتى يقتنع القادة السوفييت بضرورة إرسال سلاح الردع لنا ، ولكن رغم كل الجهود التى بذلت رفض السوفييت الاستجابة لمطالب عبد الناصر . فاضطر إلى أن يعلن قبوله لمبادرة روجرز وهو على نفس المائدة مع القادة السوفييت فى الكرملين . .

جن جنون بريجنيف وسأل عبد الناصر كيف تقبل حلا أمريكياً فأجابه عبد الناصر أنه على استعداد لقبول الحل من أية جهة . .

استغرقت رحلة عبد الناصر هذه ٢٠ يوماً فقد أدخلوه غرفة الأوكسيجين الخاصة برجال الفضاء ليجدد خلايا جسمه كله حتى أننى عندما التقيت به فى مطار القاهرة عند عودته من موسكو دهشت . . فقد بدا أصغر من سنه بعشرين سنة على الأقل وما زلت أذكر قولى له وأنا أرحب به « ما شاء الله يا ريس . . ايه الشباب ده ! » وما زالت صورته أمام عينى وهو يسير فى أرض المطار بخطى واسعة منشرح الوجه وصدره إلى الأمام كفتى فى الثلاثين من عمره . . ولكن ماذا تفيد غرفة الأكسجين رجلا يعلم أنه مكتوف الأيدى نتيجة موقف السوفييت معه ؟

فى أثناء غيابه فى موسكو جمعت اللجنة السياسية للإتحاد الإشتراكى وأوصينا برفض مبادرة روجرز . . ولكنه عندما عاد وشرح لى ما حدث فى الكرملين وأخبرنى أنه قبل المبادرة قلت له : « معاك حق لأن السوفييت حيودونا فى داهية فنظر إلى وقال : « السوفييت يا أنور حالة ميئوس منها تماماً . . »

كانت هذه آخر زيارة قام بها عبد الناصر للقادة السوفييت وقد كان تأثيرها على صحته سيئاً للغاية ــ فلأول مرة أحس عبد الناصر بأنه ليست هناك أرض للمناورة ، وعبد الناصر مناور ممتاز ولذلك فهو بدون أرضية مناورة يساوى صفراً وهو لا يجب أن يكون صفراً . . وكان الوحيد الذى كان يقف إلى جانبه فى ذلك الوقت الاتحاد السوفييتى . . فعلاقاته مع أمريكا وغرب أوروبا والبلاد العربية مقطوعة أو ممزقة فلا مجال للمناورة ولا مجال بالتالى للصراع من أجل البقاء . .

٨

منذ هزيمة سنة ٦٧ لم يسلم عبد الناصر من المرض إلى أن مات . . فى ٥ يونيو ١٩٦٧ إنفلت السكر ولم يتمكن من السيطرة عليه إلا فى نوفمبر سنة ١٩٦٧ . . خمسة شهور متتالية كانت كفيلة بأن تدمر الجهاز الداخلى لعبد الناصر على صورة أمراض متوالية أولها أصيب به فى ديسمبر سنة ٦٧ على هيئة بثور فى بعض أجزاء من جسمه وكان أى احتكاك للملابس بها يسبب له آلاماً رهيبة فأرسلنا فى استدعاء الأطباء من مختلف أنحاء العالم إلى أن اكتشف المرض طبيب إنجليزى وأوصى بعلاجه عن طريق الهرمونات المضادة واضطر عبد الناصر إلى أن يخضع لهذا العلاج الذى كان يسبب له أزمات عصبية شديدة مدة شهرين كاملين إلى أن شفى من المرض فتلقفه على الفور مرض آخر . . إذ بدأ يحس فى ساقيه بآلام عنيفة أخذ عنفها يزداد يوماً بعد يوم إلى أن وصلت إلى درجة لا يمكن احتمالها أو وصفها ومما زاد الحالة ضراوة أن عبد الناصر كان عليه أن يكتم آلامه ليظهر أمام الناس بكل هيبته وبالهالة الضخمة التى كانت تحيط به حتى إذا ما خلا إلى نفسه أغلق حجرة النوم عليه وعلىّ ــ فقد كنت ألازمه ــ وراح يصرخ بأعلى صوته كالأسد الجريح الذى لا يملك من أمر نفسه شيئاً . . ظل على هذه الحال شهوراً متوالية إلى أن سافر للعلاج بالمياه المعدنية فى (سخلطوبو) فى روسيا .

وفى سبتمبر سنة ٦٩ أصيب بنوبة قلبية أخفيناها وأعلنا أنها أنفلونزا . . فبعد أن فحصه الأطباء المصريون أسروا إلى بأنها أزمة قلبية . . وطلبنى عبد الناصر وقال لى : « والله يا أنور شوف حنعمل ايه وصرف الأمور كما ترى » قلت له : « أنا حابعت أجيب لك الدكتور شازوف » .

كان شازوف طبيب القيادة السوفيتية وقد سبق له أن تولى علاج عبد الناصر فى موسكو ، فأتى على وجه السرعة وأكد تشخيص الأطباء المصريين وأوصى بأن يلتزم عبد الناصر بالراحة التزاماً كاملا لأن هذه النوبة القلبية بالذات كانت من نوع خبيث للغاية فإذا تعرض صاحبها لأى إجهاد بدنى أو نفسى فسوف تودى بحياته بدون أن يشعر بأى ألم . . وهذا ما حدث لعبد الناصر بعد ذلك بسنة بالضبط . .

فى خلال تلك السنة حدثت بعض الأمور التى أنهكت عبد الناصر صحياً وكان أولها قبوله لمبادرة روجرز فبمجرد أن سمع الفلسطينيون بهذا شنوا عليه حملة شرسة هوجاء دون أن يتريثوا أو يسألوه عن سبب قبوله لمبادرة روجرز وهو الذى وقف إلى جانب القضية الفلسطينية كما لم يقف أى رئيس أو حاكم عربى آخر . . بل لا أبالغ إذا قلت إن عبد الناصر بتبنيه لقضية فلسطين قد أضفى على القضية كل أبعادها السياسية التى لولاها لظلت مجرد قضية لاجئين . . فهو الذى ملأ العالم العربى والعالم كله باسم فلسطين . . وكان يهاجم بعنف أى حاكم عربى لا يقف إلى جانب القضية الفلسطينية . . بل وكرس كل جهده واستخدم الثورة نفسها للدفاع عن حق الفلسطينيين فى وطنهم . .

كان من الطبيعى أن يتأثر عبد الناصر بموقف الفلسطينيين منه وأن يكون تأثره شديداً وعميقاً . . فهاهم الذين أفنى صحته فى الدفاع عنهم يتنكرون له بالمزايدات والشعارات والانفعالات الطائشة الهوجاء والسفاهات الصبيانية !

كيف يتحمل رجل مريض بأقسى أنواع المرض أن يطعن كبرياؤه هكذا وليس على أيدى الغرباء كما حدث فى آخر زياراته لموسكو بل على أيدى الأقرباء الأصدقاء . . الإخوة الذين كثيراً ما فضل مصالحهم على مصلحته الشخصية ؟

كان من الطبيعى أن يؤثر كل هذا على صحة عبد الناصر فيعجل بنهايته . .

ولكن ليت الأمور توقفت عند هذا الحد . . ففى سبتمبر دعا عبد الناصر إلى مؤتمر قمة عربى فى القاهرة من أجل مذبحة أيلول (سبتمبر) سنة ٧٠ بين الملك حسين والمقاومة الفلسطينية . . وكان السبب فى هذه المذبحة أن الملك حسين قرر تصفية المقاومة فى الأردن فاشتبك معها فى صدام مسلح مما أدى إلى مذبحة بين أفرادها بالمعنى الكامل للكلمة . .

لم يستطع عبد الناصر السكوت على هذا فدعا إلى المؤتمر فى القاهرة برغم كل ما ناله من أذى وحضر جميع الملوك والرؤساء العرب ما عدا الملك حسين . . أما أنا فقد كنت قد شفيت لتوى من الأزمة القلبية التى انتابتنى للمرة الثانية سنة ٧٠ وحضرت إلى القاهرة للإشتراك فى المؤتمر . .

حضر المؤتمر معمر القذافى وكان ظاهرة تلفت النظر بالطبنجة التى لا تفارق حزام سترته كما كان دائم السباب فى الملك حسين . . كان يصفه بأنه رجل مجنون ولابد له من دخول مستشفى المجاذيب . . وكنت أنا إلى ذلك الوقت أفسر سلوكه على أنه نوع من اندفاع الشباب والحماس الزائد عن اللازم . . المهم انقسم الأعضاء إلى مؤيد لمجىء الملك حسين ومؤيد لعدم مجيئه ولكنهم انتهوا إلى اقتراح عبد الناصر من ضرورة اشتراك الملك حسين فى المؤتمر . . وفعلا جاء الملك حسين وسار المؤتمر ، ولكنه أصبح بشكل ثقلا رهيباً على الأعصاب لا من ناحية الملك حسين بل من ناحية معمر القذافى وتصرفاته هو وياسر عرفات من خلف الكواليس . .

كنا مجتمعين ذات صباح فى جناح عبد الناصر فى فندق هيلتون أثناء انعقاد المؤتمر وكان معنا ياسر عرفات وكان جمال حريصا على أن يصل إلى صيغة يحل بها المشكلة وكان من رأيه أن يتنازل كل من الطرفين قليلا فكلاهما مخطىء . . وإذا بياسر عرفات ينفعل ويبدأ سلسلة من الانفجارات لا نهاية لها . . ضاق جمال بالموقف فقال له : « أنا ما أعملش ده كله عشانك ويتحرق دمى بالشكل ده عشانك وانت يبقى موقفك كده . . » .

وترك عبد الناصر الجناح عائداً إلى بيته بعد أن أعلن تصميمه على عدم العودة إلى المؤتمر . . لحقنا به وهو يهم بركوب المصعد فأقنعناه بالعودة معنا وبعد محاولات عديدة ابتدأ ياسر عرفات يستجيب . .

المهم أن المؤتمر كان حملا ثقيلا على أعصاب عبد الناصر ، فقد أجهد فيه أعنف إجهاد بسبب القذافى وتصرفاته من ناحية ومن ناحية أخرى بسبب ياسر عرفات الذى كان عبد الناصر قد دعا إلى عقد المؤتمر ليحل له مشكلته . . انتهى المؤتمر بالإتفاق على ما اتفقوا عليه وعاد الملوك والرؤساء العرب إلى بلادهم وكان عبد الناصر فى وداعهم جميعاً . . كان آخر من سافر الملك فيصل وأمير الكويت . . وعند توديع الملك فيصل نبهنى كبير الياوران إلى أن قدمى الرئيس جمال قد « لفت على بعضها » وهو يسير فطلبت من عبد الناصر أن يذهب إلى بيته ليستريح وأقوم أنا نيابة عنه بتوديع أمير الكويت ولكنه رفض .

كان من الواضح أنه يتحامل على نفسه فعندما ركب أمير الكويت طائرته لم يتحرك عبد الناصر من أمام الطائرة بل وقف مكانه والعرق يتصبب من وجهه وقد امتقع لونه بصفرة رهيبة . . فطلب أن تأتى السيارة إلى حيث كان . . وتركته على اتفاق أن نسافر فى الغد إلى الإسكندرية للإستجمام والراحة وذهبت إلى منزلى لأستريح قليلا فاتصل بى سكرتيره الخاص ليقول لى إن عبد الناصر سيحضر عندى لتناول العشاء معى . . وذهبت لأنام قليلا ولكنهم أيقظونى فى السابعة مساء وقالوا إن بيت الرئيس جمال اتصلوا وقالوا إنك مطلوب فى البيت لأمر هام . .

ارتديت ملابسى بسرعة وذهبت إلى منشية البكرى حيث وجهونى إلى حجرة نوم عبد الناصر فوجدته على فراشه والأطباء يحيطون به قالوا لى إنه مات منذ ساعة . . كشفت عن وجه جمال فوجدته طبيعياً جداً وكأنه يستغرق فى نوم عميق . . ألصقت خدى بخده فلم أحس بالبرودة التى تصاحب الموت . . التفت إلى الأطباء وقلت : « مش ممكن . . الكلام اللى بتقولوه ده مش ممكن يبقى صحيح . . » قالوا لى إنهم قاموا بجميع الإسعافات اللازمة واستعملوا جهاز القلب الذى يعطى صدمة توقظ القلب . . قلت لهم : « حاولوا . . حاولوا مرة أخرى . . » فانفجروا بالبكاء وعلمت منهم أنهم حاولوا كل جهدهم لمدة ساعة كاملة قبل وصولى ولكن قضاء الله وقدره كان قد نفذ . .

أمرت بنقل الجثمان إلى سراى القبة وكنا فى يوم الإثنين فجمعت مجلس الوزراء واللجنة العليا للاتحاد الاشتراكى وقررنا أن يكون ميعاد الجنازة يوم الخميس حتى يتمكن المعزون من الملوك والرؤساء من تشييع الجنازة . . وطلبت من الأطباء العمل على حفظ الجثمان بطريقة سليمة إلى يوم الخميس . . ومكثت بقصر القبة حيث جثمان عبد الناصر إلى أن أتى وقت تشييع الجنازة فخرجت لعمل الترتيبات لسير الجنازة التى كانت تبدأ من مجلس قيادة الثورة ولكن بعد أن وصل الجثمان والجنازة على وشك الابتداء أصبت بانهيار مفاجىء . . فحملونى إلى مجلس قيادة الثورة وأعطانى الأطباء خمس حقن لم أفق منها إلا حوالى الساعة الواحدة والنصف بعد الظهر . .

كان أول سؤال سألته : هل دفن عبد الناصر ؟ فقد كنت أخشى أن تحمل جماهير الشعب التى كانت تقدر بالملايين النعش وتسير مندفعة به .

فموت عبد الناصر كان فاجعة مفاجئة للجميع . .

الفصل الثامن

١

الثورة الثانية

بعد موت عبد الناصر مباشرة لم تكن بى رغبة فى أن انتخب رئيساً للجمهورية ولما كان عبد الناصر فى خطاب العودة يوم ١٠ يونيو سنة ١٩٦٧ قد أعلن أنه سوف تجرى انتخابات للرئاسة بعد إزالة آثار العدوان فقد قلت إننى سأعمل نائباً لرئيس الجمهورية إلى أن أزيل آثار العدوان وبعد ذلك تجرى الانتخابات . .

ولكننى بدأت أراجع نفسى لما أحسست من تيارات ومناورات من جانب مراكز القوى وأغلبية أعضاء اللجنة التنفيذية العليا التى تركها لى عبد الناصر وهى المكتب السياسى . . كما أنى لاحظت أن البلد رغم حالة الحزن الشامل الذى كان يخيم عليها كانت فى حالة ترقب . . فالشعب يريد أن يعرف إلى أين يسير وهو كله مجمع على شىء واحد وهو ضرورة أن نضمد جراحنا ونلم شملنا بأسرع وقت ممكن لنكمل المسيرة . . وهذه ميزة الشعب المصرى الأصيل الذى يستند إلى حضارة سبعة آلاف سنة . . إنه لا يفقد إحساسه بكيانه مهما كانت الظروف . .

وشىء آخر كان له وزنه فى مراجعتى لنفسى ، فقد وصل الرئيس بومدين رئيس الجزائر قبل الجنازة واجتمع بى ولما علم أنى سأعمل نائباً لرئيس الجمهورية إلى أن تتم إزالة آثار العدوان اعترض بشدة وقال إنه لا يجب أن يكون هناك أى شك أو اهتزاز فى صورة مصر فى عيون العالم . . وإنه يجب أن ينتخب الشعب رئيس الجمهورية فوراً حفاظاً على مكانة مصر ومسئولياتها التاريخية بالنسبة للمعركة والأمة العربية كلها . .

ولكن لعل ما جعلنى أحسم الأمر ، مذكرة أرسلتها لى القوات المسلحة تقول فيها إن الظروف التى تمر بها مصر صعبة ودقيقة للغاية . . وإن أمام

القوات المسلحة واجباً لابد من إنجازه ولذلك فهم بحاجة إلى وجود قائد أعلى مسئول يتمكنون تحت رئاسته من تحقيق هدفهم . .

كانت المناورات قد بدأت بالفعل من جانب بعض مراكز القوى وكان المركز الذى أراد استغلال هذا الموقف أولئك الذين كانوا يستندون إلى الاتحاد السوفيتى ، وكان هناك آخرون . .

ولكن المركز الأول الذى كان يضم عملاء الاتحاد السوفيتى أخذ يرتب نفسه ، وتعهدوا فيما بينهم على أن يكونوا الورثة الشرعيين لعبد الناصر بدعوى أنهم الأمناء على خطه . .

فى يوم الخميس بعد تشييع الجنازة استدعيت المسئولين وقلت لهم إننى عدلت عن البقاء كنائب لرئيس الجمهورية وإنه لابد من الإنتخاب ولذلك طلبت انعقاد اللجنة التنفيذية العليا للاتحاد الإشتراكى (المكتب السياسى) فكل شىء يجب أن يسير وفقاً للدستور .

طبعاً كانت هناك صراعات ومناورات أثناء انعقاد اللجنة — فأحدهم مثلا وكان العضو الباقى معى من أعضاء مجلس الثورة طلب أن يظل الوضع كما هو وقال لى : « أنا أخشى لو قدمنا اسمك أن تكون محرجاً فالبلد ترفضك وإذا حدث هذا فسيكون معناه أن البلد ترفض ثورة ٢٣ يوليو » .

قلت له : أنا عندى من الشجاعة الكافية — إذا عرضتم اسمى ورفضه الشعب — أن أجمعكم مرة أخرى ونختار مرشحاً آخر وإذا رفض الشعب المرشح الآخر فسنعاود الكرة ونختار مرشحاً جديداً . . فلن أسلم البلد إلا لرئيس منتخب من الشعب مهما كلفنى هذا من معارك . .

انتهت المناقشات بالموافقة على تسميتى رئيساً للجمهورية وذهبنا إلى اللجنة المركزية التى وافقت على اختيارى كما وافق مجلس الشعب . . وبعد ذلك أجريت الانتخابات وانتخبنى الشعب رئيساً للجمهورية وكان ذلك فى ١٥ أكتوبر سنة ١٩٧٠

بمجرد انتخابى أصدرت قرارى بتعيين الدكتور محمود فوزى رئيساً للوزراء وعبد المحسن أبو النور أميناً عاماً للاتحاد الاشتراكى فأنا أؤمن أن العمل بفرد واحد خطير جداً لأنه يؤدى فى النهاية إلى أن هذا الفرد لا يستطيع أن يلم بكل شىء فينتهز بعض معاونيه الفرصة ويأخذون الأمور فى أيديهم كل يتصرف كما يشاء وبذلك توجد مراكز القوة — تماماً كما حدث بالنسبة لعبد الناصر .

٢

أرادت مراكز القوة أن تصعد الصراع ، بحجة أننا لابدّ أن نسير على خط عبد الناصر . . فقلت لهم إننى لا أستطيع أن أصرف الأمور كما كان يصرفها عبد الناصر – فكل منا يختلف عن الآخر . . صحيح نحن لا نختلف فى المبادىء أما الوسائل فنختلف عليها مائه فى المـــائة . .

وقد كانت لى جلسات مــع عبد الناصر فى بيته وفى بيتى خـــلال السنة السابقة لوفـــاته إذ كنا نتبادل الزيارات فنلتقى يوماً لــديه ويوما لدى . . وكنت دائم الحديث معه عن ضرورة تغيير منهج الحكم والأساليب التى كانت الناس تحكم بها إذ كان الشعب بعد الهزيمة وبعـــد الصمود الذى أبداه فى حاجة ملحة إلى التغيير . .

أذكر أنه فى أول يوم تسلمت الحكم أى فى يوم ١٧ أكتوبر سنة ١٩٧٠ جاءنى سامى شرف وكان هو كاتم سرعبد الناصر ووزير شئون رئاسة الجمهـــورية ومعه أوراق كثيرة لعرضها على . . سألته : « ايه دى » ؟ قال لى : « دى مكالمات تليفـــونيه لأشخاص موضوعين تحت المراقبـــة » قلت له : « آسف . . أنا ما أحبش أقـــرأ الكلام الفارغ ده . . إذا كان فيه شىء خاص بأمن الدولة أشوفه وأحكم فيه . . أما ناس بتتكلم مع بعضها – أنا دخلى ايه ؟ وأنتم بـــأى حق تحطـــوهم تحت المراقبة ؟ شيل » وأزحت الأوراق من أمامى فجمعهـــا وخرج ولكن قبل خـــروجه كنت قد أصدرت أمرى إليه بإلغـــاء جميع المراقـــات التليفـــونية وأن لا تتم أى مراقبات إلا بأمر القضـــاء وفعلا تم هـــذا . .

منذ أول يوم توليت فيه استيقظت فىّ إرادة التحـــدى . . صحيح أنها لم تنم يوماً طوال السنوات السابقة فهى إحدى مقومات شخصيتى ولكنها لم تكن بهذه اليقظة والحدة الآن . . بعد أن تسلمت الحكم . . فقد صارت مسئوليتى أن أسلم الشعب الأمانة سليمة . . رغم كل الظـــروف المحيطة به من هزيمة عسكرية كاملة الأبعاد ووضع اقتصادى منهار وعزله سياسية قاتلـــة ، فعلاقاتنا مع الدول العربية وأمريكا وغرب أوروبا ممـــزقة تماماً . . بل لم تكن لنـــا علاقة إلا مع الاتحاد السوفيتى الذى لم يفكر حتى فى أن يعوضنا عن قطع علاقتنا مع جميع

دول العالم . . فإذا أضفنا إلى كل هذا بعض الحقائق التى لمستها بنفسى والتى تقطع بأن أحـــداً من المسئولين الذين كانوا يحيطـــون بعبد الناصر لم يكن يأخـــذ فى حسابه إلا مصلحته الخاصة وبقاءه فى منصبه وسلطته المطلقـــة بغض النظـــر عن مصلحـــة مصر (فقـــد أصبحت الحسابات كلهـــا شخصية كما أصبح الجميع يعيشون بالحقـــد والبغضاء) . . لأدركنا أن كل هذه الصعاب قد شحنت إرادة التحـــدى عندى فدعمتها وأيقظتها بحيث لم تضعف أو تغفل لحظة واحدة منذ أن توليت حتى الآن . .

قلت لجميع أعضاء مجلس الثورة ومراكز القـــوة فى بداية حكمى إننى لن أقبل هذا الكابوس والحمـــل الرهيب ذا الأبعاد غير الواضحة . . وسأعيد تصحيحه بالحب وبالقـــوة الداخلية التى أعتز بها دون أن أقف على أشلاء أى إنسان أو أجرح أى شخص . .

كنت أعرف أننى بهذا أتحدى الكثير من الأوضاع والأخلاقيات القائمة ولكنى كنت أعرف أيضاً أننى قـــادر على هذا التحـــدى فأنا فى أى وضع ملىء بقوة ذاتية أكبر بكثير من المنصب الذى أشغله – ولكن ها أنا الآن أملك قوة مادية أعطاها لى الله وهى منصب رئيس الجمهورية فلابد أن استخدمها للخير . . كان هذا خطى طول عمرى . . فأى عمل أقـــوم به يصدر عن مبـــادىء معينة هى إسعاد وحب مصر ولكن لم تكن الفرصة مواتية لى فى أى وقت مضى مثلما أصبحت بعـــد أن اختارنى الشعب رئيساً للجمهورية . .

وعندما أراجـــع خط سيرى فى الحكم فى تلك المرحلـــة المتقدمة أجد أننى فى ديسمبر سنة ١٩٧٠ أصدرت قرار تصفية الحـــراسات . . كانت للشعب آمال تراوده وكان هذا أحدها ولذلك لم أدهش عندما علمت أن القرار قد استقبل بحماس شديد ليس فقط من جانب أولئك الذين كانوا قد وضعوا تحت الحراسة بل أيضاً لدى جمـــاهير الشعب العـــريضة التى لن يفيدها القرار فى شىء مثل سائقى التاكسى وغيرهم .

بالنسبة للوضع الخارجى فقد تقدمت بعد ٤ شهور من بدء ولايتى بالمبادرة المصرية التى كان لها وقع شديد خارج مصر وداخلها فكنت أرى أنه ما دامت المعـــركة العسكرية مستحيلـــة فلابد أن تحل محلها معركة دبلوماسية لأن القاعدة العريضة من الشعب تتطلب دائماً الحركة المستمرة . .

٣

عندما تسلمت الحكم كانت التركة التى تركها لى عبد الناصر مبهمة بالنسبة لى أول الأمر – ولكن أيا كان الوضع الذى كانت مصر فيه فقد قبلت التحدى لأصححه . . كنت أعرف أن القيم قد ضاعت ولكنى استطيع أن أصحح هذا بقيمى ومبادئى . . وليس بضرب الناس . . كانت مراكز القوة تحكم أمام عينى فقلت لهم : أنا أتسامح ولكنى لا أسمح بالعيب . .

لم يكونوا يعرفون أنى لا أسمح لنفسى بالحكم على مصائر الناس بتقارير تقدمها مراكز القوى كنت أعلم أنها مزورة وليست إلا شهوات انتقام أو تخويف . . وكانوا يجهلون أيضاً أنى لا يهمنى أن أبنى نفسى فى الخارج . . فالصورة يجب أن تكون فى مصر أساساً . . ولعلهم كانوا يجهلون أيضاً أن أبشع ما واجهت هو جبل الحقد الذى بناه عبد الناصر على كل المستويات حتى على مستوى الأسرة الواحدة حيث كان يمكن للإبن أن يتجسس على أبيه أو أخيه كما كان يحدث فى الأنظمة الفاشية .. وهذا فى تقديرى أقبح ما يمكن أن نصل إليه .

فعندما قامت الهيئة التأسيسية للضباط الأحرار قبل الثورة كانت ترتكز على أساس خلقى ومثالى . . وعندما أصبحت مجلس قيادة الثورة كان يحكمنا نفس الأساس ولكن بداية حكم الثورة كانت غير موفقة ، فبدلا من أن تبدأ بالثقة وتعطى الفرصة إلى أن يثبت العكس (كما أومن أنا وكما تعودت أن أمارس فى حياتى) بدأت بالشك فى كل إنسان إلى أن يثبت العكس وهو الثقة وهو نادراً ما يثبت لأسباب كثيرة . . من أجل هذا أوغرت النفوس ضد الثورة . . ولذلك فى الأربع سنوات الأولى وهى حكم مجلس قيادة الثورة كانت هناك أخطاء وانتهاكات فى حق الإنسان المصرى ولكنها كانت فى دائرة ضيقة اتسعت فيما بعد ..
فى سنة ٥٦ كان يجب على عبد الناصر أن يوصل الانتصار بعد انتصاره فى معركة القناة بأن يعطى للشعب المصرى بعد معركة ١٩٥٦ حريته كاملة ولكنه لم يفعل فكانت النتيجة أن أصبح الإنسان المصرى سلبياً مما جعل انتصارات عبد الناصر كلها انتصارات على السطح بالنسبة للشعب . . لأنه يعرف فى أعماقه

٦

جيداً أنه لم يشارك بل ولم يؤخذ رأيه فى أمر ما . . وعندما كان الشعب يتململ من هذا كان تململه يفسر على أنه ثورة مضادة فتقع الحراسات والاعتقالات وكل هذا هو التطبيق الفعلى لامتهان كرامة الإنسان . .

وقد لاحظت أن أكبر خطأ ارتكب فى حق الإنسان المصرى كان هو زرع الخوف . . فبدلا من أن نبنى الإنسان أصبح كل همنا أن نخيفه . . والخوف هو أخطر ما يهدم كيان الفرد أو الشعب فلقد كانت أرزاق الناس كلها ملكاً للحاكم إن شاء منح وإن شاء منع وكان المنع مصحوباً فى أغلب الأحيان بمصادرة حرية الفرد واعتقاله ثم فصل جميع أهله من وظائفهم مع اتخاذ إجراءات ضدهم . .

وهكذا تحول الناس إلى « مساخيط » أو أصبحوا دمى فى أيدى حكامهم يفعلون بهم ما يشاؤون . . فلم يعد مسموحاً للناس بالسفر أو بأن يقولوا كلمة تختلف عما يقوله الحاكم وإلا اعتقلوا أو صودروا فى أرزاقهم . . ومن هنا ازداد الناس سلبية فقد أصبح الأمان لهم أن يسيروا إلى جانب الحائط لا شأن لهم بأحد ولا بأى شيء مما يدور حولهم وكأنهم أصبحوا لا يبصرون ولا يسمعون ولا ينطقون . . من أجل ذلك قلت وما زلت أقول إنه بقدر ما كانت ثورة ٢٣ يوليو عملاقة فى إنجازاتها فإنها كانت أيضاً عملاقة فى أخطائها . . ولكن مع الزمن انتهت الإنجازات أو ذهبت أو أصبحت أمراً واقعاً مجرداً من الهالة ولم يبق من الثورة غير بقعة سوداء رهيبة تشيع الحقد والخوف بين الناس ولكنهم لا يملكون منها فراراً . .

ولكن رغم هذا كله ، يخطىء من يظن أن شعب مصر يمكن أن يموت فهو عملاق دائماً قد يتحمل أشد أنواع الأذى من الداخل والخارج ولكن هذا الأذى لا ينال منه أبداً . . فبمجرد أن ينكشف عنه الغبار تجده عملاقاً كما هو . . قد تجده مجروحاً ينزف دما . . ولكنه يعلم أنه سيأتى الوقت الذى يقف فيه النزيف ويضمد جراحه . . هذا هو الشعب المصرى الذى آمنت وما زلت أومن به وأدعو الله أن يمكننى من أن أزيل من طريقه جميع المعوقات وأن أجعل الكلمة الأولى والأخيرة له فأنا أعرف أنه عند ذلك سوف يحقق المعجزات . .

٤

كانت التركة التى ورثتها من عبد الناصر فى حالة يرثى لها . . فمن الناحية السياسية وجدت أن علاقتنا مقطوعة مع جميع انحاء العالم ما عدا الاتحاد السوفيتى . . وفى العالم العربى ساد ما نادى به عبد الناصر وسمى بالتقدمية والرجعية وبناء على هذا التقسيم التعسفى كان يقيم أو لا يقيم علاقاته بدول الأمة العربية . . وقد أخذ درساً حين رأى أن الذى وقف إلى جانبه بعد هزيمة سنة ١٩٦٧ كانوا من ظل طول حياته يصفهم بالرجعية مثل السعودية والكويت والملك السنوسى ملك ليبيا فهم الذين دعموه بالمال بعد الهزيمة .

كانت السياسة عند عبد الناصر تخضع لانفعالاته ، وقد أدرك هذا أولئك الذين يحيطون به ولذلك كانوا يستطيعون تطويعه كما يريدون إذا أحضروا إليه فى الوقت المناسب المعلومات المناسبة التى يفجرها فتحدث فى العالم دوياً هائلا . .

أذكر أنه فى سنة ١٩٦٤ كان عبد الناصر على وشك أن يلقى خطابه بمناسبة عيد النصر فى ٢٣ ديسمبر فى بورسعيد كما اعتدنا كل سنة بعد عدوان سنة ١٩٥٦ . . وقبل الخطاب بخمس دقائق قال له على صبرى وكان رئيساً للوزراء إن وزير التموين سأل السفير الأمريكى عن موعد وصول معونة القمح فرد السفير بما أهان مصر وقال للوزير إن الكونجرس لم يوافق بعد — وبعد أن سمع عبد الناصر هذا « التقرير » مباشرة ألقى خطابه فجاء مليئاً بالسباب والطعن فى أمريكا . . وعندما سمع السفير الأمريكى الخطاب ذهب مباشرة إلى المسئولين وقال إن شيئاً مما نسبه إليه عبد الناصر لم يحدث وأيد السفير وزير التموين المصرى نفسه فقد بادر بعد سماعه الخطاب إلى الإتصال بمستشار عبد الناصر الصحفى ونفى هذه المعلومات وطلب إبلاغ ذلك إلى عبد الناصر . وأسقط فى يد عبد الناصر فقد أدرك أن أقدار الشعوب لا يمكن أن تكون رهينة الانفعالات وهكذا اضطر إلى أن يطلب منى ومن عبد الحكيم عامر أن نصلح هذا الأمر

فاجتمعنا مع السفير الأمريكى على مائدة عشاء فى منزل المستشار الصحفى المذكور وحاولنا بكل المحاولات أن نصلح هذا الخطأ . . ولكن لم يلبث الأمر أن تكرر . . إذ أن ما حدث مع أمريكا حدث أيضاً مع إيران فقد أسر أعوان عبد الناصر إليه بكلمات نسبوها إلى شاه إيران خطأ قبل أن يلقى خطاب ٢٦ يوليو فى الاسكندرية (وكان هذا تقليداً منذ خروج الملك من الإسكندرية فى ٢٦ يوليو سنة ١٩٥٢) فما كان من عبد الناصر إلا أن أعلن قطع العلاقات مع إيران فى هذا الخطاب ، رغم أنه ثبت فيما بعد أن حديث الشاه كانت قد حرفته وكالات الأنباء . . ومرة أخرى طلب منى عبد الناصر أن أصلح الأمر مع شاه إيران فى المؤتمر الإسلامى الذى عقد فى الرباط حيث مثلت عبد الناصر لإصابته فى ذلك الوقت بأزمة قلبية وطلب منى أن أوسط الملك حسين فى ذلك وقد فعلت ذلك ولكن المصالحة لم تتم . . كانت هذه هى التركة التى ورثتها سياسياً . . لا وجود لوزارة الخارجية أو سياسة مدروسة ومخططة . . لم يكن هناك سوى الرئيس نفسه الذى ينفعل فيصدر قراراته بناء على هذا الانفعال وهو راض سعيد ما دام كل ما يقوله يصفق له الشعب . .

أنا اختلف عن عبد الناصر فى هذه الناحية اختلافاً تاماً ، فعندما أردت أن ألغى المعاهدة مع السوفييت بعد ما فوتوا على سنة الحسم بعدم الوفاء بالتزاماتهم . . ومناوراتهم التى لم تكن لها نهاية . . اتصلت بطرف ثالث من دول عدم الإنحياز وهى الهند وطلبت منها أن ترسل إلى بعض الأسلحة التى تصنعها بموافقة السوفييت لأنها أسلحة سوفيتية واتصلت الهند بالاتحاد السوفيتى تستأذنه فى إرسال الأسلحة ولكن رفض السوفييت لأنهم كانوا يأملون فى أن يصبح السلاح الذى عندى خردة يباع لمجمع الحديد والصلب . .

كان هناك طرف ثالث يقوم بدور الشاهد وهى الهند . . ولذلك وجدت الفرصة مناسبة لكى أخلص البلاد من آخر التزام عليها وهو المعاهدة السوفيتية وخاصة بعد مسلك الاتحاد السوفيتى وأيضاً كنت لا أريد أن أترك من خلفى التزاماً قد يستغل من بعدى وأيضاً لأننى كنت الذى عقدها وقبلها الشعب على مضض لثقته فى . .

وفى رأيى أنه ليس من حق أى إنسان أن يحتكم إلى انفعالاته عندما يتعلق الأمر بمصير الوطن . . بل يقتضى الواجب فى نظرى أن أبحث عن كل مصدر لخير وسعادة الشعب وأن أفتح كل الأبواب التى أغلقت فى وجه مصر مهما كلفنى هذا من جهد وعناء . .

واليوم وبعد أن أصلحت كل هذه الأخطاء فإننى أفخر أن علاقات مصر بإيران وبالعالم كله تقوم على الثقة والاحترام المتبادل ولن أنسى أبداً يوم أن كان احتياطى البترول فى مصر قد أصبح فى مرحلة الخطر بعد معركة أكتوبر سنة ١٩٧٣ لأن حقول بترولنا كانت مغلقة وأرسلت إلى شاه إيران فبادر فى الحال بإرسال أكثر من نصف مليون طن وأمر ناقلات البترول فى عرض البحر أن تغير طريقها لكى تتوجه إلى مصر لنجدتها وهو يقول : « السادات أخ لى — والذى يريده سأستجيب له فى الحال » .

٥

كانت التركة التى ورثتها اقتصادياً أسوأ بكثير من التركة السياسية فاستقلال أى بلد حر هو فى حقيقته الاستقلال الاقتصادى وليس الشعارات السياسية . . فماذا كان حالنا سنة ٧٠ ؟

كنا قد نقلنا بغباء شديد النمط السوفيتى ونحن نسير على الخط الاشتراكى رغم أننا كنا نفتقر إلى الموارد والإمكانيات وتراكم رأس المال . ففى سنة ١٩٥٢ عندما استلمنا البلد كانت ميزانية مصر ٢٠٠ مليون جنيه تركها لى عبد الناصر ٢٠٠٠ مليون ، ولكن لم تكن هذه الزيادة إلا على السطح فقط أما فى الأعماق فالمسألة تختلف تماماً . . فعندما تم تمصير البيوت الأجنبية فى مصر بعد معركة العدوان الثلاثى فى أواخر سنة ١٩٥٦ انعكس هذا الحال على الوضع الاقتصادى لمصر . . وكان لنا فى هذا الوقت أيضاً أرصدة مقدارها ٤٠٠ مليون جنيه استرلينى ودائع فى إنجلترا من متخلفات الحرب العالمية الثانية فأفرج عنها بعد أن كان إيدن قد جمدها بعد تأميم قناة السويس .

وهكذا . . فى أول يناير سنة ٥٧ بعد الإفراج عن ودائعنا فى لندن وتأميم جميع البيوت الأجنبية عندنا كنا فى أروع أوضاعنا الاقتصادية . . ومن هنا بدأ القطاع العام بالأموال والمؤسسات التى مصرت ولم تكن تقل فى مجموعها عن ألف مليون جنيه . . ولكن لو كان البدء سليماً لكنا الآن دولة عظمى . . فى سنة ٦١ صدرت قوانين التأميم . . وكان من الممكن أن ينطلق اقتصادنا بالقطاع العام مع تشجيع القطاع الخاص إلى آفاق هائلة لأن المنافسة بين الإثنين فى صالح بناء أكبر واندفاع أعظم ، ولكن الذى حدث هو أن التطبيق الاشتراكى بدأ يتجه إلى الماركسية فأصبح أى عمل حر رأسمالية بغيضة وأصبح القطاع الخاص استغلالا ولصوصية فاختفى تماماً نشاط الأفراد مما استتبع سلبية رهيبة من جانب الشعب أعانى منها إلى اليوم وصلت إلى أن أصبحت الدولة مطالبة — إلى جانب التخطيط وإدارة السياسة الخارجية والداخلية — بتوفير البيض والدجاج ومئات من الحاجات التى كان يمكن أن يوفرها الأفراد بالمبادرة والنشاط الفردى .

ولقد كان من نتيجة هذا أن أصبح الشعب حسب النظرية الجديدة يعتمد على الدولة فى كل شىء . . الأكل والوظيفة والسكن والتعليم ، فما دامت الدولة قد أصبحت اشتراكية فعليها أن توفر للمواطن كل ما يتطلبه دون أى جهد إيجابى من جانبه . . وهذا الانكماش هو زاوية الهبوط إلى الهاوية . .

فى سنة ٧٠ قرأت تقريراً صدر فى أمريكا بعد تحليل لواقع مصر الاقتصادى يقولون فيه : « اتركوا عبد الناصر يصرخ فسوف يركع على ركبتيه اقتصادياً فى القريب العاجل » .

كنا فى ذلك الوقت نعتمد فقط على أنفسنا فلا معونة أمريكية أو سوفيتية أو عربية أو غربية فكل ما كنا نأخذه من الغرب والشرق والعرب كان الشماتة . . فقد ضاع اقتصادنا فى حرب اليمن والانفصال عن سوريا والتطبيق الماركسى للاشتراكية وهزيمة يونيو المنكرة . . .

قرأت التقرير مرة ومرات واستلفت نظرى ما جاء فيه من أن زيادة السكان بمصر وبالتالى زيادة الاستهلاك سوف يجعل الاقتصاد المصرى

يصل إلى مرحلة الصفر فى خلال سنتين من سنة ١٩٧٠ على الأكثر ففزعت ولكنى اعتبرته دعاية من الغرب وأنه ضمن الحملة النفسية التى تشن علينا لكى نسلم لإسرائيل ولكن بعد أن توليت اكتشفت الحقيقة المرة — فقد استدعيت وزير المالية والاقتصاد — د. حسن عباس زكى وسألته عن الموقف الاقتصادى فقال ببساطة: إن الخزينة فاضية.. وإننا نكاد نكون فى حالة إفلاس.. قلت له: «كيف وصل الحال إلى هذا؟ ألم تخبر جمال؟» قال: «أنا قعدت ألبس طاقية ده لده ولكن دلوقتى خلاص».

أرسلت واقترضت ٢٠ مليون جنيه ولكن حسن عباس زكى قال لى إن هذا المبلغ لم ينفع كثيراً.. وكنت أذعر فعلا.. عندما أدركت أننا على وشك أن يأتى اليوم الذى لا نملك فيه رواتب الجنود المرابطين على الجبهة ومرتبات الموظفين فإذا جاء يوم ولم يقبضوا رواتبهم وعرفوا أن أهلهم فى مصر لا يجدون ما يأكلونه فسوف يتركون الجبهة وتنهار مصر..

طبعاً كافحت واستعنت بكل مدد يمكن الإستعانة به.. ولم أشعر طوال سنة ٧١ و سنة ٧٢ بحقيقة الكارثة ولكن قبل المعركة بخمسة أيام واجهت مجلس الأمن القومى بحقيقة اقتصادنا وبأنه تحت الصفر وهذا أمر لو صادف غيرى أو أى إنسان لابد أن يخيفه ولكنى فكرت وقررت.. ولا اعتقد أن أحداً مكانى كان سيجد الشجاعة لإصدار أى قرار ولكننى كنت على ثقة أن مفتاح كل شىء سياسياً واقتصادياً وعسكرياً هو أن نصحح هزيمة سنة ١٩٦٧ لكى نستعيد ثقتنا فى أنفسنا وثقة العالم بنا فلم يكن الوضع الاقتصادى سوى بعد واحد من أبعاد المشكلة.

لقد كان محو عار ومهانة هزيمة سنة ١٩٦٧ هو الأساس، وكان تقديرى أننى حتى لو دفنت مع أربعين ألف من أبنائى فى القوات المسلحة ونحن نعبر القناة فسيكون ذلك أشرف لنا ألف مرة من أن نقبل هذا الإذلال وتلك المهانة وستأتى الأجيال القادمة من بعدنا لتقول إنهم ماتوا بشرف فى المعركة ولابد أن يكملوها بعدنا.

٦

فى وفاة عبد الناصر أرسلت أمريكا أحد وزراء نيكسون وهو ريتشاردسون للتعزية وعندما عاد إلى بلاده كتب تقريراً بأن السادات لن يبقى فى الحكم لأكثر من أربعة أسابيع إلى ستة أسابيع.. وفى الداخل بدأ عملاء الاتحاد السوفيتى فى القيادة السياسية الصراع.. وظهر هذا واضحاً بعد أن أصدرت قرار إلغاء الحراسات بعد شهرين فقط من ظهور نتيجة الانتخابات..

فى هذه الأثناء كنا قد بدأنا نجتمع — مصر وليبيا والسودان وسوريا — من أجل تحقيق وحدة بين البلاد العربية.. لم يكن السودان على استعداد للدخول فى أى عمل وحدوى فى هذه الفترة حتى يتمم إقامة مؤسساته الدستورية وكان القذافى يتظاهر بأنه وحدوى متطرف.. أما حافظ الأسد فقد كان حريصاً على الوحدة من أول لحظة.. واتفقنا على الصيغة التى نبدأ بها الوحدة وهى صيغة الجمهوريات العربية المتحدة على أن تكون لكل جمهورية شخصيتها بنظامها ورئيسها حسب أوضاعها وظروفها وبعد ذلك يتكون ما يسمى مجلس الرئاسة ويجتمع رؤساء جمهوريات الوحدة لكى ينسقوا عملية الوحدة والخطوات إليها. وكان هذا الأسلوب هو ما اتفقنا عليه فى حياة عبد الناصر كدرس مستفاد من الانفصال الذى وقع للوحدة بين مصر وسوريا عام ١٩٦١ والتى لم تستمر إلا ثلاث سنوات فقط.

وجد مركز القوة الأول الذى يتكون من على صبرى وشعراوى جمعة وسامى شرف وجميعهم عملاء للاتحاد السوفيتى — وجد هذه فرصة للتصارع وكان معى ضمن وفد مصر للوحدة على صبرى فصرح بأن ظروف مصر لا تسمح بالدخول فى أى نوع من الوحدة.. وكان هذا أول محك للصراع بينى وبين مراكز القوة.. ففى مراحل الوحدة المختلفة كان على صبرى ومعه بقية وفد مصر من القيادة السياسية التى تركها لى عبد الناصر يحاولون تلغيم الطريق إلى الوحدة مع كل من ليبيا وسوريا.. لم يقل لى القذافى أنهم يتصلون به ليضعوا العقبات فى طريق الوحدة أما الأسد فقال لى: «أنت فى وضع غريب جداً.. أنت بتتكلم كلام والوفد اللى معاك بيتكلم كلام مختلف تماماً من وراك».

وفى اليوم الأخير لاجتماعاتنا قال نميرى : « أنا زى ما قلت لكم مش جاهز للوحدة وكل ما تتخذه من خطوات وحدوية بينك وبين سوريا أنا أؤيده ١٠٠٪ لأنه أمر يخص معركتنا القومية » ، وكان فى اليوم التالى سيسافر إلى موسكو . . وهكذا انتهت المحادثات بالفشل فذهبت إلى القذافى قبل أن يعود إلى ليبيا فى الصباح وقلت له : « يا معمر لعلمك أن حافظ الأسد رئيس سوريا لن يغادر مصر هذه المرة إلا وقد أقمت أنا وهو الجمهورية العربية المتحدة . . هذا قدرنا فمعركتنا واحدة » .

قال : « أنا مستعد أدخل معاكم . . . » . . مع أنه فى الليلة السابقة كان له رأى مخالف تماماً لما يقول فهو يريد إما أن تقوم الوحدة على ما يراوده من آمال وأحلام وإلا فهو يضع فى طريقها العقبات . .

قلت له : « الوضع حيكون شاذ لأن نميرى سافر النهارده على أساس أن الاجتماع الرباعى فاشل . . فإذا كنت عايز تخش معانا نرجع لاجتماعنا الذى كان مقرراً فى بنغازى اللى كنا متفقين عليه قبل الاجتماع الرباعى . . أنت تسبقنا على بنغازى وأحنا نيجى بعدك بكذا ساعة » .

وكان هذا الاجتماع الرباعى بين مصر والسودان وليبيا وسوريا قد تم عقب اتفاقنا على اجتماع ثلاثى بين مصر وسوريا وليبيا فى بنغازى ولكنه عدل إلى اجتماع رباعى فى القاهرة بإضافة السودان كطلب الرئيس السودانى نميرى . .

طلبت وفداً للذهاب معى إلى ليبيا وكونته من حسين الشافعى وعلى صبرى وهما نائبا رئيس الجمهورية فى ذلك الوقت . . ذهب على صبرى مبكراً إلى المطار ومعه شعراوى جمعه بصفته وزيراً للداخلية — وهما اللذان كانا يمثلان القيادة بالنسبة لمركز القوة الأول العميل للاتحاد السوفييتى — فعليه أن يكون فى وداع القذافى . . انفرد على صبرى وشعراوى جمعة بالقذافى فى المطار وبدأوا عملية التخريب فاستجاب لهم وقال لهم : « والله الرئيس السادات هو اللى أحرجنى » . . وعندما وصلت المطار قال شعراوى جمعة لى : « القذافى يقول إن سيادتك ضغطت عليه وهو مش عاوز الوحدة » .

ووجدت على صبرى يقول لى نفس الكلام . . فقلت أنا أرفض الاستماع إلى هذا اللغو . .

وفى بنغازى جلسنا حول مائدة الاجتماع وكان هناك مجلس قيادة الثورة الليبى كله والرئيس الأسد والوفد السورى وأنا والوفد المصرى . . أخبرت المجلس بما حدث بينى وبين القذافى وأن الوحدة التى نجتمع من أجلها ليست حرجاً لأحد وذكرت قول القذافى أنه أحرج فلم يتكلم القذافى ولم يعلق على صبرى فبدأنا المناقشة ولكن بعد يومين فقط كان من الواضح أننا لن نستطيع أن نتفق وقررنا السفر وأرسلنا الحقائب إلى المطار وأعددنا البيان الذى سيعلن عقب الاجتماع وفيه أننا لم نتفق وسبقنا الصحفيون إلى المطار وإذا بسوريا تتصل بالقذافى وتعرض عليه تعديل صيغة معينة كنا متفقين عليها فيوافق ويعرضها على فأوافق فأرسلنا لاستدعاء الصحفيين ووقع اتفاق بنغازى . . فإذا بعلى صبرى يأتى إلى ويقول إنه غير موافق . . فقلت له : « أجل معارضتك هذه إلى أن نعود إلى القاهرة » . .

٧

فى القاهرة جمعت اللجنة التنفيذية العليا وكانت مكونة من ثمانية أشخاص عرضت عليهم الاتفاق على الوحدة الذى وقعته عن مصر فى بنغازى وبعد مناقشات طويلة وضح فيها أن الأغلبية وهم مركز القوة الأول من عملاء روسيا كانوا متكتلين لإسقاط الاتفاق وجاهزين فى أول اختبار قوة معى لكى يفرضوا الوصاية على قراراتى ، أخذت الأصوات فكانت النتيجة خمسة من ثمانية هم عملاء الاتحاد السوفييتى فى القيادة للرفض ضد ثلاثة هم أنا والدكتور فوزى رئيس الوزراء وحسين الشافعى نائب رئيس الجمهورية . . فكان واضحاً أن الصراع فى أوجه فإما أن يجهزوا على وإما (على الأقل) أن يحدوا من سلطتى نهائياً بحيث لا أستطيع أن أتخذ أى قرار إلا بموافقتهم . .

وفوجئوا إذ لم يكونوا جاهزين للمفاجأة من جانبى حين طلبت عرض الموضوع ونتيجة التصويت على اللجنة المركزية ، ولم يكونوا جاهزين لهذه المفاجأة كما قلت

فحاولوا كسب الوقت بإعادة الدراسة ولكنى أصررت على عرض الأمر كله على اللجنة المركزية التى لم يستطيعوا بكل الجهود اليائسة التى بذلوها كسبها إلى جانبهم . . ووافقت اللجنة المركزية بالإجماع على الاتفاق . . وهكذا انتهى اختبار القوة معى إلى انتصارى المطلق وتسليمهم . . ولكن إلى حين .

فى يناير سنة ١٩٧١ كان على أن اتخذ قراراً بالنسبة لمبادرة روجرز فدعوت إلى اجتماع اللجنة المركزية العليا ووزير الحربية ووزير الخارجية — وكان واضحاً من المناقشة أن الرأى الغالب وهو رأى مراكز القوة وهم الأغلبية فى القيادة السياسية التى تركها لى عبد الناصر بأن نستأنف حرب الاستنزاف مع إسرائيل فى الوقت الذى كان فيه نصف الوطن وهو الصعيد معرضاً لإغارات إسرائيل كما حدث خلال عام ١٩٦٨ ، ١٩٦٩ ورغم أن الاتحاد السوفيتى كان يماطل فى إرسال الصواريخ لمواجهة هذه الإغارات وحماية منشآتنا فى الصعيد (برغم أننا وقعنا معه اتفاق إرسالها) وكان يسوف فى إرسالها بمختلف الحجج . .

وكان واضحاً أيضاً من مناقشاتهم أنها مناورة لإحراجى وإحراج البلد فانتهيت من الاجتماع بأن قلت لهم إننى لن أدخل حرب استنزاف أخرى حتى تصلنى بطاريات الصواريخ وأؤمن المنشآت فى الصعيد نصف مصر كما أنى سأجدد مبادرة روجرز بشهر واحد فقط ينتهى فى ٧ مارس ١٩٧١ حتى أعطى آخر فرصة للعالم ولأمريكا ولإسرائيل ليتحملوا مسئولياتهم . .

وفى ٤ فبراير سنة ١٩٧١ أعلنت أمام البرلمان للعالم كله ولشعبنا وللأمة العربية مبادرة منى أساسها أنه إذا انسحبت إسرائيل من ضفة القناة إلى المضايق فإننا على استعداد لفتح قناة السويس بعد أن تعبر قواتنا إلى شرق القناة وسوف أمد الثلاثة شهور الواردة فى مبادرة روجرز إلى ستة شهور بدلا من ثلاثة وسيكون هناك وقف إطلاق نار رسمى وأيضاً سوف أعيد العلاقات مع أمريكا . .

لم أخبر أحداً من مراكز القوة بمبادرتى هذه ففوجئوا بها يوم أعلنتها فى خطاب ٤ فبراير فى مجلس الشعب فأصيبوا بوجوم شديد . . فى حين أن العالم الخارجى استقبلها أحسن استقبال . . فلأول مرة ينتبه العالم لنا لأن كلامنا قبل ذلك لم يكن موضوعياً . . مجرد حماس وانفعال . .

أما الشعب المصرى فبأصالته وحسه المرهف أدرك المبادرة ورحب بها كل الترحيب .

فى فبراير سنة ١٩٧١ أيضاً فكرت فى السفر إلى الاتحاد السوفيتى لأول مرة بعد انتخابى رئيساً للجمهورية لأطالبهم بتنفيذ الجزء الثانى من الإتفاقية التى عقدوها مع عبد الناصر وهو إمدادنا بسلاح الردع . . كذلك استعواض الذخيرة التى استهلكناها فى حرب الاستنزاف ولتزويدنا ببطاريات الصواريخ من أجل حماية المنشآت فى الصعيد . . فأرسل إلى السوفييت أنهم على استعداد لمقابلتى فى ١ ، ٢ مارس وطلبت منهم أن تكون الزيارة سرية ، وسافرت وجلسنا على مائدة المفاوضات فى الكرملين وشرحت لهم متاعبنا منذ عهد عبد الناصر ومطالبنا الحيوية وبدأت حديثى بتقرير النقطتين الأساسيتين اللتين قررتهما فى كل اجتماعاتى التالية مع قادة الكرملين . . الأولى هى أنه لن يحارب لنا معركتنا جندى سوفييتى والثانية أننا لا نسعى إلى المواجهة بين الاتحاد السوفييتى وأمريكا . . وكنت فى شدة الانفعال والحماس فاشتبك معى كوسيجين رئيس الوزراء السوفييتى كما اشتبك معى المارشال جريتشكو وزير الدفاع السوفييتى ورددت عليهما بعنف مما جعل بريجنيف يتدخل ويعلن لى أن الحكومة السوفييتية قد وافقت على تزويد مصر بعدة أصناف من الأسلحة . . لم تكن هى المطلوبة فعلا ولكن قبلناها لحاجتنا الماسة إلى أى سلاح — كان هذا أسلوب السوفييت معنا دائماً ولكنى قلت لهم فى هذا الاجتماع : —

— نحن نشكركم ولكن لابد أن أسجل هنا فى محضر الاجتماع أننا مختلفون .

أثناء اشتباكى معهم فى هذا الاجتماع قالوا إنهم على استعداد لأن يرسلوا لنا طائرات بالصواريخ ويدربوا عليها المصريين على أن لا تستخدم إلا بموافقة الحكومة السوفيتية . . عندئذ اشتد غضبى وقلت لهم :

« مفيش قرار فى مصر إلا لى كرئيس لمصر وأنا بارفض هذه الطائرات » بعد ذلك أخذنى بريجنيف وقال لى بينى وبينه « أنت عارف الطيارة الميج ٢٥ اللى عندك منها ٤ ؟ » قلت : « دى طيارة ممتازة » . . قال لى : — « سأرسل لك منها ثلاثين تستخدمها قاذفات » . . قلت له : « عندئذ يبقى أنا تنازلت عن كل خلاف على شرط أن الطيارين يأخذوا أوامرهم منى أنا » . .

طبعاً لم يرسل بريجنيف ما وعد به فأصدرت أمرى بأن الأربع طائرات ميج ٢٥ (مثل التى طار بها طيار سوفيتى إلى اليابان) والتى كان يعمل عليها طيارون سوفييت لا تطير . . فإما أن يعودوا إلى بلادهم . . وإما أن أشترى هذه الطائرات .

كانت لدى هذه الطائرات الأربعة ميج ٢٥ وقد قبلت وجودها على الأرض المصرية لأداء الخدمات المطلوبة للاستطلاع للقوات المصرية ولكنها لم تقم سوى مرتين بهذه المهمات ورفض الطيارون أن ينفذوا ما تأمرهم به .

واتضح أن وجودهم كان للاستطلاع لحساب الاسطول السوفيتى الخامس فى البحر الأبيض ضد الاسطول السادس الأمريكى فى هذا البحر . .

وقد سحب الاتحاد السوفيتى هذه الطائرات ورفض أن يبيعها لى . .

وفى اجتماع اللجنة التنفيذية العليا رويت لهم ما حدث فى موسكو وقلت « أنا رفضت قبول هذه الطائرات لأن الشرط كان أن آخذ موافقة موسكو عند استخدامها وليكن واضحاً لكم جميعاً أنه ليس فى مصر قرار إلا لى أنا كرئيس جمهورية وأنا لا أريد سلاح الردع هذا إذا كان بهذه الشروط » .

لم يستطع المتآمرون وهم أغلبية القيادة السياسية التى تركها لى عبد الناصر أن يتفوهوا بكلمة أمامى ولكنهم خرجوا من الاجتماع ساخطين على فكيف لا أوافق على أخذ الإذن من الاتحاد السوفيتى وهو دولة عظمى . . ! !

لم يرسل لى السوفييت بطاريات الصواريخ إلا فى شهر إبريل سنة ١٩٧١ أما الذخيرة فقد أرسلوا شيئاً منها ولم يرسلوا بقيتها إلا أثناء حرب أكتوبر سنة ٧٣ . . أما الطائرات وسلاح الردع الذى وعد به بريجنيف فقد كان مجرد كلام .

هكذا كان السوفييت معنا دائماً . . يضعوننا فى موقف لا نملك فيه أن نتخذ قراراً . . ففى ٧ مارس أعلنت فى خطابى أننا غير ملتزمين بوقف إطلاق النار كما أعلنت انتهاء مبادرة روجرز وكان المفروض أن أبدأ بعد هذا مباشرة حرب الاستنزاف ولكن عدم وفاء السوفييت بوعودهم جعلنى غير قادر على الحركة فى ذلك الوقت . .

٨

كانت مبادرتى التى أعلنتها فى ٤ فبراير سنة ١٩٧١ نقطة بدء لمعركة سياسية لأنه لم يكن فى مقدورى فى ذلك الوقت أن أفتح معركة عسكرية وكنتيجة لمبادرتى اتصلت بنا أمريكا واقترحت أن يزورنا روجرز فرحبت . .

وكانت صدمة للاتحاد السوفيتى وعملائه وخاصة من كان منهم فى مراكز القوى. كان قد أصبح واضحاً لمراكز القوة هذه والمتآمرين أنى بدأت أكسب أرضاً فى مصر وخارج مصر ولكن صراعهم كان تحت السطح مما جعلهم يعجلون بعملية التآمر للخلاص منى . .

طلبوا منى فى أول الأمر أن أعين وزير الداخلية وهو أحد كبار المتآمرين وعملاء السوفييت رئيساً للوزراء ولكنى رفضت . . وكنت قبل ذلك قد قررت تصفية على صبرى عميد العملاء السوفييت فى مصر .

وفى لقاء بينى وبين السفير السوفيتى قلت له : « أنا حريص على العلاقات معكم ولكنى أرجو أن تبلغ القيادة السوفيتية أننى قررت تصفية على صبرى من القيادة السياسية وقد أخبرتك بهذا الأمر مع أنه من صميم شئوننا الداخلية التى لا أقبل فيها تدخلا من أحد ولكننى أخشى عندما أصفيه أن تتحدث صحف الغرب عن تصفيه رجل موسكو الأول فى مصر وأن يسبب هذا لكم شيئاً من الحساسية ، وأرجو أن تعلموا أنه لا يوجد لموسكو رجل فى مصر فأنتم تتعاملون مع الحكومة لا مع أفراد . . وأنا أصفى على صبرى لأنى أقبل الخلاف فى الرأى ولكن لا أقبل الصراع على الاطلاق » . .

بدأت مراكز القوى أو على التحديد مركز القوة رقم واحد الاجتماعات والتحريض وبدأ الناس يرسلون لى شكاوى ضدهم موقعة ويخبروننى بالتعليمات التى صدرت إليهم من الاتحاد الاشتراكى الذى كان تحت سيطرتهم فكنت أحيل هذه الخطابات إلى المتآمرين أنفسهم وكنت أرقب حتى إذا اعتدى أحدهم على واحد من أصحاب الشكاوى طالبته بالمبرر وفتحت المعركة . .
وفى أواخر إبريل أصابتهم الحمى فأكثروا من الاجتماعات والتحريض

وأطلقوا المزيد من الإشاعات وكان عندهم جهاز إشاعات يفخرون بكفاءته إذ كانوا يقولون إنه باستطاعتهم أن يطلقوا الإشاعة من القاهرة فتشيع فى جميع أنحاء البلاد ثم تعود إليهم فى زمن قياسى . . وهو تكتيك معروف فى روسيا بما يسمونه مراكز التهييج . .

كنت قد وقت معركتى معهم على أن تكون فى عيد العمال وهو أول مايو سنة ١٩٧١ . . وقد حاولوا إفشال هذا الاجتماع بكل الوسائل . . ولكنهم فوجئوا بأن خطابى استولى على اهتمام الناس فكان اجتماعاً من أنجح الاجتماعات .

وفى يوم ٢ مايو سنة ١٩٧١ ، أقلت على صبرى من جميع مناصبه فى سطر واحد صدر فى الصحف . . ففرح الشعب بذلك فرحاً عظيماً وفى نفس الوقت زادت عند المتآمرين حمى التآمر والتحريض والاجتماعات والمناقشات وهم يظنون أنى لا أعرف شيئاً مما يدور . . أردت أن أكمل المعركة التى فتحتها فعقدت عدة اجتماعات فى القوات المسلحة وقلت فى آخر خطبة لى : « لن أسمح بمراكز القوة ولا بالصراع وأى واحد حيعمل حاجة ضد مصر أنا حافرمه . . » وكان يجلس بجانبى محمد فوزى وزير الحربية وقتذاك وهو واقع تحت تأثيرهم . .

كان المفروض أن أذهب فى يوم الخميس ١٣ مايو سنة ١٩٧١ إلى مديرية التحرير ولكنى علمت أنهم قد دبروا كميناً هناك لاغتيالى فأجلت الرحلة معتذراً بأنى مجهد . . وقررت أن أتخلص منهم ولكن كان لابد من بينة . .

منذ تاريخ توليّى فى ١٦ أكتوبر سنة ١٩٧٠ إلى ١١ مايو سنة ١٩٧١ ، كانت هناك أسباب كثيرة للتخلص منهم ولكن كانت تنقصنى البينة . . إلى أن أتى يوم ١١ مايو سنة ١٩٧١ فجاءنى ضابط بوليس شاب لم تكن لى به سابق معرفة . . وهو يحمل معه شريط تسجيل عليه مكالمة تليفونية بين اثنين من مراكز القوة يتضح فيها تآمرهم على وعلى الدولة وكيف كانت الإذاعة محاصرة يوم جلسة اللجنة المركزية للاستفتاء على مشروع الوحدة . . حتى إذا لجأت إلى الإذاعة لأخاطب الشعب أحاصر هناك ويغتالونى . .

عندما وصلنى هذا الدليل قلت يجب أن أصفيهم على الفور فلم يعد هناك شك فى تآمرهم على مصر – بدأت بإقالة وزير الداخلية زعيم التآمر . . وفى الساعة الحادية عشرة إلا ثلاث دقائق من مساء نفس اليوم ١٣ مايو سنة ١٩٧١

جاءنى أشرف مروان (وهو زوج كريمة عبد الناصر) وكان يعمل مديراً لمكتب سامى شرف ، وهو يحمل استقالات رئيس مجلس الأمة ووزير الحربية ووزير الإعلام ووزير شئون رئاسة الجمهورية وأعضاء من اللجنة المركزية وأعضاء من اللجنة المركزية العليا . . وكان المقصود بهذه الاستقالات أن يحدث انهيار دستورى فى البلد . . قبلتها جميعاً وأعلنتها على الشعب فى الحال وحددت إقامتهم فى بيوتهم . . وفى نفس الليلة أجريت تعديلا وزارياً وأعيد تشكيل الوزارة ولم يحدث أى انهيار دستورى مما كانوا يحلمون به بل على العكس خرج الناس إلى الشوارع وهم يهللون فرحين بما تم لا يعرفون ماذا يفعلون فقد كانت الفرحة أكبر من أن تحتويها صدورهم . .

وهكذا تخلصت مصر من كابوس مركز القوة الأساسى الذى شل حركتها سنوات طويلة . .

ولكن كان من الضرورى أن نتخلص من آثار هذه المراكز التى ظلت جاثمة فوق الصدور سنة بعد سنة تعبث بأقدار الناس تزرع الخوف فى الإنسان المصرى وتعطل العدالة وتشيع الحقد وتذيق الناس من ألوان القهر والتعذيب ما لا طاقة لهم به وتحرمهم من أهم مقومات الحياة وهى الحرية ؟ . فأمرت بحرق جميع شرائط التسجيل الموجودة فى وزارة الداخلية . . وكان هذا رمزاً لإعادة الحرية إلى الناس . . فقد أمرت على الفور بإغلاق جميع المعتقلات وتحريم الإعتقال وأعلنت أن لكل مواطن الحق فى أن يفعل أو يقول أى شىء فى ظل سيادة القانون .

كان ما حدث فى ١٥ مايو سنة ١٩٧١ والأيام التى تلته تصحيحاً لمسار ثورة ٢٣ يوليو سنة ١٩٥٢ ولكنه كان فى نفس الوقت بمثابة اللبنة الأولى فى بناء المجتمع الاشتراكى الذى نعيشه اليوم والذى يتسم بالعدل الاجتماعى الحقيقى لا بالشعارات ، وبالعمل الإيجابى والأهداف الساطعة فى وضح النهار لا التفسيرات الملتوية أو الفلسفات الدخيلة علينا البعيدة عن قيمنا العربية ، وعن إيمان هذا الشعب بالرسالات السماوية وتمسكه بتراث وتقاليد العائلة المصرية الأصيلة . .

٩

جاء بودجورنى لزيارتى فى أواخر مايو سنة ١٩٧١ ، وكانت صحف الغرب كما تنبأت فيما مضى قد نشرت أن رجل موسكو الأول فى مصر بل رجال موسكو كلهم قد وضعوا فى السجن . .

وفعلا نشرت بعض صحف الغرب صورة بودجورنى فى زيارته لمصر وهو يستعرض عملاء موسكو فى ملابس السجن . .

اجتمعت به وطلب منى أن تعقد مصر معاهدة مع الاتحاد السوفيتى . .

لم أعارض ولو أننى قلت إن التوقيت ليس سليماً فمراكز القوة رجالكم فى مصر ما زالوا فى السجن ولم يحاكموا بعد فأنتم بعقد المعاهدة تسيئون إليهم أمام الشعب لأنكم بهذا تؤكدون للشعب أنهم هم الذين كانوا يحمون مصالحكم ولكنه كان متلهفاً على عقد المعاهدة وقال إن المكتب السياسى قد اجتمع فى موسكو وأصر على المعاهدة . . قبلت وكان هدفى أن أطمئنهم فقد كنت أعرف أن من طبعهم أن يتركوا أنفسهم فريسة للشكوك فى كل علاقتهم مع الغير .

والشك فى نفسية الروسى طبيعة ثانية معروفة سواء وقت القيصرية أو الشيوعية . .

وفى اليوم التالى عقدنا المعاهدة وذهبت مع بودجورنى لأودعه فى المطار وطلبت منه وهو يهم بركوب الطائرة أن ينقل للقادة السوفييت رسالة منى وهى . . الثقة . . الثقة . . الثقة ، فقد شعرت أنهم مهتزون وكنت أخشى من هذا على معركتنا . .

أثناء اجتماعى مع بودجورنى قلت له إننا غير سعداء بهذه المعاملة التى تعاملوننا بها ومع ذلك فنحن نعقد معكم هذه المعاهدة لنثبت لكم حسن نوايانا فقال لى : « بعد أربعة أيام من وصولى إلى موسكو سنرسل إليك كل ما طلبته من سلاح فوراً بما فى ذلك سلاح الردع » .

كان هذا فى أواخر مايو سنة ١٩٧١ ولكن فات يونيو ويوليو وأغسطس وسبتمبر وأكتوبر ولم يحدث شىء مما وعد به بودجورنى . . أسوأ ما كان

يضايقنى من الاتحاد السوفيتى أنهم كانوا فى أغلب الأحيان يصمتون كالقبر . . كنت استدعى السفير السوفيتى مرات ومرات وأبعث إلى السوفييت بالرسالة بعد الأخرى . . ولكن لا إجابة وكأنك تتصل بأشخاص لا وجود لهم إلا فى خيالك .

فى يوليو سنة ١٩٧١ حدثت ثورة السودان الشيوعية فاتخذت موقفاً حاسماً من هذه الثورة وقلت نحن نشجب هذا الذى حدث ولا أقبل أن يقوم حكم شيوعى على حدودى وما هى إلا أيام قليلة فعلا حتى سقطت هذه الثورة وعاد نميرى رئيساً للجمهورية بعد أن تخلص من أعدائه .

اتسعت الفجوة بينى وبين السوفييت بعد موقفى من ثورة السودان فانقضى يوليو وأغسطس وسبتمبر دون أى رد من السوفييت سوى أن القادة السوفييت فى مصيفهم بالقرم . .

وأخيراً فى أواخر سبتمبر سنة ١٩٧١ جاءتنى رسالة منهم بأنهم على استعداد لاستقبالى فى ١١ أكتوبر سنة ١٩٧١ — وكنت قد وصلت فى هذه المرحلة إلى درجة التشبع وكان لابد لأى إنسان فى موضعى أن يفقد أعصابه نتيجة لهذا الإهمال المتعمد من جانب السوفييت سنة كاملة تقريباً — ومع ذلك كظمت غيظى وسافرت إلى موسكو وبدأنا المباحثات . . أعدت نفس الكلام الذى قلته لهم فى ١ ، ٢ مارس سنة ١٩٧١ . . « يا جماعة أنا أقبل أن تضعونا خلف إسرائيل بخطوة ولكن أن تكون المسافة بينى وبين إسرائيل عشرين خطوة فهذا أمر لا يحتمل » .

كانوا كعادتهم يتركوننى أتكلم كما أشاء وأحياناً يشتبك بعضهم معى فيما عدا بريجنيف الذى يقف دائماً موقف المتفهم ولا يدخل فى أى اشتباك .

وعدونى هذه المرة أن يرسلوا لى الطائرات بالصواريخ ومعها المدربون الذين سيدربون طيارينا المصريين عليها . . ولكنهم تنازلوا هذه المرة عن الشرط الذى ينص على أن لا تطير هذه الطائرات بالذات إلا بإذن من موسكو . . وفى نهاية اجتماعنا قلت لهم : « نحن الآن فى ١٢ أكتوبر . . كل ما أرجوه أن ترسلوا هذه الأسلحة بأسرع ما يمكن حتى نستطيع قبل نهاية السنة أن نكون فى وضع يمكننا من تحريك الموقف » .

وكنت قد أعلنت أن عام ١٩٧١ هو عام الحسم فإما حل سلمى وإما معركة .

وافقوا وعدت إلى مصر وأنا على ثقة أن الأسلحة التى وعدوا بها سوف تكون قريباً فى الطريق إلينا . .

انقضى أكتوبر ونوفمبر ولكن كل شىء كما هو . . استدعيت السفير السوفييتى وأرسلت إلى الكرملين عدة رسائل ولكن لا إجابة . . وإذا بى أفاجأ فى ٨ ديسمبر سنة ١٩٧١ بالمعركة بين الهند وباكستان وبأن الاتحاد السوفييتى طرف فيها . . استدعيت السفير السوفييتى يوم ١٢ ديسمبر وقلت له إنه لم تصلنى قطعة سلاح واحدة إلى الآن ولذلك أرجوك أن تبلغ القادة السوفييت أننى أطلب مقابلتهم فى موسكو حتى نبحث عن وسيلة نغطى بها الموقف الذى كشفونى فيه عن سنة الحسم . . وقبل أن ينتهى ديسمبر بأربعة أو خمسة أيام جاءنى السفير ليبلغنى أن القادة السوفييت مواعيدهم مشحونة ولكنهم على استعداد لاستقبالى فى ١ ، ٢ فبراير سنة ١٩٧٢ . .

كنت أعرف أنى سأواجه حملة مسعورة لأننى سبق أن أعلنت أن سنة ١٩٧١ هى سنة الحسم . وفعلا حدث هذا .

فى أول يناير ١٩٧٢ حاول روجرز وزير خارجية أمريكا أن يكفر أمام الرأى العام اليهودى عن موقفه إلى جانبى ذات يوم بعد أن أنّبته جولدا مائير رئيسة وزراء إسرائيل علناً أمام الكنيست فى خطاب مشهور فأعلن أنه قد انقضت سنة ١٩٧١ ولكن بلا حسم أو خلافه وأن أمريكا ستعطى إسرائيل المزيد من العتاد والسلاح وكل شىء .

بل وأعلن أيضاً أن الولايات المتحدة قد دخلت منذ نوفمبر ١٩٧١ فى تصنيع الأسلحة مع إسرائيل . . وأن أمريكا ستحتفظ لإسرائيل بالتفوق على العرب مجتمعين وليس على مصر وحدها . .

كانت حرباً نفسية شرسة كما توقعت ، ولكن الشعب المصرى بحسه الصادق أدرك أن المسئول عن هذا هو الاتحاد السوفييتى . .

فى يناير سنة ١٩٧٢ كان الشعب هنا فى أوج غضبه على الاتحاد السوفييتى رغم أننى لم أطلع الناس على الحقائق بل على العكس كنت أدافع عن الاتحاد السوفييتى فى جميع أحاديثى وخطبى . .

١٠

ذهبت إلى موسكو فى ١ ، ٢ فبراير سنة ١٩٧٢ وسألتهم عن المسئول عن تأخير الأسلحة التى وعدونى بها — فرد بريجنيف وقال إنه المسئول نظراً للإجراءات المكتبية والروتينية . . . إلخ . . فقلت : « أنا لست مقتنعاً بهذا الكلام وإذا تكرر ما حدث مرة أخرى فسوف أتخذ قراراً ما . . » ثم أعدت على مسامعهم وأنا فى قمة الغضب نفس الكلام الذى سبق أن قلته فى زياراتى السابقة وخاصة النقطتين الأساسيتين وهما أننا لا نريد جندياً سوفيتياً ليحارب معركتنا وأننا لا نسعى إلى مواجهة بينهم وبين أمريكا . . فأنهوا المناقشة بقراءة قائمة بالأسلحة التى وعدوا بإرسالها فوراً . . ولم تكن أيضاً الأسلحة الأساسية . . ولكنها كانت على أى حال أحسن من لا شىء . .

فعدت إلى مصر ولكن صبرى كان قد نفد . .

فى ذلك الوقت تحدد أول لقاء قمة بين بريجنيف ونيكسون من أجل الوفاق فى ٢٠ مايو سنة ١٩٧٢ . وبدأ السوفييت يرسلون لنا الأسلحة التى يريدون هم إرسالها ، أما التى نريدها نحن فيحجبونها عنا . . وفى ١٥ مايو سنة ١٩٧١ جاءنى المارشال جريتشكو ومعه قائد الطيران السوفييتى وأحضروا معهم طائرة جديدة اسمها سوخوى ١٧ وأقاموا عرضاً للطائرة . .

كان جريتشكو يحمل معه بياناً مكتوباً كالعادة فى اللجنة المركزية وطلبوا أن نصدره وفيه أننا قد تسلمنا قاذفات بعيدة المدى (وهو غير صحيح) . . فأصدرناه بل ومنحتهم نياشين وسافروا . .

كنت أعلم أن الهدف من زيارة جريتشكو لنا قبل خمسة أيام فقط من وصول نيكسون إلى موسكو هو أن يقوم السوفييت باستعراض نفوذهم فى الشرق الأوسط ومع ذلك لم أمانع بل منحت جريتشكو ومن معه نياشين . .

نسيت أن أقول إن السفير السوفييتى فاجأنى برسالة عاجلة من القادة السوفييت فى أواخر ابريل سنة ١٩٧٢ وقبل زيارة نيكسون المحدد لها ٢٠ مايو ١٩٧٢ يطلبون فيها أن أزورهم فى أواخر ابريل . .

طبعاً كان هدفهم من كل هذا أن يثبتوا للولايات المتحدة أن أقدامهم ثابتة فى منطقة الشرق الأوسط وبرغم «قرفى» سافرت واتفقنا فى هذا اللقاء ــ القادة السوفيت وأنا ــ أنه بعد أن تنتهى زيارة نيكسون فى ٢٠ مايو ، عليهم أن يرسلوا إلى تحليلا للموقف ثم يبدأوا فوراً فى توريد الأسلحة المتأخرة التى تعاقدنا عليها . . وذلك فى خلال خمسة شهور أى من يونيو سنة ١٩٧٢ إلى أكتوبر سنة ١٩٧٢ ميعاد الإنتخابات فى أمريكا . .

وكانت الفكرة أن نكون مستعدين فى نوفمبر سنة ١٩٧٢ بعد إنتخاب الرئيس الأمريكى فإذا لم يكن هناك طريق إلى الحل السلمى استطعنا أن نتحرك عسكرياً . . . وافقوا على هذا وعدت إلى مصر .

تمت زيارة نيكسون للاتحاد السوفييتى فى مايو سنة ١٩٧٢ ، ثم صدر أول بيان وفاق بين موسكو وواشنطون يقول بالاسترخاء العسكرى فى الشرق الأوسط . .

وكان صدمة عنيفة لنا لأننا كنا كما سبق أن قلت خلف إسرائيل عسكرياً بعشرين خطوة ومعنى الاسترخاء العسكرى فى هذا الوضع هو التسليم من جانبنا لإسرائيل . .

ثم جاءنى التحليل السوفييتى بعد اللقاء مع نيكسون ولكن متأخراً أكثر من شهر . . فى ٦ يوليو سنة ١٩٧٢ . . وكان التحليل السوفييتى يوضح أنه لم يحدث أى تقدم بالنسبة لقضية الشرق الأوسط مع أمريكا . . تماماً كما تنبأت لهم فى زيارتى لموسكو فى أواخر إبريل سنة ١٩٧٢ وخاصة لأنها سنة الانتخابات فى أمريكا . .

والأغرب من هذا أن التحليل السوفييتى الذى حمله لى السفير السوفييتى متأخراً شهراً عما اتفقنا عليه فى لقاء آخر إبريل سنة ١٩٧٢ لم يذكر شيئاً على الإطلاق عن إرسال الأسلحة المطلوبة كما اتفقنا . .

بل إن هذا التحليل الذى كان يقع فى أكثر من صفحتين ونصف لم يتعرض للمعركة والأسلحة المطلوبة كما اتفقنا فى إبريل إلا فى خمسة سطور أخيرة تقول ببساطة إننا لا نستطيع أن نبدأ معركة وإن لهم خبرة فى هذا الموضوع وكيف أنهم بذلوا مجهوداً خارقاً فى إقناع نيكسون بتنفيذ قرار ٢٤٢ لمجلس الأمن .

قلت للسفير السوفييتى : هل هذه هى الرسالة . : قال نعم . . قلت لقد كنت معنا فى موسكو فى أبريل الماضى وسمعت اتفاقنا بارسال الأسلحة قبل موعد الإنتخابات الأمريكية . . قال نعم . . قلت إن هذه الرسالة لم ترد على ذلك . . قال إن هذه هى الرسالة التى تلقيتها . .

قلت إننى لا أقبلها . . بل وأرفض أسلوب القادة السوفييت فى التعامل معنا . .

أرجو أن تبلغ القادة السوفييت كل ما سأقوله لك كرسالة رسمية . .

١ ــ إننى أرفض هذه الرسالة التى أبلغتها لى من القادة السوفييت شكلا وموضوعاً ولا أقبلها وأرفض هذا الاسلوب فى التعامل . .

٢ ــ إننى أقرر الاستغناء عن جميع الخبراء العسكريين السوفييت (وهم حوالى ١٥,٠٠٠) وأن يعودوا إلى الاتحاد السوفييتى فى فترة أسبوع من اليوم وسأعلن وزير الحربية غداً بهذا الأمر . .

٣ ــ هناك معدات سوفيتية وهى أربع طائرات ميج ٢٥ وهناك محطة للحرب الإليكترونية ويعمل عليها طاقم سوفييتى فإما أن تبيعوها لنا أو تسحبوها إلى الاتحاد السوفييتى .

٤ ــ كل هذا لابد أن يتم فى بحر أسبوع .

ولم يصدق السفير السوفييتى واعتقد أنها عملية ابتزاز BLACKMAIL

فى اليوم التالى استدعيت وزير الحربية وأبلغته بقراراتى لينفذها ، وفى يوم ١٦ يوليو سنة ١٩٧٢ كانت جميع قراراتى قد نفذت ورفضوا أن يبيعوا لنا الطائرات وأجهزة التشويش فسحبوها معهم .

من أسباب هذه القرارات موقف الإتحاد السوفييتى منا طبعاً ولكن كان هناك سبب آخر مهم وهو أنى قد بنيت استراتيجيتى على أساس أن لا أبدأ المعركة وعلى أرض مصر خبراء سوفيت .

حلل السوفيت والغرب وإسرائيل طرد الخبراء السوفيت ووصلوا فى النهاية إلى قرار خاطىء أفادنى كما توقعت فى استراتيجيتى . وهو أننى قد استقر رأيى على أن لا أدخل المعركة . . وقد أسعدنى هذا التحليل لأن هذا ما كنت أود

أن يتوجهوه .. ومن الأسباب الأخرى لطرد الخبراء السوفيت ، أن السوفيت كانوا قد بدأوا يشعرون أن لهم وضعاً ممتازاً فى مصر لدرجة أن السفير السوفيتى بدأ يأخذ لنفسه وضعاً أشبه ما يكون بوضع المندوب السامى البريطانى أيام الإحتلال .

وقد جاءنى مدير العمليات العسكرية وكان الجمسى فى ذلك الوقت عن عمليات التشويش والأربع طائرات والمعدات التى يعمل عليها خبراء سوفيت فقال إنهم كانوا يرفضون تنفيذ أى أمر إلا بعد أن تأذن لهم موسكو .

وكان من أهم الأسباب لقرارى هذه التى أردت أن أضع السوفيت فى حجمهم الطبيعى كدولة صديقة لأنهم ظنوا فى مرحلة من المراحل أن مصر أصبحت فى جيبهم ، وظن العالم أن الإتحاد السوفيتى هو ولى أمرنا فأردت أن أقول للسوفيت إن مصر إرادتها تنبع فقط من ذاتها وأن أقول للعالم إن أمورنا بيدنا وحدنا فمن يرغب فى الكلام عن مصر ، يأتى إلينا ويتكلم معنا لا مع الإتحاد السوفيتى .

الفصل التاسع

حرب أكتوبر

١

لم أذهب إلى الإسكندرية كما كانت عادتى فى كل صيف منذ هزيمة يونيو ٦٧ إلى سنة ٧٢ ، ولكننى بعد أن اتخذت قرار إخراج الخبراء السوفييت أحسست بشىء من الراحة فقلت أذهب إلى الإسكندرية للاستجمام وأصدرت أمراً إلى مكتبى بأنه إذا حاول السوفييت الاتصال بى أن يقولوا لهم إننى فى المصيف بالإسكندرية كما اعتاد السوفييت أن يقولوا لنا إن قادتهم فى القرم ولذلك فلا وسيلة للإتصال .

وبمجرد وصولى إلى الإسكندرية بدأت الإعداد للمعركة رغم أن العالم كله بما فيه مصر فسروا طردى للخبراء السوفييت بأنه قرار بعدم الحرب فاستدعيت حافظ إسماعيل مستشار الأمن القومى وقلت له إن أمريكا بعد هذه القرارات التى اتخذتها لابد أن تتصل بنا وعليه أن يعد نفسه للبدائل المختلفة لمناقشتهم ، كما استدعيت وزير الحربية وأبلغته أن يجمع المجلس الأعلى للقوات المسلحة فى اليوم التالى ويخطره بأنى قد قررت أن تكون القوات المسلحة جاهزة للقتال ابتداء من يوم ١٥ نوفمبر سنة ١٩٧٢ ، استدعيت بعد ذلك سيد مرعى وكان وقتها أمين الإتحاد الإشتراكى وطلبت منه أن يجتمع بأمناء الإتحاد الإشتراكى ويبلغهم أن معنى هذه القرارات هو أننا سوف ندخل الحرب لا العكس ، وطلبت من ممدوح سالم وكان وقتها نائباً لرئيس الوزراء ووزيراً للداخلية ومسئولا عن الدفاع المدنى أن يعد الجبهة الداخلية ويسد جميع الثغرات فيها .

قبل أن ينقضى أسبوع على وجودى بالإسكندرية اتصل كسينجر وطلب تدبير لقاء على أى مستوى فاتفقنا على أن يلتقى بحافظ إسماعيل فى سبتمبر أو أكتوبر من نفس السنة ولكن اللقاء تأجل عدة مرات فلم يتم إلا فى فبراير سنة ١٩٧٣ .

وفى أوائل أغسطس سنة ٧٢ خرج القذافى فجأة على العالم بما يسمى الوحدة الإندماجية وكنت قد وعدته بزيارة ليبيا فى ذلك التاريخ فذهبت إلى ليبيا لأرى ماذا يريد ووجدته مصمماً على هذه الوحدة بل وقطع شوطاً كبيراً فى تعبئة الجماهير عن طريق الراديو والتليفزيون دون أن يتصل بى على الإطلاق . . وفوجئت بعد وصولى إلى بنى غازى بأنه قد أعد مشروع الوحدة الإندماجية ولم أكن متحمساً للسرعة التى أراد بها القذافى أن يتم هذا الموضوع ولكننى فى النهاية آثرت أن أغطى موقف القذافى كطلب بعض زملائه أعضاء مجلس الثورة الليبي ووافقت على اجتماع وفدين لمناقشة هذا الموضوع . . كان المشروع قد أعده القذافى وتعجبت عندما وجدت أن هذا المشروع يقضى بأن أتولى رياسة الدولة الجديدة التى ستتكون من مصر وليبيا وأن القذافى سيتولى منصب نائب رئيس الجمهورية والقائد العام للقوات المسلحة للدولة . . وقد أوضحت للقذافى وزملائه أننى لا أوافق على هذا المشروع وبالذات على تعيين القذافى لقيادة القوات المسلحة فقد كانت لنا تجربة فى هذا انتهت بالفشل عندما يتولى من يعمل بالسياسة القيادة الفعلية للقوات المسلحة فى تجارب مريرة لنا فى معركة ١٩٥٦ ثم فى حرب اليمن وأخيراً فى معركة ١٩٦٧ وأن القوات المسلحة يجب أن تكون محترفة وأن لا تتدخل فى السياسة . . ولم يعترض القـذافى . . والسبب الثانى لإعتراضى كان أن إتمام وحدة كاملة فى هذا الوقت سوف يسبب متاعب اقتصادية للشعب الليبى لا داعى لأن يتحملها وسنكون مسئولين عن هذا وأخذ المجتمعون باقتراحى وهو أن تسير هذه الوحدة بالتدريج . . وعدت إلى مصر .

وفى يوم ٢٩ أغسطس سنة ١٩٧٢ كتبت رسالة للإتحاد السوفيتى ، وأنا أعتبر أن هذه الرسالة من العلامات الأساسية فى تاريخنا فقد كانت تحمل توصيفاً كاملا لكل ما بيننا وبين الإتحاد السوفيتى . . فى هذه الرسالة أعلنتهم أنى أمنحهم فرصة إلى شهر أكتوبر سنة ١٩٧٢ بعد أن شرحت الموقف كاملا بيننا وبين السوفييت فإذا لم تحدث أية استجابة لمطالبنا سأكون حراً فى اتخاذ ما أرى من قرارات ولكنى كنت فى واد والسوفييت فى واد آخـر ، فقد كانوا يعدون لافتتاح الجامعات المصرية فى أكتوبر سنة ١٩٧٢ (إذ جاءنى المخطط الصادر من الأحزاب الشيوعية العربية — وهو صادر طبعاً عن موسكو — عن كيفية تحرك العملاء داخل الجامعة .)

كان المفروض أن يقدم لى وزير الحربية تقريراً عن الخطة والهيكل العام لها فقد كلفته كما أسلفت بجمع المجلس الأعلى للقوات المسلحة لهذا الغرض . . بل إنه عاد لى بعد يومين وقال إنه جمع المجلس الأعلى وأبلغهم رسالتى وإن القوات المسلحة المصرية ستكون جاهزة ليس فى ١٥ نوفمبر ١٩٧٢ كما طلبت وإنما ستكون جاهزة فى أول نوفمبر ١٩٧٢ . .

وهنا أريد أن أفسر لماذا اخترت ١٥ نوفمبر ١٩٧٢ لتكون القـوات جاهزة فقد كانت الانتخابات لرياسة الجمهورية الأمريكية ستتم فى الأيام الأولى من نوفمبر سنة ١٩٧٢ وأردت أن أعطى الرئيس المنتخب فرصة لمحاولة حل المشكلة سلميا فإذا لم يتم ذلك كان لا بد أن نكون جاهزين للتحرك عسكرياً . . من أجل ذلك فإننى دعوت المجلس الأعلى للقوات المسلحة إلى اجتماع فى ٢٨ أكتوبر ١٩٧٢ لاستوثق من استعداد القوات المسلحة وطلبت أن يدلى القادة لى بتقاريرهم عن استعداد القوات وخاصة أننا كنا نقترب من نوفمبر ١٩٧٢ الذى حددته مع وزير الحربية . . وحينما ذكرت القادة برسالتى التى كلفت وزير الحربية بنقلها إليهم فى الصيف . . فوجئت بالجنرال نوال المسئول عن الشئون الإدارية للقوات المسلحة يرفع يده ويسأل : « أنا لم أسمع أى رسالة من قبل وأريد أن أسأل ما هى هذه الرسالة اللى سيادتك بعتها لنا ؟ أنا ما عنديش فكرة عن أى رسالة جت من سيادتكم . . » نظرت إلى وزير الحربية وقلت له أمام المجلس الأعلى للقوات المسلحة « إزاى ده يحصل ؟ احنا مش اتفقنا فى الصيف إنك تجمع المجلس وتبلغهم يكونوا مستعدين للمعركة فى ١٥ نوفمبر ؟ ألم تعـد إلى بعد يومين لتقول إنك جمعت المجلس وإنهم سيكونون مستعدين اعتباراً من أول نوفمبر . . أى قبل الميعاد الذى حددته ؟ » فهمس فى أذنى « أنا ما رضيتش يا أفندم أقول للكل . . أنا قلت بس لقادة الجيوش عشان السرية » .

سريـة ؟ سرية على النـاس الذين سيحاربـون ؟ وضع غـريب . . قلت فى نفسى . . إزاى يقـدر قادة الجيوش يحاربوا من غير المجلس الأعلى للقوات المسلحة ؟ ثم إن الجنرال الذى سأل هـذا السؤال كان هو المسئول عن الشئون الإدارية التى عليها أن ترعى الجيوش بإمـدادها بالطعام والماء والـذخيرة والبنزين . . الخ . . وبـدونها لن تتمكن أى وحدة من القوات المسلحة من تنفيذ مهامها القتالية . .

عندئذ تأكدت عندى الشكوك التى كنت أحسها إزاء وزير الحربية فهو لا يريد أن يحارب لأنه يخشى المعركة فبدأت أسأل قادة الجيوش . . سألت قائد الجيش الثالث عبد المنعم واصل : ــ أنت حالك إيه ؟ قال لى : ــ « يا أفندم احنا مكشوفين . . وأى حشد حنعمله حيكشفوه اليهود ويضربوه قبل ما يعدى . . ليه ؟ لأن اليهود مقيمين ساتر ترابى ارتفاعه ١٧ متر على جانب القناة وإحنا تحت هــذا المستوى . . حوالى ٣ أمتــار فقط . . وهذا جعل العساكر تنشأ عندهم فكرة أن اليهود عاملين وراء هذا الساتر الكترونات وأشياء لا قبل لهم بها » .

ما معنى هذا الذى أسمعه ؟ إن الخطة الدفاعية ٢٠٠ التى استلمتها من عبد الناصر قد انهارت . . فقبل أن يموت عبد الناصر بشهر واحد دعانى وذهبنا سوياً إلى مبنى القيادة العامة للقوات المسلحة فى مدينة نصر وهناك جمع القادة المصريين والخبراء السوفيت ومحمد فوزى وزير الحربية فى ذلك الوقت ووقف الخبراء السوفييت والقادة المصريون لمدة ٧ ساعات أمام عبد الناصر وأمامى يشرحون الخطة الدفاعية ٢٠٠ التى أقرها الجميع . كان هذا هو الوضع العسكرى الذى تسلمته من عبد الناصر . . خطة دفاعية سليمة ١٠٠٪ ولكن لا وجود لخطة هجومية .

كان محمد فوزى وهو وزير الحربية دائم المحافظة على الخطة الدفاعية ٢٠٠ فإذا ارتفع اليهود متراً ارتفعنا نحن متراً ونصف فلما جاء من بعده وزير الحربية الجديد واسمــه صادق ألغى ما كان يفعله سلفه فوزى فلم يرتفع متراً واحداً . . وهكذا وصل اليهود إلى ١٧ متر وظللنا نحن ٣ أمتار فقط .

سألت الجنرال سعد مأمون قائد الجيش الثانى (وهو الآن محافظ القاهرة) فقال نفس كلام قائد الجيش الثالث قلت لهم : « آسف ــ أنا جاى النهارده وفاكر أنكم جاهزين لتنفيذ أى خطة نضعها . . أقوم ألاقى الخطة الدفاعية منهارة ؟ إزاى نهجم واحنا مش جاهزين حتى دفاعياً . . عاوزينا نكرر هزيمة ١٩٦٧ ؟ »

أنهيت الاجتماع وخرجت وقد استقر رأيى على تغيير وزير الحربية المتخاذل الذى كذب على ، واستدعيت الجنرال أحمد إسماعيل الذى كان مديراً للمخابرات فى ذلك الوقت وهو الذى أنشأ أول خط دفاعى فى سنة ١٩٦٧ من بور سعيد

للسويس ، وطلبت منه أن يعمل قائداً عاما للقوات المسلحة على أن يأتى فى اليوم التالى لحلف اليمين كوزير لحربية ، وفى نفس الوقت أرسلت سكرتيرى الخاص إلى وزير الحربية المتخاذل ليبلغه أنى قبلت استقالته . . وأعطيت أوامرى لرئيس أركان حرب القوات المسلحة بأن يتولى القيادة إلى أن يحلف الجنرال أحمد إسماعيل اليمين فلم يكن فى إمكانى أن أترك أى فراغ فى القوات المسلحة مهما كان بسيطاً ولو لحظات .

طلبت من الجنرال أحمد إسماعيل بعــد أن تسلم عمله تصحيح الخطة الدفاعية ٢٠٠ وإعادتها إلى ما كانت عليه فإذا كان الساتر الترابى لليهود ١٧ متراً فلابد أن نكون نحن ٢٠ متراً واعتمدنا لهذا ٢٠ مليون جنيه .

ولكن رغم هذا لم أستطع أن أنام ليلة واحدة بعد اجتماعى بالمجلس الأعلى للقوات المسلحة فى أكتوبر سنة ١٩٧٢ . . كيف تتكرر مأساة سنة ١٩٦٧ ؟ ثم إن القوات المسلحة هى أمل البلد فكيف يحدث فيها هذا التقصير ؟ وإذا حدث أى تحرك من جانب إسرائيل فكيف نرد عليه ؟ واستمر حالى هكذا . . هواجس وقلق إلى أن جاءنى الجنرال أحمد إسماعيل فى ٣٠ نوفمبر سنة ١٩٧٢ وكان قد تم تعيينه فى ٣٠ أكتوبر ليبلغنى أن الخطة الدفاعية أصبحت كاملة . . وأنه بصدد إعداد تجهيزات الهجوم .

فى أوائل يناير سنة ١٩٧٣ كان الجنرال أحمد إسماعيل قد وضع الهيكل الأساسى لخطة وقد قام بشىء لم يحدث فى العسكرية من قبل إذ طلب من كل ضابط على امتداد القناة أن يتسلق الساتر الترابى الذى أصبح ٢٠ متراً ــ وينظر أمامه على امتــداد ١٠ كيلو داخل سيناء وأن يحدد على الأرض خطته التى يستطيع أن ينفذها بعد العبور . . مما أعطى للضباط ثقة فى أنفسهم وجعلهم يشاركون مشاركة فعالة ليس فقط فى العمل بل وفى التخطيط أيضاً .

وعلى ذلك نستطيع أن نقول إن خطة حرب أكتوبر ١٩٧٣ قد وضعتها القوات المسلحة بأجمعها على كل المستويات .

٢

نعود للإتحاد السوفيتى مرة أخرى . . فى أكتوبر سنة ١٩٧٢ كان الرئيس حافظ الأسد فى موسكو وعاد منها إلى القاهرة ليبلغنى أن السوفييت قد حددوا ١٦ أكتوبر ١٩٧٢ للقاء يتم بينهم فى موسكو وبين وفد مصرى يرأسه رئيس الوزراء وكان هذا طبعاً تنفيذاً لما قلته فى خطابى للقادة السوفييت فى ٢٩ أغسطس سنة ٧٢ وسافر وفد من عندى برئاسة رئيس الوزراء عزيز صدقى . . وقد علمت أن الجلسة من جانبهم كانت كلها انفعالات رهيبة إثر القرارات التى أصدرتها وكيف أن هذه القرارات وتنفيذها قد وضعتهم فى وضع صعب أمام العالم . . وعاد عزيز صدقى رئيس الوزراء المصرى بلا شىء . . مجرد وعود ولم تنفذ .

كان بيننا وبين الإتحاد السوفيتى اتفاقية للتسهيلات البحرية فى البحر الأبيض كان عبد الناصر قد وافق عليها سنة ١٩٦٨ لمدة خمس سنوات وكان الباقى منها إلى ذلك الوقت ثلاثة شهور فقط فطلبت من الجنرال أحمد إسماعيل فى ديسمبر سنة ١٩٧٢ أن يستدعى السفير الروسى فى القاهرة ويبلغه أن قرار مصر هو تجديد الإتفاقية لمدة ٥ سنوات أخرى تنتهى فى سنة ١٩٧٨ وكان هدفى من هذا أن أثبت لهم أنه برغم قرار خروج الخبراء السوفييت فإننى لا أرغب فى مقاطعتهم . .

اذكر بعد ذلك زيارتين قام بهما حافظ اسماعيل مستشار الأمن القومى والجنرال أحمد اسماعيل وزير الحربية فى نفس الوقت ؛ الأولى هى لقاء مستشار الأمن القومى المصرى بكيسنجر فى باريس والثانية هى ذهاب الجنرال أحمد اسماعيل فى أواخر فبراير إلى موسكو . . وكان قد مضى أكثر من ثمانية شهور على صدور وتنفيذ قرار إخراج الخبراء السوفييت . . وكان قد ثبت للسوفييت أننى لم أتصل بأمريكا قبل هذا القرار كما قررت مراراً وثبت أيضاً أننى كما قلت وكررت ألتزم بالجانب الخلقى فى معاملتى مع الأعداء والأصدقاء . . ولقد عقد السوفييت مع أحمد اسماعيل أكبر اتفاقية عقدت بينهم وبين عبد الناصر أو بينهم وبينى . . ولأول مرة فى تاريخهم بدأ توريد بعض أجزاء هذه الصفقة فى زمن قياسى على غير عادتهم وقد توقف السوفييت بعد ذلك عن إتمام الجزء الباقى منها باستثناء بعض

المواد التى أرسلوها عام ١٩٧٥ وقد أعلنا عن ذلك .. وأريد أن أقرر هنا أنه حتى بدون هذه الصفقة كنا سندخل المعركة لأننا كنا قد قررنا ذلك وكان تخطيطنا كله مبنياً على ما كان لدينا من أسلحة قبل تلك الصفقة . وبهذه المناسبة عندما زار وزير خارجية مصر الإتحاد السوفيتى فى ١٩٧٦ قرر السوفييت إلغاء جميع الصفقات المتفق عليها معنا كما رفضوا إعادة جدولة الديون المصرية .

أما من ناحية أمريكا فقد التقى حافظ اسماعيل بكسينجر فى باريس فى فبراير ٧٣ ولكن لا شىء جديد .. وكما كنت أقول دائماً لم يكن من الممكن لأمريكا أو لغيرها من القوى أن تتحرك ما لم نتحرك نحن عسكرياً وكان ملخص ما قاله كسينجر لحافظ اسماعيل أنهم للأسف لا يستطيعون مساعدتنا لأننا مهزومون وإسرائيل متفوقة .

كان لابد أن أعد للمعركة على المستوى العربى وهنا يجب أن أقرر أن هناك قوة خارجية أقوى من البشر تدبر أمورهم وتسيرها حسبما ترى وفى ظروف معينة لا سلطان لنا عليها . . ولذلك فمن العبث أن نقول فى أحيان كثيرة أننا صنعنا هذا أو ذاك لأننا فى الواقع لم نصنع شيئاً . . وهذا ما ينطبق على إعدادى للمعركة على المستوى العربى . . فقد كانت الأمور كلها معدة قبل أن أبدأ أنا فى الإعداد أو فى التفكير فيه .

ففى الكويت يعتبرنى آل الصباح أحد أفراد عائلتهم فقد كانت لى صلة بعبد الله مبارك الصباح يحكمها الوفاء ، وكان هو فى ذلك الوقت من عام ١٩٥٥ وزير داخلية ووزير الدفاع وولى عهد الكويت ولظرف تاريخى أراده الله ، عندما مات جمال عبد الناصر كنت أنا وجابر الأحمد ولى عهد الكويت ورئيس وزرائها صديقين حميمين نتبادل الرسائل .

وفى السعودية كان الملك فيصل صديقاً شخصياً لى منذ واحد وعشرين عاماً وبالذات منذ المؤتمر الإسلامى فى سنة ١٩٥٥ وكان وقتها ولى العهد وبرغم حرب اليمن ظللنا أصدقاء لأن معنى الصداقة عنده وعندى واحد .

وفى لبنان كان شقيق سليمان فرنجية . . حميد فرنجية . . صديقاً شخصياً لى .

وفى المغرب ترجع صلاتى بالملك الحسن الثانى إلى عام ١٩٦٩ حين ذهبت بدلا من عبد الناصر لأحضر أول مؤتمر إسلامى يعقد من أجل حرق المسجد الأقصى

وهناك توطدت علاقات أخوة وصداقة بيني وبين الحسن وبلغني أن الملك فيصل قال للملك الحسن : « إذا أراد الله لمصر خيراً يحكمها أنور السادات » .. وقد عرف عني أثناء المؤتمر أني واضح وصريح ولا أنحاز إلا للحق .

بالنسبة للجزائر كان بومدين يحمل في نفسه حساسية من عبد الناصر لأنه صديق بن بيلا .

وفي تونس نفس الشيء فالحبيب بورقيبة طالما اختلف مع عبد الناصر لأنه صور بورقيبة على أنه خائن يبيع نفسه لمن يدفع .

هكذا أراد الله أن أكون على علاقة شخصية مع زعماء العالم العربي ولذلك عندما توليت رحبوا بي جميعاً وأبدوا استعدادهم لمعاونتي . . فأعلنت سياستي الواضحة وهي أنه بالنسبة للعرب فمصر لا تفرق بين دولة عربية وأخرى على أساس ما يسمونه بالرجعية والتقدمية أو الملكية والجمهورية . . الأمر الوحيد الذي يجب أن نلتزم به جميعاً هو أننا عرب فحسب .

كان على بعد ذلك أن أنتبه للوضع الإفريقي ، فذهبت في مايو سنة ١٩٧٣ إلى مؤتمر الوحدة الإفريقية الذي يعقد كل سنة في أديس أبابا ولأول مرة اتخذ المؤتمر قراراً واضحاً بإدانة إسرائيل وقطعت ٨٠٪ من الدول الإفريقية علاقاتها الدبلوماسية مع إسرائيل قبل أن تقوم المعركة .

حدث في تلك الفترة أن اغتالت إسرائيل ثلاثة من الزعماء الفلسطينيين في قلب بيروت فأرسلت للرئيس فرنجية أقول إن عليه أن يطالب بدعوة مجلس الأمن وإلا فعلت أنا هذا . . فدعا فرنجية إلى اجتماع مجلس الأمن وساندت أنا دعوته بدعوة أخرى من عندي . . واجتمع مجلس الأمن وبدأ أعماله بقضية اغتيال الزعماء الفلسطينيين وإذا بالعالم ومجلس الأمن نفسه يفاجأ بمصر تطرح قضية الشرق الأوسط . . استمرت المناقشات لمدة شهرين ثم اتخذ أول قرار في صفنا بأغلبية ١٤ صوتاً من ١٥ أي باستثناء صوت واحد هو صوت أمريكا الذي يعني الفيتو .

لقد كان هذا تنفيذاً للاستراتيجية التي رسمتها بتجهيز الموقف عربياً كما شرحت وإفريقياً في مؤتمر الوحدة الأفريقية في أديس أبابا عام ١٩٧٣ ودولياً بقرار مجلس الأمن الذي أشرت إليه سابقاً ثم في عالم عدم الانحياز الذي اجتمع مؤتمره الذي يعقــد مرة كل ثلاثة سنوات في سبتمبر ١٩٧٣ في الجزائر . . وكانت كل هذه التواريخ في ١٩٧٣ عام المعركة كأنها منحة من السماء .

في سبتمبر سنة ١٩٧٣ حضرت مؤتمر دول عدم الانحياز في الجــزائر وقلت في خطــابي إنه لا مفر من المعركة فإسرائيــل هي التي تريد لنا هــذا . . وضعت أوراقي على المنضدة وأخبرتهم بالتسليم الذي تطالبنا به إسرائيل ، وبذلك هيأت دول عدم الانحياز للمعركة وكانت الأغلبية في صفي .

بهذا الشكل كان معي أكثر من مائة دولة قبل المعركة بثلاثة أسابيع . . ففي خلال الفترة ما بين يناير إلى سبتمبر سنة ٧٣ كنت قد جهزت الساحة العالمية كلها للمعركة .

— دولياً في مجلس الأمن بقرار بأغلبية ١٤ من ١٥ أي باستثناء صوت واحد هو صوت أمريكا .

— عربياً على مستوى كل الدول العربية مهما اختلفت سياساتها .

— إفريقيا في مؤتمر الوحدة الإفريقية في مايو ١٩٧٣ .

— على مستوى العالم الثالث وعدم الانحياز في مؤتمر الجزائر في سبتمبر ١٩٧٣ .

٣

في داخل مصر لم يكن اهتمامنا منصباً على الناحية المعنوية فحسب .. فقد أنفقنا أكثر من ١٢٧ مليون جنيه على إعداد الدولة للحرب ، إذ كان تخطيطي يقوم على أن مصر كلها من الإسكندرية إلى أسوان أرض معركة . . كل مصنع . . كل محطة كهرباء وضعت لها خطة دفاع بحيث إذا ضرب جزء من المرفق يعمل الجزء الباقي .

في إبريل سنة ١٩٧٣ جاء الرئيس حافظ الأسد إلى مصر في زيارة سرية . . كان الفريق الجمسي وقتها مدير العمليات بالقوات المسلحة ، فأحضر لنا المذكرة التي دون فيها المواعيد المناسبة للعمليات الحربية على مدار السنة من وجهة نظر العلوم العسكرية وقد كانت مكتوبة بخط يد الجمسي لأنها سرية ، وهي ثلاثة مجموعات من الأيام . . المجموعة الأولى في شهر مايو سنة ١٩٧٣ والثانية في أغسطس وسبتمبر سنة ١٩٧٣ والثالثة في أكتوبر سنة ١٩٧٣ .

كانت أنسب هذه المجموعات مجموعة أكتوبر وخاصة أن الجبهة السورية إبتداء من نوفمبر وحتى الربيع غير جاهزة للعمليات نظراً للظروف الطبيعية هناك .

في هذا الاجتماع كنت أنا وحافظ الأسد وحدنا في برج العرب وهي عاصمة الصحراء الغربية فقلت له : « لقد قررت أن أدخل المعركة هذا العام وأعطيت تعليماتي بذلك للجنرال أحمد اسماعيل فما رأيك ؟ » . . قال لي : « أنا معاك وداخل وبنجهز نفسنا » .

لم أكن أنوي أن أدخل المعركة في مايو سنة ١٩٧٣ ولكن كجزء من الخداع الاستراتيجي قمت بحملة في الصحف عندي وفي الدفاع الشعبي فما كان من الإسرائيليين إلا أن صدقوا وفي الأيام المناسبة للحرب حشدوا جيوشهم بينما كنت أنا في حالة استرخاء تام . . في أغسطس من نفس السنة فعلت نفس الشيء وكان رد الفعل في إسرائيل هو نفس ما صنعوه في مايو فأعلنوا التعبئة العامة . . ولذلك عندما سئل موشي ديان بعد حرب أكتوبر لماذا لم يعلن التعبئة في أكتوبر قال إن السادات قد دفعني إلى هذا مرتين مما كلفني في كل مرة عشرة ملايين دولار دون جدوى فلما جاءت المرة الثالثة ظننت أنه غير جاد مثلما حدث في المرتين السابقتين ولكنه خيب ظني .

اتفقت مع حافظ الأسد ألا نبدأ المعركة إلا بعد تكوين مجلس أعلى مشترك للقوات المسلحة المصرية السورية ، فكونا هذا المجلس المشترك واجتمع فعلا في أغسطس ١٩٧٣ في الإسكندرية ليضع اللمسات الأخيرة للمعركة .

في أواخر أغسطس ١٩٧٣ خرجت في زيارة للسعودية ثم قطر ثم سوريا حيث اجتمعت مع الرئيس الأسد يومي ٢٨ ، ٢٩ أغسطس واتفقنا على أن يكون يوم ٦ أكتوبر هو بدء المعركة . . أي يوم (ي) في التعبير العسكري .

في تلك الفترة كنت أزور جميع وحدات القوات المسلحة لأشرح لهم الموقف السياسي وأقول لهم إن المعركة أصبحت قريبة وأستطيع أن أقول إنه في يونيو ١٩٧٣ أي قبل المعركة بحوالي ثلاثة شهور كنت قد أعطيت الأوامر النهائية والإحساس النهائي بالمعركة ولكنني طبعاً لم أفصح عن تاريخها وكان جميع من بالقوات المسلحة في قمة الإنفعال . . في ٥ يونيو ١٩٧٣ زرت مطار القطامية وهو من مطارات الجبهة واجتمعت بالطيارين وفي أثناء اجتماعي بهم دق جرس التليفون . . فقام الجنرال أحمد اسماعيل يرد على التليفون بينما واصلت أنا حديثي

مع الطيارين إلى أن انتهيت منه فذهبت لآخذ طائرتي وأمر على الجيشين الثاني والثالث فإذا بالجنرال أحمد اسماعيل يسر إليّ أن السفير السوفيتي يطلب موعداً عاجلا وأنه طلب منه أن يبلغني برسالة عاجلة وهي أن القيادة السوفيتية رأت بعد فترة الجمود الطويلة هذه أن ترسل بودجورني رئيس هيئة السوفيت الأعلى ليزورني يوم ١١ يونيو ١٩٧٣ . . قلت للجنرال اسماعيل : « آسف : أنا لا استقبله » ، يعلم السوفيت جيداً أني لا أحب بودجورني والسبب أنه كان أثناء زيارة له لتركيا قد سب العرب والعسكري العربي وقال إنهم لن يعطوا العرب أبداً أي أسلحة متقدمة لأنهم يتركون الإسرائيليين يستولون عليها . . أرسلت في وقتها أطلب تفسيراً لهذا الحديث من جانب رئيس الدولة السوفيتية ولكن لم يصدر أي تكذيب . . ثم إن بودجورني هذا من أكثر الناس كرها لمصر . . حتى في اجتماعاتنا في القيادة السوفيتية على مائدة الكرملين كانت تعليقاته دائماً تسيء إلى مصر . . فكيف أستقبله على أرض مصر ؟ .

بعد ذلك ذهبت لزيارة الجيش الثاني والثالث ثم توجهت إلى أماكن العبور على خط الدفاع الذي كان يتكون من عدة أهرامات على مسافات متقاربة بين السويس وبور سعيد يرتفع كل منها عشرة أمتار فوق تحصينات إسرائيل . . ولذلك استطعت أن أرى من فوقها سيناء كما أرى كف يدي . . وقفت أمام القنطرة شرق وجاءني القائد المكلف باسترجاع القنطرة وكان فؤاد عزيز وشرح لي العملية .

كنت أعتبر أن القنطرة شرق من أهم النقط التي يجب أن نستولي عليها في الساعات الأولى للحرب لأنها تمثل شيئاً هاماً جداً بالنسبة لإسرائيل فهي ثاني مدن سيناء بعد العريش العاصمة وكان ديان في غمرة نشوته بنصر سنة ١٩٦٧ قد خطب في طلبة الجامعات في إسرائيل وقال : « لقد تسلمنا الأمانة من الجيل السابق لجيلنا فوصلنا حدود إسرائيل من القنطرة في مصر إلى القنيطرة في سوريا وعليكم أنتم الجيل الصاعد أن تحموا هذه الحدود وتوسعوها » .

فكان هذا من الأسباب الأولى التي جعلتني أهتم بالقنطرة . . لأن الأمل كان دائماً يراودني في أن أرد على ديان وأقول له : « انتهى حلمك إلى الأبد » .

وقبل أن يموت عبد الناصر ذهبت إلى الفريق عبد المنعم رياض وكان رئيساً لأركان حرب القوات المسلحة المصرية بعد هزيمة ١٩٦٧ وقلت له : « لما

توضعوا خطة الهجوم اعمل حسابك أنا داخل مع القوات اللى حتروح تسترجع القنطرة شرق » .

كل هذه الصور مرت بى وأنا أقف على إحدى مواقع الهجوم وأتطلع إلى القنطرة شرق وهى بين يدى إسرائيل صامتا لا أتفوه بكلمة . . كنت فقط أتأمل وأفكر . . لم أكن قد رأيت القنطرة منذ سبع سنوات وكنت قد خدمت بها حينما عدت إلى الجيش سنة ١٩٥٠ . . مر بى هذا الخاطر . . فزاد صمتى ولكن مشاعرى كانت تجيش فى صدرى تدهمه وتعذبه وفى نفس الوقت تضيئه بنور الأمل . . قال لى أحمد اسماعيل القائد العام تعليقاً على موقفى أمام القنطرة أثناء عودتنا إلى القاهرة : « يا أفندم أنا لما شفتك ساكت من الرهبة جالى إحساس أنك حتديني أمر ببدء الهجوم فوراً » .

حينما بدأت أفكر فى وضع التخطيط الإستراتيجى للمعركة كان أمامى عدة أشياء أولها الأساس الإستراتيجى الذى أبنى عليه الخطة . . وفى حياة عبد الناصر كنت أقول له على سبيل المبالغة إننا لو أخذنا حتى عشرة سنتيمترات فى سيناء ووقفنا فيها لم ننسحب فسوف يتغير الموقف شرقاً وغرباً وكل شىء . . وخاصة المهانة التى كنا نعيشها نتيجة هزيمة سنة ١٩٦٧ فهذا العبور إلى سيناء والصمود بها سيعيد إلينا ثقتنا بأنفسنا . . هذا إلى جانب أننا سنكون قد انتهينا من أكبر عائق مائى فى تاريخ الحروب لأن شواطىء القناة مصنوعة من الحجر وهناك أيضاً الساتر الترابى الذى يبلغ ارتفاعه ١٧ متراً .

وبناء على هذا وضعت توجيهى الإستراتيجى فقلت للقوات المسلحة فى أواخر فبراير سنة ١٩٧٣ إن الذى يكسب الأربعة وعشرين ساعة الأولى سوف يكسب الحرب كلها . . ولذلك فلابد من أن يعتمد الأداء والخطة على عمل من شأنه أن نكسب الأربعة وعشرين ساعة الأولى .

من ضمن الخداع الإستراتيجى الذى قمت به أنه كان فى زيارتى وزير خارجية دولة أجنبية فقلت له وكنا فى سبتمبر ١٩٧٣ : « بلغ رئيس جمهوريتك بينك وبينه ما يطلعش السر ده بره إنى ذاهب إلى الأمم المتحدة فى أكتوبر القادم . . بس مش عاوز أعلن هذا » . . كنت أعلم أن هذا الخبر بعد ثوان سوف يصل إسرائيل . . وقد حدث وبناء عليه فهمت إسرائيل أنى غير مقدم على الحرب .

٤

فى يوم ٢٨ سبتمبر سنة ١٩٧٣ وهو يوافق ذكرى وفاة عبد الناصر أردت أن أضع اللمسة الأخيرة للشعب . . وكنت قبل ذلك بشهور طويلة قد عزلت عدداً من الصحفيين أو على الأصح نقلتهم من الصحف إلى مصلحة الاستعلامات لأنهم كانوا يساعدون على إيجاد حالة تمزق وبلبلة فى البلد واشترك البعض منهم فى أحداث الطلبة التى وقعت فى أواخر ١٩٧٢ وأوائل سنة ١٩٧٣ بإيعاز من الشيوعيين . . كان لهؤلاء الصحفيين مقالات وتصرفات تهدف كلها إلى إشعال النار بين الطلبة . . فى خطابى يوم ٢٨ سبتمبر سنة ١٩٧٣ أعلنت أنى قد عفوت عفواً تاماً عن الطلبة والصحفيين . . حتى القضايا التى كان الطلبة متهمين فيها — وكلهم من اليساريين — أسقطتها جميعاً وكأنها لم تكن . . تلقف اليساريون هذا وفسروه على أنه مصالحة وطنية من أجل تدعيم الجبهة الداخلية ولم يخطر لهم على بال أن هذا كان جزءاً من تخطيطى للمعركة . .

قبل ذلك كانت قد حدثت فتنة طائفية ولكننى صفيتها . .

وفى يوم ٣٠ سبتمبر سنة ١٩٧٣ جمعت مجلس الأمن القومى وطلبت من الأعضاء إبداء رأيهم فى الوضع الذى كنا فيه وتناقشنا طويلا . . طالب البعض بالمعركة وتردد البعض الآخر . . قال وزير التموين إن التموين الموجود لا يكفى معركة طويلة . . وبعد أن تحدث الجميع عن المعركة وظروف البلد والتحرك . . قلت لهم : « كل واحد منكم قال كلمته . . طيب أنا عايز أقول لكم إن اقتصادنا النهارده فى مرحلة الصفر وعلينا التزامات إلى آخر السنة لن نستطيع الوفاء بها للبنوك . وعندما تأتى سنة ١٩٧٤ بعد شهرين لن يكون عندنا رغيف الخبز للمواطنين . ولا أستطيع أن أطلب من أى عربى دولاراً واحداً لأن العرب بيقولوا لنا أحنا بندفع الدعم بتاع قناة السويس وخلاص ولا فيه حرب ولا فيه حاجة » .

هكذا أعلمت المسئولين عندى بالموقف ثم أنهيت الاجتماع . .

وفى اليوم التالى أى أول أكتوبر سنة ١٩٧٣ جمعت المجلس الأعلى للقوات المسلحة ووقف جميع القادة أمام الخـريطة وشرح كل واحد خطته بالتفصيل ودوره فى هذه الخطة . . وقبل أن ينتهى الاجتماع قلت لهم : « كل واحد يكون جاهز فى أى لحظة لصدور الأمر » . .

ويوم ٢ أكتوبر سنة ١٩٧٣ وقعت للقائد العام الجنرال أحمد اسماعيل أمر القتال وكنت قبل ذلك فى سبتمبر سنة ١٩٧٣ قد أصدرت الأمر الاستراتيجى للقائد العام ووضعت فيه تصورى للهدف الاستراتيجى وقد كان هذا الأمر الأول من نوعه فى تاريخ مصر الحديث . .

بدأ العد التنازلى قبل المعركة بعشرة أيام كما خرجت القطع البحرية لتتخذ أماكنها فى الحرب قبل ساعة الصفر بعشرة أيام وكانت مع كل قطعة بحرية ظروف مقفلة تحمل تعليمات العمليات ولا تفتحها إلا بعد أن تتلقى كلمة شفرة محددة وعندئذ ستجد التعليمات المفصلة لخطة عملها .

كان تدريب القوات يستلزم هذه الأيام العشرة أيضاً فالحرب لم تعد خطة توضع وأوامر تصدر للقوات لتنفيذها فحسب . . بل يجب التدريب على كل شىء بالتفصيل وكلما كثرت التدريبات وأتقنت زادت فرص النجاح . كان العد التنازلى للتدريب قد انتهى فى ٢١ سبتمبر سنة ١٩٧٣ . . وكان تدريب آخر لواء من اللواءات المشتركة فى العمليات على الواجب الذى سيقوم به قد تم يوم ٢٣ سبتمبر سنة ١٩٧٣ .

وفى يوم الأربعاء ٧ رمضان الموافق ٣ أكتوبر سنة ١٩٧٣ — حسب اتفاقى مع الرئيس حافظ الأسد فى أواخر أغسطس سنة ١٩٧٣ — استدعيت السفير الروسى وقلت له : « أريد أن أبلغك رسمياً أننى أنا وسوريا قد قررنا بدء العمليات العسكرية ضد إسرائيل وعندى سؤال أريد الإجابة عليه من القادة السوفييت بصفة عاجلة وهو ما موقف الاتحاد السوفييتى منا ؟ » سألنى عن الموعد فقلت له : « إننا لم نتفق عليه بعد » . .

كنت قد اتفقت مع الأسد على أن يستدعى السفير السوفييتى عنده فى اليوم التالى وهو الخميس ٤ أكتوبر سنة ١٩٧٣ ويبلغه بالموعد لأن علاقاتى بالسوفييت كانت سيئة .

فى اليوم التالى ٨ رمضان أى الخميس ٤ أكتوبر سنة ١٩٧٣ طلب السفير السوفييتى موعداً عاجلا معى فتصورت أنه جاءنى بالرد على سؤالى . . استقبلته فكان أول ما قاله هو : « معى رسالة عاجلة من القيادة السوفييتية — إنهم فى موسكو يطلبون موافقتك على وصول أربع طائرات ضخمة لحمل العائلات السوفييتية من مصر . . »

وهذه العائلات السوفييتية هى عائلات المدنيين السوفييت الذين يعملون فى المصانع والقطاع المدنى لأن العسكريين السوفييت وعائلاتهم كانوا قد رحلوا قبل ذلك بعام عند صدور قرارى بترحيل المستشارين العسكريين السوفييت من البلاد . . ومضى السفير قائلا إن القادة السوفييت يريدون للعائلات أن ترحل من مطار عسكرى حتى لا يراها الناس فى المطار الدولى وأن هذه الطائرات ستصل غداً صباحاً أى الجمعة ٥ أكتوبر سنة ١٩٧٣ . .

ما هذا الفأل السيء ؟ قلت فى نفسى : هذا معناه أنهم يقولون لى مقدماً إن معركتك فاشلة ونحن نخاف على أرواح رعايانا . . وماذا عن المصريين أهل البلد ؟ ألا يعلمون أننى أخاف عليهم . . ؟

قلت للسفير السوفييتى وما زالت الدهشة من تصرف السوفييت تعقد لسانى :

« أنا ما عنديش مانع وبلغ موسكو بموافقتى . . ولكن أين الإجابة على سؤالى ؟ »

قال لى : « هذه هى الرسالة الوحيدة التى كلفتنى موسكو بإبلاغها لكم »

وفعلا فى اليوم التالى وكان يوم الجمعة ٩ رمضان الموافق ٥ أكتوبر سنة ١٩٧٣ وصلت أربع طائرات نقل ضخمة سوفييتية وحملت الرعايا السوفييت من عائلات الخبراء المدنيين فى المصانع من السوفييت عائدة بهم إلى بلادهم . .

ولقد رصد الإسرائيليون هذه الطائرات الضخمة بواسطة رادارهم واعتقدوا أنها تحمل إمدادات من روسيا إلى مصر وكذلك إلى سوريا لأن نفس الأمر تكرر مع سوريا فى نفس التوقيت . .

لقد كنا نحن وإسرائيل بما لدينا من أساليب الحرب الإلكترونية نرصد ما يحدث عند الآخر . .

كان تصرف السوفييت يدل على عدم الثقة فينا وفى قدراتنا . . وأسوأ من هذا أن سفينة سوفيتية كانت فى طريقها إلينا تحمل بعض الإمدادات – وكان عندنا إخطار من السوفييت بموعد قيامها وأنها ستدخل الاسكندرية يوم ٩ رمضان – ولكن صدرت إليها الأوامر السوفيتية وهى فى عرض البحر بأن تتجول فى البحر الأبيض وفعلا تجولت فى البحر حوالى ستة أيام إلى أن تأكدوا من انتصارنا فرست فى الاسكندرية . . ولما سألناهم عن أسباب التأخير قالوا إن السفينة قد تاهت فى البحر . .

انتقلت يوم الخميس ٨ رمضان إلى قصر الطاهرة بعد أن جهز كمركز قيادة لإدارة الحرب ، وفى يوم الجمعة ذهبت لأصلى فى الجامع الذى تعلمت فيه الصلاة منذ خمسين سنة وهو زاوية صغيرة . . وهناك فى رحاب الله وهدوء الجامع شرد ذهنى فى أيام الطفولة والنقاء . .

بعد الظهر جلست فى الشرفة وكان القمر ما زال صغيراً وطلعته جميلة وأنا أعشق الطبيعة المجردة ولا أحب المدينة ولا الزخرف والأضواء . .

كنت فى أقصى درجات السلام الروحى فرغم اللحظة التى كنت مقبلا عليها كنت أرنو إلى الغد موعد المعركة على أنه مجرد يوم قدر لى الله أن أعيشه ولذلك دخلت المعركة دون أدنى انفعال أو عصبية . .

لم يكن يشغلنى سوى بعض التفاصيل التى لم تكن إلا مجرد رتوش حول المعركة . . وقد يعجب الناس إذا عرفوا أن ليلة المعركة كانت من أحسن الليالى التى نمتها فى حياتى . . ولذلك عندما استيقظت فى الصباح قمت بالتدريبات الرياضية اللازمة وسار برنامجى اليومى كالعادة وكان عقلى فى منتهى النشاط والراحة مستعداً لمسئوليات اليوم الجديد . .

٥

فى الساعة الواحدة والنصف من بعد ظهر السبت ٦ أكتوبر ، حضر المشير أحمد اسماعيل إلىّ حسبما اتفقنا عليه وركبنا العربة الجيب الخاصة بالجيش وكنت أرتدى الزى العسكرى وتوجهنا إلى غرفة العمليات حيث جلست فى مكانى والقائد

العام عن يمينى وكانت التعليمات أن الجميع يجب أن لا يلتزموا بالصيام . . وقد أصدرنا هذه الأوامر بفتوى من المشايخ وكنت أتصور أن القادة قد نفذوها ولكننى لم أكن واثقاً من أن هذا قد حدث بالفعل فسألتهم : « أنتم ما بتدخنوش ليه ؟ ليه ما بتشربوش سجاير ؟ العملية دى عايزة تركيز وانتباه » لاحظت عليهم حرجاً شديداً فطلبت الشاى لنفسى وأشعلت غليونى ورحت أدخن . . على الفور فعلوا كلهم مثلى . . وفى الساعة الثانية تماماً وهى إشارة عبور الطيران وصل الخبر بأن طائراتنا قد عبرت قناة السويس وكانت ٢٢٢ طائرة نفاثة سرعتها فوق سرعة الصوت انتهت من ضربتها الأولى فى ثلث ساعة بالضبط فقدنا فيها خمس طائرات فقط . . كما فقدت فى تلك اللحظات الأولى من الحرب أخى الطيار الشهيد عاطف الذى هو فى منزلة ابنى لأننى أنا الذى ربيته ولكنهم أخفوا على حينذاك نبأ استشهاد أخى .

ونجحت ضربة الطيران نجاحاً كاملا ومذهلا حسب التخطيط الذى وضعناه لها . . مذهلا لنا فى المقام الأول فقد حققت الضربة نتائج فاقت التسعين فى المائة بخسائر لم تزد عن إثنين فى المائة ومذهلا لإسرائيل وللعالم كله شرقه وغربه . . فقد كان تقدير الاتحاد السوفيتى الرسمى بواسطة خبرائه قبل أن يخرجوا من مصر أنه فى أية حرب مقبلة فإن ضربة الطيران الأولى سوف تكلف سلاح الطيران المصرى على أحسن الفروض ٤٠٪ من قوته ولن تحقق نتائج أكثر من ثلاثين فى المائة . . وبالقطع كان هذا التقدير من جانب السوفيت يهدف إلى تعجيزنا وتخويفنا من المعركة فلم يكن لهم ثقة فينا على الإطلاق تماماً كما فقدنا الثقة فيهم .

فى ثلث ساعة فقط أى بعد عشرين دقيقة من ساعة الصفر كانت طائراتنا قد ضربت مراكز القيادة ومراكز إدارة الطيران ومراكز إدارة الدفاع الجوى . . وحين تحققت من هذه النتيجة وأنا فى غرفة العمليات هنأت قائد الطيران حسنى مبارك الذى خطط ونفذ هذه الضربة وهنأت جميع القادة فى غرفة العمليات إذ أن هذه الضربة قد حددت بالفعل مصير المعركة بعد ذلك . . فقد فقدت إسرائيل توازنها بالكامل ليس للأربعة وعشرين ساعة الأولى الحاسمة بل لأكثر من أربعة أيام كاملة فقدت فيها السيطرة على قواتها فى سيناء وانقطع الاتصال كاملا

بهذه القوات . . لقد استعاد سلاح الطيران المصرى بهذه الضربة الأولى كل ما فقدناه فى حربى ١٩٥٦ ، وهزيمة ١٩٦٧ ومهد الطريق أمام قواتنا المسلحة بعد ذلك لتحقق ذلك النصر الذى أعاد لقواتنا المسلحة ولشعبنا ولأمتنا العربية الثقة الكاملة فى نفسها وثقة العالم بنا . . وأنهى إلى الأبـــد خرافة إسرائيل التى لاتهزم . . لقد كان قائـــد سلاح الطيران المصرى فى هذه المعركة الجنرال حسنى مبارك الذى طلبت إليه بعد ذلك أن ينزع ملابسه العسكرية ليرتـــدى الملابس المدنية لكى يعاوننى فى عملى كنائب لرئيس الجمهورية .

عقب ضربة الطيران بدأت المدفعيـــة المصرية تزمجر بأكبر تركيز شهـــده العـــالم بعد معركة العلمين فى الحرب الثـــانية إذ انطلقت قذائف أكثر من ألفى مدفع لتقصف بدقـــة رائعة أهدافها . . وهكذا بدأت ملحمة ٦ أكتوبر والأداء الرائع للجندى المصرى العربى إذ لم ينتظر جنودنا على القناة أمر العبور وإنما كان مرور ٢٢٢ طائرة مصرية على ارتفاع منخفض يكاد يلمس رؤوسهم فى وقت واحد كافياً لإلهاب حماسهم ومشاعرهم المكبوتة منذ وقت طويل فأخـــذوا يسحبون زوارقهم إلى مياه القناة من خلف الساتر وفى حالة هستيرية إندفعوا يعبرون القنـــاة وهم يصرخون « الله أكبر » .

وهكذا بدأت مراحل الخطة تنفذ ولأول مـــرة يغير التخطيط العسكرى المصرى تلك المفاهيم التى كانت ثابتة إلى معركة أكتوبر ١٩٧٣ . . كانت القاعدة ألا يتصدى للمدرعات إلا المدرعات . . وقد تعلمنا كما تعلم العسكريون فى العالم كله أن قوات المشاة مهما كان تدريبها أو نوعيتها فلا يجب أن تدخل فى أيـــة معارك مع المدرعات لأنها كما يقول التعبير العسكرى (SOFT) ولكن فى حرب أكتوبر عبرت القوات الخاصة والمشاة المدربة فى الأفواج الأولى وهم يحملون الصواريخ فى أيـــديهم وواجهوا الدبابات الإسرائيلية فى معركة مريرة وضربوا أعداداً ضخمة منها قبل أن تعبر دباباتنا وتصل إليهم وتدخـــل معركة الدبابات .

كان فى الخطة أن ضربة الطيران تليها ضربة المدفعية كما ذكرت وتحت ستار ضرب المدفعية يتم العبور ولكن الذى حدث أن العبور تم أثناء عملية الطيران وقبل أن تبدأ المدفعية . . وبعد العبور دخل جنودنا على الحاجز الترابى الذى كان فى

بعض مواقعـــه يبلغ ارتفاعه ١٧ متراً واستخدموا فى تسلقه عمليات بدائية أذهلت العالم — فهى عبارة عن سلم من الحبال يحمله الجندى ثم يتسلق الحاجز الترابى وعندما يبلغ القمة يطرح السلم لإخوانه فيتسلقونه وهم يحملون الأسلحة المضادة للدبابات من صواريخ ومدفعية ثقيلة وبسرعة يستولون على المواقع التى أعدها الإسرائيليون خلف الساتر الترابى على الضفة الشرقية ليتربصوا فيها بالعدو ويستروا زملاءهم الذين يعبرون .

كان مهرجاناً رائعاً وأنا أرى هذا المشهد من غرفة القيادة هادىء البال حتى خيل إلى أنه لو دخل أى إنسان نفسى لوجد بها طمأنينة كاملة .. لم يكن فى خاطرى أى هم فكل الهموم قد انقشعت وانتهت تماماً .

أول لواء من لواءاتنا المصرية رفعت العلم المصرى على الضفة الشرقية كان اللواء السابع وتوالت الأنباء بعد ذلك وبدأ سقوط النقط الحصينة فى خط بارليف الواحدة بعد الأخرى وفى نهاية ست ساعات فقط كان قد اتضح تماماً أن اليهود قد فقدوا توازنهم وفقدوا السيطرة وفقدان السيطرة هذا تعبير عسكرى معناه أن القيادات قد فقدت الاتصال بينها وبين القوات وهذا أهم شىء فى العسكرية من أجل تحقيق المفاجأة .

بعد عبور الموجات الأولى من القوات حاملة الصواريخ والمدفعية المضادة للدبابات واحتلالها للمواقع التى أعدها الإسرائيليون لإعاقة عبورنا بدأ المهندسون فى تطبيق نظرية شق الحـــاجز الترابى بخراطيم المياه المكثفة وهذه فكرة مصرية ١٠٠٪ فسلاح المهندسين هو الذى قام بها وأذكر أننا حين طلبنا من الألمان صنع هذه المضخات ذات الضغط العالى سخروا منا وكانوا يتساءلون : « هل هناك حريق فى العالم كله يحتاج إلى كل هذه القوة ؟ » . . من قوة دفع الماء قطع الساتر الرملى كما لو كان بالسكين وفتحت الثغرات فى هذا الساتر الذى يبلغ ارتفاعه سبعة عشر متراً حيث ركبت فيها الكبارى . وعبرت الدبابات .

فى المساء كان كل شىء قد تم قبل موعده حسب الخطة . . أما بالنسبة للموقف على الجبهة صباح ٦ أكتوبر فإن القادة المحللين قاموا بخدعة لطيفة وهى أنهم جعلوا الجنود يجلسون على ضفة القناة وهم يمتصون عيدان قصب السكر فى تراخ وكأنهم فى إجازة . . أما الخداع التكتيكى الأساسى الذى أجبر إسرائيل على احترام الجندى المصرى إلى الأبد فهو النزول بخمس فرق كاملة على خط المواجهة الذى كان طوله ١٨٠ كيلو متراً .

٦

فى الساعة الثامنة إلا ثلث أى بعد ست ساعات إلا ثلث قضيتها فى غرفة القيادة أبلغونى أن السفير السوفيتى يريد مقابلتى فقلت للجنرال أحمد اسماعيل إننى ذاهب إلى قصر الطاهرة وهو المكان الذى أعددته بأحدث وسائل التكنولوجيا للإتصال بكل أنحاء مصر حتى لو ضربت المدن والمنشآت وأوصيته بأن يبلغنى بتطورات الموقف أولا بأول بعد أن هنأت الجميع فى غرفة العمليات على الأداء الرائع لقواتنا وأرسلت لقواتنا أشكرهم على الجبهة فكما قلت كان مصير المعركة قد تحدد نهائياً .

عندما التقيت بالسفير السوفيتى كنت أظن أنه جاء ليحمل إلى رد القيادة السوفيتة على سؤالى الذى سبق أن سألته وهو ما موقف السوفيت منا ؟ ولكن خاب ظنى فقد جاء ليقول لى إن الرئيس حافظ الأسد استدعى السفير السوفيتى يوم ٤ أكتوبر وأبلغه أن الحرب ستبدأ يوم ٦ أكتوبر فقلت له نعم أنا أعرف ذلك وقد كان ذلك باتفاق سابق بيننا ثم استطرد السفير السوفيتى قائلا إن حافظ الأسد طلب فى هذه المقابلة منا أى من الاتحاد السوفيتى العمل على وقف إطلاق النار بعد ٤٨ ساعة على الأكثر من بدء العمليات يوم ٦ أكتوبر . . وبناء على ذلك فقد جاء ليبلغنى ذلك رسمياً من القادة السوفيت ويطلب منى الموافقة على ذلك . . قلت له : « أنا أشك فى أن الرئيس الأسد قد طلب هذا قبل المعركة . . ومع ذلك فهل أنت تبلغنى هذه الرسالة كمعلومات أو كرسالة رسمية » ؟ قال لى : « أنا أبلغك هذا كرسالة رسمية من قادة الاتحاد السوفيتى وإذا كان لديك أى شك فيمكنك أن تتصل بالرئيس الأسد للتفاهم معه » . . قلت له : « سوف أرسل للرئيس الأسد أسأل فى هـــذا الموضوع ولكن أرجو أن تبلغ القيـــادة السوفيتية أنه حتى إذا كان هذا طلب سوريا فعلا فإننى لن أوقف إطلاق النار إلا بعد الإنتهاء من الأهداف الأساسية المحددة لمعركتى » . . بعد ذلك سألته عن الرد على سؤالى الذى أبلغته له يوم ٨ رمضان عن موقف الاتحاد السوفيتى من دخولى المعركة فأجاب بأنه مازال موضع دراسة . . وبمجرد مغادرة السفير السوفيتى للمقر كتبت برقية شفرية إلى الرئيس الأسد وأبلغته بنص ما أبلغه السفير السوفيتى وكان ذلك حول الساعة الثامنة والنصف مساء بتوقيت القاهرة أى بعد ست ساعات ونصف فقط من بدء حرب أكتوبر . . وأبلغت الرئيس الأسد أيضاً ردى على السفير السوفيتى وهو أنى لن أقبل وقف إطلاق النار إلا بعد تحقيق أهداف المعركة ورغم خطورة

الموضوع جاءنى الرد من الرئيس الأسد عصر يوم ٧ أكتوبر ١٩٧٣ أى بعد أربع وعشرين ساعة . . ! بأن هذا الذى يدعيه الاتحاد السوفييتى لم يحدث .

فى اليوم التالى لم أذهب إلى القيادة فالعمليات تسير فى خطها السليم ثم إن القادة جميعاً محترفون وصنعتهم الحرب . . هذا إلى جانب اعتبار آخر وهو أن وجودى بينهم قد يسبب لهم شيئاً من التوتر العصبى . . ولكننى طبعاً طلبت من المشير أحمد اسماعيل أن يطلعنى على الموقف أولا بأول .

فوجئت يوم ٧ أكتوبر بالسفير السوفييتى يطلب مقابلة عاجلة فى المساء . . قابلته وقلت له : من نصف ساعة فقط تلقيت الرد من الرئيس الأسد وهو أن ما أبلغته لى رسمياً أمس كرسالة رسمية من القادة السوفيت لم يحدث .. ابيض وجه السفير فأصبح بلون الثلج وقال : « أنا جاى لك برسالة ثانية من الحكومة السوفيتية بناء على طلب سوريا للمرة الثانية بوقف إطلاق النار » قلت له : « اسمع . . أرجو أن تقفل هذا الموضوع وتعتبره انتهى عند هذا الحد فأنتم تعلمون منذ الأمس أننى لن أوقف إطلاق النار إلا بعد أن تتحقق أهداف المعركة وأريدك أن ترسل للقيادة فى موسكو بأن يرسلوا إلى دبابات فوراً فهذه المعركة سوف تكون أكبر معركة دبابات فى التاريخ » (وكان القتال يومى ٦ ، ٧ أكتوبر شرساً كل الشراسة ومعركة الدبابات قد بدأت) . . وهنا أبلغنى السفير السوفيتى بالكوبرى الجوى الذى قرر الاتحاد السوفيتى إقامته لكى يرسل إلى ذخائر ومعدات متأخرة كان لابد من تسليمها خلال سنة ١٩٧٣ وفقاً للاتفاقية التى عقدها معهم المشير أحمد اسماعيل فى أوائل عام ١٩٧٣ . . رحبت على أى حال بهذا النبأ وقلت له : « هكذا يجب أن يكون شكل العلاقة بيننا » .

بعد ذلك كان السفير السوفييتى يزورنى يومياً فى قصر الطاهرة لتبادل المعلومات ولكنه لم يكف عن الإلحاح على وقف إطلاق النار وأنا أنهره وأقول له : « ليس قبل أن أحقق هدفى وهو ضرب نظرية الأمن الإسرائيلى » .

٧

ظل الموقف العالمى مبلبلا . . يأخذ بوجهة نظر إسرائيل لأنه يستقى معلوماته من البلاغات الإسرائيلية التى كانت تقول إنهم سوف يطحنون عظامنا وقد استخدمت إسرائيل لكى تغطى هزيمتها أفلام حرب ١٩٦٧ فى إسرائيل وفى العالم وظنوا أن حرب الدعاية يمكن أن تلغى الحقائق . . ولم يكن العالم فى بادىء الأمر

يصدق بلاغاتنا رغم أن المشير إسماعيل كان متحفظاً فيها إلى أبعد الحدود . . لدرجة أن عدد الدبابات التى خسرتها إسرائيل كان فى بعض بلاغاتنا أقل من الواقع لأن المشير كان يطلب التأكد من أكثر من جهة فإذا لم يتوفر له هذا كان يأخذ بالرقم الأقل والحقيقة أنه لو جمعنا عدد الدبابات التى خسرتها إسرائيل وفقاً لبلاغاتنا ستجده أقل من الواقع بحوالى ١٥٠ دبابة .. وكنت قد قلت لأحمد إسماعيل والدكتور عبد القادر حاتم نائب رئيس الوزراء ووزير الإعلام وقتها : « فى هذه المعركة نريد الحقيقة كما هى للناس بخيرها وشرها . . حتى نعوّد شعبنا على أن يسمع الحقيقة كاملة مهما كانت » .

فى هذه الأثناء اتصل بريجنيف بالرئيس تيتو وطلب منه أن يتوسط عندى حتى أن أقبل وقف إطلاق النار لأن سوريا كانت قد أرسلت للاتحاد السوفيتى (كما أبلغ بريجنيف تيتو) ثلاث مرات تطلب وقف إطلاق النار وقال له إن مصر رفضتها وأن الرئيس السادات بإصراره هذا سوف يكون السبب فى كارثة تودى بالعالم العربى والنظم التقدمية والعالم بأجمعه . . كان تيتو حريصاً فرد على بريجنيف يبلغه أنه لا يسمح لنفسه بالتدخل فيما يفعل السادات رغم الصداقة به فالرئيس السادات أمامه الصورة كاملة للأمور وهو يتصرف على أساسها . . فى هذا الوقت كان تيتو قد أتم تجهيز ١٤٠ دبابة كنت قد طلبتها على وجه السرعة لخبرتى بأسلوب السوفيت معى أرسلها إلى وهى محملة بالذخيرة والبنزين لكى تدخل إلى ميدان المعركة مباشرة فتيتو له خبرة من الحرب العالمية الثانية وهو مناضل أصيل . . موقف لن أنساه أبداً للرئيس تيتو وليوغوسلافيا .

بعد اليوم الثالث تأكد انتصارنا فبدأ العالم يأخذ ببياناتنا ويبدى إعجابه بقدرتنا القتالية وفرحته لانتصارنا — فى هذه الأيام الثلاثة فقدت إسرائيل أكثر من ثلث سلاح طيرانها على الجبهتين المصرية والسورية وخيرة الطيارين المدربين ولذلك فى المعارك التى دارت بعد ذلك كانت طائراتنا الميج ١٧ وسرعتها أقل من سرعة الصوت تهزم الفانتوم التى كانت أحدث طائرة فى ذلك الوقت عند إسرائيل وهى التى سلمتها لها أمريكا .

وبذلك انتهت خرافة سلاح الطيران الإسرائيلى واليد الطولى وخرافة المدرعات الإسرائيلية والجندى الإسرائيلى بوجه عام ، وعلى سبيل المثال قتل على الجبهة المصرية قائد عام مدرعات إسرائيل الجنرال ابراهام مندلر وكانت له

شهرة عالمية . . ولعل البرقيات المتبادلة بينه وبين القيادة الإسرائيلية توضح حقيقة هزيمة إسرائيل . كل هذا الانهيار الذى تم فى الأيام الثلاثة الأولى للحرب جعل كيسنجر يقول لمسز مائير فى اليوم الرابع : « لقد خسرت الحرب ويجب أن تعدى نفسك لهذا » . . ثم بدأ كيسنجر مساعيه لإيقاف إطلاق النار حتى يلتقط الإسرائيليون أنفاسهم . . فقد كانت المعارك تسير بالنسبة لنا من نصر إلى نصر . . فمثلا اللواء ١٩٠ المدرع الإسرائيلى وكان من أهم لواءاتهم المدرعة إذ يعتبرونه رأس الحربة كانت خطته أن يخترق ويندفع إلى أن يصل إلى ضفة القناة ويفصل قواتنا بعضها عن البعض فإذا بقائده عساف ياجورى يصاب بانهيار عصبى وهو يسلم نفسه للقوات المصرية لأنه بعد ثلث ساعة فقط من بدء المعركة . . تلفت حوله فلم يجد سوى دبابته أما بقية اللواء وقدرها أكثر من مائة وخمس عشرة دبابة فكان قد قضى عليها بالكامل . . والذى قام بهذا العمل الرائع قائد من البراعم المصرية الجديدة اسمه أبو سعدة . .

لقد سجلنا رقماً قياسياً عسكرياً مصرياً بالقضاء على أى لواء مدرع معادى فى عشرين دقيقة .

كما سجلنا من قبل أن أكبر قطعة بحرية إسرائيلية هى إيلات بقوة نيرانها وصواريخها وطاقمها الذى يبلغ أكثر من ٣٠٠ (ثلاثمائة) بحار يمكن أن يقضى عليها زورق صواريخ لا يزيد طاقمه عن ١٧ فرداً وكان هذا إيذانا بتغيير استراتيجى فى حرب البحار أخذت به كل دول العالم بعد حرب أكتوبر وسجل التاريخ أن أول صاروخ بحرى سطح سطح والذى غير الاستراتيجية البحرية العالمية . . كان صاروخاً مصرياً أطلق من زورق مصرى وبأيدى ضباط وجنود مصريين فى وقت ظن العالم فيه أن مصر والعرب لا يستطيعون استيعاب التكنولوجيا الحديثة . .

وقع ذلك فى أحلك لحظات الهزيمة عام ١٩٦٧ . .

ثم كان ما سجله المقاتل المصرى من تغيير جذرى فى حرب المدرعات والمشاة فى تاريخ العالم العسكرى بعد ست سنوات فى أكتوبر سنة ١٩٧٣ والذى ذكرته سابقاً . .

إن العسكرية المصرية فى أكتوبر سنة ١٩٧٣ وبعد هزيمة سنة ١٩٦٧ قد سجلت فى تاريخ العسكرية العالمية علامات محددة هى :

١ ـ الأسس الجديدة لاستراتيجية حرب البحار التى أخذ بها العالم بعد أن ثبت أن زورقاً صغيراً يمكن أن يصيب أكبر القطع البحرية وأن قوة النيران لم تعد تتطلب بوارج أو مدمرات ثقيلة فقد كانت قوة نيران زورق صغير أفعل من قوة نيران مدمرة ثقيلة بالمدافع والصواريخ هى إيلات . .

٢ ـ أن أول حرب اليكترونية وصاروخية وقعت فى معركة أكتوبر سنة ١٩٧٣ وثبت أن المصريين والعرب يفخرون بأنهم خاضوا هذه الحرب وانتصروا فيها ولولا تدخل الولايات المتحدة بكل ثقلها إلى جانب إسرائيل لتغير الوضع . مع أن ما كان لدى إسرائيل فى هذه الحرب من تكنولوجيا حديثة حصلت عليها من الولايات المتحدة الأمريكية كان سابقاً لما لدى العرب من روسيا بأشواط طويلة .

٣ ـ أن معارك الدبابات أصبحت فى عصر الصواريخ والحرب الإليكترونية معارك رهيبة تعتمد على أعداد رهيبة من الدبابات لم يشهد لها العالم مثيلا فى خلال الحرب الثانية كانت معركة كورسك فى روسيا للدبابات هى أكبر معركة شهدها العالم . . وفى معركة أكتوبر سنة ١٩٧٣ التى استمرت ١٧ يوماً فقط فقد المحاربون ثلاثة آلاف دبابة أى أن القوات التى دخلت المعركة فى حرب أكتوبر كانت أكثر من خمسة آلاف دبابة فى الوقت الذى اعتبرت فيه معركة كورسك الروسية التى أشترك فيها ٥٠٠ دبابة أكبر معركة دبابات خلال خمس سنوات من الحرب وليس سبعة عشر يوماً كما حدث فى حرب أكتوبر . .

٨

فى يوم ١٣ أكتوبر سنة ١٩٧٣ أى بعد سبعة أيام من ابتداء الحرب أيقظونى من النوم فى الفجر وقالوا لى إن السفير البريطانى يطلب مقابلة عاجلة لتسليم رسالة عاجلة من رئيس وزراء بريطانيا « هيث » . استقبلته فى الصالون المجاور لحجرة نومى فأعطانى رسالة من كيسنجر عن طريق رئيس وزراء بريطانيا فقد كانت علاقاتنا لا تزال مقطوعة بأمريكا ـ وكان كيسنجر فى رسالته يطلب من « هيث » أن يتأكد أنى موافق على وقف إطلاق النار فقد أخبره السوفيت بهذا . . وكان كيسنجر قد أفاق منذ اليوم الرابع لحرب ونداء SAVE ISRAEL الذى وصله فى اليوم

الرابع بعد أن كانت دعاية إسرائيل تحكى لمدة الثلاثة أيام الأولى أنهم يطحنون عظام المصريين وسايرتهم إذاعات العالم ـ أقول أفاق كيسنجر الذى لم يكن لديه أدنى شك فى طحن عظامنا على نداء SAVE ISRAEL وطلب إسرائيل لأربعمائة دبابة بصفة عاجلة وهى مجموع ما خسرته على الجبهة المصرية إلى ذلك التاريخ أى اليوم الرابع وتقرير من البنتاجون يقول إن المعركة على الجبهة المصرية تسير فى غير صالح إسرائيل ولابد أنه وصله أيضا بكاء ديان على الجبهة المصرية أمام جميع مراسلى الصحف العالمية وانهياره وقوله إن الإسرائيليين لن يستطيعوا أن يزحزحوا المصريين بوصة واحدة وأن الطريق مفتوح إلى تل أبيب..
كان كيسنجر منذ اليوم الرابع بعد أن عرف كل هذا يعمل على وقف إطلاق النار مع السوفييت فبدأ أولا بالنداء لوقف إطلاق النار مع عودة الأطراف المتحاربة إلى الخطوط التى بدأ منها القتال على أساس أن الإسرائيليين كانوا يطحنون عظامنا.. ثم بدأ يعدل موقفه لإنقاذ إسرائيل بعد النداء المشهور وتقرير البنتاجون إلى وقف إطلاق النار على الخطوط القائمة بالفعل يوم ١٣ أكتوبر ورفضنا العرضين . . ولكن حينما أخبره السوفيت أن مصر وافقت على وقف إطلاق النار على الخطوط الحالية للقتال يوم ١٣ أكتوبر سعد جداً واتصل بوفد أمريكا فى الأمم المتحدة للإعداد فى مجلس الأمن وأراد أن يستوثق منى فأرسل هذه الرسالة عبر هيث رئيس وزراء انجلترا لأنه كان قد عرف قبل ذلك من مستشار الأمن القومى المصرى الذى قابله فى باريس أوائل سنة ١٩٧٢ حقيقة أبلغتها رسمياً للولايات المتحدة وهى أن الاتحاد السوفيتى لا يملك أن يتحدث باسم مصر . . لذلك صدم كيسنجر حينما أبلغه هيث ردى على الرسالة وكان « بلغ كيسنجر أن هذا لم يحدث فأنا لم أوافق على وقف إطلاق النار لا للسوفيت ولا لغيرهم وقد سبق أن أخبرته بأن يتصل بالقاهرة إذا كان ثمة ما يخص مصر وليس بموسكو . . ثم إننى لن أوافق على وقف إطلاق النار إلا بعد إتمام المهام التى تتضمنها الخطة » .

سألنى السفير الإنجليزى : ـ « هل صحيح أنكم تصرون على قفل البحر الأحمر؟ » .

قلت له : فعلا

قال : طيب . . ما هى الشروط ؟

قلت له : أنا مستعد لوقف إطلاق النار فى حالة موافقة إسرائيل على الانسحاب من الأراضى العربية .

وخرج السفير من عندى ليبلغ كيسنجر بالموقف . . بعدها مباشرة وصلنى خبر من الاتحاد السوفيتى بأن رئيس الوزراء كوسيجين سيحضر لزيارتى — فقلت أهــلا وسهلا .

وجاء كوسيجين والتقينا . . كان مطلبه الأساسى وقف إطلاق النار على الخطوط الحالية . . قلت له : — « أنا مش مستعد أكرر هدنة سنة ١٩٤٨ التى كانت السبب فى خسارتنا للحرب » .

قال لى « إحنا حندخل ضامنين » .

قلت : « إسرائيل لا ضمان لها إطلاقاً — ثم أنا طالب دبابات من ثانى يوم للمعركة ولم تصلنى للآن والكوبرى اللى انتم عاملينه بيجيب لى معدات تأخرتم فى تسليمها وكان لازم تورد فى سنة ١٩٧٣ قبل المعركة » وطبعاً كان من ضمنها الذخيرة التى رفضوا أن يستعوضوها لعبد الناصر فى حرب الإستنزاف لأنه رفض أن ينفذ طلباتهم . . ثم بدأ أسلوبه الهجومى ، وكوسيجين هجام وبيروقراطى . . وهم يضربون به المثل فى الاتحاد السوفيتى بأنه خدم مع ستالين فى الحكومة لمدة ثلاثة عشرة عاماً ومع ذلك لم يصفى بواسطة بيريا وزير داخلية ستالين أو يرسل إلى سيبريا بعكس كل ما حدث لمن عملوا مع ستالين ولم ينج منهم أحــد كما حدثنا خروشوف فى زيارته لنا عام ١٩٦٤ .

قلت له : « تعالى بقى نستعرض الكلام اللى أنت بتقوله — الكبارى اللى إنت وردتها لى واللى أنا ركبتها على قناة السويس . . الكوبرى الواحد منها يحتاج لخمس ساعات تركيب وهى كبارى الحرب العالمية الثانية فى الوقت اللى عندك كوبرى B.M.P. يتركب فى نصف ساعة . . كل المعدات اللى أعطيتها لى متأخرة . . وحاططنى وراء إسرائيل بـ ١٠ خطوات ومع ذلك قبلت وبدأت معركتى وأنا منتصر — آدى علاقتكم معنا . . وأظن أن الأوان قد آن لكى ننسى الماضى ونبدأ صفحة جديدة » .

قال لى : — « يا سيادة الرئيس أنا لم أكن أتصور أنك بهذا الانفعال » .

وانتهى اللقاء الأول — ولكن فى فترة الأربعة أيام التى قضاها بمصر كان يقضى اليوم كله فى السفارة السوفيتية ويقابلنى فى المساء .

وأثناء وجوده فى مصر حدثت الثغرة فجاءنى وعلى وجهه علامات التشفى وقال : « لقد حدثت الثغرة وموقفكم خلاص إتحدد . . القاهرة أصبحت مهددة » .

قلت له : — « آسف . . القاهرة لن تهدد أبداً . . ولكن أين الدبابات التى طلبتها منكم . . أين ؟ » .

قال لى : — « إحنا ركزنا على سوريا لأنها إنكسرت وفقدت ١٢٠٠ دبابة فى يوم واحد » .

قلت له : — « لا اعتراض لى على هذا ولازم تنجدوا سوريا بكل الطرق . . ولكن هذا لا يمنع من إرسال الدبابات اللى طلبتها . . أرسلوا الدبابات وأنا كفيل بالتعامل مع الثغرة » . . وسافر بعد ٤ أيام وقلت له وأنا أودعه : — « لن أوقف إطلاق النار إلا بعد إتمام المرحلة النهائية من الخطة . . أرجو أن يكون ذلك واضحاً لكم » .

٩

اتضح لى بعد ذلك أن القمر الصناعى الأمريكى الذى كان يوصل المعلومات لإسرائيل ساعة بعد ساعة بعد نداء SAVE ISRAEL أخطرهم بنقل الفرقة ٢١ المدرعة المصرية من الضفة الغربية للقناة إلى الضفة الشرقية لمحاولة تخفيف الضغط على سوريا كما طلب وألح الرئيس الأسد وأن البنتاجون قد نصح الإسرائيليين بمحاولة عمل الثغرة لإنقاذ الموقف الإسرائيلى المنهار على جبهة سيناء . . وقد كتب بعد ذلك رئيس الأركان الإسرائيلى أثناء حرب أكتوبر ليدافع عن نفسه فى مذكرات نشرها ليبرىء نفسه بعد أن أدانه تقرير لجنة أجرانات أن جولدا مائير قالت لهم بعد وصول معلومات القمر الصناعى الأمريكى افعلوا أى شيء فنحن على الجبهة المصرية قــد وصلنا إلى الحضيض BOTTOM بنص الكلمة . . كان القمر الصناعى الأمريكى يوصل المعلومات لإسرائيل ساعة بعد ساعة وأقرر هنا للتاريخ أن روسيا التى تدعى وقوفها مع الحق العربى لم تبلغنا بشيء بواسطة أقمارها الصناعية التى كانت تتابع المعركة منذ لحظة بدئها إلى لحظة وقف إطلاق النار لأننا أخطرناها بواسطة سوريا عن ساعة الصفر كما قلت سابقاً . . وهذا التسجيل للمعركة عرض فى اللجنة المركزية للاتحاد السوفيتى وطلبت صورة منه فلم أتلق رداً إلى اليوم ولن أتلقى هذا الرد . . ولكن القمر الصناعى الأمريكى والبنتاجون كانوا يوافون إسرائيل بالموقف ساعة

بعد ساعة دون أن تطلب ذلك . . وخاصة بعد أن سجل القمر الأمريكي كما قلت أن المعركة على الجبهة المصرية تسير لغير صالح إسرائيل وأقر ديان أن الطريق من سيناء مفتوح إلى تل أبيب . . ثم حدث تطور خطير بدأت أشعر به وأنا أتابع الحرب من غرفة العمليات .

لقد استخدم الكوبرى الجوى الأمريكي لنجدة إسرائيل مطار العريش لنزول الطائرات الأمريكية الجبارة التى تحمــل الدبابات وكل الأسلحة الحــديثة SOPHISTICATED والعريش مدينة مصرية وهى عاصمة سيناء . . تقع خلف الجبهة مباشرة . . وبدأت ألاحظ تطوراً خطيراً آخر . . فى معــارك الدبابات التى اعترف الإسرائيليون أنفسهم بشراستها وكفاءة المصريين فى إدارتها (وخاصة بعد أن أفنينا الدبابات التى كان يقودها مندلر قائد الدبابات الإسرائيلى الذى كان فخر إسرائيل وبعد إعلان استغاثته وموته) كنت كلما أصبت لإسرائيل عشرة دبابات أرى مزيــداً من الدبابات .

أمريكا . . لقد دخلت أمريكا الحرب لإنقاذ إسرائيل بعد النداء المشهور فى اليوم الرابع . . وهى تستخدم بكل صراحة مطار العريش المصرى الذى يقع خلف الجبهة بكل وضوح لكى تحول الهزيمة الإسرائيلية إلى انتصار.. وتذكرت فى تلك اللحظات ما فعلته أمريكا على جبهة ألمانيا فى الحرب العالمية الثانية . . ثم على الجبهة اليابانية . .لقد كانت أمريكا تغير على الأهداف الألمانية ومدن ألمانيا بألف طائرة فى الغارة الواحدة لكى تلقن الألمان درساً لا يمكن أن ينسوه .. وأغارت على نجازاكى وهيروشيما على الجبهة اليابانية لكى تلقنهم أيضاً درساً لن ينسوه . .

وتطور خطير ثالث . . فقد أطلقت الطائرات الإسرائيلية من طراز فانتوم الأمريكى عشرة صواريخ على بطاريات الصواريخ المصرية فلم يصب إلا هوائى لبطارية واحدة أصلح بعد ربع ساعة فقط ولم تتعطل بطاريات الصواريخ المصرية التى أسقطت ثلث السلاح الجوى الإسرائيلى فى الأيام الأولى للمعركة مما دعا القيادة الإسرائيلية أن تصدر أمراً إلى الطائرات الإسرائيلية فى اليوم الثالث لحرب أكتوبر بعدم الإقتراب من جبهة القتال فى سيناء . . أما التطور الثالث الخطير فهو أن أطلق صاروخان على بطاريتين مصريتين للصواريخ فعطلا البطاريتين تعطيلا كاملا وعرفت بعد ذلك أنه صاروخ أمريكى جديد يسمى القنبلة التليفزيونية تم تطويره فى اليابان لحساب أمريكا وأنه كان لا يزال تحت الاختبار فى أمريكا فأرسلته أمريكا لنجدة إسرائيل .

لقد دخلت أمريكا الحــرب لإنقــاذ إسرائيل SAVE ISRAEL حتى بالأسلحة التى تحت الاختبار . . وقنبلة المافريك . . وأسلحة أخرى .. وأنا أعرف إمكانياتى وأعرف حدودى . . لن أحارب أمريكا . .

ولذلك بعد عودتى من غرفة القيادة فى الساعة الواحدة والنصف من صباح ١٩ / ٢٠ أكتوبر ١٩٧٣ كتبت للرئيس الأسد شريكى فى القرار برقية أخطره فيها أننى قررت الموافقة على وقف إطلاق النار وسجلت فى هذه البرقية موقفى وهو أننى لا أخاف مواجهة إسرائيل ولكننى أرفض مواجهة أمريكا . . وأننى لن أسمح أن تدمر القوات المصرية مرة أخرى . . وأننى مستعد أن احاسب أمام شعبى فى مصر وأمام الأمة العربية عن هذا القرار .

وأعــود إلى القصة . . فى يوم ١٦ أكتوبر أرسلت رئيس الأركان الجنرال سعد الشاذلى للتعامل مع الثغرة وكان من السهل جداً التعامل معها فى ذلك اليوم ، فقد كان السباق فيها للزمن . . ولو أنه نفذ ما طلبته منه أنا والفريق أحمد إسماعيل وفى التوقيت الذى حددته له فأحاط شاطىء البحيرة المرة بسد يسجنهم داخلها ويوقفهم فى مكانهم لأصبح من السهل القضاء عليهم وكان فى إمكانه أن ينتهى من العملية كلها بعد وصوله بساعات ولكنه أضاع الليلة بأكملها فى جمع المعلومات وإنشاء قيادة له ينافس بها قيادة غريمه الجنرال اسماعيل وكانت قوات الصاعقة قد تقدمت إلى الدفرسوار ووصلت فعلا إلى نقطة النزول واعترف الإسرائيليون بشراسة قتال قوات الصاعقة والقوات الخاصة . . ولكن الشاذلى أعطاهم الأمر بالإنسحاب إلى أن يجمع المعلومات وكانت النتيجة أن توسع اليهود فى الثغرة .

فى يوم ١٩ أكتوبر عاد الشاذلى منهاراً وقال لابد أن نسحب قواتنا فى شرق القناة لأن الغرب مهدد . . وكان هذا ــ لوتم ــ هوما يريده الإسرائيليون . . فطلب منى أحمد اسماعيل فى منتصف ليلة ٢٠/١٩ أكتوبر أن أذهب إلى القيادة حتى أتخذ قراراً مهما بوصفى القائد الأعلى للقوات المسلحة . . ذهبت إلى القيادة . واستعرضت الموقف فوجدت أن لنا خمس فرق كاملة فى شرق القناة وعندنا ١٢٠٠ دبابة فى الشرق أيضاً أما فى الغرب فعندنا فرقة مدرعة تواجه قوات إسرائيل وفى القاهرة فرقة يمكن سحبها ــ هذا غير الحرس الجمهورى الخاص بى والذى أدخلته الحرب وقاتل قتالا مجيداً وعاد كاملا بكل دباباته .

بعدما اتضح الموقف لى جمعت القادة كلهم وكان معى الفريق أحمد اسماعيل القائد العام للقوات المسلحة والفريق الجمسى مدير العمليات والفريق حسنى مبارك والفريق محمد على فهمى قائد سلاح الصواريخ ، وكانوا جميعاً من رأيى وهو أنه لم يحـدث شيء يستدعى القلق . . فأعطيت الأمـر الذى اعتبره أهم من قـرار ٦ أكتوبر – بأن لا ينسحب جندى واحد ولا بندقية واحدة ولا أى شيء على الإطلاق من شرق القناة وأنه علينا أن نتعامل مع الغرب حسب الأوضاع الموجودة ثم بدأت أتصل بنفسى مع الفرقة المدرعة فى الغرب وكان يقودها ضابط اسمه قابيل وهو بطل من أبطال أكتوبر وقلت له : – ثبت الإسرائيليين ولا تجعلهم يتمكنوا من التوسع وإياك أن تشتبك معهم إلى أن تصلك الإمدادات .

فى هذه الليلة أعطيت تعليماتى لأحمد اسماعيل بعزل الشاذلى من رئاسة الأركان على أن لا يعلن هذا القرار على القوات حتى لا يحدث رد فعل عندنا أو عند الإسرائيليين . . وفى نفس الليلة استدعيت الجمسى وعينته رئيساً للأركان .

١٠

وفى هذه الليلة اتخذت القرار بوقف إطلاق النار فقد كان لى عشر أيام أحارب فيها أمريكا وحدى بأسلحتها الحديثة التى لم يستخدم أغلبها من قبل .

وكان الموقف على غير ما يتصوره العالم كله . . فقد كان اعتقاد الجميع فى العالم أن الاتحاد السوفيتى يقف إلى جانبنا وأنه قد أرسل الكوبرى الجوى لنجدتنا . . ولكن الموقف كان غير ذلك فى الواقع . . فأمريكا وإسرائيل فى مـواجهتى والاتحاد السوفيتى فى يده الخنجر ويقبع وراء ظهرى ليطعننى فى أية لحظة عندما أفقد ٨٥٪ أو ٩٠٪ من سلاحى كما حدث فى سنة ١٩٦٧ وقد أصبح من الواضح أن أمريكا تستطيع أن تقضى على دفاعى الجوى بأكمله باستخدام القنابل التليفزيونية الجديدة وبهذا تعود سيناء مصر مفتوحة للإسرائيليين كما حدث فى عام ١٩٦٧ . .

وقد كان حسنى مبارك قائد الطيران يستخدم كل الطائرات الموجودة . . حتى طائرات التدريب التى فى مدرسة الطيران ركب بها صواريخ وقاتلت . . وطائرات الميج ١٧ وسرعتها أقل من سرعة الصوت استخدمهـا طيارونا بمهـارة شديدة ضد الفانتـوم والميراج . .

وكان هذا فى مجموعه يشكل ملحمة رائعة لسلاح الطيران المصرى على عكس ما كان الاتحاد السوفيتى يتـوقع . . إذ كان يريد أن يثبت أننى لست كفئاً للحرب بعد أن طردت الخبراء السوفييت وأن مصر يجب أن تعود مرة أخرى إلى الاتحـاد السوفيتى . . وقد صرح بهذا بريجنيف للرئيس بومدين عندما زار الاتحـاد السوفيتى زيارة سرية لم يخطر بها أحداً ونحن فى أوج انتصارنا ليشترى لنا السلاح . . فى أثناء المناقشة احتد بريجنيف وقال له إن أنور السادات ضيع مصر وسوف يضيـع العرب والقاهـرة ودمشق والنظم التقـدمية وإنه أحمـق . . فرد عليه بومدين وقال : « أنا زبون جاى أشترى منك سلاح . . اتفضل آدى مائة مليون دولار لمصر ومثلهـا لسوريا . . أرسل لهم الأسلحة التى يطلبـونها . . ولما عاد بومدين إلى الجزائر جمـع مجلس الثورة وحكى لهم ما حدث وقال : « إذا كان الأمـريكان وإسرائيل عايزين يهزموا أنور السادات قيراط فالاتحاد السوفيتى عايز يهزمه ٢٤ قيراط » . هل يذكر بومدين هذا وقد قاله لى شخصياً أم نساه بعد أن أصبح عضوا فى جبهة رفض مبادرتى الأخيرة للسلام ؟ .

فى يوم ١٩ أكتوبر بعـد اجتماعى بالقـواد عدت إلى قصر الطاهرة وبدأت فى الحال تنفيذ قرارى – طلبت منهم أن يستدعوا لى السفير السوفيتى وإلى أن حضر كتبت برقية إلى الرئيس الأسد قلت فيها إننى قد قبلت وقلبى ينزف دماً وقف إطلاق النار . . لأنى مستعد أن أحارب إسرائيل مهما طال الوقت لكننى غير مستعد على الإطلاق لمحاربة أمريكا – كما أنى لا أسمح بأن تدمـر قواتى المسلحة مرة أخرى أو أن يدمر شعبنا ومنشآته وفى آخر البرقية قلت له إننى مسئول عن هذا القـرار يحاسبنى عليه الشعب فى مصر وتحاسبنى عليـه أمتنا العـربية . .

وجاء السفير السوفيتى فقلت له : « لقد قبلت وقف إطلاق النار على الخطوط الحالية » . . فى هذا الوقت كان كيسنجر فى طريقه إلى موسكو بشأن عملية وقف إطلاق النار فاستأنفت حديثى مع السفير وقلت له :

« الدولتان العظميان يجب أن تضمنا وقف إطلاق النار والتنفيذ الفورى لقـرار ٢٤٢ » . .

وفعلا اتفقت الدولتان واجتمع مجلس الأمن وقـرر أن يكون وقف إطلاق النار فى الساعة السابعة مساء ٢٢ أكتوبر ويجب أن أقـرر هنا للحقيقة والتاريخ

أن قواتنا قاتلت من ١٩ إلى ٢٢ أكتوبر قتالا رائعاً مجيداً وأنا اتحدى إسرائيل أن تعلن عن خسائرها الحقيقيــة فى الثغرة أو فى سيناء لأنهم بالفعل منيــوا بخسائر فادحــة على أيدى قواتنا الخاصة وقواتنا الجوية . . وخاصة فى الثغــرة فى الضفة الغربية ولم يفصحوا عن ذلك إلا منذ سنة حينما وصفوا الثغــرة على الضفة الغــربية بأنها كانت « وادى الموت » وهو وصف إسرائيلى . .

وأكرر مرة أخــرى إننى أتحدى أن تعلــن إسرائيل حقيقة الثغرة ودور شارون . .

يوم ٢٢ أكتوبر قبل وقف إطلاق النار ذهبت إلى غــرفة العمليات وأعطيت الأمر بضرب صاروخين أرض أرض .. اثنين فقط .. على الدفرسوار ، فقد أردت أن تفهم إسرائيل أن هذا السلاح موجــود عندنا ويمكن أن نستعملــه فى المرحلة القادمــة وكانت إسرائيل قد أدركت منذ بدأنا الحرب أننا نعنى ما نقول وننفذه . .

أوقفنا القتال على خط ٢٢ أكتوبر وهذا الخط كما اعترف اليهود بعــد ذلك كان مقتلا لهم لأنه شريط مستطيل بجانب بحيرة الدفــرسوار مفتوح من جميع الجهات فانتهزوا فرصة وقف إطلاق النار (كعادتهم منذ حرب ١٩٤٨) وبعدها بساعتين وجهــوا هجوماً نحو الجنوب تجاه السويس وهجوماً آخر تجاه الإسماعيلية .

فى هذه الأثناء قامت قواتنا الخاصة بأعمــال عظيمة فى الثغرة فبمجرد حلــول الليل يحل معــه الرعب فى قلوب الإسرائيليين ومن أجل هذا تحديت أن يعلنوا عن خسائرهم الحقيقية فى الثغرة ، ففى الثلاثة أيام الأولى من الحرب ضربنا لهم ٤٠٠ دبابة . . تلك التى طلبوها من أمريكا رسمياً تعويضاً لهم ، ولكننى بعد هذا وجدت أمامى مئات الدبابات ــ كما ذكرت ــ أمدتهم بها أمريكا بسرعة ولذا أوقفنا القتال على خط ٢٢ أكتوبر . .

قامت إسرائيل بالهجــوم الذى أشرت إليه بعــد وقف إطلاق النار بساعتين وكان الهــدف منه أن يوسعوا الثغرة فتمتد قواتهم خلف الجيشــين الأول والثانى وبذلك يقطعــون خط إمداد الجيشين ويتراجــع خط دفاعنا الجوى إلى الخلف فتحــرم الجيوش التى فى المقــدمة من الحماية وبذلك يتمكنون من الاستيلاء على الإسماعيليــة والسويس وينقــذون سمعتهم أمام العالم . .

ولكن الذى حدث كان عكس هذا ــ فقد أمرت قادة الجيشين الثانى والثالث وخاصة الجيش الثالث بأن لا يسمحوا لقوات إسرائيل بتحقيق أى تقــدم من ناحية الجنــوب ولكن قائد الجيش الثالث أهمــل وبذلك تمكنت قوات إسرائيل من أن تقتحم المنطقــة فتصل إلى مشارف مدينة السويس ولكنهم لم يتمكنوا من دخــول السويس على الإطلاق . . كل الذى استطاعوا تحقيقه هو أنهم فتحــوا ثغــرة بين الجيشين فى الشرق حجمهــا ٦,٥ كيلو مترات وذلك بين خمس فرق مصرية كاملــة بدباباتها وأسلحتها بالكامل فقد أعطيت الأمر بأن لا تنسحب أية بندقية أو فرد من هذه الفرق من الشرق تحت أى ظروف . .

أما فى الغــرب فعندما حاول الإسرائيليــون الاستيلاء على مدينة الإسماعيلية لم يستطيعوا الوصول حتى إلى مشارفهــا . . وكنت قد كلفت ممــدوح سالم وكان فى ذلك الوقت مسئولا عن المجلس الأعلى للدفــاع الشعبى . . فأرسل ١٠٠٠ فرد من قــوات الأمن المركزى وهم مدربون على مستوى عال . . فأتوا بأسلحتهم وعتادهم وكانوا على أتم استعداد ومعهم الجيش والأهالى لإستقبال الإسرائيليين . .

بعد أن خرقت إسرائيل وقف اطلاق النار بنذالة وفشلت فى دخول الإسماعيلية والسويس اتصلت بالقوتين الأعظم روسيا وأمريكا وقلت لهما : « اتفضلوا . . أنا مستعد أقبل نزول قواتكم عندى ــ أى قوات أمريكا وروسيا ــ عشان ترجعوا لى خط ٢٢ أكتوبر أو تتركونى أسترد هذا الخط بشرط أن لا تعتبروا هذا خرقاً لوقف اطلاق النــار » . . وكان حرصى فى هذا هو أن لا تتدخــل أمريكا إلى جانب إسرائيل كما حدث . .

استجاب السوفييت فقامــوا بحشد قوات للإنزال فى البحــر الأبيض . .

أما الأمــريكان فأعلنــوا حالة التعبئة الذرية وقد سببت لهم هذه متاعب كثيرة لأنهم لم يستشيروا حلفاءهم فى حلف الأطلنطى . . وقد كان الرأى العام الأوروبى فى سنة ١٩٧٣ معنا وضد إسرائيل على عكس ما كان الحال عليه فى ١٩٦٧ .

انتهت المسألة بأن الإسرائيليين حينما يئسوا من السويس والإسماعيلية اكتفوا بالوقوف فى الثغــرة . . وبدأت قواتنا فى الغرب تضغط عليهم باستمرار . .

ولن أنسى هنا موقف الضابط قابيل لأنه وقف يناور بفرقة مدرعة واحدة فى مسافة بين السويس والإسماعيلية تحتاج لثلاث فرق من الشمال إلى الجنوب

حتى يثبت الإسرائيليين فى الجيب .. وكان يمكن أن يتغير الموقف لو أننا كنا ننوى خرق اطلاق النار بدلا من الإسرائيليين بحيث ينضم الجيشان اللذان كانا فى الشرق ويضغطان على الثغرة التى تسلل منها الإسرائيليون إلى الغرب وهى ٦,٥ كيلومتر فتنتهى فى الحال . . ولكننا كنا ولا نزال نلتزم بالقواعد الأخلاقية فى الحرب والسلام على السواء . .

ولكن إسرائيل منذ سنة ١٩٤٨ أى منذ قيامها لا تلتزم بأى قانون أخلاقى أو دولى وحاولت أن تضغط علينا نفسياً فشحنت قوات كبيرة جداً من أجل تخويفنا وبقصد المساومة . . أرسلوا ٤٠٠ دبابة داخل الثغرة فى رقعة أرض لا تتحمل أكثر من ٢٠٠ دبابة — وقواتى تحيط بهم من كل جانب فهناك خمس فرق فى الشرق وأربع فرق فى الغرب هذا بخلاف حائط صواريخ كاملة ودباباتى التى تحاصرهم حصاراً تاماً — فقد وصلنى أول إمداد بالدبابات من بومدين وكان عددها ١٥٠ دبابة ثم وصلنى إمداد آخر ١٤٠ دبابة أرسلها الرئيس تيتو بالذخيرة والبنزين بحيث تنزل من السفينة على أرض المعركة مباشرة . . أما الاتحاد السوفيتى فلم يكن بعد قد أرسل الدبابات التى طلبتها ثانى يوم للمعركة . .

وقد جاءنى السفير السوفيتى ذات يوم وقال إن اللجنة المركزية قد قررت إهداء مصر ٢٥٠ دبابة فشكرته وطلبت منه سرعة إرسالها ولكن السوفييت لم يستجيبوا لمطلبى إلى أن تثبت الوضع بالنسبة للثغرة . . مع أن الثغرة لم تكن فى الحقيقة إلا مجرد محاولة لإنقاذ سمعة إسرائيل . .

وقد جاء لزيارتى بعد ذلك الجنرال بوفر وهو رئيس معهد الدراسات الاستراتيجية الفرنسى وقال لى : إن هذه الثغرة لا قيمة لها لأنها ليست إلا معركة تلفزيونية .

١١

طلب كيسنجر أن يزورنى وجاء إلى مصر فى أول زيارة له فى نوفمبر سنة ١٩٧٣ وقال لى : — « أنت أزمت الموقف دولياً وأنا جاى لك عشان كده فما هى طلباتك » .

قلت له : « أنا عاوز خط ٢٢ أكتوبر . . أنا الآن عندى ٨٠٠ دبابة وإسرائيل لها فى الثغرة ٤٠٠ دبابة وأنا عندى صاروخ ونصف لكل دبابة والإسرائيليون محصورون ومدخلهم ٦,٥ كيلو متراً فى شرق القناة وإذا أغلقناه . . فهم مقضى عليهم .. مش عاوزه جدال » .

استمرت الجلسة ٣ ساعات اتفقنا فيها على ست نقاط كان من ضمنها أن تبدأ المحادثات على الكيلو ١٠١ على طريق مصر السويس بين المصريين والإسرائيليين من أجل فصل القوات والعودة إلى خط ٢٢ أكتوبر .

قامت المفاوضات على الكيلو ١٠١ بين المصريين والإسرائيليين تحت علم الأمم المتحدة . . وطالت المفاوضات وانعقد خلالها مؤتمر القمة العربى فى الجزائر وذهبت إلى هناك وعندما وجدت أن المفاوضات لم تصل إلى أية نتيجة طلبت من الجمسى إيقافها وقلت لهم : « أنا غير مستعد للدخول فى مساومات ومهاترات » .

فى ديسمبر سنة ١٩٧٣ كنت مستعداً لتصفية جيب الثغرة فقد بدأت قواتنا حرب الإستنزاف ولم يتوقف ضغطها على الثغرة لحظة واحدة مما جعلنا نكسب أرضا جديدة كل يوم، تارة بالأمتار وتارة بالكيلومترات ولكنا كنا نكسب دائماً . . أنا فعلا كنت على أتم الاستعداد لتصفية الثغرة وخاصة أنه ليست أمامى قناة لعبورها .. ولا خط بارليف للقتال معى ولكن الخطر الذى كان أمامى كان تدخل أمريكا . .

فى ١١ ديسمبر جاء كيسنجر وقلت له « أنا مش مستعد أقبل الأسلوب اللى هم ماشيين به ده وأنا حاصفى الثغرة » .

قال لى : « أنا قبل أن أحضر إليك عارف أنك جاهز . . أنا طلبت صورة الموقف من البنتاجون فأعطونى تقريراً كاملا . . حائط صواريخك يتكون من كذا بطارية دباباتك حول الثغرة ٨٠٠ دبابة . . مدافعك عددها كذا وتستطيع فعلا أن تصفى الثغرة ولكن اعلم أنك إذا فعلت هذا سيضربك البنتاجون » .

قلت له : — « هذا هو السؤال . . ما هو موقف أمريكا ؟ » .

قال لى : — « سيضربك البنتاجون . . سيضربك البنتاجون لسبب واحد . . وهو أن السلاح الروسى قد انتصر على السلاح الأمريكى مرة ولن يسمح له فى الاستراتيجية العالمية بتاعتنا أن ينتصر للمرة الثانية » .

واستأنف كيسنجر حديثه قائلا :— « هل تعرف أنه عندما أزمت أنت الموقف عالمياً وقلت للقوتين تعالوا هاتوا لى خط ٢٢ أكتوبر أو أن تستعيده على شرط ألا يقف البنتاجون ضدك . . تعرف الخطة اللى وضعها البنتاجون فى ذلك الوقت كان شكلها إيه ؟ كنا حننزل فى بلدك سيناء ونخلص عليك إذا الروس نزلوا عندك فى الغرب لأننا كنا عاوزين نوريك إن الروس لا يعتمد عليهم فنضربك ضربه نضرب بها الروس . . نفس الوضع دلوقت . . لو أنت حاولت تصفى الثغرة سيتدخل البنتاجون ويضربك لأن دى سياسة أمريكا المقررة — ثم إن البنتاجون عاوز ينتقم لهزيمة أسلحته اللى حصلت فى أكتوبر » .

قلت له : طيب وما العمل ؟

قال لى : « ادينى فرصة لغاية يناير ١٩٧٤ وأنا بأوعدك أنى أعمل لك فض اشتباك » .

فى هذا اليوم قال لى كيسنجر : « إن جنيف مفروض أن تجتمع فى ديسمبر سنة ١٩٧٣ فهل ستذهب ؟ » .

قلت له : « أنا رايح جنيف » .

غادر كيسنجر مصر يوم ١٢ ديسمبر ١٩٧٣ وكان الألم قد استولى على وصار يحز فى نفسى ساعة بعد ساعة ويوما بعد يوم لا أستطيع منه فكاكاً فالأوضاع من حولى كلها خاطئة . . وأنا غير قادر على أن أصلحها لأنه ليس بيدى إصلاحها فأصبت بنزيف لمدة ٤ أيام واستدعيت الأطباء ليفحصوا البول الذى كان قد صار كتلا من الدم . . قال لى الأطباء إن هذا نزيف بسبب التوتر النفسى ولكن لا خطورة منه وأعطونى بعض الأدوية استمر بعدها يومين ثم انتهى والحمد لله .

فى يوم ٢٤ ديسمبر ١٩٧٣ دعوت قادة الأسلحة وقادة الجيوش وعينت لتصفية الثغرة قائداً هو الجنرال سعد مأمون وهو محافظ القاهرة الآن ثم ناقشنا الخطة على مدى سبع ساعات وصدقت عليها .

فى يوم ٢٥ ديسمبر ١٩٧٣ وهو يوم عيد ميلادى ذهبت كعادتى كل عام لأقضيه فى قريتى ميت أبو الكوم . . وفى يوم ٢٦ سافرت إلى أسوان ثم جاء

كيسنجر فى يناير ١٩٧٤ ووقعنا اتفاق فض الاشتباك الأول — الذى كانت أمريكا تقوم فيه بدور الوسيط بيننا وبين إسرائيل . .

كان همى فى اتفاق أسوان شيء واحد أساسى .

لم أكن أريد أكثر من حجم انتصارى على الأرض لأنى أعلم أن الإسرائيليين مسجونين عندى فى الثغرة وبقاؤهم فى الغرب مقبرة لهم وعلى هذا الأساس بالفعل وهو تحديد حجم انتصارى على الأرض تم الإتفاق بيننا .

كنت فى حالة نفسية مرهقة . . لماذا ؟ لأن جميع القوى تريد أن تجهض انتصارى . . أمريكا تريد أن تجهضه . . والاتحاد السوفيتى يريد أن يجهضه لأن سوريا خرجت مكسورة رغم وجود الخبراء السوفيت ، وأنا خرجت منتصراً مع أنى طردت الخبراء السوفيت . . وطبعاً إسرائيل تريد إجهاض انتصاراتى .

لم تكن محاولات الإجهاض هذه فى حد ذاتها بالشيء الذى يقلقنى . . فقد كنت أنظر إلى انتصارى على أنه الطريق إلى السلام العادل الذى كنت أسعى إليه دائماً . .

الفصل العاشر

١

الطريق إلى السلام

من أسعد لحظات حياتى فى الفترة الأخيرة تلك الساعات التى أقضيها فى كشك صغير عادى على حافة قناة السويس ، أرقب المشروعات والإنشاءات الجديدة . .

وفى كل مرة أزور فيها مدن القناة يمثل أمام عينى يوم ٥ يونيو ١٩٧٥ ، عندما وصلت إلى بورسعيد ومن مكان الطائرة الهليكوبتر أخذت السيارة وتوجهت لكى أفتح قناة السويس بعد أن ظلت مغلقة لثمان سنوات كاملة ، لن أنسى أبداً ذلك اليوم ، كانت الفرحة التى تشع من عيون كل رجل وامرأة وطفل شيئاً جميلا حقاً . . لقد عادوا إلى وطنهم أخيراً بعد سنوات بأكملها من التشريد والنفى والضياع . .

لا يستطيع أحد أن يقدر هذه الفرحة وأثرها على النفس مثل من اقتلعت جذوره فعانى من إبعاده بالقهر ورغم إرادته عن وطنه . . أو عن مدينته أو عن الشارع الذى يقطنه والصحبة التى يجالسها كل يوم . . أو عن أرضه التى يعرفها جيداً ويحبها فهو نبت منها وبدونها لا يكون . .

ونحن فى مصر شعب عمره سبعة آلاف سنة قدم للعالم أول حضارة أهم مقوماتها حب الأرض والإلتصاق بها . . ولذلك لم تكن الفرحة التى رأيتها على وجوه الناس فرحة الإنسان بخير أو مكسب يناله . . كانت فى الواقع أكثر من هذا بكثير وأبعد أثراً . . كانت فرحة يأس طويل تحول فجأة إلى أمل . . نبت ذبل وانثنى فإذا بالحياة فجأة تدب فى أوصاله . . فقد هجر هؤلاء الناس لثمان سنوات كاملة ماتت خلالها أجيال وولدت أجيال . . وتساءلت الناس عبر الزمن متى العودة ؟ !

ولكن السؤال ظل بلا إجابة ولو حتى على الأفق البعيد . . فإذا أخذنا فى الاعتبار أن أهل القناة دون شعب مصر بأجمعه — لهم حياتهم الخاصة التى

تتمثل فى البحر والقناة ، لأدركنا مدى فرحتهم بالعودة . . التى لم تكن مجرد عودة إلى الوطن . . بل إلى الذات نفسها . . فكما أن الأرض تمثل لنا نحن أهل الوادى قمة القدسية والأصالة ، كذلك القناة والبحر بالنسبة لهم . . فالقناة هى التى شكلت نمط حياتهم وبالتالى شكلت وجدانهم جيلا بعد جيل حتى أصبحت هذا الوجدان نفسه . .

فى ذلك اليوم ٥ يونيو ١٩٧٥ الذى ما زال قريباً من قلبى كل القرب لن أنسى أبداً هذا المنظر الذى هز كيانى هزاً . .

السيارة متجهة إلى مبنى هيئة القناة ، وفجأة يعترض الطريق أحد الرجال ويشير إليها بالتوقف . . كان شيخاً طويل القامة شعره الأبيض يتدلى على كتفيه مهيب المنظر حاد النظرات رغم شيخوخته . . حاول الحراس إبعاده فقلت لهم اتركوه . . وأمرت السائق بالتوقف . . نظر إلى الرجل نظرة طويلة ثم ركع على الأرض أمام السيارة ساجداً لله يشكره . . ثم قام وأشار إلى الموكب باستكمال المسيرة ، وفى ومضة عين اختفى بين الجماهير المحتشدة . .

لم يستغرق كل هذا أكثر من لحظة زمن . . ولكن وراء هذه اللحظة كانت تكمن أيام وأعوام من اليأس والعذاب . . ورغم قصر هذه اللحظة نفسها فقد كانت كل شئ بالنسبة لهذا الشيخ . . فقد امتد به العمر ليرى بعينيه وطنه وقد عاد إليه . . ربما لن يعيش به طويلا لكنه سيدفن فى ترابه . . من هنا كان الإحساس بالطمأنينة والأمان والسلام . . مما جعله يسجد لله امتناناً لأنه عز وجل قد بدد الظلمات بنور لم يكن فى الحسبان . .

٢

تركت الشيخ المهيب الوقور خلفى وذهبت لحضور مراسم إفتتاح القناة وصورته ما زالت ماثلة أمام عينى تهز وجدانى هزاً . . وبمجرد وصولى تقدمت إلىّ القوات المسلحة بوثيقة تسليم القناة من القوات المسلحة إلى الإدارة المدنية لهيئة القناة — وقعتها ثم ركبت المدمرة ٦ أكتوبر وفتحت القناة :

كان العالم كله يقف إلى جانبى فى ذلك اليوم — نفس العالم الذى كان يردد

قبل ذلك بشهور قليلة أن القناة قد فقدت قيمتها بينما كانت إسرائيل لا تكف عن القول بأن إعادة فتح القناة أمر مرهون بإرادتها وحدها . .

ولكن لا شىء مثل الواقع فهو الذى يدحض كل افتراء وهو الذى يجعل الناس تتحول من حال إلى حال . . فى ٥ يونيو ١٩٧٥ كان العالم ممثلا فى الوفود التى تدفقت على القناة يحتفل معى وكأنه يعلن أن يوم ٥ يونيو لم يعد يوم أحزان بالنسبة لمصر وللعرب بل يوم أفراح لنا وللعالم بأجمعه — فهو يوم الافتتاح الثانى لقناة السويس بعد أكثر من مائة سنة . .

قبل الافتتاح بشهرين كانت إسرائيل قد رفضت جهود أمريكا بل وأهانت وزير خارجيتها كيسنجر وهو يتفاوض من أجل فك الاشتباك الثانى . . ورغم أن أمريكا هى شريان الحياة بالنسبة لإسرائيل فقد كان وضع الرئيس فورد فى نظرهم ضعيفاً لأنه لم يكن رئيساً منتخباً ثم إن أمريكا مشغولة بفضيحة ووترجيت . . فلم لا تستغل إسرائيل الفرص كعادتها ؟

وكان ردى على كل هذا هو الفعل لا رد الفعل ففتحت القناة رغم أنها كانت تقع فى مدى المدافع الأمريكية الضخمة التى زودت بها إسرائيل وأعدت المهجرين إلى المدن الثلاثة — بورسعيد والإسماعيلية والسويس — كانوا حوالى ٧٠٠ ألف إنسان كادوا أن يفقدوا آدميتهم أثناء الهجرة ليس فقط للوضع الكئيب الذى كانوا يعيشون فيه بسبب ازدحام الوادى بل لسبب أهم من هذا بكثير فقد كانوا يعيشون بلا أمل . . والأمل أهم مقومات الحياة وبدونه لا يمكن للإنسان أن يكون . .

كنت أعرف وأنا أفتح القناة أن مدافع الإسرائيليين تقع فى مداها هى والمدن الثلاثة — ولذلك أعلنت للعالم أن المدن الثلاثة والقناة قد أصبحت فى عمق الجمهورية وأن العدوان عليها من جانب إسرائيل يعتبر عدواناً على العمق ولابد لى فى تلك الحالة من الرد فى عمق إسرائيل . .

كانت هذه عملية مقامرة منى دون شك . . فقد كان فى الإمكان ألا تنصاع إسرائيل بعد ذلك بشهور وتقبل فض الاشتباك الثانى الذى خرجت به من مدى القناة ومدنها — ولكنى خاطرت من أجل السلام وكل شىء جائز . . المقامرة والصعاب بل والأخطار التى يمكن أن يتعرض لها الإنسان فى سبيل السلام .

بعد سنتين من حرب أكتوبر كان للإسرائيليين ٣٩ جثة من أبنائهم عندى . . على طريقة اليهود كل شىء له ثمن ، فأخذوا يتفاوضون مع رجالى على الثمن الذى يستردون به موتاهم . . قلت لهم : « إن هذا عمل إنسانى لا نتقاضى عليه ثمناً تعالوا خذوا قتلاكم » . . وبكل تكريم عسكرى سلمتهم الجثث التسعة والثلاثين بلا مقابل . . وأقيمت لبعضهم جنازات رسمية لأنهم كانوا من كبار الضباط . .

وفى عام ١٩٧٧ ونحن نعمق مجرى القناة ظهرت ١٩ جثة أخرى للمقاتلين الإسرائيليين سلمتها على الفور لإسرائيل بكل حفاوة وتكريم . .

لماذا فعلت هذا ؟ من أجل السلام . . فإنى أومن أنه فى سبيل السلام يمكن بل يجب أن يفعل الإنسان أى شىء لأنه لا شىء فى الدنيا يساوى السلام . .

٣

كان لأمريكا دور فعال فى إعادة فتح القناة — فقد كانت تقف معى بوجهها الصحيح وليس بوجه رجل البوليس الذى يفرض نفسه فرضاً . . ذلك الوجه الذى شوهته حرب فيتنام . . فى عام ١٩٧٤ عندما قلت إننى سأفتح القناة وبدأنا العمليات بالفعل كانت المعدات الوحيدة التى تصلح لمثل هذا الأمر لا توجد إلا فى البحرية الأمريكية وليس حتى فى الشركات الأمريكية ذات الميزانيات والإمكانات الفنية العملاقة . . قلت هذا لكيسنجر وكان فى زيارة لمصر عقب فض الاشتباك الأول — كان رده بسيطاً . . قال :

— هل أفهم من هذا أنك تطلب مساعدتنا ؟

قلت : نعم .

قال لى : أعطنى ساعة زمن . .

فى هذه الساعة كما علمت اتصل كيسنجر بالبيت الأبيض والبنتاجون ثم عاد وقال :

— هل تقبل أن تدخل بورسعيد حاملة الطائرات الهليكوبتر « أيوجيما » — وهى من قطع الأسطول السادس وعليها الهليكوبترات ومعدات التطهير لكى تبدأ فى مساعدتك ؟

إلى هذا التاريخ كان المفروض أننا كنا وعلى مدى ثمانية عشر سنة فى مواجهة مع أمريكا . . ولكنى قلت له : — نعم .

اتصل كيسنجر مرة أخرى بالبيت الأبيض والبنتاجون وعاد ليقول لى : — « بعد غد ستدخل (أيوجيما) ميناء بورسعيد لتتعاون معكم وتطهر القناة تحت قيادة البحرية المصرية » .

بعض ضباط حاملة الطائرات وبعض الدبلوماسيين فى سفارة أمريكا بالقاهرة أشفقوا من دخول (أيوجيما) فقد خشوا أن تطلق المدفعية المصرية التى تحمى السواحل نيرانها على الحاملة ، ولكننى طمأنتهم وقلت إن شيئاً من هذا لن يحدث فقد أصدرت أوامرى إلى بحريتى .

فى الميعاد المحدد دخلت (أيوجيما) على استحياء ميناء بورسعيد وهى تتلمس خطاها فى كل مرحلة ، ولكن فوجىء رجالها بالمقابلة الدافئة من جانب بحريتنا وبدأوا العمل فى الحال .

قد يذهل الشعب الأمريكى عندما يعلم أنى لم أتبادل مع الحكومة الأمريكية أى مستند بشأن اشتراكها فى تطهير القناة — ليس فى ذلك الوقت ، بل وإلى اليوم . . ومن هنا أتوجه بالشكر إلى الشعب الأمريكى ، فهذه هى روح الفروسية الأمريكية وهذا هو الوجه الحقيقى لأمريكا . . فالقناة ليست لمصر فقط . . بل من أجل رخاء العالم كله . . وأمريكا بإمكانياتها العملاقة المفروض بل والمتوقع منها أن تقف إلى جانب كل من يحتاج إلى معونة من أجل حياة أفضل له وللعالم كله .

هكذا كانت صورة أمريكا ومازالت عندى وعند شعبنا المصرى العريق . . الذى دأب عبر تاريخ البشرية على احترام القيم الإنسانية والحفاظ عليها .

وقد أثبتت القناة بعد افتتاحها أنها Lucky Strike .

٤

لكفاحى من أجل السلام قصة طويلة تعود إلى تاريخ انتخابى رئيساً لجمهورية مصر فى ١٥ أكتوبر سنة ١٩٧٠ ، وبدء ولايتى الأولى فى ١٦ أكتوبر . . فيوم أن توفى عبد الناصر كانت علاقتنا الدبلوماسية مع أمريكا مقطوعة جاء للعزاء فيه السفير ريتشاردسون على رأس وفد أمريكى وللأسف التقيت به فى ظروف

مؤلمة . . ذلك أنه فى يوم الجنازة ونتيجة للإرهاق الشديد وقعت مغشياً على فأخذونى إلى أقرب مكان فى مجلس قيادة الثورة حيث أعطانى الأطباء خمس حقن أفقت بعدها بساعات ، وكان أول من وقع عليه نظرى ريتشاردسون الذى قدموه لى على أنه وزير من الحكومة الأمريكية جاء ليقدم العزاء فشكرته وأنا فى الفراش ثم ضربت له موعداً بعد ذلك فجاء ومعه اثنان من خبراء الشرق الأوسط وأجرينا حديثاً طويلا .

كانت مبادرة روجرز قائمة فى تلك الأيام فقلت لهم : — « اعلموا رعاكم الله وانقلوا ما أقول إلى الرئيس الأمريكى . . لقد كنت ضد مبادرة روجرز وبالفعل رفضتها ولكنى وافقت عليها بعد أن عاد عبد الناصر من الاتحاد السوفيتى وشرح لى الظروف هناك فكل ما أريده هو السلام— دعونا إذن نعمل من أجل السلام معاً . . أنا اليوم ملتزم بمبادرة روجرز ولكنى لا أرضى لأمريكا أن تنقاد لإسرائيل فى دعواها أن مصر قد نقضت المبادرة بتحريك الصواريخ فى الضفة الغربية للقناة . . ومع ذلك فالضفة الغربية والضفة الشرقية للقناة هى أرضى . . مرة أخرى أدعوكم للعمل من أجل السلام . . وأنا مستعد للذهاب إلى أقصى مدى فى سبيل ذلك » .

عاد ريتشاردسون إلى بلاده وقدم تقريراً إلى وزارة الخارجية الأمريكية يقول إن السادات لن يبقى فى الحكم أكثر من أربعة أو ستة أسابيع وبعد ذلك لا يعلم مستقبل مصر إلا الله . . وأكدت المخابرات البريطانية نفس الشىء . . وبناء على هذا اتخذوا قراراً فيما بينهم أن ينتظروا حتى يروا مصيرى . . لم أعلم بهذا الموضوع إلا متأخراً وكثيراً ما أتندر به اليوم مع المسئولين فى أمريكا .

وفى نوفمبر ١٩٧٠ انتهت التسعون يوماً التى تنص عليها مبادرة روجرز فجمعت مجلس الأمن القومى وقلت لهم إننا بحاجة إلى تسعين يوماً أخرى ولكنها سوف تكون الأخيرة . . فالمبادرة كانت تنص على وقف إطلاق النار لمدة ٩٠ يوماً ، يعمل فى خلالها يارنج مبعوث السكرتير العام للأمم المتحدة بيننا وبين إسرائيل لتنفيذ البند الثانى من المبادرة وهو انسحاب إسرائيل . . بحيث يتم فى خلال التسعين يوماً الإتفاق على الإنسحاب — وهذا ما لم تكن إسرائيل تريده .

تقدم وزير خارجيتنا إلى مجلس الأمن باقتراحنا وفعلا تجددت مبادرة روجرز ولكن انقضى نوفبر وديسمبر ويناير ولم يحدث شيء ، فإسرائيل تدعى أن مصر قد خرقت المبادرة وتسايرها فى دعواها أمريكا ، تحركها العناصر الصهيونية القوية فيها . . وكل ذلك بهدف نسف المبادرة من أساسها بل ونسف روجرز نفسه كما حدث بعد ذلك .

وفى ٢٤ ديسمبر سنة ١٩٧٠ أى بعد انتخابى رئيساً بشهرين فوجئت بالدكتور محمود فوزى وكان فى ذلك الوقت رئيساً للوزراء ، يحيل إلى خطاباً من الرئيس نيكسون يشكر مصر لأنها أوفدت الدكتور فوزى يمثلنا فى جنازة أيزنهاور . . مباشرة استدعيت القائم على رعاية المصالح الأمريكية عندنا وأطلعته على خطـاب نيكسون وقلت له :— « لقد استدعيتك لأحملك الرد إلى الرئيس الأمريكى وهذا هو نص الرسالة :—

أولا : لقد أرسلت لكم مع ريتشاردسون الذى جاء للعزاء فى عبد الناصر ولكنكم لم تردوا علينا . . مبادرة روجرز انسقتم فيها وراء دعوى إسرائيل أن مصر قد نقضت المبادرة وأنتم تعلمون جيداً أن الأرض شرق القناة وغربها مصرية.

ثانياً : بمجرد أنكم أرسلتم خطاباً لرئيس وزرائنا . . تعبرون فيه عن شكركم وتطلبون فيه إبلاغى بهذا الشكر . . ها أنا أكتب إليكم لأؤكد رسالتى التى بعثت بها مع ريتشاردسون ولأقـول لكم إذا كنتم تعتقدون أننا فى منطقة النفوذ السوفييتى فأنتم مخطئون . . نحن لسنا فى منطقة نفوذ سوفيتية ولن نكون فى منطقة نفوذ أحد أبـداً . . وأرجو أيضاً أن تعلموا أنه ليس لمصر ولى أمر — فإذا شئتم أن تتحدثوا عن أى شيء خاص بمصر فالمكان هنا فى القاهرة ومعى . . لا مع أية جهة أخرى (وبهذه الجهة الأخرى كنت أعنى بصراحة كما أفهمت المشرف على رعاية المصالح الأمريكية السوفييت الذين أرادوا أن يتولوا أمرنا وكان عبد الناصر قد أعطاهم هذا الحق فى مرحلة من المراحل) وأرجو أيضاً أن تعلموا أن قرارنا بيدنا وحدنا فنحن أحرار ومستقلون فإذا اقتربتم منا خطوة سنقترب منكم عشرة خطوات وإذا ابتعدتم خطوة سنبتعد عشرة . . وكما أن فى القوانين الطبيعية لكل فعل رد فعل كذلك شأننا معكم فكل فعل طيب من جانبكم سوف تكون له عشرة ردود أفعال طيبة من جانبنا والعكس صحيح .

كان هـذا أول اتصال لى بأمريكا بعد أن توليت وبعد الرسالة التى حملتها لريتشاردسون ولم يكن لها أى صدى عندهم . . وجاء رد نيكسون على الفور وتعجبت للسرعة فقد كنت إذا كتبت للسوفييت عن أى شيء لا يصلنى الرد إلا بعد أربعة شهور على الأقل وبعد أن استدعى السفير السوفييتى عشرات المرات وأطلب منه استعجال الأمور .

فى ٤٨ ساعة جاءنى الرد موقعاً عليه من نيكسون وكانت رسالة رقيقة يشكرنى فيها الرئيس الأمريكى ويقول إنه لا يطلب صداقتنا على حساب أحد (وكنت قد حذرته فى رسالتى من هذا) فهم يعلمون فى أمريكا أننى رجل مستقل الإرادة وأن لمصر وحدها الحق فى أن تتكلم عن نفسها .

كان هذا فى ٢٦ ديسمبر سنة ١٩٧٠ وانقضى ديسمبر وبعده يناير سنة ١٩٧١ وكانت التسعون يوماً الثانية لمبادرة روجرز تنتهى فى ٤ فبراير سنة ١٩٧١ فقررت أن أفعل شيئاً قبل هذا التاريخ . . كان من الواضح أن أمريكا مازالت تسير فى خط إسرائيل منقادة للدعاية الصهيونية وأن أمريكا لظروف خاصة بها كانت تعطى إسرائيل أولوية حتى على مصالحها هى منذ حكومة جونسون . . ورغم رسالة نيكسون لى فقد كنت أدرك أنه ليس من السهل بعد ١٨ سنة مواجهة مع أمريكا والصورة التى صورها لنا السوفييت فى نظر الأمريكان أن تمد أمريكا يدها لنا أو أن تقوم بأى إجراء يعيد السلام إلى المنطقة وخاصة بعد أن استقر فى أذهان المسئولين هناك ما جـاء فى تقرير المخابرات من أننى لن أبقى فى رئاسة الجمهورية أكثر من أربعة أو ستة أسابيع . . صحيح أنه كان قد مضى على ولايتى أكثر من أربعة شهور فى فبراير سنة ١٩٧١ ولكن الشك كان مازال يخامرهم . . هل أبقى أو لا أبقى ؟ هل أنا قادر على أن أفعل شيئاً أو غير قادر ؟

إزاء كل هذا كان لابد من إنهاء مبادرة روجرز ولكن فى نفس الوقت كان لابد لى من أن أفعل شيئاً بناء يثبت لأمريكا ونيكسون والعالم كله حسن مقاصدى فأنا أريد السلام ومستعد له وفى يدى أن أتخذ قراراً فى هذا الشأن . . هكذا فكرت ولم أطلع أحداً على تفكيرى إلا الدكتور محمود فوزى رئيس الوزراء فى ذلك الوقت فاستدعيته وقلت له لقد قررت أن أتقدم بمبادرة سلام كالتالى :—

أولا : تنسحب إسرائيل من شاطىء القناة الشرقى إلى المضايق فى فترة ستة شهور يأتى خلالها يارنج لكى يتفق معنا ومع إسرائيل على مراحل الإنسحاب . . وبمجرد انسحاب إسرائيل إلى المضايق تعبر القوات المصرية إلى الضفة الشرقية .

ثانياً : بعد أن يتم الإنسحاب إلى المضايق تعيد مصر علاقتها مع أمريكا فوراً فباعتبارها طرفاً أساسياً فى المشكلة لابد أن تحضر معنا كل مراحل التسوية .

ثالثاً : إن مصر مستعدة لإبرام اتفاق سلام مع إسرائيل تنتهى بموجبه حالة الحرب القائمة بين العرب وإسرائيل إلى هذا اليوم ومنذ قيام إسرائيل سنة ١٩٤٨ مع إعطاء إسرائيل كافة الضمانات التى ترغب فيها وتنتهى بذلك أخطر مشكلة يعيشها العالم لاحتكاك مصالح الدولتين الأعظم بها .

سعد الدكتور فوزى جداً بهذه المبادرة وقال إنها ستحرك الموقف أمام العالم كله وتثبت أن مصر ترغب فعلا فى السلام .

وفى يوم ٤ فبراير سنة ١٩٧١ ذهبت إلى مجلس الشعب وألقيت خطابى وأعلنت المبادرة وكما توقعت كان استعدادى لإبرام اتفاقية سلام مع إسرائيل مفاجأة مذهلة للعالم كله . . فهذا ما لم يجرؤ قائد أو زعيم عربى أن يقوله منذ أن قامت إسرائيل عام ١٩٤٨ . . ولكننى كنت أعنى ما أقول لأننى فعلا راغب فى السلام . .

دخلت بعد إعلان المبادرة إلى صالون رئيس الجمهورية بمجلس الشعب فوجدت تجهماً غريباً على وجوه المسئولين من الوزراء وغيرهم من أصحاب مراكز القوى فى ذلك الوقت وهم الذين كانوا يشكلون القيادة السياسية التى تركها لى عبد الناصر . . كانت المبادرة تتعارض طبعاً مع أهدافهم التى رسمها لهم السوفييت كما اتضح لى بعد ذلك . على أى حال لم يرق لى تجهمهم هذا فقلت فى نفسى هؤلاء لا فائدة منهم ولن ألتقى بهم فى اجتماع آخر .

أما الشعب فقد كان استقباله للمبادرة على طرف نقيض تماماً من استقبال القيادة السياسية المصرية فى ذلك الوقت مضافاً إليهم بعض الوزراء .. ففى أقل من ٢٤ ساعة كان الشعب المصرى يهلل لهذه المبادرة من جانبى ويرحب بها كل الترحيب . . وهنا يجب أن أسجل أن حس الشعب أوعى بكثير وسابق عن كل مسئول عمل معى حتى هذه اللحظة وهو ما أعتز به .

أمور كثيرة لا يفهمها أغلب من يعملون معى يلتقطها الشعب من الدقيقة الأولى ويدركها إدراكاً كاملا .

فى خطاب إعلانى لمبادرة السلام يوم ٤ فبراير سنة ١٩٧١ أمام البرلمان قلت إن التسعين يوماً تنتهى اليوم وبهذا تسقط مبادرة روجرز ولكن ها هى مبادرتى أعلنها وأضعها أمام أنظار العالم كله . . فيا عالم تحمل مسئولياتك وأنت أيضاً يا مجلس الأمن . . ويا أمريكا ويا سوفييت تحملوا مسئوليتكم جميعاً — إننى أعطيكم مهلة إلى مارس سنة ١٩٧١ . . ولكن بعد هذا التاريخ لن أكون مقيداً بمبادرة ولا أى شىء .

رحب روجرز بالمبادرة وذهل العالم كله ووجدت إسرائيل نفسها فى مأزق يصعب الخروج منه فها هو أول رئيس عربى يعلن أنه على استعداد لإبرام اتفاقية سلام مع إسرائيل . . شىء لم يكن فى الإمكان توقعه أو التنبؤ به أو حتى الحلم به .

وفى مصر لم تقم مظاهرات ولم يرتفع صوت بالإحتجاج أو الرفض أو التبرم — على العكس سعادة تامة تسود الناس فى كل مكان وفهم وإدراك واع وحصيف من الشعب كله .

لو أن هذه المبادرة وجدت العناية الكافية من أمريكا لما قامت حرب أكتوبر ولبدأنا السلام فى فبراير ومارس ١٩٧١ .

٥

وضح لأمريكا أننى أتكلم من مركز قوة وأن شعبى كله ورائى وأننى قادر على ما لم يجرؤ أى زعيم فى العالم العربى أن يقوله أو يفعله طوال اثنين وعشرين عاماً . . ولكن رغم هذا كله لم تفعل أمريكا شيئاً ولم تغير موقفها واستمر الوضع على هذا الحال إلى أن جاء مايو فاتصل بى روجرز وجاء لزيارتى فى ٤ مايو . . كان سعيداً جداً بمبادرة السلام التى قمت بها . . قال لى .

— أتعرف أنك أوجدت لنا حلا للمشكلة ؟

سألته : كيف ؟

فروى لى أن جولدا مائير طلبت السفير الأمريكى فى تل أبيب وقالت له : « اكتب لروجرز ولنيكسون وقل لهما إننى أنا جولدا مائير رئيسة وزراء إسرائيل أتحدى أى زعيم عربى أن يقول إنه على استعداد لإبرام اتفاق سلام مع إسرائيل فإذا حدث هذا — قل لهما — فسوف أكون على استعداد لكى أضع كل أوراقى على المنضدة » ثم استطرد روجرز يقول لى : لقد وصلتنا هذه الرسالة منذ فترة طويلة ، فإذا بنا نفاجأ بك فى ٤ فبراير سنة ١٩٧١ — ودون أن تعرف ما قالت جولدا مائير — تعلن على العالم أنك على استعداد لإبرام اتفاقية سلام مع إسرائيل أعجبنا بذلك كل الإعجاب ولذلك طلبت زيارتك .. والشىء العجيب أيضاً — استمر روجرز فى حديثه — أنه حسب التقارير التى عندنا كنت أتوقع أنى عندما أصل إلى مصر سوف يقذفنى الناس بالطوب . . ولكن شيئاً من هذا لم يحدث على العكس نزلت الشارع بدون حراسة وعرفنى بعض الناس فحيونى وسلموا على .

قلت له : أنت هنا مع شعب عمره ٧٥٠٠ سنة وقد آن الأوان لكى تعرفوا الشعب المصرى . . على أى حال ماذا تريد منى أن أفعل ؟

قال : أبداً .. لقد قلت كل شىء فى مبادرتك ونحن معك .. سأتوجه من هنا إلى إسرائيل وسأقول لجولدا مائير إن السادات قد قبل التحدى . . حتى دون أن يعلم به . . ولذلك أرجو أن تكونى عند وعدك وتضعى كل أوراقك على المنضدة حتى يتسنى لأمريكا أن تدخل وتحل المشكلة . .

غادر روجرز مصر إلى إسرائيل . . وبعد ذلك بأيام قليلة تخلصت من مراكز القوى الذين كانوا أغلبية فى القيادة السياسية المصرية وكانوا يستندون على الاتحاد السوفيتى وينفذون تعليماته فجاءنى (بودجورنى) يلهث فزعاً وطلب أن تعقد مصر معاهدة مع السوفييت . . وزاد الطين بلة أن كاريكاتيرات الصحف الغربية تعليقاً على زيارة بودجورنى وعقد المعاهدة المصرية السوفيتية أظهرت بودجورنى يستعرض طابوراً يلبس ملابس السجن المخططة وعلقت أن بودجورنى القائد يستعرض طابور الأصدقاء فى السجن . .

وبرغم كل ذلك وبرغم أن بودجورنى قرر أن رسالتى لهم بشأن تصفية الصراع قد وصلتهم فإننى وافقت على إبرام المعاهدة المصرية السوفيتية

فى مايو سنة ١٩٧١ وسافر بودجورنى سعيداً . . ولم تستمر هذه المعاهدة إلا خمس سنوات فقط بدلا من خمس عشرة سنة هى مدة المعاهدة وقد أنهاها البرلمان المصرى .

ولهذه المعاهدة قصة . .

فبعد هزيمتنا فى يونيو ١٩٦٧ ووضوح دور جونسون رئيس أمريكا فى ذلك الوقت فى خداعنا لحساب إسرائيل عندما اتفق مع عبد الناصر بعد إغلاق خليج العقبة فى مايو ١٩٦٧ فى وجه الملاحة الإسرائيلية على أن يرسل نائبه همفرى إلى القاهرة أو يرسل عبد الناصر أحد نوابه إلى واشنطن فبادر عبد الناصر بإخطار جونسون أنه سيرسل له أحد نوابه إلى واشنطن لحل مشكلة مضايق العقبة وكانت المشكلة قد شدت انتباه العالم كله وكل يوم تتطور إلى الأسوأ واتفق رسمياً بين عبد الناصر وجونسون أن يتوجه أحد نواب الرئيس المصريين لمقابلة جونسون يوم الأربعاء ٧ يونيو ١٩٦٧ فى واشنطون وفى نفس الوقت كان جونسون يستحث الإسرائيليين على المبادرة بالهجوم على سيناء بعد أن قدم لهم صور القمر الصناعى الأمريكى عن أوضاع القوات المصرية فى سيناء ساعة بساعة بل وطلب من الإسرائيليين سرعة بدء الهجوم قبل وصول نائب رئيس الجمهورية المصرى إلى واشنطن فى ٧ يونيو ١٩٦٧ وخاصة عندما عرض الإسرائيليون خطتهم عليه فى مكتبه بالبيت الأبيض بحضور رئيس الـ C.I.A. وأحد القادة الكبار من البنتاجون . .

وقد نفذت إسرائيل فعلا كلام جونسون وهجمت يوم ٥ يونيو ١٩٦٧ أى قبل وصول نائب الرئيس المصرى بيومين وطبعاً لم تتم هذه الزيارة .. لم يكتف جونسون بهذه الخديعة لحساب إسرائيل بل إنه استخدم أيضاً الخط الساخن مع القادة السوفييت وأكد لهم أن إسرائيل لن تبدأ بالهجوم وأن عليهم أن يخطروا عبد الناصر بذلك وقد استجاب السوفييت لهذه الخديعة أو اشتركوا فيها لا أستطيع أن أجزم ولكن ما حدث هو أن بادر السوفييت عقب اتصال جونسون بهم إلى الاتصال بعبد الناصر وأيقظوه فى الفجر ليبلغوه على لسان سفيرهم فى القاهرة رسالة جونسون وتأكيدهم وتأييدهم لها . .

أعود إلى القصة فإنه بعد وضوح دور جونسون لنا بعد هزيمتنا فى ١٩٦٧ لم يكن أمامنا إلا أن نلجأ إلى الاتحاد السوفييتى لبيع أسلحة لنا نستعوض بها ما فقدناه وكان ما فقدناه أكثر من ٨٥٪ من أسلحتنا . .

وكان طبيعياً أيضاً أن نحافظ على صداقتنا مع الاتحاد السوفييتى بأى ثمن .

وهناك حقيقة معروفة عن الروسى سواء كان فى عهد القياصرة أو بعد ذلك تحت الحكم الماركسى ذلك أن الشك طبيعة ثانية فيه SECOND NATURE وقد زاد هذا الشك تحت الحكم الماركسى بفعل طبيعة النظام وحصار العالم لروسيا بعد قيام ثورة ١٩١٧ البلشفية ووقوع الحرب الأهلية والإجراءات الصارمة والشك المسبق فى كل إنسان إلى أن يثبت العكس .. لذلك حرصنا للابقاء على صداقتنا مع الاتحاد السوفييتى ومحو شكوكه الرهيبة بعدة أمور . . كان أولها أن طلبنا إلى السوفييت أن يتولوا عن مصر مع الولايات المتحدة كل ما يخص قضية الصراع العربى الإسرائيلى بعد أن لمسنا شكوكهم من أى اتصال أمريكى بنا . . بل ووصلت الأمور إلى الحد الذى طلبنا إليهم تعيين قائد سوفييتى للدفاع الجوى المصرى وقائد لسلاح الطيران المصرى أيضاً أمام عربدة إسرائيل الجوية فى أجوائنا ولكنهم رفضوا المطلبين لحسن حظنا . .

وكان قمة ما أردنا أن نطمئنهم به هو أن نطلب إليهم عقد معاهدة معنا تريحهم وتزيل شكوكهم (التى كنا نعجب لها) وتضمن لنا إمدادات الأسلحة التى نحن فى أشد الحاجة إليها برغم أنها كانت باستمرار متخلفة عما تأخذه إسرائيل من أمريكا . .

عرض عبد الناصر عليهم عقد المعاهدة مرتين ، وسافرت أنا بتكليف من عبد الناصر إلى موسكو وطلبت أيضاً مرتين عقد هذه المعاهدة وكان الرد من جانب السوفييت لعبد الناصر ولى هو الرفض . . لعلهم كانوا ولا يزالون لا يثقون فينا وكانوا يخافون أن نورطهم بمثل هذه المعاهدة إلى ما لا يريدون .

وذهب عبد الناصر إلى آخر الشوط قبل أن يموت بشهرين وهو فى موسكو حين طلب إليهم أن يعقدوا معنا حلفاً PACT إذا كانوا يشعرون أن فى ذلك مدعاة لراحة شكوكهم . . ورفضوا . . فما كان من عبد الناصر إلا أن أعلنهم فى هذه الجلسة وعلى مائدة الكرملين بقبوله مبادرة روجرز برغم انفعال

وغضب بريجنيف الذى قال لعبد الناصر فى انفعال إنك بهذا تقبل حلا أمريكياً فرد عليه عبد الناصر إننى أقبل أى شىء مادام هذا هو أسلوبكم معى . لقد كان تعليق عبد الناصر لى يوم وصوله إلى القاهرة من هذه الرحلة الأخيرة فى حياته إلى موسكو كلمتين قالهما لى بالإنجليزية . لقد قال لى وأنا أسأله فى طريقنا إلى منزله من المطار عما تم فى موسكو فلم يزد عن « السوفييت Hopeless Case » أى حالة ميئوس منها .

لذلك استغربت أن يأتينى بودجورنى رئيس الاتحاد السوفييتى إلى القاهرة فى أواخر مايو ١٩٧١ بعد زيارة روجرز لى فى نفس الشهر وبعد أن صفيت عملاءهم فى القيادة المصرية ، أقول استغربت أن يأتى بودجورنى ملهوفاً على عقد معاهدة فوراً معنا . . وقلت له فى الحال أنا لا مانع عندى وقد طلبها منكم عبد الناصر مرتين فرفضتم وعرض عليكم أيضاً حلفاً PACT فى زيارته الأخيرة لكم فرفضتم وطلبتها أنا منكم كطلب عبد الناصر مرتين فرفضتم .. لا مانع لدينا ولكننى كصديق أنصحكم أن التوقيت الذى اخترتموه لعقد المعاهدة خاطىء جداً ذلك أن الكل سيعرف أنكم تطلبون المعاهدة بلهفة بعد أن كنتم ترفضونها لأن بعض أفراد من القيادة المصرية ينتظرون المحاكمة وكأنهم كانوا هم الذين تعتمدون عليهم فى علاقاتكم مع مصر وهذا خطأ جسيم سبق أن نبهتكم إليه . . ولهذا التنبيه أيضاً قصة . .

فإننى حينما قررت تصفية عملاء الاتحاد السوفييتى فى القيادة المصرية وقبل أن تتم هذه التصفية بشهر كامل استدعيت السفير السوفييتى فى القاهرة وطلبت منه أن يبلغ القادة السوفييت رسالة عاجلة منى ولو أنها أمر من أمور مصر الداخلية إلا أننى حرصاً على صداقتنا مع السوفييت أريدهم أن يكونوا على علم بها . . هذا الأمر هو أننى قررت تصفية على صبرى وكان عميد عملائهم فى القيادة المصرية لأننى أسمح بالإختلاف فى وجهات النظر فى القيادة السياسية ولكنى أرفض الصراع ولذلك فإننى أريد أن يعرف الأصدقاء السوفييت بذلك قبل أن يقع حتى لا تستيقظ شكوكهم التى أعانى منها وحتى لا تهيج صحف الغرب أعصابهم . .

ولقد حدث هذا فعلا بعد أن أقلت على صبرى فقد خرجت صحف الغرب بالمانشيتات عن تصفية رجل موسكو . .

بدأت صورتى فى نظر أمريكا حتى بعد عقد المعاهدة مع السوفييت تتخذ ألواناً وأبعاداً لم تكن مألوفة لديهم من قبل ساعدتهم على المزيد من التعرف على وفهمى على حقيقتى وهو الأمر الذى لم يحدث بالنسبة لأصدقائنا السوفييت الذين بيننا وبينهم معاهدة .. فهم منذ بدء علاقتنا معهم ومهما اختلفت الظروف يتصرفون معنا بنفس الاسلوب الفج الفظ والذى يبعد كل البعد عن إدراك الحقيقة كما هى . . أو حتى مجرد محاولة الإدراك . .

ولم يمض شهران حتى وقع تطور آخر سبب لى الصداع والصراع مع السوفييت ففى يوليو ١٩٧١ قامت الثورة الشيوعية فى السودان وعندما جاءنى السفير السوفييتى فى القاهرة يطلب منى الاعتراف بالحكم الجديد رفضت وقلت له :

– « أنا لا أسمح بقيام حكم شيوعى على حدودى – هذه نقطة أما النقطة الأخرى التى أرجو أن تنتبهوا لها فهى أنه لن يقوم فى هذه المنطقة حكم شيوعى لأن الدين يجرى فى دمائنا ، فالأفضل لكم أن توقفوا كل نشاط لكم فى هذا المجال حتى تريحوا وتستريحوا » .

انصرف السفير السوفييتى فى حالة غضب وأكد موقفى هذا شكوكهم فى طبعاً . .

نعود إلى موقف أمريكا – غادر روجرز مصر فى أوائل مايو ١٩٧١ إلى إسرائيل ليواجه جولدا مائير ثم انقضى يونيو ١٩٧١ وجاء يوليو ١٩٧١ وأنا خلال تلك الفترة دائم الاستدعاء للقائم على شئون أمريكا أطلب منه أن يكتب إلى روجرز ليخبرنى بما حدث مع إسرائيل . . ولكن دون جدوى تماماً كما يفعل السوفييت معى . . إسرائيل مستمرة فى غرورها وأمريكا متحفظة لا تتكلم ولا تتخذ أى موقف . . إلى أن جاء ٦ يوليو ١٩٧١ فإذا بأحد رجال وزارة الخارجية الأمريكية يأتى من واشنطون يطلب موعداً عاجلا للأهمية – قابلته فى مساء نفس اليوم فقال لى إنه يحمل رسالة من نيكسون وروجرز ولكن عنده بعض الأسئلة يريد منى الإجابة عليها أولا . .

كان السؤال الأول : هل غيرت المعاهدة السوفيتية التى عقدت فى أواخر مايو ١٩٧١ موقفك أو فرضت عليك التزامات تحد من حريتك فى التعامل معنا لإعادة السلام إلى المنطقة ؟

وأجبته : أبداً . . لقد أعلنت أن المعاهدة السوفيتية ليست لها بنود أو ملاحق سرية ولابد أن تتعودوا أنتم وغيركم على أن ما أقوله فى العلن هو نفس ما أقوله فى السر وأن أى التزام التزم به من حق شعبى على أن يعرفه قبل غيره من الناس لأنى غير مستعد لأن أضحك على شعبى فى يوم من الأيام ومهما كانت الظروف ومع ذلك فإن المعاهدة قد أعلنت بنودها رسمياً فى البرلمان عند إقرارها وليس على مصر أى قيود من أى نوع فنحن مصرون على حريتنا واستقلالنا . .

وكان السؤال الثانى : هل ما زلت توافق على مبادرتك التى أعلنتها فى فبراير ١٩٧١ وأخطرت بها روجرز عندما كان فى مصر ؟

قلت له : طبعاً . . ولو حدث أن غيرت أى شىء فلابد أن أعلنه على الناس فوراً . . وأحب أن أنبهكم – وهذه ليست أول مرة – إلى أن كل ما يخص مصر يجب أن تتكلموا معى أنا فى شأنه . . فإذا تكلمتم مع أى شخص آخر ثقوا أننا لن نستمع إليكم . .

قال لى : حسناً . . حسب ما لدى من معلومات أحب أن أقول لك إنه بعدما تلقيت منك هذه الردود فابتداء من منتصف الليلة ٦ – ٧ يوليو ١٩٧١ ، فإن الرئيس الأمريكى سيتدخل بنفسه ليبدأ الحل السلمى . .

قلت له : على خيرة الله . . ما الذى فعله روجرز فى إسرائيل ؟

أجاب : تحدث إليهم ولكن عندهم بعض الشكوك . . على أى حال أنا ليست عندى تعليمات بأن أقول شيئاً فى هذا الشأن .

وانصرف وانتظرت . . مضى نصف الليلة وأنصاف ليال كثيرة وكثيرة جداً بعد ذلك ولكن لا حراك . . العكس حدث . . فقد وقفت جولدا مائير فى الكنيست الإسرائيلى تلقن روجرز درساً عنيفاً . . ومبلغ دراستنا لشخصية مسز مائير أنها مولعة فى حياتها العادية ومع مجلس الوزراء

الإسرائيلي بمعاملة الوزراء كما كانت تعلم الطلبة في فصل المدرسة وهي تدرس للاطفال في ميلووكي . . ويظهر أن كل ذنب روجرز هو أنه طالبها بأن تضع أوراقها على المنضدة كما سبق وأن أخطرته رسمياً عن استعدادها لذلك إذا أعلن أحد زعماء العرب عن قبوله توقيع اتفاقية سلام بينما كان يعلم تمام العلم أنها لم تكن مستعدة لذلك .

وكان لزاماً عليه أيضاً أن يدرك أنها عندما أرسلت التحدى عن طريق السفير الأمريكي في تل أبيب كانت على ثقة من أنه لا يوجد زعيم عربي يمكن أن يدعو إلى اتفاقية سلام مع إسرائيل . . ففيم كثرة الكلام إذن ؟ وإلى أين سوف تؤدى سذاجة روجرز وجهله بحقائق الأمور بأمريكا وإسرائيل على السواء ؟ كان هذا الدرس بمثابة إشارة إلى الدوائر الصهيونية في الولايات المتحدة لكى تقضى على روجرز . .

وبالفعل عندما خرج من منصبه بعد ذلك ظل معزولا عزلا تاماً . .

ومما هو جدير بالذكر هنا أن الرسالة التي وصلتني يوم ٦ يوليو ١٩٧١ على لسان الرئيس الأمريكي ووزير خارجيته روجرز مع دبلوماسي أمريكي كان هو رئيس قسم مصر في وزارة الخارجية لم يكن لدى الرئيس الأمريكي أي علم بها كما عرفت بعد ذلك . . شيء غريب حقاً . . أليس كذلك ؟ !

المهم أنه بعد خطاب جولدا مائير في الكنيست عادت الأحوال بيني وبين أمريكا إلى أسوأ مما كانت عليه . . فقد كان للخطاب أثره في الرأى العام الأمريكي كما أنه أرهب روجرز فتراجع عن كل شيء . .

وليت روجرز اقتصر على التراجع بل إننا نجده في أول يناير سنة ١٩٧٢ يصرح بأن أمريكا قد أعطت إسرائيل معونات جديدة ودخلت معها في عمليات تصنيع ولن تكف عن بذل المعونة لها حتى تظل متفوقة عسكرياً على العرب مجتمعين . .

مسكين . . كان يريد أن يشترى رضاء إسرائيل مرة أخرى بعد الدرس الذى أعطته له جولدا مائير ولكن بلا جدوى .

بعد تصريح روجرز وبعد عدم استطاعتى تحقيق وعدى بأن سنة ١٩٧١ لابد أن تكون سنة الحسم إما سلماً أو حرباً بدأت أعانى الشماتة في العالم الخارجي وفي الداخل من عملاء السوفيت وبعض من ضللتهم الدعاية السوفيتية ومسلك أمريكا معى . . فها هي سنة ١٩٧١ تنقضى دون أى حسم ما . . لقد

تعمد الاتحاد السوفيتي أن يخذلني بعدم إرسال العتاد الذى طلبته وكأنهم في موسكو يريدون أن يقولوا لى أنت لا تستطيع أن تقرر شيئاً بدون إذن السوفييت وقد اعترف بريجنيف بعد ذلك بسنتين للمارشال أحمد إسماعيل عندما زار موسكو في مارس سنة ١٩٧٣ للمصالحة بأنه تعمد عدم إرسال الأسلحة . .

وتستمر سخرية عملاء الاتحاد السوفيتي وعملاء مراكز القوى عندى في مصر من سنة الحسم واضطر إلى أن أكتم آلامى وأخفى جروحي وأذهب إلى مجلس الشعب في فبراير سنة ١٩٧٢ أدافع عن السوفييت رغم أنى مطعون في ظهرى منهم فقد زرت موسكو في سنة واحدة أربع مرات أطلب العتاد وألح في الطلب ولكن عبثاً . . وفي نفس الخطاب أمام مجلس الشعب عمدت إلى مهاجمة أمريكا وروجرز بأعنف ما يمكن للهجوم أن يكون . . وهكذا بدأ فصل جديد من العلاقات السيئة بيني وبين أمريكا . . مواجهة عاتية كاملة . .

طبعاً أصيب الأمريكان بذهول يوم ١٦ يوليو سنة ١٩٧٢ عندما اتخذت قرار الإستغناء عن الخبراء السوفييت ولكنهم حاولوا جهد طاقتهم أن لا يأخذ القرار مكانه في إعلامهم . . فالوفاق بدأ . . وكان نيكسون قد زار موسكو في مايو سنة ١٩٧٢ أى قبل شهرين فقط من قرارى بالاستغناء عن الخبراء السوفييت . . فكأنما كانت مؤامرة صمت . .

ولكن يخطىء من يظن أنى اتخذت قرار طرد الخبراء السوفييت لإرضاء أمريكا أو أية جهة أخرى . . لقد كان قراراً وطنياً سعد به شعب مصر كل السعادة فهو قرارى وقرار شعبي وحده ، وكان هجومي على روجرز وأمريكا لما لقيته من سلوك من جانبهم لا يقل عنفاً عما وجهته للسوفييت وأنا أطرد خبراءهم .

٦

لم يمض وقت طويل بعد ذلك حتى أطيح بروجرز وجاء كيسنجر وزيراً للخارجية — فطلب أن يلتقى بأى رسول أرسله له ولكن سنة ١٩٧٢ كانت سنة انتخابات والحكومة الأمريكية في مثل هذه السنة لا تتقدم ولا تؤخر ثم إن الوفاق بين أمريكا وروسيا كان قد أعلن فلم يتحقق لهذا اللقاء الذى طلبه كيسنجر أن يتم إلا في فبراير سنة ٧٣ .

أرسلت له حافظ إسماعيل مستشار الأمن القومى عندنا فالتقى به فى باريس مرة فى فبراير سنة ١٩٧٣ وأخرى فى أبريل سنة ١٩٧٣ .

كانت حصيلة كلام كيسنجر أن الذى فعله روجرز كان بغير مساندة الرئيس الأمريكى ولذلك لم يتم شىء . ولكن الرئيس الأمريكى الآن مستعد للتعاون من أجل السلام . . قال له حافظ إسماعيل إن مبادرتنا ما زالت قائمة رغم تحدى روجرز وزير الخارجية الأمريكية لنا فى يناير سنة ١٩٧٢ فرد كيسنجر قائلا : —

— قل للرئيس السادات رغم أننى لا أعرفه شخصياً إن تقديرنا له الذى بنى على تقرير مندوب أمريكا فى جنازة عبد الناصر كان خاطئاً . . بل إن الحقائق كلها تشير إلى عكس ما جاء فى هذا التقرير . . فقد رأيناه يتقدم بمبادرة سلام ثم رأيناه وهو يتخذ قرار طرد الخبراء السوفييت . . وهذه مسائل لافتة للنظر : .

« ولكن نصيحتى للسادات أن يكون واقعياً . . فنحن نعيش فى عالم الواقع ولا نستطيع أن نبنى شيئاً على الأمانى والتخيلات . . والواقع أنكم مهزومون فلا تطلبوا ما يطلبه المنتصر . . لابد أن تكون هناك بعض التنازلات من جانبكم حتى تستطيع أمريكا أن تساعدكم . .

« فكيف يتسنى وأنتم فى موقف المهزوم أن تملوا شروطكم على الطرف الآخر . . إما أن تغيروا الواقع الذى تعيشونه فيتغير بالتبعية تناولنا للحل وإما أنكم لا تستطيعون ، وفى هذه الحالة لابد من إيجاد حلول تتناسب مع موقفكم غير الحلول التى تعرضونها وأرجو أن يكون معنى ما أقول واضحاً فلست أدعو السادات إطلاقاً إلى تغيير الوضع العسكرى فلو أنه حاول هذا فسوف تنتصر إسرائيل مرة أخرى بأشد مما انتصرت فى سنة ١٩٦٧ وفى هذه الحالة يصعب علينا أن نفعل أى شىء . . وسوف تكون هذه خسارة كبيرة لمصر وللسادات شخصياً وهو رجل أحب أن أتعامل معه فى يوم ما . . فأنا شديد الإعجاب به لمواقفه وشجاعته الواضحة ولأنه إنسان لأول مرة فى هذه المنطقة يضع كل شىء فى مكانه بأسلوب علمى سليم ويتخذ خطاً جديداً لم يتخذه أى زعيم عربى من قبله . . »

كان هذا كلام كيسنجر فى فبراير وإبريل سنة ١٩٧٣ فقلت فى نفسى لا فائدة ترجى من الأمريكان فقد استولت عليهم إسرائيل وما زالت السياسة التى وضعها جونسون لأمريكا تفضل مصالح إسرائيل على مصالح أمريكا نفسها . وكما يقول رجل الشارع عندنا فى مصر . . إسرائيل هى الحارس الوحيد على مصالح أمريكا فى الشرق الأوسط . . هذا ما جعلت من نفسها . . أو هكذا جعلتها أمريكا . . والنتيجة فى كلا الحالين واحدة وهى أنه لا أمل فى تحقيق السلام عن طريق أمريكا ما دامت إسرائيل لا تريد السلام .

٧

فوجئت أمريكا بحرب أكتوبر سنة ١٩٧٣ وفوجىء كيسنجر وحزن حزناً شديداً على مصيرى كما قال لى فيما بعد — إذ كان الإسرائيليون فى الأيام الثلاثة الأولى للحرب يؤكدون للعالم كله بأنهم يطحنون عظام المصريين والسوريين وأن المسألة كما أعلنت إسرائيل ليست إلا ساعات أو يوم أو يومين ويقضى على المصريين ويدفنون فى القناة . .

واستخدموا أفلام هزيمتنا فى سنة ١٩٦٧ فى كل الإذاعات عندهم وأرسلوها إلى الخارج . . وكأن « البروباجاندا » السوداء ستجعلهم ينتصرون . .

وفى اليوم الرابع للحرب وصلت الخارجية الأمريكية إشارة : « أنقذوا إسرائيل » . . وأن إسرائيل خسرت على الجبهة المصرية ٤٠٠ دبابة مطلوب إرسالها فوراً من أمريكا لإسرائيل . .

ولابد أن كيسنجر أصيب بالذهول حتما حينما أكد البنتاجون بأقماره الصناعية ما أبلغته إسرائيل للخارجية الأمريكية . .

وعلى الفور بدأ كيسنجر — بعد أن أفاق من ذهوله — فى العمل على وقف إطلاق النار على أن تعود القوات إلى المواقع التى بدأت منها القتال يوم ٦ أكتوبر . . طبعاً رفضت . . لقد عبرنا وحققنا المرحلة الأولى بالإستيلاء الكامل على خط بارليف ولم يعد أمامنا إلا المرحلة الثانية وهى الوصول إلى المضايق . .

وساء حال إسرائيل أكثر . . فتقدم كيسنجر بعرض آخر وهو وقف إطلاق النار على الخطوط الحالية ولكن سوريا كانت فى ذلك الوقت قد رجعت عن خط البدء فرفضت هذا أيضاً . . وخاصة عندما قفز إلى ذهنى الموقف فى سنة ١٩٤٨ عندما طلب الإسرائيليون هدنة واستجاب العرب فاسترد اليهود أنفاسهم ثم أجهزوا على كل شىء . . كانت هذه حيلة مماثلة ولا يلدغ المؤمن من جحر مرتين . .

أرسل الاتحاد السوفيتى لى ثلاث طلبات بوقف إطلاق النار ورفضتها جميعاً . . ثم حضر رئيس وزرائهم كوسيجين إلى مصر وبقى عندنا أربعة أيام . . وفى يوم ١٢ أكتوبر أرسل الاتحاد السوفيتى إلى أمريكا يقول إن السادات قد وافق على وقف إطلاق النار . . وأراد كيسنجر أن يستوثق فاتصل برئيس الوزارة البريطانية مستر هيث لكى يتصل بى عن طريق السفير البريطانى فى القاهرة ليسأل عن مدى صحة الرسالة . . وفوجئت بالسفير البريطانى يوقظنى من النوم فجر ١٣ أكتوبر ليبلغنى الرسالة . . قلت له لم يحدث وأرجو أن تبلغ كيسنجر أن لا أحد يتحدث عن مصر إلا أنا فقط . .

طبعاً كانت أمريكا تساند إسرائيل منذ بداية الحرب وقبلها . .

ولكن بعد أن تأزم الموقف تحولت هذه المساندة إلى تدخل واضح وصريح ومباشر..فكانت الدبابات تنزل إلى أرض سيناء فى العريش المصرية عاصمة سيناء وهى التى تقع وراء الجبهة مباشرة وهى محملة بالبنزين والذخيرة فتدخل المعركة مباشرة . . كما كانت ثمة أسلحة أخرى لم تستخدم من قبل سبق أن رويت قصتها .

ووجدتنى فجأة أواجه أمريكا . .

وهذا ما جعلنى أعلن على العالم يوم ١٩ أكتوبر سنة ١٩٧٣ أنى لا أحارب أمريكا . . وبناء عليه فأنا أقبل وقف إطلاق النار وهو ما رفضته أربع مرات على مدى ١٧ يوماً عندما كان خصمى فى المعركة إسرائيل وحدها — لا أمريكا .

وهنا أحب أن أسجل للتاريخ أن الثغرة هى مسئولية أمريكا بل ومسئولية البنتاجون ذاته والمساعدات التى قدمها لإسرائيل والصور الجوية والعتاد

والأسلحة الجديدة التى استخدمت لأول مرة ولم تكن متاحة لأى إنسان خارج أمريكا إلى ذلك التاريخ . .

لم تكن الثغرة فى ذاتها هى التى جعلتنى أقبل وقف إطلاق النار . . الذى دفعنى إلى هذا — كما سبق أن قلت — أننى أصبحت فى حالة مواجهة عسكرية كاملة مع أمريكا وهو ما لا قبل لى أو لأية دولة غير عظمى به .

أما الثغرة نفسها فقد كانت من الناحية العسكرية مجرد عملية تليفزيونية كما أسماها بحق الجنرال بوفر رئيس معهد الدراسات الاستراتيجية الفرنسية ومن الناحية السياسية كان واضحاً أن الهدف منها هو إعطاء إسرائيل نقطة انطلاق تحفظ ما تبقى لها من كرامة فى المفاوضات بينها وبين مصر بعد أن وصلوا على الجبهة المصرية إلى الحضيض BOTTOM كما قالت مسز مائير وقتذاك . . لقد حشدوا قوات كبيرة فى الثغرة فى منطقة صغيرة لا تحتمل هذه القوات وكانوا يأملون أن يخيفنى هذا فأعتقد أن القاهرة مهددة . . طبعاً خاب ظنهم فالحرب النفسية قد تصلح مع غيرى ولكنها لاتصلح أبداً معى لأنى أعرف ما أفعل وأعد لكل خطوة أخطوها عدتها . .

كنت واثقاً كل الثقة من أن عملية الثغرة مغامرة طائشة ساذجة ومكتوب لها الفشل المحقق . . فلو أنى صفيت الثغرة حسب الخطة الموضوعة والتى وقعتها بنفسى كانت إسرائيل ستفقد ٤٠٠ دبابة وعشرة آلاف عسكرى ما بين قتيل وجريح ولم يكن هذا بالأمر الصعب أو المحتمل بل الأكيد . . فى هذه المعركة لم يكن أمامى قناة أعبرها أو خط بارليف أقتحمه . . العدو أمامى وعلى مساحة ضيقة من الأرض ظهره للبحيرة ووراءه على الضفة الشرقية خمس فرق كاملة لى ومدخل الثغرة من الضفة الشرقية فتحة هى ستة كيلو مترات فقط عند نقطة الارتكاز بين الجيشين الثانى والثالث . . كل الحسابات العسكرية كانت تشير إلى أن هذه المعركة لو تمت فستكون مذبحة التاريخ . .

ولكنها لم تتم . . لماذا ؟ لأنها كانت ستعنى المزيد من الدم والكراهية والأحقاد . . وأنا أكره كل هذا . .

بل إننى لأذهب إلى آخر العالم — كما يعرف شعبى وقواتى المسلحة — إذا كان ذلك من شأنه أن أتفادى جرح — ولا أقول قتل — فرد واحد .

٨

كان أول لقـاء لى مع كيسنجر بعد وقف اطلاق النار الذى تم فى الساعة السابعة مساء ٢٢ أكتوبر سنة ١٩٧٣ . . وخـرق إسرائيل لوقف إطلاق النار بعـد ذلك بساعتين فقط . . فقد كانت أمريكا بالتضامن مع روسيا مسئولة عن وقف إطلاق النار فأرسلت إلى القوتين نداء أحملهمـا فيه مسئولية ما فعلت إسرائيل وأعلن أننى رغم التزامى بوقف اطلاق النار إلا أننى أعتبر نفسى فى حل من التزامى فإما أن يعيدا اليهود إلى خط ٢٢ أكتوبر سنة ١٩٧٣ وهو الخط الذى كان قائماً وقت وقف إطلاق النار وتعرفه أمريكا وروسيا بأقمارهما الصناعية ونعرفه نحن وإسرائيل على الأرض . . وإما أن أعيدهم أنا بيدى — كيسنجر أرسل يطلب الحضور إلى مصر فقلت على الرحب . . وأتى . .

كان ذلك فى أواخر أكتوبر سنة ١٩٧٣ واستغرقت الجلسة الأولى ثلاث ساعات..
بعد الساعة الأولى شـعرت أنى أمام عقلية جديدة وأسلوب جـديد فى السياسة وأنى أرى لأول مرة وجه أمـريكا الحقيقى الذى كنت فيما مضى أتمنى أن أراه — لا الوجـه الذى صنعه دالاس ودين راسك وروجرز . . وأعتقـد أنه لو رآنا أحد بعد الساعة الأولى من اجتماعنا بقصر الطاهـرة لاعتقـد أننا أصدقاء منذ سنوات وسنوات .

لم تكن هنـاك أية صعوبة فى التفاهم فاتفقنا على النقاط الستة ومن ضمنها إقـرار أمريكا بخط ٢٢ أكتوبر فى إطار فض الاشتباك .

كان الاتفاق على النقاط الستة بداية قيام علاقة فهم مشترك بيننا وبين أمـريكا تبلورت فيما نسميه بعملية السلام (PEACE PROCESS) التى سارت فيها أمريكا معى وما زالت حتى اليـوم .

نفس هذه البداية اعتبرها السوفييت نهاية للعلاقة بينهم وبيننا — أو هكذا يبدو — على أى الأحوال كان الاتفاق على النقط الستة بينى وبين كيسنجر بمثابة القشة التى قصمت ظهر البعير — كما نقـول فى العربية — بالنسبة للسوفييت ، لقد تحملـوا كارهين قرار طرد الخبراء السوفييت وتصفيتى لمراكز القوى ثم موقفى

من ثورة السودان الشيوعية المجهضة ثم قـرار الحرب وانتصارى فيها رغم تحذيرهم لسوريا بأنى سأغرق فى القناة بعد ساعة وأترك السوريين ليواجهـوا إسرائيل وحـدهم . . فإذا بالأمـور تسير بالعكس فأعبر القناة أخطـر مانع مائى فى التاريخ وأسيطر على خط بارليف فى ساعات وأدخل سيناء . . ولكن حتى فى هـذه المرحلـة المتقدمة لم يكف السوفييت عن طلب وقف إطلاق النار ثلاث مرات والرابعـة حين حضر إلى مصر رئيس وزرائهم كوسيجين — كما سبق أن رويت — ليقنعنى بوقف إطلاق النار وحدثت بيننا مشادة فى منتهى العنف .. وأخيراً كان اتفاقى مع كيسنجر على النقاط الستة وبداية عملية السلام . . منذ تلك اللحظـة إلى هذا اليوم فى سنة ١٩٧٧ وكل شىء عند السوفييت موقوف عنى . . لا بيع أسلحة أستعوض بها كما استعوضت سوريا ما فقدت ولا قطع غيار ولا أى شىء على الإطلاق . . بل موقف متشدد يكاد أن يصل فى بعض الأحيان إلى العداء . .

فى ١١ ديسمبر سنة ١٩٧٣ جاءنى كيسنجر حسب الاتفـاق لتنفيذ النقاط الستة فقلت له : « يا هنرى أنا لا أطالب بعـودة اليهود إلى الضفة الشرقيـة ولكنى أريد عـودتهم إلى خط ٢٢ أكتوبر — كان هذا اتفاقنا وقت وقف إطلاق النار فإما أن يعـودوا إليه وإما أن آخـذه بالقوة » . .

قال : — ما الداعى إلى المعـركة ؟

قلت : — لأن ثمه عـربدة إسرائيلية — وهم يتصورون أنهم يخيفوننا بهذه الثغـرة — وأنا لست على استعداد لأن أجهض نتائج حرب أكتوبر بل لن أسمح بهـذا . . هل تعرف مدى قـوتى ومدى قوتهم فى الثغـرة ؟

قال : نعم أعرف . .

وأخرج من جيبه صورة بالقمر الصناعى رسمها البنتاجون . كما سبق أن رويت.

وقال : قبل أن أحضر إليك طلبت من البنتاجـون أن يعطونى الموقف فأعطـونى هذه الصورة وفيها الـ ٤٠٠ دبابة إسرائيليـة ومن حولهـا ٨٠٠ دبابة مصرية ولديك صاروخ ونصف تقـريباً لكل دبابة بخلاف حائط الصواريخ القائم . . أنت فعلا تستطيع أن تصفى الثغـرة بهذه القوات . .

قلت : هذه سوف تكون معـركة التاريخ بالنسبة إلى . . فما هو موقف أمريكا . . إنكم أنتم الذين أخرجتمونى من الحرب ولكنكم أنتم المسئولون عن الثغـرة . . ما هو موقف أمريكا إذا صفيت الثغرة بمعركة . . ؟

قال : سيضربك البنتاجـون بكل قوته . . هذا هو موقف أمريكا . . ولكن لى سؤال : هل أنت مصر على تصفية الثغرة بمعـركة عسكرية . . ؟

قلت : أبداً . . أنتم تعلمـون أنى رجـل سلام . . ولو كنتم قبلتم مبادرتى سنة ١٩٧١ لما كانت هناك حرب — فأنا ضنين بحياة الجنـدى قبل الضابط ولكنكم لم تأخـذوا كلامى مأخذ الجد وهذه هى النتيجة . .

قال : كما بدأنا عملية السلام ، نعمـل فض اشتباك تنتهى هـذه الثغـرة بمقتضاه سلمياً .

قلت له : أنا معك ١٠٠٪ . ولكن متى ؟

فى ذلك الوقت كنا قد حددنا لمؤتمـر جنيف يوم ١٩ ديسمبر سنة ١٩٧٧ وأجل إلى ٢١ من الشهر نفسه ، وفعلا ذهبت مصر والأردن وإسرائيل وامتنعت سوريا — وعقدنا فى جنيف جلستين أو ثلاثة ثم أجلنا الجلسة واتفقنا أنا وكيسنجر على فض الاشتباك فى يناير سنة ٧٤ — وذلك بالنسبة للجبهتين المصرية والسورية .

قبل ذلك بفترة — وعلى وجه التحـديد فى يوم ١٦ أكتوبر بعد بـدء المعركة بعشرة أيام وبينما كان انتصارنا واقعاً أذهل العالم كله — خطبت فى مجلس الشعب هنا فى مصر وقلت إننى مستعد أن أذهب إلى جنيف شريطة أن تنسحب إسرائيل من الأرض العـربية المحتلـة فى عام ١٩٦٧ ونجتمع فى جنيف لنضع اتفاقية سلام . . كان فى إمكانى فى ذلك الوقت أن أضرب فى عمـق إسرائيل . . وهى تعلم ذلك وتعلم أن لدى السلاح الذى يقـوم بذلك . .

أى رجـل مكانى كان يفعل هذا ولو من باب الانتقـام من إسرائيل لثلاث حـروب مضت — ولكنى لم أفعـل لأننى أفضل السلام — . ومن نفس المنطلق آثرت أن أصفى الثغـرة سلمياً فجاء كيسنجر حسب الاتفاق فى يناير سنة ١٩٧٤ وأخـذ يتنقل بين أسوان وتل أبيب فترة من الزمـن إلى أن جاء إلى فى يـوم وقـال : —

— للأسف يبدو أننا قد وصلنا إلى طريق مغلـق فهم فى تل أبيب غير راغبين فى التفاهم .

قلت له : لقـد جاء دوركم أنتم الأمـريكان . . فحلـوا الموقف أنتم بأنفسكم . .

قال : هل تقبـل عرضاً أمـريكياً ؟

قلت : بكل سرور . . مستعد أتلقاه وأدرسه وأرد عليك . .

تلقيت الاقتراح الأمريكى وتلقته إسرائيل فى نفس الوقت . . وبالاتفاق على فض الاشتباك الأول على الجبهة المصرية بدأنا مرحلـة جديدة . . المرحلـة الثانية فى عملية السلام . .

وهنا لابد لى أن أقـول إنه لا يستطيع أحد غير أمريكا أن يقـوم بهذا الدور وهو التدخـل بين الطـرفين اللذين تأكلهما أحقاد رهيبة ودماء وكراهية وعنف ومـذابح قامت بها الصهيونية فى القرى الفلسطينية . .

لم تفـرض أمريكا فض الاشتباك الأول بل تدخلت بيننا لتفتح الطـريق المسدود . . وفض الاشتباك الأول مكتوب على رأسه كلمه « عرض أمـريكى AMERICAN PROPOSAL . . لهذا قلت وأقـول إن بيد أمريكا ٩٩٪ من أوراق اللعبـة . . مهما أغضب ذلك الآخرين . .

٩

كان من المفروض أن ندخل المرحلة الثالثة من عملية السلام فى سبتمبر ١٩٧٤ وهى فض الاشتباك الثانى — ولكن حدثت زيارة نيكسون إلى مصر ثم عاد إلى أمريكا حيث كانت مسألة ووترجيت قد نضجت تماماً وتفجرت فاستقال نيكسون ودخلت أمريكا فى دوامـة رهيبة استمرت خلال سنوات ٧٤ ، ٧٥ ، ٧٦ سنة الانتخابات بعـد أن استقال نيكسـون وحل فـورد محله ، وبدأت دبلـوماسية (المكوك) بين أسوان وتل أبيب لإتمام عملية فض الاشتباك الثانى .

فى تقـديرى أن فض الاشتباك الأول استغرقت مفاوضاته من أسبوع إلى عشرة أيام . . أما هـذه المرة فقد كان الأمر يختلف .

استغرقت رحلات كيسنجر أكثر من أسبوعين ولا شىء يلوح فى الأفق . .
وقبل أن تنتهى هذه الرحلات بعشرة أيام قلت له وهو عندى فى أسوان :

– يا هنرى لن يتم فض الاشتباك هذه المرة – ولن يستجيب اليهود لكم ولا للسلام . . لأنهم يعلمون أن الحكومة الأمريكية فى حالة ضعف – فووترجيت ما زالت متفجرة – والرئيس الموجود معين وليس منتخباً . .

قال : بالعكس أنا أرى أن العملية تسير سيراً حسناً – صحيح أنها قد تستغرق وقتا أطول من فض الاشتباك الأول ، ولكن هذا لا يعنى الكثير .

قلت له : تقدر تقدم مقترحاً أمريكياً يا هنرى ؟

قال : لا . .

قلت : أرأيت ؟ أنت لا تقدر لأنكم فى وضع داخلى صعب . . ولذلك لن توافق إسرائيل .

بعد عشرين يوماً جاء إلى وقال :

– أنت على حق . . إنها حالة ميئوس منها . .

قلت له : لا تعلن هذا من عندى – سافر إليهم وأعلنها من عندهم .

وفعلا أعلن فشل مفاوضات فض الاشتباك الثانى فى مرحلته الأولى من تل أبيب ، وفى نفس الوقت أعلن وزير خارجية مصر فشل مساعى كيسنجر فى مؤتمر صحفى عقده بأسوان ، وفى صباح اليوم التالى سافر كيسنجر من عندهم رأساً إلى أمريكا .

الذى أريد أن أقوله للشعب الأمريكى هنا هو أنه برغم أن شريان الحياة يمتد من أمريكا إلى إسرائيل بكل ألوان الحياة من رغيف العيش إلى الفانتوم إلى سد العجز فى الميزانية ، إلا أن إسرائيل رفضت أن تستجيب للسلام لأنه كان فى تقديرها فى ذلك الوقت أن الحكومة الأمريكية فى موقف ضعف . . فهى إذن ليست موضع ثقة إسرائيل – أنا أيضاً كنت أعرف أن الحكومة الأمريكية فى موقف ضعف . . ولكن رغم هذا ورغم أننى كنت قبل ذلك فى مواجهة صريحة كاملة مع أمريكا لمدة ١٨ عاماً . . إلا أننى كنت أثق فيها من أجل تحقيق الخير والسلام . .

وهنا تتضح حقيقة لا أظن أنها تفوت على الكثيرين . . وهى أن ما هو معروف من أن إسرائيل هى راعية مصالح أمريكا فى المنطقة هو فى الحقيقة مجرد ادعاء . . فأين حماية هذه المصالح والبترول الذى حظره العرب كان يهدد كيان أمريكا الاقتصادى بل ويهدد المدنية الغربية كلها بالإنهيار ؟ إن إسرائيل لا تنظر إلا إلى مصالحها الذاتية . . والمسألة بعد هذا أعمق وأدق فهى مسألة أخلاق . . ومسألة حب للسلام أو العكس بصرف النظر عمن سيدفع ثمن فشل محاولات السلام . . وهذا ما دعانى رغم كل علاقاتى السابقة مع أمريكا أن أقول لوزير خارجيتها إنه مهما كان موقف إسرائيل فدعنا نعمل سوياً من أجل السلام . .

هل يحتاج الأمر إلى عقد المزيد من المقارنات بين موقف إسرائيل وموقف مصر فى تلك المرحلة التاريخية . . وما قد تفصح عنه هذه المقارنات من الحرص على السلام أو العكس ؟ لا أعتقد .

١٠

أنا لا أريد أبداً أن أثبت أنى رجل سلام بالكلام فقط ولذلك فبمجرد خذلان إسرائيل لمساعى كيسنجر من أجل السلام ذهبت إلى البرلمان وأعلنت للشعب كل ما حدث ثم تقدمت بقرارات لا تتسم بالعصبية أو رد الفعل ، وإنما كانت قرارات صادرة عن الثقة بالنفس وبالحق فأعلنت فتح قناة السويس فى ٥ يونيو سنة ١٩٧٥ بعد أن كان لأمريكا هذا الدور الرائع فى تطهيرها مع فرنسا وإنجلترا والاتحاد السوفييتى الذى طهر خليج السويس لوصوله متأخراً . . وسمعنى شعبى وأمتى العربية والعالم أجمع .

كما سمعنى الجميع أعلن أيضاً أن المهجرين سيعودون إلى مدن القناة ، وأنى سأسلم إسرائيل ٣٩ جثة من قتلاها كانت إسرائيل مستعدة لدفع أى ثمن لاسترجاعها بواسطة كيسنجر ولكننى أعطيتها لهم بدون مقابل . .

كل هذا من أجل السلام . . مع ذلك فقد حذرت إسرائيل من أنها لو ضربت أى مدينة من مدن القناة أو القناة ذاتها بعد فتحها بمدافعها الأمريكية طويلة المدى فسوف أرد بالضرب فى عمق إسرائيل . .

كنت طبعاً قد قابلت فورد فى سالزبورج (يومى ١ ، ٢ يونيو ١٩٧٥) بعد فشل محادثات مارس واتفقنا على عملية جديدة يتولاها فورد شخصياً . .

فى أغسطس جاءنى كيسنجر وبدأ (المكوك) بينى هنا وتل أبيب . . كان الرجل مكسور القلب . . فالوضع السئ الذى كانت عليه الإدارة الأمريكية فى مارس أصبح أسوأ بكثير فى أغسطس . . فالفضائح تتفجر كل يوم والإضطراب وعدم الإستقرار مستمر . . واليهود ينتهزون كل فرصة ليضربوا مصالح أمريكا عندما تتعارض مع مصالحهم . .

قلت له : كنت قد قلت لك فى مارس إن العملية لن تتم ولكننى أقول لك هذه المرة إنها سوف تتم . . فقد كشفت إسرائيل أمام العالم بفتح القناة وعودة المهجرين . . إلى آخر ما فعلت من أجل إعادة السلام إلى المنطقة . . ولذلك فلو حاولت إسرائيل أية محاولة لإفشال السلام فستتضح الحقيقة للعالم كله وهى أنها وحدها المسئولة عن هذا . .

وفعلا لم تستطع إسرائيل إلا أن توافق ، فوقعنا فى أول سبتمبر سنة ١٩٧٥ إتفاقية فض الاشتباك الثانى وبذلك تمت المرحلة الثالثة من عملية السلام .

بعد ذلك لم يعد هناك مجال لحل الخطوة خطوة فنحن الآن بصدد تسوية شاملة أى اتفاق السلام النهائى وإنهاء حالة الحرب التى لا تزال قائمة إلى اليوم منذ ثلاثين سنة . . وعلينا أن نسعى إلى السلام الدائم العادل . . بعد ما ثبت من أن مصر التى كانت فى مواجهة مع أمريكا لمدة ١٨ سنة تستجيب للسلام بينما إسرائيل وهى ربيبة أمريكا مستعدة لأن تطيح بمصالح أمريكا إذا شعرت بأن هذا قد يحقق شيئاً من أطماعها .

١١

ذهبت لزيارة كارتر بعد أن نجح فى الانتخابات وأصبح رئيساً للولايات المتحدة . . واستعرضت معه كل المراحل التى تمت ، كما وضعت أمامه استراتيجية سلام محددة لا أعتقد أن إسرائيل قادرة أو راغبة فى أن تصنع مثلها أو شبيهة بها .

ما هى استراتيجية السلام التى وضعتها أمام كارتر وأضعها أمام العالم كله اليوم ؟ قبل أن أدخل فى التفاصيل أحب أن أدعو كل من يتعرض لقضية الشرق الأوسط أن يدرك أن المشكلة الأساسية فيها هى المشكلة الفلسطينية . . دعونا إذن نبدأ بحل المشكلة الفلسطينية فليست سيناء أو الجولان إلا أعراض لمرض أساسى هو هذه المشكلة بالذات . . ولعل مما يلفت النظر فى هذه المسألة أن بعض الأصوات ترتفع هذه الأيام تطلب من الفلسطينيين الإعتراف بإسرائيل . . تناقض غريب . . فهم يطلبون من أناس فقدوا الأرض والدولة بل وحقوق الإنسان نفسها – يطلبون من هؤلاء وهم المشردون الفلسطينيون أن يعترفوا بدولة هى إسرائيل تتمتع باعتراف ١٤٠ دولة فى الأمم المتحدة ولديها الأرض واعتراف ومساندة الولايات المتحدة وتأييد الإتحاد السوفيتى الذى لم يحاول قط إخفاء مساندته لإسرائيل وحقها فى أن لا تمس . .

حتى أنه فى زيارة حديثة قام بها ياسر عرفات للسوفييت خلال عام ١٩٧٧ طلب بريجنيف منه أن تعترف منظمة التحرير بإسرائيل كأساس مبدئى لحل المشكلة . .

فى استراتيجية السلام الأولى التى أعرضها على العالم اليوم لا أنكر على إسرائيل حقها فى أن تعترف بها دول المنطقة . . ولكن بشرط أن يأخذ كل شىء وضعه الطبيعى . . فاتفاقية السلام يجب أن تتضمن إقامة دولة فلسطين فى الضفة الغربية وقطاع غزة ، على أن تنسحب إسرائيل من الأرض المحتلة سنة ١٩٦٧ .

وبذلك عندما نجتمع فى جنيف نعلن رسمياً إنهاء حالة الحرب التى استمرت منذ قيام إسرائيل حتى هذه اللحظة . .

وقد قلت للرئيس كارتر إن إسرائيل يجب أن تعطى جميع الضمانات التى تطلبها حتى إذا رأت أن تسلح كل مواطن فيها بدبابة وطائرة وأعطتها أمريكا هذا فلن نمانع . . بشرط أن تستعملها إسرائيل داخل حدودها وليس فى أرض الغير . . لن نمانع اطلاقاً فى أى شىء تطلبه إسرائيل سواء من أمريكا أو الاتحاد السوفيتى أو مجلس الأمن ، وبأية صورة تطلبه . . قوة مشكلة من الأمم المتحدة . . قوات على الحدود . . مناطق منزوعة السلاح على الجانبين . . ميثاق

دفاع مشترك مع أمريكا . . أقول إننى فى استراتيجية السلام مستعد لكل هذا ولا مانع عندى إطلاقاً . . ولكننى أرى أنه من الحق والعدل أن كل ضمان تأخذه إسرائيل يجب أن نحصل عليه نحن العرب أيضاً . . فيما عدا شىء واحد . . وهو أنه إذا اختارت إسرائيل أن تعقد مع أمريكا ميثاق دفاع مشترك فلن أطالب بالمثل لا مع أمريكا أو الاتحاد السوفييتى أو أية دولة أخرى . . فنحن دولة عدم انحياز وسنظل كذلك . . إرادتنا ملك لنا ولنا فقط . .

كل هذا وضعته أمام كارتر بوضوح وأكدت له أننا اليوم فى سنة ١٩٧٧ مستعدون للسلام كما كنا عندما قمت بمبادرتى فى ١٩٧١ بل وأكثر . . كما أكدت أننى على استعداد لتنفيذ جميع الالتزامات التى يفرضها على قرار ٢٤٢ لمجلس الأمن ولكن على إسرائيل أيضاً أن تفعل نفس الشىء . . فلا مساومة على حقوق شعب فلسطين أو على شبر واحد من الأرض العربية المغتصبة فى سنة ١٩٦٧ . بهذا يتحقق السلام الدائم والعادل . .

١٢

ما هو رد الفعل عند إسرائيل إزاء كل هذا ؟

كلنا يعرف نظرية الأمن التى نادى بها بن جوريون ونشأت عليها إسرائيل والتى تقول صراحة إنه لابد من فرض الصلح على العرب بالقوة . . قلت لكارتر وأنا فى زيارتى للبيت الأبيض إن السلم لا يفرض لأنه إذا فرض لا يصبح سلماً لأن هذا معناه أن هناك طرفاً يملى شروطه على الطرف الآخر وإسرائيل لم تستطع أن تملى شروطها علينا برغم هزيمة سنة ١٩٦٧ المنكرة ونحن برغم انتصارنا سنة ١٩٧٣ لم نستطع أن نملى شروطنا على إسرائيل . . يجب إذن استبعاد فكرة إملاء السلم والحدود الآمنة . .

لقد كانت أسطورة سقطت بحرب أكتوبر وسقطت معها أسطورة العسكرى الإسرائيلى الذى لا يقهر . . وهذا ما يدركونه جيداً فى إسرائيل اليوم ، ولذلك تجدهم يكفون عن الكلام عن نظرية الأمن الإسرائيلى ويحلون محلها موضوعاً جديداً هو طبيعة السلام . .

ماذا يقصدون بطبيعة السلام ؟ فتح الحدود وإقامة علاقات دبلوماسية واقتصادية بين إسرائيل والدول العربية ؟

إنهم يعلمون تمام العلم أن هذه كلها معوقات جديدة توضع فى طريق السلام . . لأنه لا يوجد إنسان فى العالم العربى بعد ثلاثين سنة من المواجهة مع إسرائيل وأربعة حروب ومذابح ودم وكراهية وتعبئة فى كل ناحية مهيأ لفتح الحدود فجأة وبين ليلة وأخرى . .

ثم هل السلام لا يتحقق إلا بفتح الحدود ؟

ماذا عن دول كثيرة كانت الحدود مفتوحة بينها ومع ذلك قامت بحروب ضد بعضها البعض ؟ ونفس الشىء يمكن أن يقال عن العلاقات الدبلوماسية فهى أيضاً لا تمنع قيام الحرب . . خذ مثلا اليابان فى (بيرل هاربر) لقد كان السفير اليابانى فى زيارة (لكوردل هل) وزير خارجية أمريكا فى نفس الوقت الذى كانت اليابان تقصف فيه (بيرل هاربر) بالقنابل . .

إن الحدود المفتوحة والتمثيل الدبلوماسى مسألة سيادة ولكل دولة الحق فى أن تفتح حدودها أو تقيم علاقات دبلوماسية مع من تشاء من الدول دون أن يكون لهذا أى دخل فى قيام الحرب أو السلم . . وقد دعوت الرئيس كارتر إلى أن يتأمل موقف أمريكا مع السوفييت بعد ثورة سنة ١٩١٧ فقد انقضت تسعة عشر عاماً قبل أن يعترفوا بالاتحاد السوفييتى ولم يكن هذا يعنى أو يدعو إلى الحرب بين الدولتين . . ونفس الشىء بالنسبة للصين الشعبية فمستوى التمثيل الدبلوماسى بينها وبين أمريكا لم يزد إلى الآن عن قنصلية أو شىء من هذا القبيل مع أنه قد انقضى على ثورة الصين الشعبية ما يقرب من ثلاثين سنة . .

فلماذا نطلب من العرب إقامة علاقات دبلوماسية كاملة مع إسرائيل كشرط من شروط السلام وكأن السلام قد أصبح مرهوناً بمثل هذه العلاقات وهو الأمر الذى لم يكن فى يوم من الأيام بين أية دولة وأخرى كما يقول لنا التاريخ ؟

إن طبيعة السلام التى تتطلب إسرائيل معرفتها اليوم ليست فى الواقع إلا محاولة جديدة من جانب إسرائيل لإعاقة السلام تهدف من ورائها إلى كسب

الوقت لكى تتمكن من فرض سياسة الأمر الواقع ببناء المستعمرات الإسرائيلية فى الأرض العربية المحتلة . . كما تحاول الآن . . ثم على المدى البعيد لكى تنتهى أزمة الطاقة فلا يعود هناك تعارض بين مصالح إسرائيل ومصالح أمريكا كما هو حادث الآن . .

وفى هذه الناحية أدعو القارىء أن يعقد معى مقارنة بسيطة بين موقف العرب وموقف إسرائيل إزاء المصالح الأمريكية . .

إن ٩٩٪ من مصالح أمريكا فى المنطقة معنا نحن العرب ونحن أصدقاء ونود أن نظل أصدقاء مع أمريكا .. ومصالحها عندنا مصانة وكل ما نطلبه منها أن لا تقف وراء روح التوسع والعدوان الإسرائيلى . . ونحن لا ننادى بأن ترمى إسرائيل فى البحر أو أن تقطع أمريكا علاقتها الخاصة معها . . فلتعطها كما تشاء ولكن داخل حدودها . . ولن يؤثر هذا على علاقتنا بأمريكا بأى شكل من الأشكال فنحن كأصدقاء لها تهمنا مصالحها وأقرب دليل على هذا قرار رفع حظر البترول الذى اتخذناه عندما وجدنا أن الحظر قد بدأ يضر بمصالح الشعب الأمريكى . .

وهذا عكس ما تفعله وما فعلته إسرائيل فى كل مرحلة من المراحل .

فعلاقتها بأمريكا برغم أنها وطيدة وحيوية ويطلق عليها كلمة خاصة لم تمنعها فى أى وقت من الأوقات من التضحية بمصالح أمريكا فى سبيل تحقيق ما يعود عليها وعلى أطماعها التوسعية بالنفع . .

هذه حقيقة أدركها العالم كله أخيراً وأرجو أن تكون أمريكا قد أدركتها بالقدر الكافى فأنا أحمل أمريكا مسئولية كبيرة ليس فقط نحو إقرار السلام فى المنطقة كدولة عظمى ، بل ونحو نفسها ومصالحها فى هذا الجزء الهام من العالم وكل ما نطلبه من أمريكا وهى ترسم سياستها فى هذا الصدد شىء واحد وهو أن تفكر تفكيراً أمريكياً خالصاً يتفق مع مصالح شعبها – وأرجو أن لا يغضب منى القارىء الأمريكى لقولى هذا فقد سلمت أمريكا فى أوقات متعددة نفسها وسياستها إلى إسرائيل وخاصة فى أيام جونسون – عندما قيل لنا وقتها نحن لا نستطيع أن نفعل أى شىء – فتفاهموا أنتم مع إسرائيل إذا شئتم . . وبمعرفتنا بخط إسرائيل وعجرفتها كان هذا بمثابة تنازل أمريكا عن كيانها كدولة عظمى مسئولة عن السلام . .

أرجو أن لا يتكرر هذا فأنا متفائل جداً بعد مقابلتى مع كارتر وواثق أنه سينهض بمسئوليته كرئيس لأعظم دولة فى العالم . . وأعتقد أنه سيستمر فى عملية السلام التى بدأناها سوياً والتى أرجو أن تتم إن شاء الله فى جنيف برغم الحملات الإسرائيلية التى سيتعرض لها الرأى العام الأمريكى والكونجرس لمحاولة فرض شروط إسرائيل على العرب وهو ما لن نقبله . . فقد رفضناه ونحن مهزومون فكيف نقبله بعد انتصار اكتوبر وإثبات ذاتنا ؟

بقى شىء واحد أريد أن أقوله للشعب الأمريكى الصديق : نحن مستعدون للسلام نريده ونرحب به وقد مددت يدى فى مبادراتى منذ سنة ١٩٧١ إلى الآن . . كم أتمنى أن تفعل إسرائيل نفس الشىء .

قد أصبح أمراً واضحاً كل الوضوح للعالم بأجمعه بزيارتى التاريخية للقدس فى نوفمبر سنة ١٩٧٧ .

١٣

كيف تمت هذه الزيارة ؟

قبل المبادرة بشهرين تقريباً فوجئت برسالة من السفارة المصرية فى واشنطن تقول إنها تسلمت خطاباً خاصاً للرئيس السادات من الرئيس كارتر وأنه مكتوب بخط اليد ومختوم بالشمع الأحمر . فقلت لهم أرسلوه . ولكن السفارة لم ترسله فى الحقيبة الدبلوماسية بل أصرت على إرساله مع مندوب خاص (كان بالصدفة ابن المرحوم المشير أحمد إسماعيل على الذى يعمل بالسفارة هناك) . قرأت هذا الخطاب الذى لايعلم أحد عنه شيئاً ، ويخيل إلى أن أحداً لن يعلم عنه شيئاً فى المستقبل أيضاً – ثم كتبت الرد عليه بنفس الطريقة . أى بخط اليد ووضعت عليه الشمع الأحمر وسلمته لنفس المبعوث الذى سافر به وسلمه للرئيس كارتر شخصياً .

وربما تبادر إلى ذهن البعض أن هذا الخطاب تضمن طلباً من الرئيس كارتر لى بالقيام بهذه المبادرة . ولكن هذا غير صحيح . إذ أننى منذ أن زرته فى إبريل ١٩٧٧ وأنا أتبادل معه الرسائل عن طريق سفارتنا وأتبادل معه تقييم الموقف من

وقت لآخر والإتفاق على الخطوات المقبلة . وأعتقد أنه يفعل ذلك أيضاً مع بقية الأطراف وخاصة مع إسرائيل (وقد علمت أثناء وجودى فى القدس أن ثمة « خطاً أحمر » بين الرئيس الأمريكى ورئيس إسرائيل) .

ولكن – رغم أن هذا الخطاب كان خطاباً شخصياً لا يمكننى أن أفصح عن محتوياته فقد كان يتضمن آخر تقييم للموقف ويمثل فى الحقيقة بدء التفكير فى المبادرة التى حدثت بعد ذلك بشهرين .

كما قلت لم يطلب كارتر منى هذه المبادرة فهو لا يستطيع ذلك لأنه يعلم أن بيننا وبين اسرائيل حاجزاً نفسياً رهيباً . ولابد أنه قد تبين ذلك بنفسه عندما قابلته فى واشنطن أثناء زيارتى للولايات المتحدة فى إبريل ١٩٧٧ وأعتقد أنه عرف أن ذلك الحاجز يمنعه من طلب هذه المبادرة .

وللتاريخ والحق فإن كارتر رجل صادق مع نفسه وصادق مع الآخرين دون شك .. وهذا ما يجعلنى لا أجد صعوبة فى التعامل معه . فأنا أتعامل مع إنسان يفهم ما أريده .. مع رجل لديه إيمان ولديه قيم – وإلى جانب هذا فهو فلاح مثلى . كانت رسالته تشتمل – كما قلت – على استعراض للموقف وكان ردى عليها بنفس الروح التى تسود تعاملنا . ومع ذلك فقد فتحت رسالته لى طريقاً جديداً كل الجدة . لماذا ؟

بعد أن أرسلت ردى أخذت أتأمل الموقف فتبين لى أننا داخلون على حلقة مفرغة رهيبة – تماماً كالتى عشناها طوال الثلاثين عاماً الماضية . إذ أنه بسبب الجدار أو الحاجز النفسى الرهيب الذى أشرت إليه – أخذت إسرائيل فى هذه المرحلة التمهيدية لعملية السلام تعترض على شكليات وإجراءات – من أبسط الأشياء كفاصلة أو نقطة فى النص إلى كلمة مضافة أو كلمة محذوفة وكان يهمها جداً أن يقال إن ورقة العمل التى ستكون أساساً لإجتماع جنيف ورقة أمريكية إسرائيلية . .

وأخذنا نحن العرب أيضاً بسبب ذلك الحاجز الرهيب نعترض بصورة تلقائية على هذه الشكليات فنقول إننا لا يمكن أن نقبل ورقة عمل أمريكية إسرائيلية بل إننى إذا قبلت من ناحيتى ورقة عمل عربية أمريكية فإن إخوانى

العرب سوف يرفضون كلمة أمريكية (مع علمهم أنه لا يمكن تحقيق حل بدون أمريكا) وبذلك دخلنا الحلقة المفرغة للإجراءات الشكلية وابتعدنا عن جوهر القضية .

والحاجز النفسى الذى أعنيه هنا هو ذلك الجدار الضخم من الشك والخوف والكراهية بل وسوء الفهم إذ أن كلا من الطرفين غير مستعد لتصديق الآخر وغير مهيأ نفسياً لتقبل ما يصله منه عن طريق أمريكا (بل ويشك فيه عشرات المرات لو وصله عن طريق آخر) .

ولذلك أشبه هذا الجدار الرهيب بالحاجز المرجانى الضخم عند أستراليا والذى يمكن أن يشطر أى سفينة تقترب منه شطرين .

وإذا كان عمق ذلك الحاجز ثلاثين عاماً – أى منذ قيام إسرائيل – فإن له جذوراً أعمق من هذا التاريخ – أى أنه إذا كان بيجين يدعى أن للمسألة بعداً دينياً بالنسبة لهم فإن لها بعداً دينياً أيضاً بالنسبة لنا . . وهكذا . بدأت أتأمل الموقف من زاوية جديدة وعكفت على دراسته دراسة ذات عمق جديد .

وهنا وجدت ما تعلمته فى الزنزانة ٥٤ فى سجن مصر يمدنى بقوة جديدة وطاقة جبارة على التغيير . إننى أواجه واقعاً بالغ التعقيد يحتاج إلى طاقات نفسية أولا وفكرية ثانياً لتغييره ولقد تعلمت أثناء تأملى للإنسان والحياة فى ذلك المكان المنعزل أن من لايستطيع أن يغير أفكاره أولاً لن يستطيع أن يحدث أى تغيير فى عالم الواقع ومن ثم لن يستطيع تحقيق أى تقدم . التقدم مستحيل دون التغيير . وليست هذه مجرد فكرة اهتديت إليها بل أسلوب عمل وديدن حياة منذ أن اكتشفت ذاتى فى الزنزانة ٥٤ .

ماذا يمكننى إذن أن أغيره ؟ لقد درجنا على اعتبار إسرائيل موضوعاً مشحوناً بحساسية وخطورة إلى الدرجة التى نحرم الاقتراب منه . بل لقد استمر هذا الموقف سنين طويلة حتى بلغت التراكمات حداً يصعب معه التغيير إن لم يكن يستعصى فعلا – تماماً مثلما حدث بالنسبة للنظرة الإسرائيلية للعرب . وهنا وجدت أن السبيل الوحيد إلى التغيير لابد أن يتناول صلب هذه النظرة وجوهرها . فإذا كان لنا أن نناقش جوهر القضية وأساسها بغية تحقيق السلام

الدائم فلابد لنا من أسلوب جديد تماماً — أسلوب يتخطى مرحلة الشكليات والإجراءات ويكسر حاجز عدم الثقة المتبادلة حتى لا نعود للدائرة المغلقة والطريق المسدود .

هذا من ناحية . نظرت من ناحية أخرى إلى موقف أمريكا . ماذا تستطيع الولايات المتحدة أن تفعل ؟ كان لابد من بحث هذا الموضوع على أساس حقائق الحياة وأولها أن قدرة الرئيس كارتر على الحركة مرهونة بالوضع العالمى الراهن . وثانيها أن قدرة أمريكا على المساعدة لا يمكن أن تتخطى طبيعة علاقتها الخاصة بإسرائيل . إذ أنه من غير المعقول أن أكلف الرئيس كارتر بما لا يستطيع أو أطلب منه إيقاف هذه العلاقة الخاصة أو أن يقف إلى جوارى ضد إسرائيل . أعلم أن هذا غير ممكن وتأكدت منه أثناء مباحثاتى فى واشنطن فى إبريل ١٩٧٧ .

إزاء هاتين الحقيقتين ومن منطلق النظرة العلمية الواقعية وجدت أن كل ما أستطيع أن أطالب به الرئيس كارتر هو انتهاج خط سياسى أمريكى أى موقف يتسق أولا مع مصالح أمريكا ويتسق ثانياً مع مسئولية الولايات المتحدة كقوة عظمى مسئولة عن السلام فى العالم . ومعنى هذا وضع حد لسياسة « الكارت بلانش » التى أعطتها إدارة جونسون لإسرائيل — أى أن تعطيها التأييد الكامل غير المشروط مهما فعلت .

وربما كان أهم من هذا كله تلك الحقائق الجديدة التى أتت بها حرب أكتوبر إلى العالم وأولها أن العرب ليسوا جثة هامدة بل قوة قادرة على القتال وهزيمة إسرائيل فعلا (ولعل النداء — نداء «أنقذوا إسرائيل» الذى صدر فى اليوم الرابع للقتال أكبر برهان على هذا) وثانيها أن العرب قد استخدموا سلاح البترول — عصب المدنية فى الغرب — لأول مرة وبكفاءة عالية .

(وهنا لابد أن أذكر الشعب الأمريكى أنه بمجرد أن شعرنا أن حظر البترول قد بدأ يضر بالمواطن الأمريكى رفعناه فوراً لأن الهدف لم يكن عقاب المواطن الأمريكى أو الغربى بل التنبيه بأن الانحياز الأعمى لإسرائيل له ثمن . فللغرب مصالح مثلما لنا مصالح ولنا قضية وينبغى أن يعود الغرب إلى رشده ويتبين أين مصالحه ومصالحنا) .

وهكذا — بالنسبة للمبادرة — كانت هذه الحقائق مجتمعة تشكل البؤرة التى تجمعت عندها خيوط تفكيرى بعد أن تلقيت رسالة كارتر .

وفى نفس الوقت استقبلت مبعوثاً من الرئيس حافظ الأسد فوجدته ما يزال يردد نفس العبارات التى سادت العالم العربى سنين طويلة والتى تفصح عن العقد التى تحكم موقف الجانبين . قال إن إسرائيل لا تريد التوصل إلى حل وإنها تلعب على الوقت (وهذا صحيح) وقال إن الولايات المتحدة لا تريد حل المشكلة وحتى لو أرادت فإنها لن تستطيع . وهنا أبديت اختلافى مع هذا الرأى وقلت للمندوب السورى إن الرئيس كارتر يريد الحل ويستطيع تحقيقه واستشهدت على ذلك بواقعة فض الاشتباك الثانى عندما كان رئيس الولايات المتحدة معيناً وغير منتخب وكانت أمريكا ما تزال تعانى من فضيحة ووترجيت . وقد بدأت أيضاً تدخل دوامة الانتخابات القادمة — أى أن الإدارة الأمريكية كانت فى أضعف حالاتها ومع ذلك استطاعت أن تحقق فض الاشتباك الثانى لأن الرئيس فورد كان لديه العزم والتصميم . فإذا كان هذا هو الموقف بالنسبة للرئيس فورد فما بالك بالرئيس كارتر ؟

استمر تفكيرى فى الموقف وبدأت الأفكار تأخذ صورة أكثر تجسيداً ووضوحاً . فإلى جانب الموقف النفسى الذى تبلور فى أعماق ذاتى داخل الزنزانة ٥٤ وإيمانى بأنه لا يمكن إحداث التغيير فى عالم الواقع إلا إذا استطاع الإنسان إحداث تغيير فى عالم أفكاره وجدت أن مسئوليتى تجاه شعبى — تلك المسئولية أو الأمانة التى أحملها بالنسبة لجيلنا وبالنسبة للأجيال المقبلة تفرض على أن أقوم بما ينبغى أن أقوم به دون اعتبار لكرسى الحكم .

لابد أن أؤدى واجبى كما ينبغى وإذا كان فى إمكانى أن أجنب أجيالنا المقبلة الصورة التى ورثناها — إذا كنت أستطيع ذلك ثم تقاعست عنه فسأكون قد أخطأت أمام نفسى وأمام الله الذى سوف يحاسبنى على كل ما أفعل . .

١٤

انتهت هذه المرحلة من تفكيرى قبل أن أقوم بالمبادرة بشهرين – بعد أن تسلمت رسالة كارتر وقبل أن أقوم بزيارتى إلى كل من رومانيا وإيران والسعودية .

وعندما وصلت إلى رومانيا تحدثت مع شاوسيسكو طويلا فأخبرنى عن اجتماع كان قد عقده مع مناحم بيجين رئيس وزراء إسرائيل واستمر ثمانى ساعات (ساعتين ضمن الوفود الرسمية وست ساعات بينهما على انفراد) . سألت شاوسيسكو عن انطباعاته فقال لى : –

– إن بيجين يريد التوصل إلى حل .

قلت له :

– كل ما يشغلنى فى هذا الموضوع هو هل إسرائيل تريد السلام حقاً أم لا ؟ . . أنا عن نفسى أريد السلام وقد أثبت هذا بما لا يدع مجالا للشك عند أحد . لكن هل إسرائيل اليوم – وخاصة بيجين زعيم كتلة ليكود المتعصبة – تريد السلام ؟ هل بيجين الذى يسلك هذا النهج المتطرف رجل يريد السلام ؟

فقال لى :

– دعنى أقرر لك إنه بالقطع يريد السلام . .

كان شاوسيسكو بالغ الثقة وأنا أثق فى حكمه . وإلى جانب هذا فهو على صلة طيبة بالإسرائيليين لم تنقطع يوماً ما . ولذلك فحينما أكد لى أن بيجين يريد السلام وأنه « رجل قوى » كان ذلك بمثابة التأكيد على ما شعرت به أولا من الحاجة الملحة إلى التغيير . . والتغيير من الجانبين . ولذلك عندما ركبت الطائرة فى طريقى إلى إيران – وبالذات عندما مرت الطائرة فوق تركيا – وجدت ملامح المبادرة تبرز بوضوح أمامى . . كان معى فى الطائرة وزير الخارجية فقط الذى لم تستطع أعصابه تحمل المبادرة واستقال . . مسكين . . قلت له إننى أتصور دعوة الخمسة الكبار كارتر وبريجنيف وديستان وكالاهان وهوا كوفينج إلى اجتماع فى القدس . . فى الكنيست . . لماذا ؟

أنا من المؤمنين بأنه لا ينبغى أن نضغط مرحلتين فى مرحلة واحدة وبأنه إذا كان لمؤتمر جنيف أن ينجح فلابد من التحضير له تحضيراً كاملا . . وقد

حاولنا التحضير له من قبل عن طريق لجنة العمل التى اقترحتها والتى تقدم بها فانس وزير الخارجية الأمريكية ولم تلق أى استجابة نتيجة لنفس الموقف الذى ساد بين العرب والإسرائيليين – نفس الشكوك ونفس الحذر . . ونفس الدائرة المفرغة . . لابد إذن من تحضير يتخذ صورة أخرى . وقد تصورت أنه من الأفضل أن أدعو الخمسة الكبار – أصحاب الفيتو فى مجلس الأمن – إلى اجتماع فى القدس وأن أدعو معهم الأطراف المعنية فى العالم العربى ، أى دول المواجهة – سوريا والأردن ولبنان والفلسطينيين ومصر – بحيث يعلم بيجين أننا قد عقدنا العزم على التحضير بصورة جادة لمؤتمر جنيف وأننا بصدد إعداد ورقة عمل تتحدد فيها الموضوعات الرئيسية (Headlines) حتى نبدأ مؤتمر جنيف بنجاح تام .

أما بالنسبة للتوقيت فقد فكرت أن تكون الزيارة مناسبة لى كى أصلى العيد مثلا (أو الجمعة) فى المسجد الأقصى ثم أزور كنيسة القيامة وهما يمثلان لنا مسلمين ومسيحيين قيمة هامة بل وأساسية . . فنقوم معاً بزيارة هذه الأماكن المقدسة – أصدقائى كارتر وديستان وكالاهان وكذلك هواكوفينج الذى قال ماوتسى تونج عنه لحسنى مبارك إنه رجل ممتاز وقال له وهو على فراش موته : الراجل ده كويس جداً وأنا بازكيه لكم وللدنيا كلها . (وكانت هذه آخر وصية له) – أما بريجنيف فلم أكن واثقاً أنه سيقبل رغم أننى أقول وأسجل هنا أنه الوحيد الذى يتمتع بعقلية سياسية فى القيادة السوفيتية ولذلك لم أختلف معه مطلقاً . وإنما كان الخلاف دائماً مع زملائه الآخرين والموظفين .

كانت هذه هى الصورة الأولى لمبادرتى – كنت واثقاً من ترحيب أصدقائى كارتر وديستان وكالاهان وهواكوفينج وكان تصورى أن بريجنيف لن يجد مفراً من القبول إزاء ترحيب هؤلاء . ومن ثم يمكننا أن نعقد اجتماعاً نحن الأطراف المعنية فى الشرق الأوسط للتحضير لمؤتمر جنيف حتى نجعل إسرائيل تعلم – فى القدس نفسها – أنه لا فكاك لها من العنصرين الأساسيين فى التسوية وهما الانسحاب من الأرض العربية المحتلة بعد عام ١٩٦٧ وقيام دولة فلسطين كحل للمشكلة الفلسطينية التى هى لب القضية .

اكتملت صورة هذه المبادرة فى ذهنى ومضيت فى رحلتى فزرت إيران والسعودية ولكننى لم أخبر أحداً بها . وذلك حتى لا أورط أحداً من أصدقائى فيها . لقد أردت أن أتحمل مسئوليتها بالكامل . وعندما عدت إلى القاهرة بدأت أحس أن صلاة العيد أفعل فى النفس من صلاة الجمعة وربما كان العيد مناسبة رائعة للقاء أهلنا فى الأرض المحتلة . .

كانت المشكلة أن الوقت ضيق إذ كان بيننا وبين العيد أيام معدودة ولم يكن من الممكن ترتيب زيارة الخمسة الكبار ومعرفة مدى ملاءمة مواعيدهم فى نطاق هذا الوقت الضيق .

وهكذا تغيرت صورة المبادرة فى ذهنى وبدأت تأخذ شكل الزيارة التى أقوم بها شخصياً لأصلى العيد فى المسجد الأقصى تحقيقاً لما قلته من أننى مستعد أن أذهب إلى آخر العالم لتحقيق السلام . لقد قلت إننى مستعد أن أذهب إلى آخر العالم فى سبيل السلام فكيف أستثنى إسرائيل ؟ أنا أعنى ما أقول دائماً وأتحمل مسئولية الكلمة . . ومن ثم فقد قررت أن أذهب إلى الكنيست ممثل الشعب هناك لأضع أمامهم حقائق الموقف كاملة وأضع على عاتقهم مسئولية الإختيار والعمل إذا كانوا يريدون حقاً العيش فى سلام فى هذه المنطقة .

قبلت هذه الصورة المعدلة للمبادرة وتبلورت تماماً فى ذهنى وقررت أن أعلنها فى خطبة افتتاح الدورة الجديدة لمجلس الشعب . وفعلا أعلنت أننى مستعد للذهاب إلى آخر العالم بما فى ذلك إسرائيل إذا كان من شأن ذلك أن يجنبنا جرح (ناهيك عن قتل) جندى أو ضابط واحد . .

أعلنت أنى أعنى ما أقوله تماماً وأننى على استعداد للذهاب إلى الكنيست إذا كان هذا سيحقق أهدافنا أمام الجميع وكان جميع الوزراء حاضرين ومعهم ياسر عرفات . كان رد الفعل المباشر مضحكاً إذ تصور البعض أنها زلة لسان ولم يعلموا أن وراءها تفكيراً طويلا عميقاً . . فما زال البعض يتصور كما هى العادة أن يقول السياسى كلاماً لا يعنيه . . وهذا لا يمكن أن أفعله .

وقد حدث قبل أن أتجه إلى مجلس الشعب لإلقاء خطابى أن اتصل بى الرئيس حافظ الأسد ليذكرنى بالوعد الذى كنت قد أعطيته إياه بأن أزوره فى الصيف ونجتمع فى اللاذقية . وهنا قلت له إننى سآتى على الفور . . وفعلا . . سافرت إلى سوريا واجتمعت مع الرئيس الأسد الذى سألنى : —

— هل تعنى ما قلته فى خطابك بالنسبة لزيارة القدس ؟

فأجبت :

— نعم . . أنا لا أقول شيئاً لا أعنيه . .

فتساءل :

— ولكن كيف يتم ذلك ؟

واستمرت مناقشاتنا أربع ساعات كاملة قلت له بعدها : —

— اسمع يا حافظ . . لو ثبت أن هذه آخر مهمة أقوم بها كرئيس جمهورية فسوف أقوم بها وأعود لأقدم استقالتى إلى مجلس الشعب فى مصر كما ينص الدستور . أما أنا فمقتنع مائة فى المائة بإتمام هذه المبادرة .

انفصلنا بعد هذه المناقشة الطويلة التى لم يقنعنى فيها ولم أقنعه كما أعلنت ذلك فى مؤتمر صحفى لم يحضره الرئيس الأسد ثم عدت مباشرة إلى الإسماعيلية حيث جاءنى السفير الأمريكى حاملا الدعوة الرسمية لى من بيجين . كان ذلك يوم الخميس .فقبلتها على الفور وحددت يوم السبت موعداً لسفرى وقمت بإعداد الخطاب الذى سألقيه .

وهنا أحب أن يعرف الناس أن وزير خارجيتى خاف من هذه المبادرة . فعندما كنا نستعد للسفر إلى سوريا اعتذر كتابياً عن مصاحبتى بسبب المرض فقلت لا بأس . . يمكنه أن يصاحبنى إلى إسرائيل .

ولكن نائب رئيس الجمهورية شرح لى الأمر بعد ذلك وهو أن الوزير معترض على المبادرة كلها من أساسها . وإزاء هذا قلت له إننى لا أكلف أحداً بأن يفعل شيئاً غير مقتنع به . ثم قبلت استقالته .

١٥

وصلت إسرائيل فى أقل من أربعين دقيقة استغرقتها رحلة الطائرة من مطار أبو صوير فى القناة إلى مطار اللد . لا أحد يصدق والذهول يسود . بمجرد أن خطوت خارج الطائرة وجدتنى وجهاً لوجه أمام جولدا مائير التى كانت فى أمريكا ثم قطعت رحلتها وعادت . بادلتها السلام . ثم رأيت ديان .

ديان أنا أعرفه لأنه كان خصمى فى معركة ١٩٧٣ . ثم قابلت أبا إيبان وبعده إريك شارون الجنرال الذى كان لدينا فى الثغرة — قلت له إذا أتيت مرة أخرى إلى الضفة الغربية للقناة فسيكون السجن فى انتظارك ! فقال : أبداً . . أنا حالياً وزير الزراعة ! . .

ثم رأيت بعد ذلك موردخاى جور رئيس الأركان الحالى الذى كان قد حذرهم قبل زيارتى بأننى أقوم بخدعة وأن الهدف من الزيارة هو تغطية هجوم وشيك . ولذلك حينما رأيته قلت له إننى لا أمارس الخداع الأخلاقى مطلقاً . . الخداع الاستراتيجى والخداع التكتيكى مقبول ولكننى لا يمكن أن أقبل الخداع الأخلاقى . .

بعد ذلك ركبت السيارة مع رئيس إسرائيل كاتزير وهو أستاذ جامعى ممتاز . وصلت إلى القدس الإسرائيلية ونزلت فى فندق الملك داود .

فى الصباح خرجت لصلاة العيد . دخلت القدس العربية لثانى مرة بعد ٢٢ سنة كاملة (كانت المرة الأولى عندما كنت وزير دولة وسكرتيراً عاماً للمؤتمر الإسلامى). وتبين لى على الفور أن المسجد الأقصى قد ساءت حاله إذ ما تزال آثار الحريق الذى اجتاحه عام ١٩٦٩ قائمة . . وجدت أن منبر صلاح الدين قد احترق تماماً وأن عملية إصلاحه تسير بصورة بالغة البطء ولهذا أمرت أن يتم بناء المنبر من جديد على أيدى المصريين الذين بنوا منبر صلاح الدين وبعدها عدت إلى الفندق .

بعد الظهر اتجهت إلى الكنيست وألقيت خطابى ثم قام بيجين بإلقاء خطاب مضاد وتلاه زعيم المعارضه بيريز وانتهت جلسة الكنيست . رغم التعب والإرهاق الذى كابدته ذلك اليوم فقد أحسست بسعادة غامرة لأن ابنتى كما علمت كانت قد رزقت بمولود (بنت) فى الثامنة صباحاً وأنا أصلى فى المسجد الأقصى .

لم يكن سبب الارهاق هو المشاغل الكثيرة أو المقابلات ولو أن هذا أمر مسلم به — ولكن كان السبب الحقيقى هو التركيز الذهنى العميق إلى أبعد الحدود والذى يجعل الإنسان يحس بالتعب . كان ذهنى بالغ التركيز لسبب بسيط وهو أننى كنت أعتبر هذه المهمة مهمة مقدسة حقاً وصدقاً . ورغم ثقتى من تأييد شعبى لى فقد كنت مستعداً إذا أبدى أى رفض من جانبه أن أتوجه إلى مجلس الشعب عندنا وأقدم استقالتى .

ولكن ثقتى لم تخب . فقد خرج خمسة ملايين مواطن من بين الملايين الثمانية الذين يعيشون فى القاهرة لاستقبالى عند العودة . كانت مظاهرة تأييد لم يسبق لها مثيل . كان الجميع فى قلق علىّ وكانوا يرون أنها مجازفة منى أكثر منها شجاعة . ولهذا كان الجميع يلهجون بالحمد والشكر لله وهم لا يكادون يصدقون ولا يعرفون كيف يعبرون عن فرحتهم الغامرة . كان إحساسى بهذا هو قمة السعادة وبأننى قد كلفت تكليفاً لا فكاك منه بأن أكمل هذا العمل الذى بدأته . . كان تكليفاً بأن أخدم شعبى وأهلى حتى نحقق سوياً الهدف من المبادرة .

ولابد أن أسجل هنا قبل أن أنتقل إلى النتيجة أن الرئيس جعفر نميرى زارنى فور عودتى وأبدى تأييده الكامل تماماً مثلما زارنى فى أعقاب ثورة التصحيح يوم الجمعة ١٤ مايو ١٩٧١ . . إنه موقف لا يسعنى إلا أن أذكره له ولشعب السودان الشقيق .

١٦

ماذا كانت النتيجة ؟ ماذا كانت حساباتى ؟ وهل تحققت ؟

كنت قد قدرت أن تؤدى رحلتى إلى كسر الدائرة المفرغة — الحلقة التى ظللنا ندور فيها سنين وسنين . . وأنا أضع دائماً لكل شىء حساباته الدقيقة (تماماً مثلما فعلت فى حرب أكتوبر ١٩٧٣) وقد صدق ما حسبت له . إذ أنه مثلما استقبلنى شعبى هذا الاستقبال الرائع المذهل كانت استجابة الشعب والناس فى إسرائيل — النساء والأطفال والشيوخ — استجابة مذهلة . حتى القوات الخاصة وقوات المظلات الإسرائيلية التى كلفت بحراستى كانت ترقص فرحاً وتحية لى رغم أننى حاربتهم فى ١٩٧٣ وألحقت بهم خسائر لم يروا لها مثيلا طوال ٣٠ عاماً . . لماذا ؟

لأنهم يحترمون المقاتل ولأنهم يحترمون أكثر ذلك الإنسان الذى يستطيع بعد النصر أن يقول لهم فلتكن حرب أكتوبر آخر الحروب ولنجلس معاً مثل كل المتحضرين حول المنضدة لنناقش ما تريدونه وهو الأمن بدلا من اللجوء إلى القوة .

عدت من إسرائيل بعد أن اتفقت هناك على شيئين أساسيين :

أولا : أن تكون حرب أكتوبر آخر الحروب . .

وثانياً : أن نتناقش حول منضدة المفاوضات فى موضوع الأمن لهم ولنا . .

وهكذا اتجهت إلى مجلس الشعب ورويت له ما حدث وقد وافق بالإجماع تقريباً (إذ لم يعترض إلا عضوان أو ثلاثة من بين الـ ٣٦٠ عضواً) . . مما زادنى سعادة ومن ثم فكرت فى أن أعود إلى القناة كى أنال قسطاً من الراحة . ولكننى ما لبثت أن عدلت عن هذا وقررت الدعوة إلى مؤتمر القاهرة حتى لا تضيع قوة الدفع . وفعلا أرسلت الدعوات إلى جميع الأطراف بغية تمهيد الطريق إلى جنيف . لم نتلق إجابات إلا من أمريكا وسكرتير عام الأمم المتحدة وإسرائيل ولم يرسل باقى الأطراف إجاباتهم ولكننى مصمم على المضى فى مبادرة السلام إلى النهاية .

ماذا سيحدث عندما يصدر هذا الكتاب بعد شهور ؟ لا أدرى . ولكن الذى أدريه هو أننى أولا سأظل متمسكاً بمبادرة السلام التى قمت بها . . وثانياً : هو أننى لن أضيع فرصة على الإطلاق لكى نحل مشكلة السلام فى الشرق الأوسط حلا جذرياً وحضارياً . وهنا أريد أن أردد ما قلته أمام الكنيست الإسرائيلى من أننى لا أبغى اتفاقاً ثنائياً من أجل سيناء (فهذا لا يحل المشكلة) ولكن سلاماً قائماً على العدل وسوف أعمل فى الفترة المقبلة — إلى أن يصدر هذا الكتاب وبعده — على إقامة سلام عادل فى المنطقة بإعادة الأرض العربية المحتلة عام ١٩٦٧ وحل المشكلة الفلسطينية بإقامة دولة أو — كما قال كارتر معى — وطن قومى فلسطينى .

بطبيعة الحال لابد من ترك التفاصيل الخاصة بكل دولة عربية أو جانب عربى لهم (سيناء مع مصر والجولان مع سوريا والضفة الغربية مع الفلسطينيين) ولكننى سأستمر فى المناقشة إلى النهاية — حتى ولو عارضنى العالم كله .

هدفى الأساسى إذن هو إنهاء المشكلة بحل المشكلة الفلسطينية والجلاء عن الأرض المحتلة عام ١٩٦٧ — وسيكون رائدى دائماً أننى أريد السلام القائم على العدل وأنا مستعد لأن أبذل فى سبيل ذلك كل شىء مهما طال الزمن .

أما إذا كان الأمر أمر فرض إرادة طرف على طرف آخر فلابد أن أقول إننى مثلما أعلنت عن استعدادى للذهاب إلى آخر العالم فى سبيل السلام فأنا أعرب عن عزمى على أن أحارب إلى آخر العالم فى سبيل هذا الهدف .

لقد فقدت أخى الأصغر الذى كان بمثابة ابن لى بعد خمس دقائق من بدء معركة أكتوبر ١٩٧٣ ولقد رأيت المصابين فى تلك الحرب — شباناً فى عمر الزهور كتب عليهم أن يقضوا بقية عمرهم مقيدين إلى كراسى ذات عجلات . ولقد رأيت حالات مماثلة فى إسرائيل وتألمت لها ألمى لكل من نالت منه ويلات الحروب . . أيا كان . . ولعل هذه الروح هى التى ساعدتنا على تأكيد الهدفين اللذين تحددا فى زيارتى وهما أولاً ألا تقع حروب بعد حرب أكتوبر وثانياً أن تحقق الأمن للطرفين . .

ولابد فى النهاية أن أسجل أن الشعب المصرى قد استعاد كرامته وثقته بعد معركة أكتوبر سنة ١٩٧٣ مثلما استعادت قواتنا المسلحة كرامتها وثقتها . . لذلك لم تعد تحركنا أى عقد — سواء عقد النقص والإنهزامية أو عقد التشكك والأحقاد . . و هذا هو الذى جعلنا نلتقى — بعد أن انجلى غبار المعركة — سواء فى فض الاشتباك الأول أو الثانى أو عندما قابلت جولدا مائير لدى وصولى إلى إسرائيل .

لم يكن بيننا — بعد أن انتهى القتال — إلا الاحترام — وهذا هو ما يفهمه شعبنا المتحضر . . وهذا هو ما جعل خمسة ملايين مواطن يخرجون لتحيتى وجعل القوات المسلحة تحيينى كما لم تحي إنساناً من قبل .

إن جذورنا الحضارية قائمة . . عمرها أكثر من سبعة آلاف عام وما تزال حية ونابضة . . لم تهن أو تضعف أبداً . . وإذا اندهش البعض فذلك لأنهم لا يستطيعون فهم هذه الحقيقة وإدراك طبيعة المصرى الأصيل الذى يبنى للحضارة اليوم مثلما بناها على ضفاف النيل منذ آلاف السنين فى ظل الحرية والسلام . .

وبعد..

فليست هذه قصة الصراع العربي الإسرائيلي أو قصة تحرير مصر من الاحتلال البريطاني أو قصة منجزات وأخطاء ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ .. ربما كانت ذلك كله وأكثر .. ولكنها في المقام الأول قصة البحث عن الذات — ذاتي وذات مصر — ذلك الكيان الواحد الذي أشرق في نفسي منذ الطفولة عندما توحدت ذاتي مع ذات بلادي أرضاً وشعباً .

هل نجح البحث ؟ هل استطعت تحقيق صورة تلك الذات التي وضعتها نصب عيني منذ طفولتي المبكرة ؟ أترك للقارئ الحكم على ذلك — فكل ما أستطيع أن أقوله — وحسب مبلغ علمي — هو هذا :

لم يستهوني يوماً بريق المتع الدنيوية ولم أحاول قط أن أبني سعادتي على حساب شقاء الآخرين . فأنا أصدر في كل قرار أتخذه وكل عمل أقوم به عن الإيمان الراسخ بحق الإنسان في الكرامة والحرية والسلام والمساواة .

لقد وجدت ذاتي في الصداقة .. وفي الحب .. وفي العمل الذي يرقى بحياة من حولي .. وفي انتصار الحق على الباطل .. بالاختصار في كل ما من شأنه تحقيق صورة كياني الذي هو كيان بلادي .

لم أسع يوماً وراء السلطة إذ اكتشفت في فجر حياتي أن قوتي تنبع من داخلي — من إيماني المطلق بالخير والحق والجمال .

وأحمد الله أنني لا أختلف اليوم عما كنت منذ سنوات بعيدة ، عندما كنت أصحو مع شروق الشمس وأخرج إلى الحقول لأعمل مع الآخرين حتى تعود إلى الأرض الحياة .. وتحمل الأشجار اليابسة الثمار مرة أخرى ...

لم ينته البحث بعد .. وأعتقد أنه لن ينتهي يوماً ما .. إذ أننا في كل عمل نتخذه لتحقيق ذواتنا نحقق إرادة الله وإرادته عز وجل خالدة .

مازال أمامي وأمام شعبي طريق طويل لابد أن نقطعه حتى نصنع حياة يسودها الحب والسلام والرخاء والاكتمال .

وفقنا الله وهدى خطانا وخطى الجميع في كل مكان .

وثائق

الرسالة التى وجهها السيد الرئيس

لبريجنيف فى ٣٠ أغسطس ١٩٧٢

الصديق العزيز الرئيس ليونيد بريجنيف

السكرتير الأول للحزب الشيوعى السوفييتى

أكتب اليك شخصيا لثقتى فى مشاعرك الصديقة التى لمستها بنفسى خلال لقاءاتنا المتعددة لعلنا نخرج من الدائرة المفرغة التى تجتازها العلاقات بين بلدينا والتى أصبحت تتسم بسوء الفهم الذى أحس أنه سيتفاقم اذا لم تتضح الأمور.

لذلك سيكون رائدى فى هذا الخطاب الصراحة التامة مهما كانت حتى نكون على علم بوجهة نظرنا كاملة بعيدا عن أى تحليلات مشبوهة أو مؤثرات مفتعلة .

١ - ان تجربتكم فى الحرب العالمية الثانية مازالت ماثلة فى أذهاننا ، فلقد رفضت الشعوب السوفيتية الاحتلال النازى ولم تستطع صبرا على استمراره ،وحاربت بشجاعة وقدمت كل التضحيات من أجل تحرير الأرض ولم تبخل بشىء من اجل الحفاظ على كرامتها ، ومن ثم فليس غريبا أن يكون الشعب العربى فى مصر هو الاخر حريصا على تحرير أرضه مستعدا لتقديم كل

التضحيات فى هذا السبيل مهما بلغت .

ومن هنا فى تقديرى يجب أن تكون نقطة البدء الصحيحة .

٢ - من أجل ذلك فانني أجد أن واجب الحرص على صداقتنا يقتضيني أن أبدأ هذه الرسالة من حيث انقطع الحوار بيننا بعد آخر مقابلة فى ابريل سنة ١٩٧٢ لكى أدخل الى صلب الموضوع الذى أدى الى هذه الوقفه بيننا لعلنا نستطيع ان نكمل هذا الحوار ونصل الى جوهر المشكلة ، فاذا استطعنا التفهم لوجهة نظر كل منا أمكن معالجة كل الظواهر الاخرى .

٣ - لعلك توافقنى أيها الصديق العزيز على أننى كنت حريصا أشد الحرص على استمرار صداقتنا ودعمها فى جميع المجالات ، ومن ثم كانت زياراتى الاربع لموسكو فى مارس وأكتوبر ١٩٧١ ثم فى فبراير وابريل من العام الحالى ، ولقد كان الموضوع الاساسى فى جميع هذه اللقاءات هو بحث مشكلة العدوان الاسرائيلى والخطوات التى يلزم ان نتبعها لتحرير الارض .

وهنا أرجو أن تسمح لى أن أذكرك أننى كنت حريصا فى جميع اللقاءات التى تمت مع القادة السوفييت

برئاستكم على تأكيد مبدأين رئيسيين ،

أولهما ... أننا لانريد ان يحارب معركتنا أحد غير جنودنا .

ثانيهما ... اننا لانريد ولانسعى الى ان تكون معركتنا سببا فى مواجهة بين الاتحاد السوفييتى والولايات المتحدة لما يجنبه ذلك من كارثة للعالم كله ، واننى كنت أقول بالحرف الواحد ان من يسعى الى ذلك مجنون بلاشك .

ولقد كان الرأى الذى اتفقنا عليه فى لقاءاتنا وخاصة فى اللقاء الاخير فى ابريل سنه ١٩٧٢ هو أن اسرائيل ومن ورائها الولايات المتحدة لن يتحركا لتحقيق حل للمشكلة سواء كان سلميا اوغير سلمى الا اذا احست اسرائيل بأن قوتنا العسكرية اصبحت قادرة على أن تتحدى التفوق العسكرى الاسرائيلى وعندئذ فقط ستجد اسرائيل وايضا الولايات المتحدة ان مصلحتها الوصول الى حل للمشكلة .

وفى مناقشاتنا المتكررة كنت أذكر انه يكون لدينا سلاح للردع ، يجعل العدو يتردد فى ضرب عمق اراضينا كما فعل فى الماضى عندما يعلم اننا سنكون قادرين

(٤)

على الوصول الى عمق اراضيه .

وكان واضحا ولايزال اننا بدون توفر سلاح الردع فلن نكون قادرين على التحرك عسكريا وبالتالى فلاحاجة تدعو اسرائيل الى ان تغير من موقفها المتعنت بالنسبة للوصول الى أية تسوية للمشكلة .

٥ - من هنا كانت رسالتى لك مع المارشال جريتشكو الذى زارنا فى مايو سنة ١٩٧٢ قبل اجتماع موسكو بأيام ، وقد عملت من جانبى على أن تنجح زيارته على أروع صورة ، ووافقت على اصدار البيان الذى أتى به من موسكو ، وكان هذا البيان ينص على ان الطيارين المصريين قد استخدموا الطائرات الاسرع من الصوت ثلاث مرات (ميج ٢٣) وان قاذفات مقاتلة جديدة قد استخدمت فى مصر .

وكان هذا كله غير صحيح ..

ولكننى وافقت على اصدار ماصدر لكى تنجح الزيارة كما قلت ، ولاننى كنت أعرف أهداف الزيارة السياسية خاصة قبل اجتماع موسكو بأيام ،وأردت كصديق أن يكون حديثكم فى موسكو من موقع القوة .

(٥)

ولكننى فى نفس الوقت حملت المارشال جريتشكو رسالة محددة لك عما يجب ان يكون عليه تصرفنا بعد اجتماع موسكو ، لان التكهن بنتائج اجتماع موسكو بالنسبة لمشكلتنا لم يكن لغزا ولا معضلة ، وحددت ٣١ أكتوبر ١٩٧٢ نهاية لما يجب ان ننجزه فى هذه الفترة ، وهى فترة تكفى بالكاد لكى نكمل استعدادنا لجولة مابعد الانتخابات الامريكية ، وكما أبلغت المارشال جريتشكو فأننا فى حاجة الى كل ساعة وكل دقيقة الى ذلك التاريخ حتى ننجز ماهو ضرورى لدخول الجولة الجديدة من أرض صلبة .

حين أبلغنى سفيركم برسالتكم عن نتيجة اجتماع موسكو يوم ٦ يونيو ، أى بعد الاجتماع بحوالى العشرة أيام ، لم يكن هذا جديدا ولا مستغربا لنا ، وأرسلت لك فى نفس اليوم رسالة محددة فى نقاط سبع أكدت فيها رسالتى لك مع المارشال جريتشكو وبتحديد والحاحى أن لانضيع الوقت الى ٣١ أكتوبر فكل دقيقة لها ثمن.

وفى هذه الرسالة تجدون أننى طلبت رسميا حل مشكلة القيادة والسيطرة فورا ، فلا يحتمل ان تكون هناك وحدات سوفيتية فى مصر ولاتخضع للقيادة المصرية .

٧ - بعد شهر كامل وبعد الحاح منا مرة عن طريق رئيس الوزراء ومرة عن طريق وزير الخارجية ، جاءت رسالتك لى التى تسلمتها فى ٨ يوليو ، علما باننى كما أخطرتك من قبل كنت أحسب اليوم والساعة والدقيقة .

وكانت رسالة مخيبة للامال لانها تجاهلت بالكامل كل ماسبق أن ارسلته لك سواء مع المارشال جريتشكو او فى ٦ يونيو ، ولكنها أكدت لى حقيقة هى أن هذا الاسلوب فى التعامل والتجاهل لاوضاعنا ومعركتنا ينبع من عقلية عانينا منها طوال السنوات الخمس بعد العدوان ، وحاولت أنا مرارا طوال سنة ونصف أن أنبه اليها ولكن بدون فائدة .

ومن أجل هذا رفضت هذه الرسالة ورفضت أيضا الاسلوب ، وكان لابد لنا من وقفة كأصدقاء نحدد فيها مواقفنا بصراحة .

وأود أيها الصديق ان ألخص لك انطباعاتى فى تلك الفترة ، لان من حقك كصديق ان تعرف مبررات قراراتى .

الازمة متجمدة ولاتوجد طرق متاحة للتحرك .

الادعاء الامريكى يتصاعد حتى بعد اجتماع موسكو بقدرة الولايات المتحدة وحدها ووحدها فقط على الحل...

اسرائيل تزداد عربدة فى المنطقة العربية بلا رادع ..

البيان الصادر عن مؤتمر موسكو يقول بالاسترخاء العسكرى فى المنطقة بعد حل المشكلة ..

رسالتكم فى ٨ يوليو تتجاهل بالكامل ما اتفقنا عليه ومايتحتم علينا ان نتخذه من اجراءات نؤمن أنها ضرورية لتمكننا من التحرك عسكريا اذا لزم الامر بعد الانتخابات الامريكية ..

امريكا تعطى اسرائيل بلا حساب ، وتجدد لها سلاح الطيران بالكامل بخلاف الاسلحة المتطورة الاخرى.

موقفكم بعد الرسالة يوضح ان الحظر الجزئى الذى فرضتموه علينا بالنسبة لاسلحة الردع منذ خمس سنوات امتد فى هذه الفترة الحرجة الى ضرورات اساسية كتبت لك عنها فى رسالتى بالتحديد وتجاهلتموها بالكامل .

من كل هذه الاعتبارات كان قرارى بانهاء مهمة

المستشارين كوقفة ننهى بها مرحلة لابد ان تنتهى لكى تبدأ مرحلة جديدة بفهم جديد وتقدير جديد وتحديد لمواقفنا .

دعنى أيها الصديق ان أضرب لك امثلة مما يدور داخل قواتنا المسلحة وبالتالى بين الشعب ، فليست القوات المسلحة الا أبناء منه ، وكان يجب على المستشارين ان يبلغوكم بها قبل ان يتفاقم الامر .

أ - <u>فى البحرية مثلا :</u>

ظل قائد البحرية طوال أربع سنوات يطالب بجهاز جديد لكشف الغواصات لان الجهاز السوفييتى الذى لدينا مداه نصف كيلو متر فقط ، وكان الـرد ولايزال الى يومنا هذا انه لايوجد غير هذا فى الاتحاد السوفييتى فى الوقت الذى يعرف فيه كل ضباط البحرية عندنا ان سنتكم مزودة بجهاز يكشف الغواصات الى الافق (.. Horizon) وهو مالدى الغرب أيضا ، وليس هذا سرا فنحن لسنا دولة متخلفة ، وانما نحن نقرأ ماعند الشرق والغرب ، ونتابع العالم كله ، والادهى من ذلك ان سفن اسطولكم تعيش بيننا .

فى أسواق الغرب معروض جهاز الكشف الى الافق ، وليس سرا ، ومعروض لها أجهزة لمسافات على الاقل عشرين مرة اكثر مما عندنا وليس سرا أيضا .

فماذا يكون تعليق ضباط البحرية ...؟

ب - <u>فى الطيران مثلا :</u>

كل ضباط الطيران - وهم خريجو كلياتكم - يعلمون ان لديكم طائرات متفوقة مثل (M 500) التى كانت عندنا ، ولكن كل شىء عندكم سر ولا يقترب منه أحـد .

طائرات الصواريخ عندنا سرعتها وهى تحمل الصواريخ نصف سرعة طائرة الركاب البوئن ٦٢ التجارية والبوينج ، والصاروخ ينطلق منها بسرعة أقل من سرعة الصوت ويظل معرضا أكثر من ٦ دقائق للاسلحة المضادة ، فى الوقت الذى تحمل فيه الفانتوم ذات المرتين وربع سرعة الصوت الصاروخ الامريكى شرايك وينطلق بأسرع من الصوت طبعا ، وقد نبهتكم فى حينه عن طريق سفيركم وقبل ان يطلق علينا عشرة صواريخ منه ..

فماذا يكون تعليق ضباط الطيران .. ؟

جـ - فى الجيش :

أرسلتم لنا مدفع ١٨٠ مم نظير المدفع ١٧٥ مم الذى زودت امريكا اسرائيل به ، ولكن المقارنة رهيبة .

المدفع الامريكى محمل على دبابة وسريع الحركة ومعه ادوات ادارة النيران لكى يضرب الى أقصى مدى ... ومدفعكم ثابت يحتاج الى عشرين فرد لتحريكه وليس معه ادوات ادارة النيران لكى يصل الى أقصى مدى فلايكون هجوميا وهو مايدخل فى الحظر .

امريكا ارسلت اعداد غير محددة من هذا المدفع الهجومى لاسرائيل ، كما أعلن .

وأنتم ارسلتم لنا أربعة مدافع فقط على جبهة طولها ١٦٠ كم .

ضباطنا يعرفون ان لديكم ماهو أقوى من المدفع الامريكى ومحمل ايضا ، ولكنه كالعادة سر ، ومستشاروكم يقولون ليس لدينا شىء .

فماذا يكون تعليق ضباط المدفعية .. ؟

وفى المشاه يعرف كل ضابط وجندى ان اسلحة فتح الثغرات تساوى حياته عند بدء العمليات ، ومع ذلك فما لدينا منها هو اسلحة الحرب الثانية وكل ضباطنا وهم متعلمون فى فرونز يعرفون ان لديكم ولدى الغرب - وليس سرا - صواريخ تفتح الثغرات ، وألححنا سنتين فى طلبها الى اليوم ، والرد كما هو ، لايوجد فى الاتحاد السوفييتى .

هذه عينات بسيطة من مئات الامثلة ، أستطيع أن اسوقها لك ، يعرفها كل ضابط وجندى فى فروع القوات المسلحة وانتقلت الى الشعب .

فهل هذا هو اسلوب تعاون الصديق ؟ .

ان جهازنا الدفاعى ينقصه الكثير من التفاصيل برغم أننا نقول للناس وللعالم بعكس ذلك ، وهذا هو ما أريد ان نقف عنده لكى نناقش العقلية التى وراء كل هذا .

انكم تعاملوننا وكأننا دولة متخلفة لانعرف شيئا فى الوقت الذى تلقى فيه ضباطنا العلم فى مدارسكم كضباطكم تماما ، علاوة على أننا نتابع

العالم شرقه وغربه فى كل شىء وهو ليس سرا لان التسليح مكتوب فى كتب متداولة فى العالم كله ، وعندما يسأل المستشارون السوفييت كانوا يجيبون اما بالصمت او بأنه ليس لدى الاتحاد السوفييتى .

ونحن نعلم وغيرنا يعلم ان لدى الاتحاد السوفييتى كل شىء ...

٩ - وأصارحك ايها الصديق اننى استشعر الان خطورة شديدة على مستقبل علاقاتنا .. اخطر ما فيها انها ستترك لدى شعبنا مرارة من الاتحاد السوفييتى .

فلكم الحق كل الحق بعد صدور قراراتى بشأن تتخذوا الموقف الذى ترونه مناسبا لمصالحكم . ولكننى لا أعتقد ابدا ان من مصلحتكم ان تتركوا لدى شعبنا مرارة من الاتحاد السوفييتى بعد هذا الشوط الطويل من الصداقة والبناء الذى أتممناه سويا ..

ان قرار سحب الطائرات (M 500) بعد ان صدر بيان سوفييتى مصرى اثناء زيارة المارشال جريتشكو بأن الطيارين المصريين استخدموها فى نظرى هو من اسوأ القرارات التى تصيب شعبنا وقواتنا المسلحة بالمرارة .

وقرار سحب اجهزة التشويش التى كان يعمل عليها افراد سوفييت بحجة انها سرا أو أننا لانستطيع تشغيلها او أى حجة اخرى هو ايضا فى نظرى من اسوأ القرارات التى تصيب الصداقة السوفييتية المصرية فى الصميم .

ان معنى هذه القرارات هو فرض الشروط من جانب الاتحاد السوفييتى ...

ولقد كسرنا احتكار السلاح فى العالم سويا منذ سنة ١٩٥٥ ...

وأمر آخر أخطر ..

اننا فى معركة نواجه عدوا مزودا بكل شىء..

فماذا يكون استنتاج المواطن العادى ..

اننى اترك لك تقدير كل ذلك ، ولكننى أكون مقصرا فى حق صداقتنا اذا لم اذكر لك كل هذا بمثل هذه الصراحة .

١٠- امرا اخيرا أريده ان يكون واضحا امامك ..

لقد سبق لى ان حددت بتاريخ ٢١ اكتوبر فى رسالتى لك مع المارشال جريتشكو وفى رسالتى لك مع سفيركم فى ٦ يونيو ، واخطركم ايضا به رئيس الوزراء فى زيارته الاخيرة لكم .

لقد كان هدفنا من زيارة رئيس الوزراء لكم هو اصدار بيان مشترك يوفر علينا كل هذا الدس والتشفى، ولكنكم رفضتم ..

ويهمنى أن اقول لك بكل صدق وصراحة اننى متمسك بهذا الموعد ٣١ اكتوبر كتاريخ فاصل بيننا ..

وأرجوك مخلصا وبأخوة ان تدرك اننى لاأوجه انذارا كما يحلو للبعض ان يفسر فنحن لانوجه لاحد انذارات، لاننا لانقبل ان توجه الينا من احد انذارات.

ولكن هذا التاريخ مبنى على عاملين احدهما سياسى والآخر عسكرى ..

اما العامل السياسى فهو اننا حسب اتفاقنا فى آخر لقاء وفى رسائلى لكم سنجد انفسنا بعد انتخابات الرئاسة الامريكية فى وضع سنواجه فيه تحركا امريكيا واسرائيليا يهدف الى فرض حل لصالح اسرائيل ومالم نكن على أرض صلبة عسكريا كما اتفقنا فاننا سندخل الى الحلقة المفرغة مرة أخرى ... مهمة يارنج .. وقرار مجلس الامن .. واسرائيل لاتتحرك لتفوقها.

اما العامل الثانى وهو العسكرى، فتستطيع ان تسأل العسكريين عندك ماذا سيكون عليه التفوق الاسرائيلى فى نوفمبر وديسمبر القادمين.

ان اسرائيل ستكون قد استوعبت بالكامل كل التجديد فى طيرانها بالاعداد الكبيرة من الفانتوم والسكاى هوك، وستتسع الفجوة بيننا بأخطر ماهى الان ..

وهكذا يتضح لك ايها الصديق ان لهذا التاريخ مدلولا سياسيا وعسكريا سبق ان اتفقنا عليه.

وبعد ...

اننا فى مصر سنظل عارفين بالجميل لمساعدتكم، وليس ادل على ذلك من اننى عندما اعلنت قرارات انهاء مهمة المستشارين السوفييت خرجت فى احاديثى الى الشعب العربى فى مصر وفى المنطقة كلها على تأكيد دور الاتحاد السوفييتى فى مساندتنا.

ولكن واجب الامانة يدعونى ان اذكر أن اولوية أولى فى هذا التعاون الذى ترغبه هى فى تمكيننا من تحرير اراضينا.

اننا نرغب فى دعم التعاون بيننا الى أقصى مدى..

وهذا المدى سيحدده المدى الذى يذهب اليه اصدقاؤنا فى الاتحاد السوفييتى فى مدنا بمايساعدنا على حل مشكلتنا الاولى والاخيرة وهى تحرير الارض.

لقد كتبت اليك لكى أطلب تدخلك شخصيا لثقتى الكاملة فى مشاعرك وفهمك لقضيتنا وحماسك من أجل حلها.

ان مشكلة تحرير الارض هى كل شىء فى حياتنا وسلوكنا وعلاقاتنا وتصرفاتنا وان أخوف ما أخافه ان لايقدر البحث هذا الامر حق قدره، فتحل المرارة بدلا من الصداقة.

وبعد ذلك فاذا كنتم ترون فيما أوضحت مايساعد على تفهم اكثر لظروفنا، فان الدكتور عزيز صدقى رئيس الوزراء على استعداد للسفر فى زيارة خاصة للاتحاد السوفييتى فى الوقت الذى ترونه مناسبا للتمهيد لمقابلتنا سويا واجراء بحث مستفيض لكل الامور حتى تتقدم علاقاتنا فى المستقبل على قاعدة صلبة من الثقة والتعاون القائم على الصراحة المتبادلة لتحقيق مصالحنا المشتركة.

أرجو ان تتقبلوا خالص مودتى وتقديرى، مع أطيب تمنياتى لكم شخصيا ولزملائكم القادة السوفييت والشعب السوفييتى الصديق.

القاهرة فى ١٩٧٢/٨/٣٠

بسم الله

توجيه صادر الى القائد العام للقوات المسلحة

ووزير الحربية الفريق أول احمد اسماعيل على

أولا – عن الوضع العام

١ – لقد مضت حتى الان اكثر من ست سنوات على احتلال العدو الاسرائيلى لاجزاء من التراب العربى.

٢ – ان اسرائيل مؤيدة بدعم أمريكى خصوصا فى مجال امدادات السلاح .. حاولت وتحاول فرض ارادتها علينا وانهاء أزمة الشرق الاوسط على نحو يحقق لها سيطرة شبه مطلقة فى المنطقة العربية وفى أمنها وفى مصائرها .

٣ – ان مصر حاولت بكل الوسائل ، ومنذ صدر قرار وقف اطلاق النار عن مجلس الامن فى ٨ يونية ١٩٦٧ أن تجد

(يتبع)

حلا للازمة .. وفى هذا السبيل فقد تنوعت وسائلها من قبول قرار مجلس الامن رقم ٢٤٢ بتاريخ ٢٢ نوفمبر ١٩٦٧ الى قبول جهود السفير جونار يارنج ، ثم جهود الدول الاربعة الكبرى ، ثم جهود قامت بها القوتان الاعظم ، ثم مبادرة تقدم بها وزير الخارجية الامريكية وليام روجرز ، حتى تقدمت مباشرة بمبادرة لحل يكون فيه فتح قناة السويس بداية لمراحل انسحاب شامل تطبيقا لقرار مجلس الامن .

ولكن كل هذه الجهود لم تصل الى نتيجة ، فهى اما فشلت أو توقفت .. أو حاول اعداؤنا الخروج بها عن مقاصدها .

٤ – ان مصر قامت بعمليات عسكرية ذات طابع محدود فى سنوات ١٩٦٨ و ١٩٦٩ و ١٩٧٠ ، كذلك قدمت دعما كبيرا لقوات المقاومة الفلسطينية لمباشرة عمليات

(يتبع)

فدائية على الخطوط أو داخل الارض المحتلة .. ولكن هذه العمليات كلها وان أدت الى نتائج لها أثرها فانها لاسباب متعددة لم تصل فى ضغطها على العدو الى الحد اللازم .

٥ - ان مصر كانت تدرك طول الوقت انه سوف يجئ وقت يتعين عليها فيه أن تتحمل مسئولياتها .. وكان اهم ما يجب ان تعنى به هو أن توفر لهذا اليوم كل ما تستطيع .. وفى حدود طاقتنا .. ومع التزامنا بواجب الدفاع عن التراب والشرف .

٦ - ان الشعب فى مصر تحمل باكثر مما كان يتصور أحد خصومه وأصدقاؤه على السواء .. ولقد كانت الاعباء التى تحملها الشعب ، مادية ومعنوية ، اعباء فادحة لا يحملها الا شعب يؤمن بالحرية ويضحى فى سبيلها .

(يتبع)

٧ - أن تطورات مهمة طرأت على الموقف السياسى العربى عموما وزادت من احتمالات تأثيره .. ومع تزايد أهمية أزمة الطاقة وأزمة النقد فى العالم فان النفط العربى فى أحوال ملائمة يستطيع أن يكون عاملا له قيمته .

٨ - أن تأثيرات الموقف العربى العام تجلت بشكل واضح فى أوضاع تسليحنا .. فالى جانب ما حصلنا عليه من الاتحاد السوفييتى والكتلة الشرقية ، وهو كثير ، فقد اتيحت لنا من مصادر أخرى أنواع من السلاح لم تكن متوفرة لنا .

٩ - ان العدو فى شبه عزلة عالمية بعد الجهود المصرية الناجحة فى مجلس الامن والجمعية العامة للامم المتحدة ومؤتمر منظمة الوحدة الافريقية الاخير فى أديس ابابا ، ومؤتمر الدول غير المنحازة الذى لحقه فى الجزائر .

(يتبع)

١٠ - ان الموقف الدولى يتغير .. وما زالت حركتـه محصورة .. وقد نجد أنفسنا أمام موازنات طويلة الاجل تؤثر على حرية حركتنا وعلى حقنا فى اختيار أنسب البدائل .

ثانيا - عن استراتيجية العدو ..

ان العدو الاسرائيلى كما نرى انتهج لنفسه سياسة تقوم على التخويف ، والادعاء بتفوق لا يستطيع العرب تحديه .. وهذا هو اساس نظرية الامن الاسرائيلى التى تقوم على الردع النفسى والسياسى والعسكرى .

ان نقطة الاساس فى نظرية الامن الاسرائيلى هى الوصول الى اقناع مصر والامة العربية انه لا فائدة من تحدى اسرائيل ، وبالتالى فليس هناك مفر من الرضوخ لشروطها حتى وان تضمنت هذه الشروط تنازلات من السيادة الوطنية .

(يتبع)

ثالثا - عن استراتيجية مصر فى هذه المرحلة

ان الهدف الاستراتيجى الذى يتحمل المسئولية السياسية فى اعطائه للقوات المسلحة المصرية .. وعلى اساس كل ما سمعت وعرفت من أوضاع الاستعداد يتلخص فيما يلى :

تحدى نظرية الامن الاسرائيلى وذلك عن طريق عمل عسكرى حسب امكانات القوات المسلحة يكون هدفه الحاق اكبر قدر من الخسائر بالعدو واقناعه انه مواصلة احتلاله لاراضينا يفرض عليه ثمنا لا يستطيع دفعه .. وبالتالى فان نظريته فى الامن - على اساس التخويف النفسى والسياسى والعسكرى - ليس درعا من الفولاذ يحميه الان أو فى المستقبل .

واذا استطعنا بنجاح أن نتحدى نظرية الامن الاسرائيلى فان ذلك سوف يؤدى الى نتائج محققة فى المدى القريب وفى المدى البعيد .

(يتبع)

في المدى القريب : فان تحدى نظرية الامن الاسرائيلي يمكن أن يصل بنا الى نتائج محققة تجعل في الامكان ان نصل الى حل مشرف لازمة الشرق الاوسط .

وفي المدى البعيد : فان تحدى نظرية الامن الاسرائيلي يمكن أن يحدث متغيرات تؤدى بالتراكم الى تغيير اساسي في فكر العدو ونفسيته ونزعاته العدوانية .

رابعا ـ عن التوقيت

ان الوقت من الان ، ومن وجهة نظر سياسية ملائمة كل الملائمة لمثل هذا العمل الذى اشرت اليه في ثالثا من هذا التوجيه .

ان أوضاع الجبهة الداخلية وأوضاع الجبهة العربية العامة بما في ذلك التنسيق الدقيق على الجبهة الشمالية ، وأوضاع المسرح الدولي تعطينا من الان فرصة مناسبة للبدء .

(يتبع)

ومع العزلة الدولية للعدو .. ومع الجو الذى يسود عنده بنزاعات الانتخابات الحزبية وصراعات الشخصيات ـ فان احتمالات الفرصة المناسبة تصبح احسن أمامنا .

القاهرة ٥ رمضان ١٣٩٣
اول اكتوبر ١٩٧٣

رئيس الجمهورية
محمد أنور السادات

توجيه إستراتيجي من رئيس الجمهورية

والقائد الأعلى للقوات المسلحة

الى : الفريق أول أحمد اسماعيل على

وزير الحربية والقائد العام للقوات المسلحة

١- بناء على التوجيه السياسي العسكري الصادر لكم مني في أول أكتوبر ١٩٧٣ وبناء على الظروف المحيطة بالموقف السياسي والاستراتيجي :

قررت تكليف القوات المسلحة بتنفيذ المهام الاستراتيجية الآتية :

أ- إزالة الجمود العسكري الحالي بكسر وقف إطلاق النار إعتبارا من يوم ٠٦ أكتوبر ١٩٧٣

ب- تكبيد العدو أكبر خسائر ممكنة في الأفراد والأسلحة والمعدات

جـ- العمل على تحرير الأرض المحتلة على مراحل متتالية حسب نمو وتطور إمكانيات وقدرات القوات المسلحة

٢- تنفذ هذه المهام بواسطة القوات المسلحة المصرية منفردة أو بالتعاون مع القوات المسلحة السورية

أنور السادات

رئيس الجمهورية

٩ رمضان ١٣٩٣ هـ

٥ أكتوبر ١٩٧٣م



برقيـــة

رقم ٣٠ بتاريـــــــخ ٢٠/ ١٠/ ١٩٧٣

الـــى الرئيس حافظ الاســـد

لقد حاربنا اسرائيل الى اليوم الخامس عشر . وفى الاربعة الايام الاولى كانت اسرائيل وحدها فكشفنا موقفها فى الجبهـــة المصرية والسورية وسقط لهم باعترافهم ٨٠٠ دبابة علـــــى الجبهتين واكثر من مائتى طائرة .

اما فى العشرة الايام الاخيرة فاننى على الجبهة المصريـــة أحارب امريكا بأحدث مالديها من اسلحة . انى ببساطة لا استطيع أن أحارب امريكا أو أن أتحمل المسئولية التاريخية لتدميـــر قواتنا المسلحة مرة اخرى .

لذلك فاننى أخطرت الاتحاد السوفيتى بانني اقبل وقف اطلاق النار على الخطوط الحالية بالشروط التالية :

١- ضمان الاتحاد السوفيتى والولايات المتحدة لانسحاب اسرائيل كما عرض الاتحاد السوفيتى .

٢- بدء مؤتمر سلام فى الامم المتحدة للاتفاق على تسوية شاملة كما عرض الاتحاد السوفيتى .

ان قلبى ليقطر دما وانا أخطرك بهذا ولكننى أحس أن مسئوليتى تحتم على اتخاذ هذا القرار . ولسوف أواجه شعبنـــا وأمتنا فى الوقت المناسب لكى يحاسبنى الشعب .

مع أطيب تمنيا تــــى .

٢٠/١٠/١٩٧٣

خطــاب الرئيس
السادات في الكنيست
(٢٠-١١-١٩٧٧)

السيد الرئيس
أيها السيدات والسادة
السلام عليكم .. ورحمــة الله
والسلام لنا جميعاً .. بإذن الله

السلام لنا جميعاً .. على الأرض العربية وفي إسرائيل .. وفي كل مكان من أرض هذا العالم الكبير المعقــد بصراعاته الدامية ، المضطرب بتناقضاته الحادة ، المهدد بين الحين والحين بالحروب المدمرة ، تلك التي يصنعها الإنسان ليقضى بها على أخيه الإنسان وفي النهاية ، وبين أنقاض ما بنى الإنسان وبين أشلاء الضحايا من بنى الإنسان ، فلا غالب ولا مغلــوب ، بل إن المغلوب الحقيقي دائماً هو الإنسان .. أرقى ما خلقه الله .. الإنسان الذي خلقه الله – كما يقول غانــدى قديس السلام – ، لكى يسعى على قدميه ، يبنى الحياة .. ويعبد الله ،

وقد جئت إليكم اليوم على قدمين ثابتتين ، لكى نبنى حياة جديدة لكى نقيم السلام وكلنا على هذه الأرض ، أرض الله : كلنا مسلمون ومسيحيون ويهــود .. نعبد الله ولا نشرك به أحداً .. وتعاليم الله .. ووصاياه .. هى حب وصدق وطهــارة وسلام .

وإنى التمس العذر لكل من استقبل قرارى عندما أعلنته للعالم كله ، أمام مجلس الشعب المصرى ، بالدهشة ، بل بالذهول بل أن البعض قد صورت له المفاجأة العنيفة أن قرارى ليس أكثر من مناورة كلامية للاستهلاك أمام الرأى العام العالمى ، بل وصفه بعض آخر بأنه تكتيك سياسى لكى أخفى به نواياى في شن حرب جديدة .

ولا أخفى عليكم أن أحد مساعدى في مكتب رئيس الجمهــورية اتصل بى في ساعة متأخرة من الليل بعــد عودتى إلى بيتى من مجلس الشعب ، ليسألنى في قلق : وماذا تفعل يا سيادة الرئيس لو وجهت إليك إسرائيل الدعوة فعلا فأجبته بكل هدوء : سأقبلها على الفور ..

لقد أعلنت أنى سأذهب إلى آخر العالم . سأذهب إلى إسرائيل لأنى أريد أن أطرح الحقائق كاملة أمام شعب إسرائيل .

إنى التمس العذر لكل من أذهله القرار .. أو تشكك في سلامة النوايا وراء إعلان القرار فلم يكن أحد يتصور أن رئيس أكبر دولة عربية ، تتحمل العبء الأكبر والمسئولية الأولى في قضية الحرب والسلام ، في منطقــة الشرق الأوسط يمكن أن يعرض قراره بالاستعداد إلى الذهاب إلى أرض الخصم . ونحن لا نزال في حالة حرب ، بل نحن جميعاً لا نزال نعانى من آثار أربع حروب قاسية خلال ثلاثين عاماً ، بل أن أسر ضحايا حرب أكتوبر ٧٣ لا تزال تعيش مآسى الترمل وفقد الأبنــاء واستشهاد الآباء والأخوات .

كما أنني – كما سبق أن أعلنت من قبل – لم أتداول في هذا القرار مع أحد من زملائى وأخوتى رؤساء الدول العربية ، أو دول المواجهة .. ولقد اعترض من اتصل بى منهم بعد إعلان القرار ، لأن حالة الشك الكاملة ، وفقدان الثقة الكاملة ، بين الدول العربيــة والشعب الفلسطينى من جهــة وبين إسرائيل من جهة أخرى ، لا تزال قائمة في كل النفوس ويكفى أن أشهراً طويلة كان يمكن أن يحل فيها السلام ، قد ضاعت سدى ، في خلافات ومناقشات لا طائل منها حول إجراءات عقــد مؤتمر جنيف ، وكلها تعبر عن الشك الكامل ، وفقدان الثقة الكاملة .

ولكنى – أصارحكم القول بكل الصدق أنى اتخذت هذا القرار بعد تفكير طويل ، وأنا أعلم أنه مخاطرة كبيرة ، لأنه إذا كان الله قد كتب لى قدرى أن أتولى المسئولية عن شعب مصر ، وأن أشارك في مسئولية المصير بالنسبة للشعب العربى والشعب الفلسطينى ، فإن أول واجبات هذه المسئولية أن استنفد كل السبل ، لكى أجنب شعبى المصرى العربى ، وكل الشعب العربى ، ويــلات حروب أخرى محطمــة ، مدمرة ، لا يعلم مداها إلا الله .

وقد اقتنعت بعد تفكير طويل ، أن أمانة المسئولية أمام الله ، وأمام الشعب ، تفرض على أن أذهب إلى آخر مكان في العالم .. بل أن أحضر إلى بيت المقدس ، لأخاطب أعضاء الكنيست ممثلى شعب إسرائيل بكل الحقائق التى تعتمل في نفسى ، وأتركــكم بعد ذلك لكى تقرروا لأنفسكم وليفعل الله بنا بعــد ذلك ما يشاء .

أيها السيدات والسادة :

إن في حياة الأمم والشعوب لحظــات يتعين فيها على هؤلاء الذين يتصفون بالحكمة والرؤية الثاقبة أن ينظروا إلى ما وراء الماضى بتعقيداته ورواسبه من أجــل انطلاقة جسورة نحو آفاق جديدة .

وهؤلاء الذين يتحملون مثلنا تلك المسئولية الملقاة على عاتقنا هم أول من يجب أن تتوفر لديهم الشجاعة لاتخاذ القرارات المصيرية التى تتناسب مع جلال الموقف ، ويجب أن نرتفــع جميعاً فوق جميع صور التعصب وفوق خــداع النفس وفوق نظريات التفوق البالية فمن المهم الا ننسى أبداً أن العصمة لله وحده ..

وإذا قلت إنى أريد أن أجنب كل الشعب العربى ويلات حروب جديدة مفجعــة ، فإنى أعلن أمامكم بكل الصدق ، إنى أحمل نفس المشاعر وأحمل نفس المسئولية لكل إنسان في العالم وبالتأكيد نحو الشعب الإسرائيلى

ضحية الحرب : الإنسان ..

إن الروح التى تزهق في الحرب ، هى روح إنسان ، سواء كان عربياً أو إسرائيلياً .

إن الزوجة التى تترمل .. هى إنسانة من حقها أن تعيش في أسرة سعيدة سواء كانت عربية أو إسرائيلية ..

إن الأطفال الأبرياء الذين يفقــدون رعاية الآباء وعطفهم هم أطفالنا جميعاً . على أرض العرب ، أو في إسرائيل لهم علينا المسئولية الكبرى في أن نوفر لهم الحاضر الهانىء والغد الجميل ..

من أجل كل هذا ، ومن أجــل أن نحمى حياة أبنائنا وأخواتنا جميعاً .

من أجل أن تنتج مجتمعاتنا ، وهى آمنة مطمئنة .. من أجل تطــور الإنسان وإسعاده وإعطائه حقه في الحياة الكريمة ، من أجل مسئوليتنا أمام الأجيال المقبلة .

من أجل بسمة كل طفل يولد على أرضنا .

من أجل كل هذا اتخذت قرارى أن أحضر إليكم – رغم كل المحاذير – لكى أقول كلمتى .

ولقد تحملت وأتحمل مطالبات المسئولية التاريخية ، من أجل ذلك أعلنت من قبل ومنذ أعوام وبالتحديد في ٤ فبراير ١٩٧١ ، أننى مستعد لتوقيع إتفاق سلام مع إسرائيل ، وكان هذا هو أول إعلان يصدر من مسئول عربى منذ أن بدأ الصراع العربى الإسرائيلى وبكل هذه الدوافع التى تفرضها مسئولية القيــادة أعلنت في السادس عشر من أكتوبر ١٩٧٣ وأمام مجلس الشعب المصرى ، الدعوة إلى مؤتمر دولى يتقرر فيه السلام العادل الدائم .

ولم أكن في ذلك الوقت في وضع من يستجدى السلام ، أو يطلب وقف النار . وبهذه الدوافــع كلها ، التى يلزم بها الواجب التاريخى والقيادى ، وقعنا اتفاق فك الاشتباك الأول ، ثم اتفاق فك الاشتباك الثانى في سيناء . ثم سعينا نطــرق الأبواب المفتوحة والمغلقة لإيجاد طريق معين نحو سلام دائم عادل وفتحنا قلوبنا لشعوب العالم كله لكى تفهم دوافعنا ، وأهدافنا ، ولكى تقتنع فعلا أننا دعاة عدل ، وصناع سلام .

وبهذه الدوافع كلها ، قررت أن أحضر إليكم ، بعقل مفتــوح وقلب مفتوح وإرادة واعية ، لكى نقيم السلام الدائم القائم على العدل .

وشاءت المقادير أن تجىء رحلتى إليكم ، رحلة السلام ، في يوم العيــد الإسلامى الكبير عيد الأضحى المبارك عيد التضحية والفــداء ، حين أسلم إبراهيم عليه السلام ، جد العرب واليهود ، أقول حين أمره الله ، وتوجه إليه بكل جوارحه لا عن ضعف بل عن قوة روحية هائلة وعن إختيار حر للتضحية بفلذة كبده .. بدافع من إيمانه الراسخ الذى لا يتزعزع بمثل عليا تعطى الحياة مغزى عميقاً . ولعل هذه الصدفة تحمل معنى جديداً ، في نفوسنا جميعاً ، لعله يصبح أملا حقيقياً في تباشير الأمن والأمان والسلام .

أيها السيدات والسادة :

دعونا نتصارح ، بالكلمة المستقيمة ، والفكرة الواضحة التى لا تحمل أى التواء . دعونا نتصارح اليوم والعالم كله بغربه وشرقه يتابــع هذه اللحظــات الفريدة . التى يمكن أن تكون نقطــة تحول جذرى في مسار التاريخ في هذه المنطقة من العالم ، إن لم يكن في العالم كله .

دعونا نتصارح ونحن نجيب عن السؤال الكبير : كيف يمكن أن نحقق السلام الدائم العادل .

لقد جئت إليكم أحمل جوابى الواضح الصريح على هذا السؤال الكبير ، لكى يسمعه الشعب في إسرائيل ، ولكى يسمعه العالم أجمع ، ولكى يسمعه أيضاً كل أولئك الذين تصل أصوات دعوات أصواتهم المخلصة إلى أذنى ، أملا في أن تتحقق في النهاية النتائج التى يرجــوها الملايين من هذا الاجتماع التاريخى .

وقبل أن أعلن لكم جوابى ، أرجو أن أؤكد لكم ، أننى أعتمد في هــذا الجواب الواضــح الصريح ، على عدة حقائق لا مهرب لأحد من الاعتراف بها :

– الحقيقة الأولى : أنه لا سعادة لأحــد على حساب شقاء الآخرين .

– الحقيقة الثانية : إننى لم أتحدث ، ولن أتحدث بلغتين ولم أتعامل ولن أتعامل بسياستين ولست أتعامل مع أحد ، إلا بلغة واحدة ، وسياسة واحدة ، ووجه واحــد .

– الحقيقة الثالثة : إن المواجهــة المباشرة وأن الخط المستقيم هما أقرب الطرق وأنجحها للوصول إلى الهــدف الواضح .

– الحقيقة الرابعة : إن دعوة السلام الدائم العادل ، المبنى على إحترام قرارات الأمم المتحدة ، أصبحت اليوم دعوة العالم كله ، وأصبحت تعبيراً واضحاً عن إرادة المجتمع الدولى ، سواء في العواصم الرسمية التى تصنع السياسة وتتخذ القرار ، أو على مستوى الرأى العام العالمى الشعبى ، ذلك الرأى العام الذى يؤثر في صنع السياسة واتخاذ القرار .

– الحقيقة الخامسة : ولعلها أبرز الحقائق وأوضحها أن الأمة العربية لا تتحرك في سعيها من أجل السلام الدائم العادل ، من موقــع ضعف أو إهتزاز ، بل إنها على العكس تماماً تملك من مقومات القوة والاستقرار ما يجعل كلمتها نابعــة من إرادة صادقة نحو السلام ، صادرة عن إدراك حضارى بأنه لكى نتجنب كارثة محققة ، علينا وعليكم وعلى العالم كله ، فإنه لا بديل عن إقرار سلام عادل ، لا تزعزعه الأنــواء ولا تعبث به الشكوك ، ولا يهزه سوء المقاصد أو التواء النوايا .

من واقع هذه الحقائق ، التى أردت أن أضعكم في صورتها ، كما أراها ، أرجــو أيضاً أن أحذركم بكل الصدق ، أحذركم من بعض الخواطر التى يمكن أن تطرأ على أذهانكم .

إن واجب المصــارحة يقتضى أن أقول لكم ما يلى :

أولا : إننى لم أجىء إليكم لكى أعقــد اتفاقاً منفــرداً بين مصر وإسرائيل . ليس هذا وارداً في سياسة مصر ، فليست المشكلة هى مصر وإسرائيل ، وأى سلام منفرد بين مصر وإسرائيل أو بين أية دولة من دول المواجهة وإسرائيل فإنه لن يقيم السلام الدائم العادل في المنطقة كلها ، بل أكثر من ذلك ، فإنه حتى لو تحقق السلام بين دول المواجهة كلها وإسرائيل ، بغير حل عادل للمشكلة الفلسطينية فإن ذلك لن يحقق أبداً السلام الدائم العادل الذى يلح العالم كله اليوم عليه .

ثانياً : إننى لم أجىء إليكم لكى أسعى إلى سلام جزئى ، بمعنى أن ننهى حالة الحرب في هذه المرحلة ، ثم نرجىء المشكلة برمتها إلى مرحلة تالية .

فليس هذا هو الحل الجذرى الذى يصل بنا إلى السلام الدائم .

ويرتبط بهذا انى لم أجىء إليكم ، لكى نتفق على فض إشتباك ثالث في سيناء . أو في سيناء والجولان والضفة الغربية ، فإن هذا يعنى إننا نؤجل فقط إشتعال الفتيل إلى أى وقت مقبل .

بل هو يعنى ، إننا نفتقد شجاعة مواجهــة السلام ، وإننا أضعف من أن نتحمل أعباء ومسئوليات السلام الدائم العادل .

لقد جئت إليكم ، لكى نبنى معــاً ، السلام الدائم العــادل حتى لا تراق نقطة دم واحــدة من جسد عربى أو إسرائيلى .

ومن أجل هذا أعلنت إننى مستعد أن أذهب إلى آخر العالم .

وهنا أعود إلى الإجابة على السؤال الكبير : كيف نحقق السلام الدائم العادل ؟

في رأيى .. وأعلنها من هذا المنبر للعالم كله .. أن الإجابة ليست مستحيلة ولا هى بالعسيرة على الرغم من مرور أعوام طويلة .. من ثأر الدم .. والأحقاد والكراهية . وتنشئة أجيال على القطيعة الكاملة والعــداء المستحكم .

الإجابة ليست عسيرة ولا هى مستحيلة ، إذا طرقنا سبيل الخط المستقيم بكل الصدق والإيمان .

أنتم تريدون العيش معنا في هذه المنطقــة من العالم .

وأنا أقول لكم بكل الإخلاص : إننا نرحب بكم بيننا .. بكل الأمن والأمان .

إن هذا في حد ذاته يشكل نقطة تحول هائلة .. من علامات تحول تاريخى حاسم .

لقد كنا نرفضكم ، وكانت لنا أسبابنا ودعوانا .. نعم .

لقد كنا نرفض الاجتماع بكم .. في أى مكان .. نعم ..

لقد كنا نصفكم بإسرائيل المزعومة .. نعم ..

لقد كانت تجمعنا المؤتمرات أو المنظمــات الدولية .. وكان ممثلونا ولا يزالون لا يتبادلون التحيــة والسلام .. نعم ..

حدث هذا ولا يزال يحدث .

لقد كنا نشترط لأى مباحثات وسيطاً يلتقى بكل طرف على إنفراد .. نعم ..

هكذا تمت مباحثات فض الاشتباك الأول .. وهكذا أيضاً تمت مباحثات فض الاشتباك الثانى .

كما أن ممثلينا التقوا في مؤتمر جنيف الأول ، دون تبادل كلمــة مباشرة . نعم ..

هذا حدث ..

ولكنى أقول لكم اليوم .. وأعلن للعالم كله .. إننا نقبل بالعيش معكم في سلام دائم وعادل .. ولا نريد أن نحيطكم أو تحيطــونا بالصواريخ المستعدة للتدمير أو بقذائف الأحقاد والكراهية .

ولقد أعلنت أكثر من مرة .. إن إسرائيل أصبحت حقيقة واقعــة اعترف بها العالم ، وحملت القوتان العظميان مسئولية أمنها وحماية وجودها .

ولما كنا نريد السلام فعلا وحقاً فإنا نرحب بأن تعيشوا بيننا في أمن وسلام فعلا وحقــاً ..

لقد كان بيننا وبينكم جدار ضخم مرتفــع حاولتم أن تبنوه على مدى ربع قرن من الزمان ، ولكنه تحطم في عام ١٩٧٣ . كان جداراً من الحرب النفسية المستمرة في التهابها وتصاعدها .

كان جداراً من التخويف بالقوة القادرة على إكتساح الأمــة العربيــة من أقصاها إلى أقصاها .

كان جداراً من الترويج بأننا أمة تحولت إلى جثة بلا حراك .. بل أن منكم من قال إنه حتى بعد مضى خمسين عاماً مقبلة ، فلن تقوم للعرب قائمة من جديد كان جداراً يهدد دائماً بالذراع الطويلة القادرة على الوصول إلى أى موقع وإلى أى بعد .

كان جداراً يحذرنا من الإبادة والفناء إذا نحن حاولنا أن نستخدم حقنا المشروع في تحرير أرضنا المحتلة .

وعلينا أن نعترف معاً .. بأن هذا الجدار قد وقــع وتحطم في عام ١٩٧٣ .

ولكن بقى جدار آخــر .

هذا الجدار الآخر ، يشكل حاجزاً نفسياً معقداً بيننا وبينكم .

حاجزاً من الشكوك حاجزاً من النفــور ، حاجزاً من خشية الخداع حاجزاً من الأوهــام حول أى تصرف أو فعل أو قرار ، حاجزاً من التفسير الحذر الخاطىء لكل حدث أو حديث .

وهذا الحاجز النفسى هو الذى عبرت عنه ، في تصريحات رسمية ، بأنه يشكل سبعين في المائة من المشكلة .

وإنى أسألكم اليوم – بزيارتى لكم – لماذا لا نمد أيدينا بصدق وإيمان وإخلاص ، لكى نحطم هذا الحاجز معاً ؟

لماذا لا نعلن إرادتنا ، بصدق وإيمان وإخلاص ، لكى نزيل معاً كل شكوك الخوف والغدر وإضمار المقاصد وإخفاء حقائق النوايا ؟

لماذا لا نتصدى معاً بشجاعة الرجال ، وجسارة الأبطال الذين يهبون حياتهم لهدف أسمى ؟

لماذا لا نتصدى معاً بهذه الشجاعة والجسارة لكى نقيم صرحاً شامخاً للسلام يحمى ولا يهدد .. يشع لأجيالنا القادمة أضواء الرسالة الإنسانية نحو البناء والتطور ورفعة الإنسان ؟ ..

لماذا نورث هذه الأجيال نتائج سفك الدماء .. وإزهاق الأرواح ، وتيتيم الأطفال وترمل الزوجات ، وهدم الأسر ، وأنين الضحايا ؟

لماذا لا نؤمن بحكمة الخالق أوردها فى أمثال سليمان الحكيم :

« الغش فى قلب الذين يفكرون فى الشر ، أما المشيرون بالسلام فلهم فرح » .

« ولقمة يابسة ومعها سلام ، خير من بيت ملىء بالذبائح مع الخصام » .

لماذا لا نردد معاً من مزامير داود النبى :

« إليك يا رب أصرخ .. أسمع صوت تضرعى إذا استغثت بك ، وأرفع يدى إلى محراب قدسك ، لا تجذبنى مع الأشرار . ومع فعلة الإثم ، المخاطبين أصحابهم بالسلام والشر فى قلوبهم ، أعطهم حسب فعلهم ، وحسب شر أعمالهم ، أطلب السلامة وأسعى وراءها » .

أيها السادة :

الحق أقول لكم أن السلام لن يكون اسماً على مسمى ما لم يكن قائماً على العدالة وليس على احتلال أرض الغير .

ولا يسوغ أن تطلبوا لأنفسكم ما تنكرونه على غيركم .

وبكل صراحة . وبالروح التى حدت بى إلى القدوم إليكم اليوم فإنى أقول لكم : إن عليكم أن تتخلوا نهائياً عن أحلام الغزو وأن تتخلوا أيضاً عن الاعتقاد بأن القوة هى خير وسيلة للتعامل مع العرب .

إن عليكم أن تستوعبوا جيداً دروس المواجهة بيننا وبينكم فلن يجديكم التوسع شيئاً .

ولكى نتكلم بوضوح فإن أرضنا لا تقبل المساومة ، وليست عرضة للجدل .

إن التراب الوطنى والقومى يعتبر لدينا فى منزلة الوادى المقدس طوى الذى كلم فيه الله موسى عليه السلام ، ولا يملك أى منا ولا يقبل . أن يتنازل عن شبر واحد منه ، أو أن يقبل مبدأ الجدل والمساومة عليه .

والحق أقول لكم أيضاً : إن أمامنا اليوم الفرصة السانحة للسلام وهى فرصة لا يمكن أن يجود بمثلها الزمان إذا كنا جادين حقاً فى النضال من أجل السلام .

وهى فرصة لو أضعناها أو بددناها فسوف تحل بالمتآمر عليها ، لعنة الإنسانية ولعنة التاريخ .

ما هو السلام بالنسبة لإسرائيل ؟ أن تعيش فى المنطقة مع جيرانها العرب .. فى أمن واطمئنان ..

هذا منطق أقول له نعم ..

أن تعيش إسرائيل فى حدودها ، آمنة من أى عدوان .

هذا منطق أقول له نعم ..

أن تحصل إسرائيل على كل أنواع الضمانات التى تؤمن لها هاتين الحقيقتين هذا مطلب أقول له نعم ..

بل إننا نعلن إننا نقبل كل الضمانات الدولية التى تتصورونها وممن ترضونه أنتم .

نعلن إننا نقبل كل الضمانات التى ترتضونها من القوتين العظميين ، أو من إحداهما ، أو من الخمسة الكبار ، أو من بعضهم .

وأعود فأعلن بكل الوضوح أننا قابلون بأى ضمانات ترتضونها لأننا فى المقابل ، سنأخذ نفس الضمانات .

خلاصة القول إذن عندما نسأل : ما هو السلام بالنسبة لإسرائيل ؟

يكون الرد هو أن تعيش إسرائيل فى حدودها مع جيرانها العرب ، فى أمن وأمان وفى إطار كل ما ترتضيه من ضمانات يحصل عليها الطرف الآخر .

ولكن كيف يتحقق هذا ؟

كيف يمكن أن نصل إلى هذه النتيجة لكى نصل بها إلى السلام الدائم العادل ؟

هناك حقائق لابد من مواجهتها بكل شجاعة ووضوح .

هناك أرض عربية احتلتها — ولا تزال تحتلها — إسرائيل بالقوة المسلحة ونحن نصر على تحقيق الإنسحاب الكامل منها بما فيها القدس العربية .. القدس التى حضرت إليها باعتبارها مدينة السلام ..

والتى كانت وسوف تظل على الدوام التجسيد الحى للتعايش بين المؤمنين بالديانات الثلاث .

وليس من المقبول أن يفكر أحد فى الوضع الخاص لمدينة القدس فى إطار الضم أو التوسع وإنما يجب أن تكون مدينة حرة مفتوحة لجميع المؤمنين .

وأهم من كل هذا فإن تلك المدينة يجب ألا تفصل عن هؤلاء الذين اختاروها مقراً ومقاماً لعدة قرون .. وبدلاً من إيقاظ الحروب الصليبية فإننا يجب أن نحيى روح عمر بن الخطاب وصلاح الدين .. أى روح التسامح واحترام الحقوق .. إن دور العبادة الإسلامية والمسيحية ليست مجرد أماكن لأداء الفرائض والشعائر بل إنها تقوم شاهد صدق على وجودنا الذى لم ينقطع فى هذا المكان سياسياً وروحياً وفكرياً .

وهنا .. فإنه يجب ألا يخطىء أحد تقدير الأهمية والإجلال اللذين نكنهما للقدس نحن معشر المسيحيين والمسلمين ..

ودعونى أقول لكم بلا أدنى تردد أنى لم أجىء إليكم تحت هذه القبة لكى أتقدم برجاء أن تجلو قواتكم من الأرض المحتلة . إن الإنسحاب الكامل من الأرض العربية المحتلة بعد ١٩٦٧ أمر بديهى لا نقبل فيه الجدل ولا رجاء فيه لأحد أو من أحد ..

ولا معنى لأى حديث عن السلام الدائم العادل ولا معنى لأى خطوة لضمان حياتنا معاً فى هذه المنطقة من العالم فى أمن وأمان وأنتم تحتلون أرضاً عربية بالقوة المسلحة فليس هناك سلام يستقيم أو يبنى من احتلال أرض الغير .

نعم ..

هذه بديهية لا تقبل الجدل والنقاش إذا خلصت النوايا وصدق النضال لإقرار السلام الدائم العادل لجيلنا ولكل الأجيال من بعدنا .

أما بالنسبة للقضية الفلسطينية فليس هناك من ينكر أنها جوهر المشكلة كلها وليس هناك من يقبل اليوم فى العالم كله شعارات رفعت هنا فى إسرائيل تتجاهل وجود شعب فلسطين بل وتتساءل أين هو هذا الشعب ؟ !

إن قضية شعب فلسطين وحقوق شعب فلسطين المشروعة لم تعد اليوم موضع تجاهل أو إنكار من أحد . بل لا يحتمل عقل يفكر أن تكون موضع تجاهل أو إنكار . إنها واقع استقبله المجتمع الدولى غرباً وشرقاً . بالتأييد والمساندة والإعتراف فى مواثيق دولية وبيانات رسمية لن يجدى أحد أن يصم آذانه عن دويها المسموع ليل نهار أو أن يغمض عينيه عن حقيقتها التاريخية وحتى الولايات المتحدة الأمريكية حليفكم الأول التى تحمل قمة الالتزام لحماية وجود إسرائيل وأمنها والتى قدمت — وتقدم إلى إسرائيل — كل عون معنوى ومادى وعسكرى .

أقول حتى الولايات المتحدة اختارت أن تواجه الحقيقة والواقع وأن تعترف بأن للشعب الفلسطينى حقوقاً مشروعة وأن المشكلة الفلسطينية هى قلب الصراع وجوهره وطالما بقيت معلقة دون حل فإن النزاع سوف يتزايد ويتصاعد ليبلغ أبعاداً جديدة وبكل الصدق أقول لكم إن السلام لا يمكن أن يتحقق بغير الفلسطينيين وأنه خطأ جسيم لا يعلم مداه أحد أن نغض الطرف عن تلك القضية أو أن ننحيها جانباً .

ولن أستطرد فى سرد أحداث الماضى منذ صدور وعد بلفور لستين عاماً خلت فأنتم على بينة من الحقائق جيداً .. وإذا كنتم قد وجدتم المبرر القانونى والأخلاقى لإقامة وطن قومى على أرض لم تكن كلها ملكاً لكم فأولى بكم أن تتفهموا إصرار شعب فلسطين على إقامة دولته من جديد فى وطنه .

وحين يطالب بعض الغلاة والمتطرفين أن يتخلى الفلسطينيون عن هذا الهدف الأسمى .. فإن معناه فى الواقع وحقيقة الأمر مطالبة له بالتخلى عن هويتهم وعن كل أمل لهم فى المستقبل .

إنى أحيى أصواتاً إسرائيلية .. طالبت بالاعتراف بحقوق الشعب الفلسطينى وصولاً إلى السلام وضماناً له .

ولذلك ، فإنى أقول لكم أيها السيدات والسادة أنه لا طائل من وراء عدم الاعتراف بالشعب الفلسطينى وحقوقه فى إقامة دولته وفى العودة .

لقد مررنا نحن العرب بهذه التجربة من قبل .. معكم .. ومع حقيقة الوجود الإسرائيلى وانتقل بنا الصراع .. من حرب إلى حرب .. ومن ضحايا إلى مزيد من الضحايا حتى وصلنا اليوم — نحن وأنتم — إلى حافة هاوية رهيبة وكارثة مروعة إذا نحن لم نغتنم اليوم معاً فرصة السلام الدائم والعادل .

عليكم أن تواجهوا الواقع مواجهة شجاعة كما واجهته أنا .

ولا حل لمشكلة أبداً بالهروب منها أو التعالى عليها .

ولا يمكن أن يستقر سلام بمحاولة فرض أوضاع وهمية .. أدار لها العالم كله ظهره .. وأعلن نداءه الاجماعى بوجوب احترام الحق والحقيقة .

ولا داعى للدخول فى الحلقة المفرغة مع الحق الفلسطينى .. ولا جدوى من خلق العقبات .. إلا أن تتأخر مسيرة السلام .. أو أن يقتل السلام .

وكما قلت لكم .. فلا سعادة لأحد على حساب شقاء الآخرين .. كما أن المواجهة المباشرة والخط المستقيم هما أقرب الطرق وأنجحها للوصول إلى الهدف الواضح والمواجهة المباشرة للمشكلة الفلسطينية .. واللغة الواحدة لعلاجها نحو سلام دائم عادل هى فى أن تقوم دولتهم .

ومع كل الضمانات الدولية التى تطلبونها فلا يجوز أن يكون هناك خوف من دولة وليدة تحتاج إلى معونة من كل دول العالم لقيامها .. وعندما تدق أجراس السلام فلن توجد يد لتدق طبول الحرب وإذا وجدت فلن يسمع لها صوت .

وتصوروا معى إتفاق سلام فى جنيف نزفه إلى العالم المتعطش إلى السلام .. إتفاق سلام يقوم على :

أولاً : إنهاء الاحتلال الإسرائيلى للأراضى العربية التى احتلت فى عام ١٩٦٧ .

ثانياً : تحقيق الحقوق الأساسية للشعب الفلسطينى وحقه فى تقرير المصير بما فى ذلك حقه فى إقامة دولته .

ثالثاً : حق كل دول المنطقة فى العيش فى سلام داخل حدودها الآمنة والمضمونة عن طريق إجراءات يتفق عليها تحقق الأمن المناسب للحدود الدولية ، بالإضافة إلى الضمانات الدولية المناسبة .

رابعاً : تلتزم كل دول المنطقة بإدارة العلاقات فيما بينها طبقاً لأهداف ومبادىء ميثاق الأمم المتحدة ، وبصفة خاصة عدم الالتجاء إلى القوة .. وحل الخلافات بينهم بالوسائل السلمية ..

خامساً إنهاء حالة الحرب القائمة فى المنطقة .

أيها السيدات والسادة .

إن السلام ليس توقيعاً على سطور مكتوبة ، إنه كتابة جديدة للتاريخ .

إن السلام ليس مباراة فى المناداة به للدفاع عن أية شهوات أو لستر أية أطماع ، فالسلام فى جوهره نضال جبار ضد كل الأطماع والشهوات .

ولعل تجارب التاريخ القديم والحديث تعلمنا جميعاً ، أن الصواريخ والبوارج والأسلحة النووية لا يمكن أن تقيم الأمن ولكنها على العكس تحطم كل ما يبنيه الأمن .

وعلينا :

من أجل شعوبنا .

من أجل حضارة صنعها الانسان ، أن نحمى الإنسان فى كل مكان .. من سلطان قوة السلاح .

علينا أن نعلى سلطان الإنسانية بكل قوة القيم والمبادىء التى تعلى مكانة الإنسان .

وإذا سمحتم لى أن أوجه ندائى من هذا المنبر إلى شعب إسرائيل فإنى أتوجه بالكلمة الصادقة الخالصة إلى كل رجل وامرأة وطفل فى إسرائيل .. أنى أحمل إليكم من شعب مصر الذى يبارك هذه الرسالة المقدسة من أجل السلام .

أحمل إليكم رسالة السلام رسالة شعب مصر الذى لا يعرف التعصب ، والذى يعيش أبناؤه من مسلمين ومسيحيين ويهود بروح المودة والحب والتسامح .

هذه هى مصر التى حملنى شعبها أمانة الرسالة المقدسة .. رسالة الأمن والأمان والسلام .

فيا كل رجل وإمرأة وطفل فى إسرائيل شجعوا قيادتكم على نضال السلام ، ولتتجه الجهود إلى بناء صرح شامخ للسلام ، بدلاً من بناء القلاع والمخابىء المحصنة بصواريخ الدمار .

قدموا للعالم كله ، صورة الإنسان الجديد ، فى هذه المنطقة من العالم ، لكى يكون قدوة لإنسان العصر .. إنسان السلام فى كل موقع ومكان .

بشروا أبناءكم .. أن ما مضى ، هو آخر الحروب ونهاية الآلام وأن ما هو قادم هو البداية الجديدة ، للحياة الجديدة حياة الحب والخير والحرية والسلام ويا أيتها الأم الثكلى .

ويا أيتها الزوجة المترملة .

ويا أيها الابن الذى فقد الأخ والأب .

يا كل ضحايا الحروب .

املأوا الصدور والقلوب ، بآمال السلام .. اجعلوا الانشودة حقيقة تعيش وتثمر .. اجعلوا الأمل دستور عمل ونضال .. وإرادة الشعوب هى من إرادة الله ..

أيها السيدات والسادة .

قبل أن أصل إلى هذا المكان ، توجهت بكل نبضة فى قلبى ، وبكل خلجة فى ضميرى ، إلى الله سبحانه وتعالى ، وأنا أؤدى صلاة العيد فى المسجد الأقصى وأنا أزور كنيسة القيامة توجهت إلى الله سبحانه وتعالى بالدعاء أن يلهمنى القوة وأن يؤكد يقينى إيمانى بأن تحقق هذه الزيارة أهدافها التى أرجوها من أجل حاضر سعيد ، ومستقبل أكثر سعادة .

لقد اخترت أن أخرج على كل السوابق والتقاليد التى عرفتها الدول المتحاربة ، ورغم أن إحتلال الأرض العربية لازال قائماً ، بل كان إعلانى عن إستعدادى الحضور إلى إسرائيل مفاجأة كبرى هزت كثيراً من المشاعر ، وأذهلت كثيراً من العقول ، بل شككت فى نواياها بعض الآراء ، برغم كل ذلك فإنى استلهمت القرار بكل صفاء الإيمان وطهارته وبكل التعبير الصادق عن إرادة شعبى ونواياه واخترت هذا الطريق الصعب ، بل أنه فى نظر الكثيرين أصعب طريق .

اخترت أن أحضر إليكم .. بالقلب المفتوح والفكر المفتوح .

اخترت أن أعطى هذه الدفعة لكل الجهود العالمية المبذولة من أجل السلام .

واخترت أن أقدم لكم — وفى بيتكم — الحقائق المجردة عن الأغراض والأهواء .

لا لكى أناور .

ولا لكى أكسب جولة ، أخطر الجولات والمعارك فى التاريخ المعاصر .

معركة السلام العادل والدائم .

إنها ليست معركتى فقط ، ولا هى معركة القيادات فقط ، فى إسرائيل .

ولكنها معركة كل مواطن على أرضنا جميعاً ، من حقه أن يعيش فى سلام .. إنها التزام الضمير والمسئولية فى قلوب الملايين .

ولقد تساءل الكثيرون ، عندما طرحت هذه المبادرة عن تصورى لما يمكن إنجازه فى هذه الزيارة وتوقعاتى منها .

وكما أجبت السائلين ، فإنى أعلن أمامكم إننى لم أفكر فى القيام بهذه المبادرة من منطلق ما يمكن تحقيقه أثناء الزيارة وإنما جئت هنا لكى أبلغ رسالة ألا هل بلغت اللهم فاشهد .

اللهم أنى أردد مع زكريا قوله « أحبوا الحق والسلام » .

واستلهم آيات الله العزيز الحكيم حين قال : « قل آمنا بالله وما أنزل علينا وما أنزل على إبراهيم وإسماعيل وإسحق ويعقوب والأسباط وما أوتى موسى وعيسى والنبيون من ربهم ، لا نفرق بين أحد منهم ، ونحن له مسلمون » .

« صدق الله العظيم »

والسلام عليكم .

فصول الكتاب

رقم الإيداع ٢٤٤٥ / ٧٨
الترقيم الدولى ٦ـ٧٠ـ٧٠٤٩ـ٩٧٧ ISBN